تفسير الطبري

من كتابه

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

هذبه وحققه وضبط نصه وعلق عليه

الدكتور بشار عواد معروف عصام فارس الحرستاني

المجلد السابع

الأحقاف إلى الناس

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير الطبري

٧

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

سُورَةُ الأَحْقَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

قد تقدّم بيانُنا في معنى قوله: «حمٓ. تَنْزِيلُ الكِتابِ» بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: «ما خَلَقْنا السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُما إلَّا بالحَقّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما أحدثنا السمواتِ والأرضَ فأوجدناهما خلقاً مصنوعاً، وما بينهما من أصنافِ العالم «إلا بالحقّ»، يعني: إلا لإقامةِ الحقِّ والعدلِ في الخلق.

وقوله: «وَأَجَلٍ مُسَمًّى»، يقولُ: وإلَّا بأجلٍ لكلِّ ذلك معلومٍ عنده يُفْنِيه إذا هو بَلَغَهُ، ويُعْدِمُه بعد أنْ كانَ موجوداً بإيجادِه إياه.

وقوله: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذين جحدوا وحدانيةَ الله عن إنذارِ الله إياهم مُعْرِضُونَ، لا يَتَّعِظُونَ به، ولا يتفكرون فيعتبرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى

﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ يا محمدُ لهؤلاءِ المشركينَ بالله من قومكَ، أرأيتم أيها القومُ الآلهةَ والأوثانَ التي تعبدونَ من دون الله، أروني أيَّ شيءٍ خلقوا من الأرضِ، فإنَّ ربي خلقَ الأرضَ كلها، فَدَعَوْتُمُوهَا من أجلِ خَلْقِهَا ما خَلَقَتْ من ذلك آلهةً وأرباباً، فيكون لكم بذلك في عبادتكم إياها حجةٌ، فإنَّ من حجتي على عبادتي إلهي، وإفرادِي له الألوهةَ، أنه خَلَقَ الأرضَ فابتدعَهَا من غيرِ أصلٍ.

وقوله: «أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أم لآلهتِكُم التي تعبدونها أيها الناسُ شِرْكٌ مع اللهِ في السمواتِ السبع، فيكون لكم أيضاً بذلك حجةٌ في عِبَادَتِكُمُوهَا، فإنَّ من حجتي على إفرادي العبادةَ لربي، أنه لا شريكَ له في خَلْقِها، وأنه المنفردُ بخلقها دونَ كلٍّ ما سواه.

وقوله: «ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: بكتابٍ جاء من عند الله من قَبْلِ هذا القرآنِ الذي أُنزلَ عليَّ، بأنَّ ما تعبدونَ من الآلهةِ والأوثانِ خلقوا من الأرضِ شيئاً، أو أنَّ لهم مع الله شركاً في السموات، فيكون ذلك حجة لكم على عبادتكم إياها، لأنها إذا صَحَّ لها ذلك صَحَّتْ لها الشركةُ في النِّعم التي أنتم فيها، ووجَبَ لها عليكم الشكرُ، واستحقتْ منكم الخدمةَ، لأن ذلك لا يقدر أنْ يخلقه إلا الله.

وقوله: «أو أثارةٍ من عِلْمٍ»، معناه: ائتوني أيها القومُ بكتابٍ من قَبْلِ هذا الكتابِ، بتحقيقِ ما سألتكم تحقيقَهُ من الحجةِ على دعواكم ما تَدَّعُونَ لآلهتِكم، أو ببقيةٍ من عِلْمٍ يوصل بها إلى عِلْمِ صِحَّةِ ما تقولونَ من ذلك «إنْ

كُنْتُمْ صادِقِين» في دَعْوَاكُمْ لها ما تَدَّعُونَ، فإنَّ الدعوى إذا لم يكن معها حجةٌ لم تُغْنِ عن المدَّعي شيئاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأيُّ عبدٍ أضلُّ من عبدٍ يدعو من دونِ الله آلهةً «لا يستجيبُ له إلى يوم القيامة»، يقولُ: لا يُجيبُ دعاءه أبداً، لأنها حجرٌ أو خشب أو نحو ذلك.

وقوله: «وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وآلهتُهم التي يَدْعُونَهُمْ عن دعائِهم إياهم في غَفْلةٍ، لأنها لا تسمعُ ولا تنطقُ، ولا تعقلُ. وإنما عنى بوصفها بالغفلة، تمثيلَها بالإنسانِ الساهي عَمَّا يُقالُ له، إذْ كانت لا تفهمُ مما يقالُ لها شيئاً، كما لا يفهمُ الغافلُ عن الشيءِ ما غفلَ عنه، وإنما هذا توبيخٌ من الله لهؤلاءِ المشركينَ لسوءِ رأيهم، وقُبْحِ اختيارِهم في عبادتهم، مَنْ لا يعقلُ شيئاً ولا يفهم، وتركهم عبادةَ مَنْ جميعُ ما بِهِمْ من نعمتِه، ومَنْ به استغاثتهم عندما ينزلُ بهم من الحوائجِ والمصائب، وقيل: «مَنْ لا يستجيب له»، فأخرج ذِكْرَ الآلهةِ وهي جمادٌ مخرجَ ذِكْرِ بني آدمَ، ومَنْ له الاختيارُ والتمييزُ، إذْ كانت قد مَثَّلَتْها عَبَدَتُها بالملوكِ والأمراءِ التي تخدم في خدمتهم إياها، فأجرى الكلامَ في ذلك على نحوِ ما كان جارياً فيه عندهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا جُمِعَ الناسُ يومَ القيامةِ لموقف الحساب، كانت هذه الآلهـةُ التي يدعونها في الدنيا لهم أعداء، لأنهم يتبرَّؤونَ منهم «وكانُوا بعِبادتِهِمْ كافِرينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكانت آلهتُهم التي يعبدونها في الدنيا بعبادتهم جاحدينَ، لأنهم يقولون يوم القيامة: ما أمرناهم بعبادتنا، ولا شَعَرْنَا بعبادتِهم إيانا، تبرأنا إليكَ منهم يا رَبَّنَا.

وقوله: «وَإذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتُنَا بَيِّناتٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا يُقْرأ على هؤلاءِ المشركينَ بالله من قومك آياتنا، يعني حججنا التي احتججناها عليهم، فيما أنزلناهُ من كتابنا على محمدٍ ﷺ «بَيِّناتٍ»، يعني: واضحات نَيِّراتٍ «قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقّ لَمَّا جاءَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال الذين جحدوا وحدانيةَ الله، وكَذَّبُوا رسولَهُ للحقِّ لما جاءهم من عند الله، فأنزله على رسوله ﷺ «هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ» يعنون: هذا القرآن خداعٌ يخدعنا، ويأخذُ بقلوبِ مَنْ سمعه فِعْلَ السحرِ «مبين»، يقول: يُبينُ لمن تأمَّلَهُ ممن سمعه أنه سحرٌ مبين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أم يقولون هؤلاءِ المشركونَ بالله من قريش، افترى محمـدٌ هذا القـرآنَ، فاختلقـه وتَخَـرَّصَهُ كذباً. قُلْ لهم يا محمدُ إنِ افتريتُه وتَخَرَّصْتُه على الله كذباً «فَلا تَمْلِكُونَ لي»، يقولُ: فلا تُغْنُونَ عني من الله إنْ عاقبَني على افترائي إياه، وتَخَرُّصي عليه شيئاً، ولا تقدرون أنْ تدفعوا عني سوءً إنْ أصابني به.

وقوله: «هُوَ أعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيه»، يقولُ: ربي أعلمُ من كلِّ شيءٍ سواه

بما تقولون بينكم في هذا القرآنِ، والهاء من قوله: « تُفِيضُونَ فِيهِ» من ذِكْرِ القرآن.

وقوله: « كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ»، يقولُ: كفى بالله شاهداً عليَّ وعليكم بما تقولون من تكذيبكم لي فيما جِئْتُكم به من عندِ الله الغفورِ الرحيمِ لهم، بأنْ لا يعذبهم عليها بعد توبتهم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لمشركي قومكَ من قريش: «ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُل»، يعني: ما كنتُ أوّل رُسُلِ الله التي أرسلها إلى خَلْقِه، قد كان من قبلي له رسلٌ كثيرةٌ أُرسلتْ إلى أممٍ قبلكم؛ يقال منه: هو بِدْعٌ في هذا الأمر، وبديعٌ فيه، إذا كان فيه أوّل.

وقوله: «وَما أدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: عنى به رسول الله ﷺ، وقيل له: قُلْ للمؤمنينَ بك: ما أدري ما يُفعلُ بي ولا بكم يومَ القيامة، وإلام نصيرُ هنالك، قالوا: ثم بَيَّنَ الله لنبيه محمدٍ ﷺ وللمؤمنينَ به حالهم في الآخرة، فقيل له: «إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبيناً. لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» [الفتح: ١-٢] وقال: «لِيُدْخِلَ المُؤْمِنينَ وَالمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهارُ خالِدِينَ فِيها وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ» [الفتح: ٥].

وقال آخرون: بل عني ذلك أمرٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ نَبِيَّهُ عليه الصلاة والسلام أنْ يقوله للمشركينَ من قومه ويعلم أنه لا يدري إلامَ يصيرُ أمرُه وأمرهم في الدنيا، أيصيرُ أمرُه معهم أنْ يقتلوه أو يُخْرجوه من بينهم، أو يؤمنوا به

فيتبعوه، وأمرهم إلى الهلاك، كما أهلكت الأمم المكذِّبةُ رُسُلَها من قبلهم أو إلى التصديقِ له فيما جاءهم به من عند الله.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما أدري ما يُفْتَرَضُ عليَّ وعليكم، أو ينزل من حُكْمٍ، وليس يعني: ما أدري ما يُفعلُ بي ولا بكم غداً في المعاد من ثوابِ الله مَنْ أطاعَهُ، وعقابِه مَنْ كَذَّبه.

وقال آخرون: إنما أمر أنْ يقول هذا في أمرٍ كان ينتظره من قِبَلِ الله عَزَّ وجَلَّ في غير الثواب والعقاب.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصحة وأشبهها بما دلّ عليه التنزيل القول الثاني.

وإنما قلنا أَوْلاها بالصوابِ لأنَّ الخطاب من مبتدإ هذه السورةِ إلى هذه الآية، والخبر خرج من الله عَزَّ وجَلَّ خطاباً للمشركين وخبراً عنهم، وتوبيخاً لهم، واحتجاجاً من الله تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ عليهم. فإذا كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنَّ هذه الآية أيضاً سبيلها سبيل ما قبلها وما بعدها في أنها احتجاج عليهم، وتوبيخٌ لهم، أو خبرٌ عنهم. وإذا كان ذلك كذلك، فمحالٌ أنْ يقال للنبيِّ ﷺ: قل للمشركينَ: ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم في الآخرة، وآيات كتاب الله عَزَّ وجَلَّ في تنزيله ووحيه إليه متتابعة بأنَّ المشركينَ في النار مُخَلَّدون، والمؤمنونَ به في الجنان مُنَعَّمُونَ، وبذلك يرهبهم مرّة، ويرغبهم أخرى. ولو قال لهم ذلك، لقالوا له: فعلامَ نَتَّبعك إذن وأنتَ لا تدري إلى أيِّ حالٍ تصير غداً في القيامة، إلى خَفْضٍ وَدَعَةٍ، أم إلى شِدَّةٍ وعذاب؛ وإنما اتباعُنَا إياك إنِ اتبعناكَ، وتصديقنا بما تدعونا إليه، رغبة في نِعمة، وكرامة نصيبها، أو رهبة من عقوبة، وعذاب نهرب منه. ثم بَيَّنَ الله لنبيه ﷺ ما هو فاعلٌ به، وبمن كذَّبَ بما جاء به من قومه وغيرهم.

وقوله: «إنْ أَتَّبِعُ إلَّا ما يُوحَى إليَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قل لهم ما أَتَّبِعُ فيما آمركم به، وفيما أفعله من فعلٍ إلا وحي الله الذي يُوحيه إليَّ «وَما أنا إلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ»، يقولُ: وما أنا لكم إلا نذير، أنذركم عقابَ الله على كفركم به «مبين»، يقولُ: قد أبان لكم إنذاره، وأظهر لكم دعاءه إلى ما فيه نصيحتكم، يقولُ: فكذلك أنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ القائلينَ لهذا القرآن لما جاءهم هذا سحرٌ مبين «أرأيْتُمْ» أيها القوم «إنْ كانَ» هذا القرآنُ «مِنْ عِنْدِ اللهِ» أنزله عليَّ «وَكَفَرْتُمْ» أنتم «بِهِ»، يقولُ: وكذبتم أنتم به.

وقوله: «وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إسْرائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: وشهدَ شاهدٌ من بني إسرائيل، وهو موسى بن عمران عليه السلام على مثله، يعني: على مِثْلِ القرآنِ، قالوا: ومِثْلُ القرآنِ الذي شَهِدَ عليه موسى بالتصديقِ التوراةُ.

وقال آخرون: عنى بقوله: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ» عبدالله بن سلام، قالوا: ومعنى الكلام وشهد شاهدٌ من بني إسرائيل على مثل هذا القرآن بالتصديق. قالوا: ومثل القرآن التوراة.

والصواب من القول في ذلك القول الأخير، فهو أشبه بظاهر التنزيل، لأنَّ قوله: «قُلْ أرأيْتُمْ إنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ» في سياق توبيخِ اللهِ تعالى ذِكْرُه مشركي قريش، واحتجاجاً عليهم

لنبيه ﷺ، وهذه الآيةُ نظيرةُ سائرِ الآياتِ قبلَها، ولم يَجْرِ لأهلِ الكتابِ ولا لليهودِ قبلَ ذلك ذِكْرٌ، فتوجَّه هذه الآيةُ إلى أنها فيهم نزلتْ، ولا دَلَّ على انصرافِ الكلامِ عن قصصِ الذين تَقَدَّمَ الخبرُ عنهم معنى، غير أنَّ الأخبارَ قد وردتْ عن جماعةٍ من أصحابِ رسول الله ﷺ بأنَّ ذلك عُنِيَ به عبدالله بن سلام وعليه أكثرُ أهلِ التأويل، وهم كانوا أعلم بمعاني القرآن، والسبب الذي فيه نزل، وما أُريدَ به، فتأويلُ الكلام إذ كان ذلك كذلك: وشهدَ عبدُالله بن سلام، وهو الشاهدُ من بني إسرائيل على مِثْلِه، يعني: على مِثْلِ القرآن، وهو التوراة، وذلك شهادته أن محمداً مكتوبٌ في التوراة أنه نبيٌّ تجده اليهودُ مكتوباً عندهم في التوراة، كما هو مكتوبٌ في القرآن أنه نبيٌّ.

وقولـه: «فَـآمَنَ وَاسْتَكْبَـرْتُمْ»، يقولُ: فآمَنَ عبدُالله بن سلام، وصدَّقَ بمحمدٍ ﷺ، وبما جاء به من عند الله، واستكبرتم أنتم على الإيمانِ بما آمنَ به عبدُالله بن سلام معشر اليهود «إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ»، يقولُ: إنَّ الله لا يوفِّق لإصابةِ الحقِّ، وهدى الطريق المستقيم، القومَ الكافرينَ الذين ظلموا أنفسهم بإيجابهم لها سَخَطَ الله بكفرهم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: وقال الذين جحدوا نُبُوَّةَ محمدٍ ﷺ من يهودِ بني إسرائيل للذين آمنوا به، لو كانَ تصديقكم محمداً على ما جاءكم به خيراً، ما سبقتُمُونا إلى التصديقِ به، وهذا التأويلُ على مذهبِ مَنْ تأوَّلَ قوله: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ» أنه معنيٌّ به عبدالله بن سلام، فأما على تأويلِ مَنْ تأوَّلَ أنه عُنِيَ به مشركو قريش، فإنه ينبغي أنْ يوجَّه تأويلُ قوله:

«وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ» أنه عُنِيَ به مشركو قريش.

وقوله: «وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذْ لم يبصروا بمحمدٍ وبما جاء به من عنـدِ اللهِ من الهدى، فيرشدوا به الطريقَ المستقيم «فَسَيَقُولُونَ هٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ»، يقولُ: فسيقولون هذا القرآن الذي جاء به محمدٌ ﷺ أكاذيبُ من أخبارِ الأوَّلِينَ قديمة، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ مُخْبِراً عنهم، «وَقالُوا أساطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وأصِيلًا» [الفرقان: ٥].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن قبل هذا الكتابِ، كتابُ موسى، وهو التوراةُ، إماماً لبني إسرائيل يأتَمُّونَ به، ورحمة لهم أنزلناه عليهم، وخرج الكلامُ مخرجَ الخبـرِ عن الكتـابِ بغيرِ ذكرِ تمامِ الخبر اكتفاءً بدلالةِ الكلام على تمامه؛ وتمامه: ومن قبله كتابُ موسى إماماً ورحمةً أنزلناهُ عليه، وهذا كتابٌ أنزلناه لساناً عربياً.

وقوله: «لِيُنْذِر الَّذِينَ ظَلَمُوا»، يقولُ: لينذر هذا الكتابُ الذي أنزلناه إلى محمدٍ عليه الصلاة والسلام الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله بعبادتهم غيره

وقـولـه: «وبُشْـرى لِلْمُحْسِنِينَ»، يقـولُ: وهو بشرى للذين أطاعوا الله فأحسنوا في إيمانهم وطاعتهم إياه في الدنيا، فحسن الجزاء من الله لهم في الآخرةِ على طاعتهم إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا

﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنا اللهُ» الذي لا إله غيره «ثُمَّ اسْتَقامُوا» على تصديقهم بذلك فلم يخلطوه بشركٍ، ولم يخالفوا الله في أمرِه ونهيه «فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» من فزعِ يومِ القيامةِ وأهواله «وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ» على ما خَلَّفُوا وراءهم بعد مماتهم.

وقوله: «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين قالوا هذا القولَ، واستقاموا، أهلُ الجنةِ وسكانها «خالِدِينَ فِيها»، يقولُ: ماكثينَ فيها أبداً «جَزَاءً بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ»، يقولُ: ثواباً مِنَّا لهم آتيناهم ذلك على أعمالِهم الصالحة التي كانوا في الدنيا يعملونها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ووصينا ابنَ آدمَ بوالديه الحُسْنَ في صحبته إياهما أيام حياتهما، والبِرِّ بهما في حياتهما وبعد مماتهما.

واختلفت القَرَأة في قراءةِ قوله: «إحساناً» فقرأته عامة قَرَأة المدينة والبصرة «حُسْناً» بضمِّ الحاء على التأويلِ الذي وصفتُ. وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفة «إِحْساناً» بالألف، بمعنى: ووصيناه بالإحسانِ إليهما، وبأيِّ ذلك قرأ القارىء

فمصيبٌ، لتقارب معاني ذلك، واستفاضة القراءة بكل واحدة منهما في القَرَأة.

وقوله: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ووصينا الإنسانَ بوالديه إحساناً بِرّاً بهما، لِمَا كان منهما إليه حَملاً ووليداً وناشئاً، ثم وصف جَلَّ ثَنَاؤُهُ ما لديه من نعمةِ أمه، وما لاقتْ منه في حال حَمْلِه ووضعِه، ونبَّهَهُ على الواجبِ لها عليه من البرِّ، واستحقاقها عليه من الكرامةِ وجميل الصحبة، فقال: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ»، يعني: في بطنها كرهاً، يعني: مَشَقَّةً، «وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً»، يقولُ: وولدته كرهاً يعني: مشقة.

وقوله: «وَحَمْلُهُ وفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرَاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وحَمْلُ أمه إياهُ جنيناً في بطنها، وفصالها إياهُ من الرَّضَاعِ، وفطمها إياه شربَ اللبن، ثلاثون شهراً.

وقوله: «حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ»، اختلف أهلُ التأويل في مبلغِ حَدِّ ذلك من السنين، فقال بعضهم: هو ثلاثٌ وثلاثون سنة.

وقال آخرون: هو بلوغُ الحلم.

وقد بيَّنا فيما مضى أنَّ الأشدَّ جمع شدّ، وأنه تَنَاهي قوّته واستوائِهِ. وإذا كان ذلك كذلك، كان الثلاثُ والثلاثون به أشبه من الحلم، لأنَّ المرءَ لا يبلغُ في حال حُلمه كمالَ قُواه، ونهايةَ شِدَّتِه، فإنَّ العربَ إذا ذكرت مثل هذا من الكلام، فعطفت ببعضٍ على بعض جعلتْ كلا الوقتين قريباً أحدهما من صاحبه، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى مِنْ ثُلُثَي اللَّيْل وَنِصْفَهُ»، ولا تكاد تقول: أنا أعلمُ أنك تقومُ قريباً من ساعةٍ من الليلِ وكله، ولا أخذت قليلاً من مال أو كله، ولكن تقول: أخذت عامة مالي أو كله، فكذلك ذلك في قوله: «حتى إذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً» لاشكَّ أنَّ نَسَقَ الأربعينَ على الثلاث والثلاثين أحسنُ وأشبه، إذ كان يُراد بذلك تقريب أحدهما من الآخر من النسق على الخمس عشرة أو الثمان عشرة.

وقوله: «وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً» ذلك حين تكاملتْ حجةُ الله عليه، وَسَيَّرَ عنه جهالةَ شبابه وعرفَ الواجبَ لله من الحقِّ في برِّ والديه.

وقولـه: «قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال هذا الإنسانُ الذي هداهُ الله لرشده، وعرف حَقَّ الله عليه فيما ألزمه من برِّ والديه «رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ»، يقولُ: أغْرِني بشكرِ نعمتكَ التي أنعمتَ عليَّ في تعريفك إياي توحيدَكَ وهدايتك لي للإقرارِ بذلك، والعمل بطاعتك «وَعَلَى وَالِدَيَّ» من قبلي، وغير ذلك من نعمك علينا، وألهمني ذلك، وأصله من: وَزَعتُ الرجلَ على كذا: إذا دفعتُه عليه.

وقوله: «وأنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضاهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أوزعني أنْ أعمل صالحاً من الأعمالِ التي ترضاها، وذلك العمل بطاعتِه وطاعةِ رسولِه ﷺ.

وقوله: «وأَصْلِحْ لي في ذُرِّيَّتِي»، يقولُ: وأصلح لي أموري في ذرّيتي الذين وهبتهم، بأنْ تجعلهم هُداةً للإيمانِ بكَ، واتباعِ مَرْضَاتِكَ، والعمل بطاعتك.

وقوله: «إنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإنِّي مِنَ المُسْلِمِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيلِ هذا الإنسان: «إنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ»، يقولُ: تبتُ من ذنوبي التي سَلَفَتْ مني في سالفِ أيامي إليك «وَإنِّي مِنَ المُسْلِمِينَ»، يقولُ: وإني من الخاضعينَ لكَ بالطاعة، المستسلمينَ لأمركَ ونهيكَ، المنقادينَ لحكمكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين هذه الصفةُ صفتُهم، هم الذين يُتَقَبَّلُ

عنهم أحسنَ ما عَمِلُوا في الدنيا من صالحاتِ الأعمال، فيجازيهم به، ويُثيبهم عليه «ونَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِم»، يقولُ: وَيَصْفَحُ لهم عن سيئاتِ أعمالهم التي عملوها في الدنيا، فلا يعاقبهم عليها. «في أصحَابِ الجَنَّةِ»، يقولُ: نفعلُ ذلك بهم فِعْلَنا مثلَ ذلك في أصحابِ الجنة وأهلها الذين هم أهلها.

وقـولـه: «وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُون»، يقولُ: وَعَدَهم اللهُ هذا الوعدَ، الحقِّ لاشَكَّ فيه أنه موفٍّ لهم به، الذي كانوا إياهُ في الدنيا يَعِدُهم اللهُ تعالى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾

وهذا نعتٌ من الله تعالى ذِكْرُه نَعْتُ ضالٍّ به كافر، وبوالديه عاقّ، وهما مجتهـدان في نصيحتـه ودعائه إلى الله، فلا يزيده دعاؤُهما إياهُ إلى الحقِّ، ونصيحتهما له إلا عتوّاً وتمرّداً على الله، وتمادياً في جهله، يقول الله جَلَّ ثناؤُه: «والَّذي قالَ لِوَالِدَيْه» أنْ دَعَواهُ إلى الإيمانِ بالله، والإقرارِ ببعثِ اللهِ خَلْقَهُ من قبـورهم، ومجـازاتـه إياهم بأعمـالهم «أُفٍّ لَكُمـا»، يقـولُ: قذراً لكما ونتناً «أتَعِـدَانِنِي أنْ أُخْـرَجَ»، يقولُ: أتعدانني أن أخرج من قبري من بعدِ فنائي وبلائي فيه حياً.

وقوله: «وَقَدْ خَلَتِ القُرُونُ مِنْ قَبْلِي»، يقولُ: أتعدانني أنْ أُبْعَثَ، وقد مضت قرونٌ من الأممِ قبلي، فهلكوا، فلم يبعثْ منهم أحداً، ولو كنتُ مبعوثاً بعـد وفـاتي كمـا تقـولان، لكان قد بُعِثَ مَنْ هَلَكَ قبلي من القرون «وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللهَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ووالداه يستصرخانِ اللهَ عليه، ويستغيثانِه عليه

أنْ يؤمنَ باللهِ، ويقرَّ بالبعثِ ويقولان له: «وَيْلَكَ آمن»، أي: صَدِّقْ بوعدِ الله، وأقِرَّ أنكَ مبعوثٌ من بعد وفاتك، أن وعد الله الذي وَعَدَ خَلْقَهُ أنه باعثهم من قبورهم، ومخرجهم منها إلى موقفِ الحسابِ لمجازاتهم بأعمالهم حقٌّ لاشكَّ فيه، فيقولُ عدوُّ الله مجيباً لوالديه، ورداً عليهما نصيحتَهما، وتكذيباً بوعدِ الله: ما هذا الذي تقولانِ لي وتَدْعُوَاني إليه من التصديقِ بأني مبعوثٌ من بعدِ وفاتي من قبري، إلا ما سَطَّره الأوَّلون من الناسِ من الأباطيلِ، فكتبوه، فأصبتماه أنتما فصدَّقتما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين هذه الصفةُ صِفتُهم، الذين وَجَبَ عليهم عذابُ الله، وحَلَّتْ بهم عقوبتُه وسخطه، فيمن حلَّ به عذابُ الله على مِثْلِ الذي حلّ بهؤلاءِ من الأمم الذين مضوا قبلهم من الجنِّ والإنس، الذين كَذَّبوا رُسُلَ الله، وعَتَوْا عن أمرِ ربهم.

وقوله: «إنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنهم كانوا المغبونينَ ببيعِهم الهدى بالضلالِ والنعيمَ بالعقاب.

وقوله: «وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولكلِّ هؤلاءِ الفريقين: فريق الإيمانِ بالله واليومِ الآخر، والبرِّ بالوالدين، وفريق الكفر بالله واليومِ الآخر، وعقوقِ الوالدينِ اللذين وصفَ وصفهم ربنا عَزَّ وجَلَّ في هذه الآيات منازل ومراتب عند الله يومَ القيامة، مما عملوا، يعني: من عملهم الذي عملوه في الدنيا من صالحٍ وحَسَنٍ وسيىء يُجازيهم الله به.

وقـوله: «وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ»، يقولُ: وجميعهم لا يظلمون: لا يجازي المسيءَ منهم إلا عقوبةً على ذنبه، لا على ما لم يعملْ، ولا يحمل عليه ذنبَ غيره، ولا يبخس المحسنَ منهم ثوابَ إحسانه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا» بالله «عَلى النَّارِ» يقال لهم: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُم فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيا، وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها»: فيها.

وقوله: «فالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهم: فاليومَ أيها الكافرون الذين أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا «تُجْزَوْنَ»، أي: تُثابون «عذابَ الهونِ»، يعني: عذاب الهوان، وذلك عذاب النار الذي يهينهم. «بما كُنْتم تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بغَيْرِ الحَقّ»، يقولُ: بما كنتم تتكبرون في الدنيا على ظهر الأرض على رَبِّكم، فتأبون أنْ تُخْلِصُوا له العبادةَ، وأنْ تُذْعِنوا لأمرِهِ ونهيه بغير الحقِّ، أي: بغير ما أباحَ لكم رَبُّكم، وأذِنَ لكم به. «وبِما كُنْتُمْ تَفْسُقونَ»، يقولُ: بما كنتم فيها تخالفون طاعتَهُ فتعصُونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكر يا محمدُ لقومكَ الرَّادِّين عليكَ ما جِئْتَهُمْ به من الحقِّ هوداً أخا عادٍ، فإنَّ الله بعثكَ إليهم كالذي بعثه إلى عادٍ،

فخوَّفَهُمْ أنْ يحلَّ بهم من نقمةِ الله على كُفْرِهم ما حلَّ بهم إذ كذَّبُوا رسولَنا هوداً إليهم، إذْ أنـذر قومه عاداً بالأحقافِ. والأحقاف: جمع حقف وهو من الرمل ما استطال، ولم يبلغ أن يكون جبلاً.

وقوله: «وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ألَّا تَعْبُدُوا إلَّا اللهَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وقد مضت الرسلُ بإنذارِ أممها «مِنْ بَين يَدَيْه»، يعني: من قبلِ هودٍ ومن خلفه، يعني: ومن بعد هود. «ألَّا تَعْبُدُوا إلَّا اللهَ»، يقولُ: لا تشـركوا مع الله شيئاً في عبادتكم إياهُ، ولكنْ أخلصوا له العبادةَ، وأفردوا له الألوهةَ، إنه لا إله غيره، وكانوا فيما ذُكر أهلَ أوثانٍ يعبدونها من دون الله.

وقوله: «إنِّي أخافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيلِ هودٍ لقومِه: إني أخافُ عليكم أيها القومُ بعبادتكم غيرَ الله عذابَ الله في يومٍ عظيم وذلك يومٌ يَعْظُمُ هَوْلُه، وهو يوم القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت عادٌ لهودٍ، إذْ قال لهم لا تعبدوا إلا الله: إني أخافُ عليكم عذابَ يوم عظيم. أجئتنا يا هودُ لِتَصْرِفَنَا عن عبادةِ آلهتنا إلى عبادةِ ما تَدْعُونَا إليه، وإلى اتباعك على قولك. «فأْتِنا بِمَا تَعِدُنا» من العذابِ على عبادتنا ما نعبدُ من الآلهةِ «إنْ كُنْتَ» من أهلِ الصدقِ في قوله وعِدَاته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ۝٢٣﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: قال هودٌ لقومِه عاد: «إنَّما العِلْمُ» بوقتِ مجيءِ ما

أعِدُكُمْ به من عذابِ الله على كفركم به عند الله، لا أعلمُ من ذلك إلا ما عَلَّمني. «وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ»، يقولُ: وإنما أنا رسولٌ إليكم من الله، مُبَلِّغٌ أبلغكم عنه ما أرسلني به من الرسالة «وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ»، مواضعَ حُظوظِ أنفسكم، فلا تعرفونَ ما عليها من المضرَّةِ بعبادَتِكم غيرَ الله، وفي استعجال عذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما جاءهم عذابُ الله الذي استعجلوه، فرأوه سحاباً عارضاً في ناحية من نواحي السماء «مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ» والعربُ تسمي السحابَ الذي يُرَى في بعض أقطار السماء عشياً، ثم يُصْبِحُ من الغَدِ قد استوى، وَحَبَا[١] بعضَهُ إلى بعضٍ عارضاً، وذلك لعرضه في بعض أرجاء السماء حين نشأ، «قالوا هَذَا عارِضٌ مُمْطِرُنا» ظناً منهم برؤيتهم إياهُ أنَّ غيثاً قد أتاهم يَحْيَوْنَ به، فقالوا: هذا الذي كان هودٌ يَعِدُنَا، وهو الغَيْثُ.

وقوله: «بَلْ هُوَ ما اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ نبيه هود ﷺ لقومه لما قالوا له عند رؤيتهم عارضَ العذاب، قد عَرَضَ لهم في السماء هذا عارضٌ مُمْطِرُنَا نحيا به، ما هو بعارضِ غيثٍ، ولكنه عارضُ عذابٍ لكم، بل هو ما استعجلتم به: أي: هو العذابُ الذي استعجلتم به، فقلتم: «ائْتِنا بِمَا تَعِدُنا إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» [الأعراف: ٧٠] «رِيحٌ فِيها عَذَابٌ أَلِيمٌ». والريحُ مكرَّرةٌ على ما في قوله: «هُوَ ما اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ» كأنه قيل: بل هو ريحٌ فيها عذابٌ أليم.

---

(١) أي: زحف بعضه إلى بعض، بمعنى: تَجَمَّعَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: تُخَرِّبُ كلَّ شيءٍ، وترمي بعضَهُ على بعضٍ فتهلكه.

وإنما عنى بقوله: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بأمْرِ رَبها» مما أُرْسِلَتْ بهلاكِه، لأنها لم تُدَمِّرْ هوداً ومَنْ كان آمنَ به.

وقوله: «فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إلَّا مَساكِنُهُمْ»، يقولُ: فأصبح قومُ هودٍ وقد هَلَكُوا وفنوا، فلا يُرى في بلادهم شيء إلا مساكنهم التي كانوا يسكنونها.

وقوله: «وَكَذَلكَ نَجْزِي القَوْمَ المجرمينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كما جزينا عاداً بكفرهم باللهِ من العقابِ في عاجلِ الدنيا، فأهلكناهم بعذابنا، كذلك نجزي القومَ الكافرينَ باللهِ من خلقنا، إذْ تمادوا في غيِّهم وطَغَوا على رَبِّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لكفارِ قريش: ولقد مَكَّنا أيها القومُ عاداً الذين أهلكناهم بكفرهم فيما لم نُمَكِّنْكُمْ فيه من الدنيا، وأعطيناهم منها الذي لم نُعطِكُمْ منهم من كثرةِ الأموالِ، وبَسْطةِ الأجسام، وشدَّةِ الأبدان.

وقوله: «وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً» يسمعونَ به مواعظَ رَبِّهم، وأبصاراً يُبصرونَ

بها حججَ الله، وأفئدةً يعقلون بها ما يَضُرُّهُمْ وينفعهم «فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ»، يقولُ: فلم ينفعهم ما أعطاهم من السمعِ والبصرِ والفؤادِ إذْ لم يستعملُوها فيما أعطوها له، ولم يعملوها فيما يُنجيهم من عقابِ الله، ولكنهم استعملوها فيما يُقرِّبُهم من سخطه «إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بآياتِ اللهِ»، يقولُ: إذ كانوا يكذِّبُونَ بحججِ الله وهم رُسُله، وينكرون نُبُوَّتهم «وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»، يقولُ: وعَادَ عليهم ما استهزؤوا به، ونزلَ بهم ما سَخِرُوا به، فاستعجلوا به من العذابِ، وهذا وعيدٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ لقريش، يقول لهم: فاحذروا أنْ يحلَّ بكم من العذابِ على كُفْرِكم باللهِ وتكذيبكم رُسُلَهُ، ما حَلَّ بعادٍ، وبادِرُوا بالتوبةِ قبل النقمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لكفارِ قريش مُحَذِّرَهُمْ بأسَهُ وسطوتَهُ، أنْ يحلَّ بهم على كفرهم. «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا» أيها القومُ من القُرَى ما حولَ قَرْيَتِكُم، كحِجْرِ ثمودَ وأرضِ سَدُوم ومأرب ونحوها، فأنذرنا أهلَها بالمَثُلاتِ، وخَرَّبْنا ديارها، فجعلناها خاويةً على عروشها.

وقوله: «وَصَرَّفْنَا الآياتِ»، يقولُ: ووعظناهم بأنواعِ العِظاتِ، وذَكَّرْنَاهُم بضروبٍ من الذِّكْرِ والحججِ، وبيَّنا لهم ذلك.

«لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»، يقولُ: ليرجعوا عما كانوا عليه مقيمينَ من الكفرِ بالله وآياته، وفي الكلام متروكٌ تُرِك ذِكْرُه استغناءً بدلالةِ الكلامِ عليه، وهو: فَأَبَوْا إلا الإقامةَ على كفرهم، والتمادي في غيهم، فأهلكناهم، فلن ينصرهم منا

ناصرٌ؛ يقول جَلَّ ثناؤه: فلولا نصر هؤلاءِ الذين أهلكناهم من الأممِ الخاليةِ قبلهم أوثانهم وآلهتهم التي اتَّخَذُوا عبادَتَها قرباناً يتقرَّبُونَ بها فيما زعموا إلى رَبِّهم منا إذْ جاءهم بأسنا، فتنقذهم من عذابنا إنْ كانتْ تشفعُ لهم عند رَبِّهم كما يزعمون، وهذا احتجاجٌ من الله لنبيه محمدٍ ﷺ على مُشركي قومه، يقول لهم: لو كانتْ آلهتُكم التي تعبدونَ من دونِ اللهِ تغني عنكم شيئاً، أو تنفعكم عند الله كما تزعمونَ أنكم إنما تعبدُونها، لتقرِّبَكُمْ إلى اللهِ زُلفى، لأغنتْ عَمَّنْ كان قَبْلَكُمْ من الأممِ التي أهلكتها بعبادتهم إياها، فدفعتْ عنها العذابَ إذا نزلَ، أو لَشفعَتْ لهم عند رَبِّهم، فقد كانوا من عبادتها على مِثْلِ الذي عليه أنتم، ولكنها ضَرَّتْهُمْ ولم تنفعهم.

يقول تعالى ذِكْرُه: «بل ضَلُّوا عنهم»، يقولُ: بل تركتهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها، فأخذت غيرَ طريقهم، لأنَّ عَبَدَتَها هلكتْ، وكانت هي حجارةً أو نحاساً، فلم يُصِبْهَا ما أصابَهُمْ، ودَعَوْهَا، فلم تُجِبْهُمْ، ولم تُغِثْهُمْ، وذلك ضلالها عنهم، «وذلك إفكهم»، يقول عَزَّ وجَلَّ: هذه الآلهةُ التي ضلَّتْ عن هؤلاءِ الذين كانوا يعبدونَها من دونَ اللهِ عند نزولِ بأسِ الله بهم، وفي حال طمعهم فيها أنْ تُغيثهم، فخذلتهم، هو إفكهم: يقولُ: هو كَذِبُهُمْ الذي كانوا يكذِّبون، ويقولون هؤلاءِ آلهتنا «وما كانوا يفترون»، يقولُ: وهو الذي كانوا يفترون، فيقولون: هي تُقَرِّبُنَا إلى الله زُلفى، وهي شفعاؤنا عند الله. وأخرج الكلام مخرج العقل، والمعنيُّ المفعول به المأفوكُ به، لأنَّ الإفكَ إنما هو فِعلُ الإفكِ، والآلهةُ مأفوكُ بها. وقد مضى البيانُ عن نظائر ذلك قَبْلُ، قال: وكذلك قوله: «وَما كانُوا يَفْتَرُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه مُقرِّعاً كفارَ قريشٍ بكفرهم بما آمنتْ به الجنُّ «وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ»، يا محمدُ «نَفراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ» ذكر أنهم صُرِفُوا إلى رسولِ الله ﷺ بالحادِث الذي حَدَثَ من رَجْمِهم بالشهب.

وقوله: «فَلَمَّا حَضَرُوهُ»، يقولُ: فلما حضرَ هؤلاءِ النفر من الجنِّ الذين صَرَفَهُم الله إلى رسولِه نبيِّ الله ﷺ.

واختلف أهلُ العلم في صِفَةِ حُضُورِهم رسولَ الله ﷺ، فقال بعضهم: حضـروا رسـولَ الله ﷺ، يتعرَّفُونَ الأمرَ الذي حدث من قبله ما حدث في السماء، ورسولُ الله ﷺ لا يشعرُ بمكانهم.

وقال آخرون: بل أمر نبيّ الله ﷺ أنْ يقرأَ عليهم القرآنَ، وأنهم جُمِعُوا له بعد أن تقدَّم اللهُ إليه بإنذارهم، وأمره بقراءةِ القرآنِ عليهم.

وقـولـه: «فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلما حضروا القرآنَ ورسولُ الله ﷺ يقرأ، قال بعضُهم لبعضٍ: أنصتوا لنستمع القرآنَ.

وقوله: «فَلَمَّا قُضِيَ»، يقولُ: فلما فرغَ رسولُ الله ﷺ من القراءةِ وتلاوةِ القرآن.

وقوله: «وَلَّوْا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ»، يقولُ: انصرفوا مُنْذِرِينَ عذابَ الله على الكُفْرِ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ هؤلاءِ الذين صُرِفُوا إلى رسولِ الله ﷺ من الجن لقومهم لما انصرفوا إليهم من عندِ رسولِ الله ﷺ: «يا قَوْمَنا» من

الجنّ «إِنَّا سَمِعْنَا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ» كتاب «مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ»، يقولُ: يُصَدِّقُ ما قَبْلَهُ من كُتُبِ الله التي أنزلها على رُسُلِه.

وقوله: «يَهْدِي إلى الحَقِّ»، يقولُ: يُرْشِدُ إلى الصوابِ، ويدلُّ على ما فيه للهِ رِضا «وَإلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ»، يقولُ: وإلى طريقٍ لا اعوجاجَ فيه، وهو الإسلامُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ هؤلاءِ النفرِ من الجنِّ «يا قَوْمَنا» من الجنِّ «أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ»، قالوا: أجيبوا رسولَ الله محمداً إلى ما يَدْعُوكم إليه من طاعةِ الله «وآمِنُوا بِهِ»، يقولُ: وصدِّقُوه فيما جاءكم به وقومه من أمرِ اللهِ ونَهْيِه، وغيرِ ذلك مما دعاكم إلى التصديقِ به «يَغْفِرْ لَكُمْ»، يقولُ: يتغمد لكم ربُّكم من ذُنُوبِكم فيسترها لكم ولا يفضحكم بها في الآخرةِ بعقوبتِه إياكم عليها «ويُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ»، يقولُ: ويُنقذكم من عذابٍ مُوجعٍ إذا أنتم تبتم من ذنوبِكم، وأَنَبْتُمْ من كُفْرِكم إلى الإيمانِ بالله وبِدَاعِيه.

وقوله: «وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ» يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ هؤلاءِ النفر لقومهم: وَمَنْ لا يُجِبْ أَيُّها القومُ رسولَ الله ﷺ محمداً، وداعيه إلى ما بعثَهُ بالدعاء إليه من توحيدِه، والعملِ بطاعته «فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ»، يقولُ: فليس بمعجزٍ رَبَّهُ بِهَرَبِه، إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعيه، وتركه تَصْدِيقَهُ وإنْ ذهب في الأرضِ هارباً، لأنه حيثُ كانَ فهو في سلطانه وقَبْضَتِه «وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ»، يقولُ: وليس لِمَنْ لم يُجِبْ

داعيَ اللهِ من دونِ رَبِّه نُصراء ينصرونَهُ من اللهِ إذا عاقبه رَبُّه على كفره به وتكذيبهِ دَاعِيه.

وقوله: «أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ»، يقولُ: هؤلاءِ الذين لم يُجِيبُوا داعيَ اللهِ فيصدِّقُوا به، وبما دَعَاهُمْ إليه من توحيدِ اللهِ، والعملِ بطاعته في جَوْرٍ عن قَصْدِ السبيلِ، وأخذٍ على غيرِ استقامةٍ، «مبين»، يقولُ: يبينُ لمن تَأَمَّلَهُ أنه ضلالٌ، وأخذٌ على غيرِ قصدٍ.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أو لم ينظرْ هؤلاءِ المنكرونَ إحياءَ اللهِ خَلْقَهُ من بعد وفاتِهم، وبعثه إياهم من قبورهم بعد بلائهم، القائلونَ لآبائهم وأمهاتهم «أفٍّ لكمـا أتَعِدَانِنِي أنْ أُخْرَجَ وقد خلَتِ القرونُ من قبلي» [الأحقاف: ١٧] فلم يُبْعَثُوا بأبصـارِ قلوبهم، فيروا ويعلمـوا أنَّ الله الـذي خلقَ السمواتِ السبع والأرضَ، فابتدعهنَّ من غير شيءٍ، ولم يَعْيَ بإنشائهنَّ، فيعجز عن اختراعهنَّ وإحداثهنَّ. «بِقَادِرٍ على أنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى» فيُخْرِجَهُمْ من بعد بلائهم في قبورهم أحياء كهيئتهم قبلَ وفاتهم.

وقوله: «بَلَى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بلى، يَقْدِرُ الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ على إحياءِ الموتى: أي الذي خلقَ ذلك على كلِّ شيءٍ شاءَ خَلْقَهُ، وأرادَ فِعْلَهُ، ذُو قُدرةٍ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ أراده، ولا يُعْيِيه شيءٌ أراد فعله، فيعييه إنشاء الخلق بعد الفناء، لأنَّ مَنْ عجزَ عن ذلك فضعيفٌ، فلا ينبغي أن يكون إلهاً مَنْ كان عما أرادَ ضعيفاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويومَ يُعْرَضُ هؤلاءِ المُكَذِّبونَ بالبعثِ، وثوابِ اللهِ عبادَهُ على أعمالِهم الصالحة، وعقابه إياهم على أعمالِهم السيئة، على النارِ، نارِ جهنمَ، يقال لهم حينئذٍ: أليسَ هذا العذابُ الذي تُعَذَّبُونَهُ اليومَ، وقد كنتم تكذِّبُونَ به في الدنيا بالحقِّ، توبيخاً من اللهِ لهم على تكذيبِهم به، كان في الدنيا «قالُوا بَلَى وَرَبِّنا»، يقولُ: فيجيبُ هؤلاءِ الكَفَرَةُ من فَوْرِهم بذلك، بأنْ يقولوا بلى هو الحقُّ واللهِ؛ قال: «فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ»، يقولُ: فقال لهم المقرّر بذلك: فَذُوقُوا عذابَ النارِ الآنَ بما كنتم تجحدونه في الدنيا، وتُنْكِرُونَهُ، وتأبَوْنَ الإقرارَ إذا دُعيتم إلى التصديقِ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، مُثَبِّته على المُضيِّ لما قَلَّدَهُ من عبْءِ الرسالة، وثِقَلِ أحمالِ النبوّةِ ﷺ. وآمره بالائْتِساءِ في العَزْمِ على النفوذِ لذلك بأولي العزمِ من قَبْلِه من رُسُلِه الذين صبروا على عظيمِ ما لَقُوا فيه من أقوامِهم من المكارِه، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد: «فاصْبِرْ» يا محمدُ على ما أصابك في الله من أذى مُكَذِّبيكَ من قومكَ الذين أرسلناك إليهم بالإنذار «كَمَا صَبَرَ أُولُو العَزْمِ» على القيامِ بأمرِ الله، والانتهاء إلى طاعته من رُسُلِه الذين لم ينههم عن النفوذِ لأمره، ما نالهم فيه من شدَّةٍ. وقيل: إنَّ أولي العزم منهم،

كانوا الذين امتُحِنوا في ذاتِ الله في الدنيا بالمِحَنِ، فلم تَزِدْهُمْ المحنُ إلا جدّاً في أمرِ الله، كنوحٍ وإبراهيمَ وموسى ومَنْ أشبههم.

وقوله: «وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ»، يقولُ: ولا تستعجلْ عليهم بالعذاب، يقولُ: لا تعجل بمسألتك رَبَّكَ ذلك لهم فإنَّ ذلك نازلٌ بهم لا محالة «كأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ»، يقولُ: كأنهم يومَ يرون عذابَ الله الذي يَعِدُهم أنه مُنْزِلُه بهم، لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعةً من نهار، لأنه ينسيهم شدَّةَ ما ينزلُ بهم من عذابه، قَدْرَ ما كانوا في الدنيا لبثوا، ومبلغَ ما فيها مَكَثُوا من السنين والشهور، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ في الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، فاسْأَلِ العادِّينَ» «المؤمنون: ١١٢-١١٣].

وقوله: «بَلاغٌ»، فيه وجهان: أحدهما أنْ يكون معناه: لم يلبثوا إلَّا ساعةً من نهارٍ ذلكَ لبث بلاغ، بمعنى: ذلك بلاغٌ لهم في الدنيا إلى أجلهم، ثم حذفت ذلـك لبث، وهي مرادةٌ في الكلام اكتفاءً بدلالة ما ذُكِرَ من الكلامِ عليهـا. والآخر: أن يكون معناه: هذا القرآنُ والتذكير بلاغٌ لهم وكفاية، إنْ فَكَّروا واعتبروا فتذكروا.

وقوله: «فَهَلْ يُهْلَكُ إلَّا القَوْمُ الفاسِقُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فهل يُهْلِكُ اللهُ بعذابِهِ إذا أنزله إلا القومَ الذين خالفوا أمرَهُ، وخرجوا عن طاعته وكفروا به. ومعنى الكلام: وما يهلكُ اللهُ إلا القومَ الفاسقين.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذين جَحَدُوا توحيدَ الله وعبدوا غيرَهُ وصَدُّوا مَنْ أراد عبادته والإقرارَ بوحدانيته، وتصديقَ نبيه محمدٍ ﷺ عن الذي أراد من الإسلامِ والإقرارِ والتصديقِ. «أَضَلَّ أعمالَهُمْ»، يقولُ: جعل اللهُ أعمالَهم ضلالاً على غيرِ هدى وغير رشادٍ، لأنها عملتْ في سبيلِ الشيطانِ وهي على غيرِ استقامةٍ. «وَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذين صدّقوا الله وعملوا بطاعتِه، واتبعوا أمرَهُ ونهيه «وآمَنوا بمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ»، يقولُ: وصدّقوا بالكتابِ الذي أنزل الله على محمدٍ «وَهُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِم كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ»، يقولُ: مَحَا اللهُ عنهم بفعلهم ذلك سَيِّءَ ما عملوا من الأعمالِ، فلم يُؤاخِذهم به، ولم يُعَاقِبهم عليه «وأَصْلَحَ بالَهُمْ»، يقولُ: وأصلح شأنهم وحالهم في الدنيا عند أوليائه، وفي الآخرة بأنْ أورثَهم نعيمَ الأبدِ والخلود الدائم في جنانه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي فعلنا بهذين الفريقين من إضلالنا أعمالَ الكافرين، وتكفيرنا عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، جزاءً مِنَّا لكلِّ فريقٍ منهم على فعله. أما الكافرونَ فأضللنا أعمالَهم، وجعلناها على غيرِ استقامةٍ وهدى، بأنهم اتَّبَعُوا الشيطانَ فأطاعوه، وهو الباطل.

وأما المؤمنونَ فكفَّرْنَا عنهم سيئاتِهم، وأصلحنا لهم حالَهم بأنهم اتبعوا الحقَّ الذي جاءهم من رَبِّهم، وهو محمدٌ ﷺ، وما جاءهم به من عند رَبِّه من النورِ والبرهان «كذلكَ يَضْرِبُ اللهُ للنَّاسِ أَمْثالَهُمْ»، يقول عَزَّ وجَلَّ: كما بينتُ لكم أيهـا الناسُ فِعْلي بفريقِ الكفرِ والإيمان، كذلك نُمَثِّلُ للناسِ الأمثالَ، ونُشَبِّهُ لهم الأشباهَ، فنلحق بكلِّ قومٍ من الأمثالِ أشكالاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لفريقِ الإيمانِ بهِ وبرسولِه: «فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا» باللهِ ورسولِه من أهلِ الحربِ، فاضربوا رِقَابَهُمْ.

وقوله: «حتى إذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثَاقَ»، يقولُ: حتى إذا غَلَبْتُموهم وقَهَرْتُم مَنْ لم تَضرِبُوا رقبته منهم، فصاروا في أيديكم أسرى «فَشُدُّوا الوَثَاقَ»، يقولُ: فَشُدُّوهم في الوثاقِ كيلا يقتلوكُمْ، فيهربوا منكم.

وقوله: «فإمَّا مَنًا بَعْدُ وإمَّا فِداءً»، يقولُ: فإذا أَسَرْتُموهم بعد الإثخانِ، فإمَّـا أن تمنـوا عليهم بعد ذلك بإطلاقِكم إياهم من الأسرِ، وتُحَرِّرُوهُمْ بغير عِوَضٍ ولا فِدْيةٍ، وإما أنْ يُفَادُوكُمْ فداءً بأنْ يُعطوكم من أنفسِهم عِوَضاً حتى

تُطْلِقُوهم، وتخلوا لهم السبيل.

واختلف أهلُ العلم في قوله: «حتى إذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثَاقَ، فإمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإمَّا فِداء»، فقال بعضهم: هو منسوخٌ نَسَخَهُ قولُه: «فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُم» [التوبة: ٥] وقوله: «فإمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ في الحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ» [الأنفال: ٥٧].

وقال آخرون: هي مُحْكَمَةٌ وليست بمنسوخةٍ، وقالوا: لا يجوزُ قتل الأسير، وإنما يجوزُ المَنُّ عليه والفداء.

والصوابُ من القول عندنا في ذلك أنَّ هذه الآية محكمةٌ غير منسوخة، وذلك أنَّ صفة الناسخ والمنسوخ ما قد بَيَّنا في غيرِ موضعٍ في كتابنا إنه ما لم يجز اجتماع حُكْميهما في حالٍ واحدة، أو ما قامت الحجةُ بأنَّ أحدهما ناسخ الآخر، وغير مستنكرٍ أنْ يكون جعل الخيارَ في المَنِّ والفداء والقتل إلى الرسولِ ﷺ، وإلى القائمينَ بعده بأمرِ الأمة، وإنْ لم يكن القتل مذكوراً في هذه الآية، لأنه قد أذِنَ بقتلِهم في آيةٍ أخرى. وذلك قوله: «فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ»... الآية، بل ذلك كذلك، لأنَّ رسولَ الله ﷺ كذلك كان يفعلُ فيمن صار أسيراً في يده من أهلِ الحرب، فيقتل بعضاً، ويفادي ببعض، ويمنُّ على بعضٍ، مثلَ يومِ بدرٍ قتلَ عقبةَ بن أبي مُعَيْطٍ وقد أُتِيَ به أسيراً، وقتل بني قُرَيظة. وقد نزلوا على حُكْمِ سعدٍ، وصاروا في يده سِلْماً، وهو على فِدائِهم، والمنّ عليهم قادرٌ، وفادَى بجماعة أسارى المشركينَ الذين أُسروا ببدرٍ، ومَنَّ على ثمامة بن أثال الحنفيِّ، وهو أسيرٌ في يده، ولم يَزَلْ ذلك ثابتاً من سيره في أهلِ الحرب من لدن أَذِنَ اللهُ له بحربهم، إلى أنْ قَبَضَهُ إليه ﷺ دائماً ذلك فيهم، وإنما ذكر جَلَّ ثَنَاؤُهُ في هذه الآية المنّ والفداء في الأسارى، فخصّ ذكرهما فيها، لأن الأمر بقتلهما، والإذن منه بذلك قد كان تَقَدَّمَ في سائرِ آيِ تنزيلِه مكرّراً، فأعلم نَبِيَّهُ ﷺ بما ذكر في هذه الآية من المنِّ والفداء ماله

فيهم مع القتل.

وقوله: «حتى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَها»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا لقيتم الذين كفروا فاضربوا رقابَهُمْ، وافعلوا بأسراهم ما بَيَّنتُ لكم، حتى تضعَ الحربُ آثامها وأثقالَ أهلها، المشركينَ بالله بأنْ يتوبوا إلى الله من شِرْكِهم، فيؤمنوا به وبرسوله، ويطيعوه في أمرِه ونَهْيِه، فذلك وضع الحرب أوزارها.

وقوله: «ذلكَ وَلَوْ يَشاءُ اللهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي أمرتُكم به أيها المؤمنونَ من قتلِ المشركينَ إذا لقيتموهم في حربٍ، وشَدِّهم وثاقاً بعد قَهْرِهم، وأَسْرِهم، والمنّ والفداء «حتى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَها» هو الحقّ الذي ألزمكم رَبُّكم «ولو يشاء ربكم»، ويريدُ لانتصرَ من هؤلاءِ المشركينَ الذين بَيَّنَ هذا الحكمَ فيهم بعقوبةٍ منه لهم عاجلة، وكفاكم ذلك كله، ولكنه تعالى ذِكْرُه كَرِهَ الانتصارَ منهم، وعقوبتهم عاجلاً إلا بأيديكم أيها المؤمنونَ «لِيَبْلُو بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ»، يقولُ: ليختبرَكُمْ بهم، فيعلم المجاهدينَ منكم والصابرينَ، ويبلوهُمْ بكم، فيعاقب بأيديكم مَنْ شاء منهم، ويَتَّعِظَ مَنْ شاء منهم بمن أهلك بأيديكم مَنْ شاء منهم حتى يُنيبَ إلى الحقِّ.

وقوله: «والذين قُتِلُوا في سبيلِ اللهِ» اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأة الحجاز والكوفة «وَالَّذِينَ قاتَلُوا» بمعنى: حاربوا المشركينَ، وجاهدوهم، بالألف، وكان الحسنُ البصريُّ فيما ذُكِرَ عنه يقرؤه «قُتِّلُوا» بضم القاف وتشديد التاء، بمعنى: أنه قَتَلَهُمْ المشركونَ بعضهم بعد بعض، غير أنه لم يُسَمَّ الفاعلون. وذُكر عن الجَحْدَرِيّ عاصم[1] أنه كان يقرؤه «الَّذِينَ قَتَلُوا» بفتحِ القاف وتخفيف التاء، بمعنى: والذين قَتَلوا: المشركونَ بالله[2]. وكان أبو

(١) هو عاصم بن أبي الصياح الجحدري البصري، أبو المجشر، توفي قبل الثلاثين ومئة (طبقات القراء: ١/٣٢٩).

(٢) يعني: وهم المشركونَ بالله.

عَمرو يقرؤه «قُتِلُوا» بضم القاف وتخفيف التاء بمعنى: والذين قتلهم المشركونَ، ثم أسقط الفاعِلين، فجعلهم لم يسمَّ فاعل ذلك بهم.

وأَوْلى القراءات بالصواب قراءةُ من قرأه «وَالَّذِينَ قاتَلُوا» لاتفاقِ الحُجَّةِ من القرّاء، وإنْ كان لجميعها وجوهٌ مفهومة.

وإذ كان ذلك أولى القراءاتِ عندنا بالصوابِ، فتأويلُ الكلام: والذين قاتلوا منكم أيها المؤمنونَ أعداءَ اللهِ من الكفار في دين الله، وفي نُصْرَةِ ما بعث به رسولَهُ محمداً ﷺ من الهدى، فجاهدوهم في ذلك «فَلَنْ يُضِلَّ أعمالَهُمْ» فلن يجعلَ اللهُ أعمالهم التي عملوها في الدنيا ضلالاً عليهم كما أضلَّ أعمالَ الكافرين.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآيَةَ عُنِي بها أهلُ أُحد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: سَيُوفِّقُ اللهُ تعالى ذِكْرُه للعملِ بما يرضى ويحبُّ، هؤلاءِ الذين قاتلوا في سبيله، «وَيُصْلِحُ بالَهُمْ»: ويصلح أمْرَهُمْ وحالهم في الدنيا والآخرة «وَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ»، يقولُ: ويُدخلهم الله جنته «عَرَّفَها»، يقولُ: عَرَّفَها وبيَّنها لهم، حتى إنَّ الرجلَ ليأتي منزلَهُ منها إذا دخلها كما كان يأتي منزله في الدنيا، لا يشكلُ عليه ذلك.

وقوله: «يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، إنْ تنصروا الله ينصركم بنصرِكم رسولَهُ محمداً ﷺ على أعدائِه من أهلِ الكفرِ به وجهادكم إياهم معه لتكون كلمتُه العُليا

ينصركم عليهم، ويظفركم بهم، فإنه ناصرٌ دِينَهُ وأولياءه.

وقوله: «وَيُثَبِّتْ أقْدَامَكمْ»، يقولُ: ويُقَوِّكُمْ عليهم، ويُجَرِّئكم، حتى لا تولوا عنهم، وإنْ كَثُرَ عَدَدُهم، وقَلَّ عَدَدُكُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا» بالله، فجحدوا توحيدَهُ «فَتَعْساً لَهُمْ»، يقولُ: فَخِزْياً لهم وشقاءً وبلاء.

وقوله: «وأضَلَّ أعمالَهُمْ»، يقولُ: وجعلَ أعمالهم معمولةً على غير هُدىً ولا استقامة، لأنها عملت في طاعةِ الشيطان، لا في طاعةِ الرحمن.

وقوله: «ذلكَ بأنَّهم كَرِهُوا ما أنْزَلَ اللهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي فعلنا بهم من الإتعاسِ وإضلالِ الأعمالِ من أجلِ أنهم كَرِهُوا كتابنا الذي أنزلناه إلى نبينا محمد ﷺ وسخطوه، فكذّبوا به، وقالوا: هو سِحْرٌ مبين.

وقـولـه: «فَـأَحْبَطَ أعمالَهُمْ»، يقولُ: فأبطل أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وذلك عبادتهم الآلهة، لم ينفعهم اللهُ بها في الدنيا ولا في الآخرة، بل أَوْبَقَهُمْ بها، فأصْلاهُمْ سعيراً. وهذا حُكْمُ اللهِ جَلَّ جلالُه في جميع مَنْ كفر به من أجناسِ الأمم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفلم يَسِرْ هؤلاءِ المُكَذِّبُون محمداً ﷺ، المُنْكِرُو ما

أنزلنا عليه من الكتابِ في الأرض سفراً، وإنما هذا توبيخٌ من الله لهم، لأنهم قد كانوا يسافرونَ إلى الشام، فيرون نقمةَ الله التي أحَلَّها بأهلِ حِجْرِ ثمودَ، ويرون في سفرهم إلى اليمن ما أحلَّ اللهُ بسَبَأ، فقال لنبيه عليه الصلاة والسلام وللمؤمنينَ به: أفلم يَسِرْ هؤلاءِ المشركونَ سفراً في البلاد فينظروا كيف كان عاقبةُ تكذيبِ الذين من قبلهم من الأممِ المكذِّبةِ رُسُلَها الرَّادَّةِ نصائحها أَلَمْ نُهلكها فندمِّر عليها منازلَها ونُخرِّبها، فَيَتَّعِظُوا بذلك، ويحذروا أنْ يفعلَ اللهُ بهم في تكذيبِهم إياهُ، فَيُنِيبُوا إلى طاعةِ الله في تصديقِكَ، ثم تَوَعَّدَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وأخبرهم إنْ هُمْ أقاموا على تكذيبهم رسولَهُ، أنه مُحِلٌّ بهم من العذابِ ما أحلَّ بالذين كانوا من قبلهم من الأممِ، فقال: «وللْكافِرينَ أمْثالُهَا»، يقولُ: وللكافرينَ من قريش المُكَذِّبي رسول الله ﷺ من العذاب العاجل، أمثال عاقبةِ تكذيبِ الأممِ الذين كانوا من قَبْلِهم رُسُلَهُمْ على تكذِيبهم رسولَهُ محمداً ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الفعلُ الذي فعلنا بهذين الفريقين: فريقِ الإيمانِ، وفريقِ الكفر، من نُصْرَتنا فريقَ الإيمانِ بالله، وتثبيتَنا أقدامَهُمْ، وتدميرنا على فريقِ الكفر. «بأنَّ الله مَوْلى الَّذينَ آمَنُوا»، يقولُ: من أجل أنَّ الله وليُّ مَنْ آمن به، وأطاعَ رسولَهُ.

وقوله: «وأنَّ الكافِرينَ لا مَوْلى لَهُمْ»، يقولُ: وبأنَّ الكافرينَ بالله لا وليّ لهم، ولا ناصر.

وقوله: «إنَّ الله يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وعمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهَارُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله له الألوهةُ التي لا تنبغي لغيره، يُدخل الذين آمنوا بالله وبرسوله بساتينَ تجري من تحت أشجارها الأنهارُ، يفعل ذلك بهم تكرمةً على إيمانهم به وبرسوله.

وقوله: «والَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ ويَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنْعامُ»، يقول جَلَّ ثناؤه: والذين جحدوا توحيدَ الله، وكذَّبوا رسولَهُ ﷺ يتمتعون في هذه الدنيا بحطامها ورياشها وزينتها الفانيةِ الدارسة، ويأكلونَ فيها غير مُفَكِّرِينَ في المعاد، ولا معتبرينَ بما وضع الله لخلقه من الحججِ المؤدِّيةِ لهم إلى علمِ توحيدِ الله ومعرفةِ صِدْقِ رُسُلِه، فَمَثَلُهم في أكْلِهم ما يأكلونَ فيها من غيرِ علمٍ منهم بذلك، وغير معرفةٍ، مثل الأنعامِ من البهائمِ المُسَخَّرةِ التي لا هِمَّةَ لها إلا في الاعتلافِ دونَ غيرِه «والنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: والنارُ نارُ جهنمَ مسكنٌ لهم، ومأوى، إليها يصيرونَ من بعد مماتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكم يا محمدُ من قريةٍ هي أشدُّ قوّةً من قريتِك، يقولُ: أهلُها أشدُّ بأساً، وأكثر جمعاً، وأعدُّ عديداً من أهلِ قريتِكَ، وهي مكة، وأخرج الخبرَ عن القريةِ، والمرادُ به أهلُها.

وقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «أخْرَجَتْكَ»، فأخرجَ الخبرَ عن القرية، فلذلك أُنِّثَ، ثم قال: أهلكناهم، لأنَّ المعنى في قوله: أخرجَتْكَ، ما وصفتُ من أنه أُرِيدَ به أهلُ القرية، فأخرجَ الخبرَ مرّةً على اللفظ، ومرّةً على المعنى.

وقوله: «فَلا ناصِرَ لَهُمْ» فيه وجهان من التأويل: أحدهما أن يكون معناه،

وإن كان قد نصب الناصر بالتبرئة، فلم يكن لهم ناصرٌ، وذلك أنَّ العربَ قد تُضْمِرُ كانَ أحياناً في مثل هذا، والآخر أن يكون معناه: فلا ناصرَ لهم الآنَ من عذابِ الله ينصرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «أَفَمَنْ كَانَ» على برهانٍ وحجةٍ وبيانٍ «مِنْ» أمرِ «رَبِّهِ» والعلم بوحدانيته، فهو يعبدُه على بصيرةٍ منه، بأنَّ له ربًّا يُجازيه على طاعته إياهُ الجنةَ، وعلى إساءته ومعصيته إياهُ النارَ، «كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ»، يقولُ: كمن حَسَّنَ له الشيطانُ قبيحَ عمله وسيئه، فأراه جميلاً، فهو على العملِ به مقيمٌ، «واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ»، يقولُ: واتبعوا ما دَعَتْهُمْ إليه أنفُسُهم من معصيةِ الله، وعبادة الأوثانِ من غير أنْ يكونَ عندهم بما يعملونَ من ذلك برهانٌ وحجةٌ.
وقيل: إنَّ الذي عنى بقوله: «أفمَنْ كانَ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ» نبينا عليه الصلاةُ والسلام، وإنَّ الذي عُنِيَ بقوله: «كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ» هم المشركونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: صفةُ الجنة التي وُعِدَهَا المتقونَ، وهم الذين اتقوا في الدنيا عقابَهُ بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه «فِيهَا أنهارٌ مِنْ ماءٍ غَيرِ آسِنٍ»،

يقول تعالى ذِكْرُه: في هذه الجنة التي: ذكرها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ متغيرِ الريحِ، يقال منه: قد أَسِنَ ماءُ هذه البئر: إذا تغيرتْ ريحُ مائِها فأنتنتْ.

وقوله: «وأنهارٌ مِنْ لَبنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وفيها أنهارٌ من لبنٍ لم يتغير طَعْمُه لأنه لم يُحْلَبْ من حيوانٍ فيتغير طعمُه بالخروجِ من الضروعِ، ولكنه خلقه الله ابتداءً في الأنهار، فهو بهيئتِه لم يتغيرْ عما خلقه عليه.

وقوله: «وأنهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّارِبِينَ»، يقولُ: وفيها أنهارٌ من خمرٍ لَذَّةً للشاربينَ يلتذُّونَ بشربها.

وقوله: «وأنهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى»، يقولُ: وفيها أنهارٌ من عسلٍ قد صُفِّيَ من القَذى، وما يكون في عِسل أهلِ الدنيا قبلَ التصفيةِ، وإنما أعلم تعالى ذِكْرُه عبادَهُ بوصفِه ذلك العسلَ بأنه مُصَفًّى أنه خُلِقَ في الأنهارِ ابتداءً سائلاً جارياً سيلَ الماءِ واللبنِ المخلوقَيْنِ فيها، فهو من أجلِ ذلك مصفًّى، قد صَفَّاهُ الله من الأقذاءِ التي تكون في عسلِ أهلِ الدنيا الذي لا يَصْفُو من الأقذاءِ إلا بعدَ التصفيةِ، لأنه كان في شمعٍ فصُفِّيَ منه.

وقوله: «وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولهؤلاءِ المتقين في هذه الجنة من هذه الأنهارِ التي ذكرنا من جميعِ الثمراتِ التي تكونُ على الأشجار «وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ»، يقولُ: وعَفْوٌ من الله لهم عن ذنوبِهم التي أذنبوها في الدنيا، ثم تابوا منها، وصَفْحٌ منه لهم عن العقوبةِ عليها.

وقوله: «كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ في النَّارِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أَمَّنْ هو في هذه الجنةِ التي صِفَتُهَا ما وصَفْنَا، كَمَنْ هو خالدٌ في النار.

وقوله: «وَسُقُوا ماءً حَمِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وسُقِيَ هؤلاءِ الذين هُمْ خلودٌ في النار ماءً قد انتهى حَرُّهُ فَقَطَّعَ ذلك الماء من شِدَّةِ حَرِّه أمعاءهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن هؤلاءِ الكفارِ يا محمدُ «من يَسْتَمِع إِلَيْكَ» وهو المنافِقُ، فيستمعُ ما تقولُ فلا يعيه ولا يفهمه، تهاوناً منه بما تتلو عليه من كتاب رَبِّكَ، وتغافلاً عما تقوله، وتدعو إليه من الإيمان، «حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ» قالـوا إعـلاماً منهم لمن حَضَرَ معهم مجلسكَ من أهلِ العلمِ بكتابِ الله، وتلاوتكَ عليهم ما تلوتَ، وقِيلِكَ لهم ما قلتَ إنهم لن يُصْغُوا أسماعَهُمْ لقولكَ وتلاوتِكَ «ماذَا قالَ» لنا محمدٌ «آنِفاً»؟.

وقوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين هذه صِفَتُهم هُمُ القومُ الذين ختمَ اللهُ على قلوبهم، فهم لا يهتدونَ للحقِّ الـذي بعثَ اللهُ به رسـولَهُ عليه الصلاة والسلام، «واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ»، يقولُ: ورفضوا أمرَ الله، واتبعوا ما دَعَتْهُمْ إليه أنفُسُهم، فهم لا يرجعونَ مما هُمْ عليه إلى حقيقـةٍ ولا برهـانٍ، وسَـوَّى جَلَّ ثَنـاؤُهُ بين صفـةِ هؤلاءِ المنافقينَ وبين المشركينَ، في أنَّ جميعَهُمْ إنما يتبعونَ فيما هم عليه من فراقهم دِينَ الله، الذي ابتعثَ به محمداً ﷺ أهواءَهُمْ، فقال في هؤلاءِ المنافقينَ: «أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ»، وقال في أهل الكفرِ به من أهلِ الشرك «كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ، واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» [محمد: ١٤].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأما الذين وفَّقهم الله لاتباع الحقِّ، وشرح صدورَهُمْ للإيمانِ به وبرسوله من الذين استمعوا إليكَ يا محمدُ، فإنَّ ما تلوتَهُ عليهم، وسمعوه منك «زَادَهُمْ هُدىً»، يقولُ: زادهم الله بذلك إيماناً إلى إيمانهم، وبياناً لحقيقة ما جِئْتَهُمْ به من عندِ الله إلى البيانِ الذي كان عندهم. وقد ذُكر أن الذي تلا عليهم رسولُ الله ﷺ من القرآنِ، فقال أهلُ النفاق منهم لأهلِ الإيمانِ، ماذا قال آنفاً، وزادَ الله أهلَ الهدى منهم هُدىً، كان بعضُ ما أنزلَ الله من القرآنِ ينسخُ بعضَ ما قد كان الحُكْمُ مَضَى به قَبْلُ.

وقوله: «وآتاهُمْ تَقْواهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأعطى الله هؤلاءِ المهتدينَ تَقْواهُمْ، وذلك استعمالُه إياهم: تقواهم إياه.

وقـوله: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا السَّاعَةَ أنْ تَأْتِيهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أشْرَاطُها»، يقول تعالى ذِكْرُه: فهل ينظرُ هؤلاءِ المكذِّبُونَ بآياتِ الله من أهلِ الكفر والنفاق إلا الساعةَ التي وعدَ الله خَلْقَهُ بَعْثَهُمْ فيها من قبورِهم أحياء، أنْ تَجِيْئَهُمْ فجأةً لا يشعرونَ بمجيئها. والمعنى: هل ينظرونَ إلا الساعةَ، هل ينظرون إلا أنْ تأتيهم بغتةً.

وقوله: «فَقَدْ جاءَ أشْراطُها»، يقولُ: فقد جاء هؤلاءِ الكافرينَ باللهِ الساعةُ وأدِلَّتُهَا ومقدِّمَاتُها، وواحدُ الأشراطِ: شَرَط.

وقوله: «فأنى لَهُمْ إذَا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فمن أيِّ وجهٍ لهؤلاءِ المكذِّبينَ بآياتِ الله ذكرى ما قد ضَيَّعوا وفَرَّطوا فيه من طاعةِ الله إذا جاءتهم السـاعـةُ، يقولُ: ليس ذلك بوقت ينفعهم التَّذَكُّرُ والندمُ، لأنه وقتُ مجازاةٍ لا وقت استعتابٍ ولا استعمال.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فاعلم يا محمدُ أنه لا معبود تنبغي أو تصلحُ له الألوهـةُ، ويجـوزُ لك وللخلقِ عبادتُه، إلا الله الذي هو خالقُ الخَلْقِ، ومالكُ كلِّ شيء، يَدِينُ له بالربوبيةِ كلُّ ما دُونَهُ. «وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ» وسَلْ رَبَّكَ غفرانَ سالفِ ذنوبِكَ وحادِثها، وذنوب أهلِ الإيمانِ بكَ من الرجالِ والنساء. «وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ»، يقولُ: فإنَّ الله يعلم مُتَصَرَّفَكُمْ فيما تتصرَّفُونَ فيه في يَقَظَتِكم من الأعمالِ، ومَثْواكُم إذا ثَوَيْتُمْ في مضاجعكم للنوم ليلاً، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من ذلك، وهو مُجَازِيكم على جميعِ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويقولُ الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسوله، هَلَّا نزلتْ سورةٌ من الله تأمُرنَا بجهادِ أعداءِ الله من الكفارِ «فإذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ»، يعني: أنها محكمةٌ بالبيانِ والفرائض.

وقوله: «وَذُكِرَ فِيها القِتالُ»، يقولُ: وذُكر فيها الأمرُ بقتالِ المشركينَ.

وقوله: «رأيتَ الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»، يقولُ: رأيتَ الذين في قلوبهم شَكٌّ في دينِ الله وضَعْفٌ. «يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ» يا محمدُ، «نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ»، خوفاً أنْ تَغْزِيهم وتأمرهم بالجهادِ مع المسلمينَ، فهم خوفاً من ذلك وتجنُّباً عن لقاءِ العدوِّ ينظرونَ إليكَ نَظَرَ المغشيِّ عليه الذي قد صُرِعَ. وإنما عنى بقوله: «مِنَ المَوْتِ» من خوفِ الموتِ، وكان هذا فِعْلَ أهلِ النفاق.

وقوله: «فَأَوْلَى لَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأَوْلى لهؤلاءِ الذين في قلوبهم مَرَضٌ، وهو وعيدٌ توعَّد اللهُ به هؤلاءِ المنافقينَ.

وقوله: «طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ»، وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن قِيلِ هؤلاءِ المنافقينَ من قَبْلِ أَنْ تنزلَ سورةٌ محكمةٌ، ويُذْكَر فيها القتال، وأنهم إذا قيل لهم: إنَّ اللهَ مُفْتَرِضٌ عليكم الجهادَ، قالوا: سَمْعٌ وطاعة، فقال الله عَزَّ وجَلَّ لهم «إِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ» وفُرِضَ القتالُ فيها عليهم، فَشَقَّ ذلك عليهم، وكرهوه «طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ» قبل وجوبِ الفرضِ عليكم، فإذا عَزَمَ الأَمرُ كَرِهْتُموه وشَقَّ عليكم.

وقوله: «فإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ»، يقولُ: فإذا وَجَبَ القتالُ وجاء أمرُ الله بفرضِ ذلك كرهتموه.

وقوله: «فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لكانَ خَيْراً لَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلو صَدَقُوا اللهَ ما وعدوه قبل نزولِ السورةِ بالقتالِ بقولهم: إذ قيل لهم: إنَّ اللهَ سيأمركم بالقتالِ طاعةً، فَوَفَّوْا له بذلك، لكان خيراً لهم في عاجلِ دنياهم، وآجلِ مَعادِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاءِ الذين وصف أنهم إذا نزلتْ سورةٌ محكمة، وذُكِرَ فيها القتالُ نظروا إلى رسولِ الله ﷺ نَظَرَ المغشيِّ عليه «فَهَلْ عَسَيْتُمْ» أيها القومُ، يقولُ: فَلَعَلَّكُمْ إنْ تَوَلَّيتم عن تنزيلِ الله جَلَّ ثَنَاؤُه، وفارقتم أحكامَ كتابِه، وأدبرتم عن محمدٍ ﷺ وعَمَّا جاءكم به «أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ»، يقولُ:

أنْ تَعْصُوا اللهَ في الأرضِ، فتكفروا به، وتسفكوا فيها الدماء «وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ» وتعودوا لما كنتم عليه في جاهليتكم من التَّشَتُّتِ والتفرُّقِ بعدما قد جَمَعَكم اللهُ بالإسلامِ، وألَّفَ به بين قلوبكم.

وقوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين يفعلونَ هذا، يعني: الذين يُفسِدُونَ ويقطعونَ الأرحامَ الذين لعنهم اللهُ، فأبعدهم من رحمتِهِ «فأصمَّهُم»، يقولُ: فسلبهم فَهْمَ ما يسمعون بآذانِهم من مواعظِ اللهِ في تنزيلِهِ «وأعْمَى أَبْصَارَهُمْ»، يقولُ: وسَلَبَهُمْ عقولَهم، فلا يَتَبَيَّنُونَ حُججَ اللهِ، ولا يتذكَّرُونَ ما يرون من عِبَرِهِ وأدلته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفلا يتدبر هؤلاءِ المنافقونَ مواعظَ اللهِ التي يَعِظُهم بها في آيِ القرآنِ الذي أنزله على نبيه عليه الصلاةُ والسلام، ويتفكَّرُونَ في حُجَجِهِ التي بيَّنها لهم في تنزيله فيعلموا بها خطأَ ما هُمْ عليه مقيمونَ. «أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها»، يقولُ: أم أقفلَ اللهُ على قلوبهم فلا يعقلونَ ما أنزلَ اللهُ في كتابه من المواعظِ والعِبَرِ.

وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى»، يقول اللهُ عَزَّ وجَلَّ: إنَّ الذين رجعوا القَهْقَرى على أعقابِهم كفاراً باللهِ من بعد ما تبينَ لهم الحقُّ وقَصْدُ السبيلِ، فعرفوا واضحَ الحجةِ، ثم آثروا الضلالَ على الهدى عناداً لأمرِ الله تعالى ذِكْرُه من بعدِ العِلْمِ.

وقوله: «الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: الشيطانُ زَيَّنَ لهم ارتدادَهُمْ على أدبارِهم، من بعدِ ما تَبيَّنَ لهم الهدى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أملى اللهُ لهؤلاءِ المنافقينَ وتركَهُمْ، والشيطانُ سَوَّلَ لهم، فلم يُوَفِّقْهُم للهدى من أجلِ أنهم «قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهِ» من الأمرِ بقتالِ أهلِ الشركِ به من المنافقينَ: «سَنُطِيعُكُمْ في بَعْضِ الأمْرِ» الذي هو خلافٌ لأمرِ الله تباركَ وتعالى، وأمرِ رسولِه ﷺ.

وقوله: «وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ يعلمُ إسرارَ هذين الحزبين المتظاهرين من أهلِ النفاق، على خلافِ أمرِ الله وأمرِ رسوله، إذ يتسارُّونَ فيما بينهم بالكفرِ باللهِ ومعصيةِ الرسول، ولا يَخْفَى عليه ذلك ولا غيره من الأمورِ كلها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ يعلمُ إسرارَ هؤلاءِ المنافقينَ، فكيف لا يعلمُ حالَهم إذا تَوَفَّتْهُم الملائكةُ، وهم «يضربونَ وجوهَهُمْ وأدبارهم»، يقولُ: فحالُهم أيضاً لا يَخْفَى عليه في ذلك الوقت ويعني بالأدبارِ: الأعجاز.

وقوله: «ذَلِكَ بأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تفعلُ الملائكةُ هذا الذي وصفتُ بهؤلاءِ المنافقينَ من أجلِ أنهم اتبعوا ما أسخط

الله، فأغضَبَهُ عليهم من طاعةِ الشيطانِ «وكَرِهُوا رِضْوانَهُ»، يقولُ: وكَرِهُوا ما يُرضيه عنهم من قتالِ الكفارِ به، بعدما افْتَرَضَهُ عليهم.

وقوله: «فأَحْبَطَ أعمالَهُمْ»، يقولُ: فأبطلَ الله ثوابَ أعمالهم وأذْهَبَهُ، لأنها عملتْ في غيرِ رضاه ولا محبته، فبطلتْ، ولم تنفع عاملها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَحَسِبَ هؤلاءِ المنافقونَ الذين في قلوبهم شَكٌّ في دينهم، وضَعْفٌ في يقينهم، فهم حَيارَى في معرفة الحقِّ أنْ لن يُخرج الله ما في قلوبهم من الأضغانِ على المؤمنينَ، فَيُبْدِيهِ لهم ويظهره، حتى يعرفوا نفاقَهم، وحيرتَهم في دِينهم «وَلَوْ نَشاءُ لأَرَيْناكَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولو نشاء يا محمدُ لعرَّفْنَاكَ هؤلاءِ المنافقينَ حتى تعرفَهم من قولِ القائلِ: سأُرِيكَ ما أصنعُ، بمعنى سأعلمك.

وقوله: «فلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ»، يقولُ: فَلَتَعْرِفَنَّهُمْ بعلاماتِ النفاقِ الظاهرةِ منهم في فحوى كلامهم، وظاهرِ أفعالهم، ثم إنَّ الله تعالى ذِكْرُه عَرَّفَهُ إياهم.

وقوله: «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القَوْلِ»، يقولُ: ولتعرفنَّ هؤلاءِ المنافقينَ في معنى قولهم نحوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟

ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لأهلِ الإيمانِ به من أصحابِ رسولِ الله ﷺ «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ» أيها المؤمنونَ بالقتلِ، وجهادِ أعداءِ الله «حتى نَعْلَمَ المُجاهِدِينَ مِنْكُمْ»، يقولُ: حتى يُعْلَمَ حزبي وأوليائي أهلُ الجهاد في الله منكم، وأهلَ الصبر على قتالِ أعدائه، فيظهر ذلك لهم، ويُعْرَفَ ذَوو البصائرِ منكم في دينهِ من ذوي الشكِّ والحَيرةِ فيه، وأهل الإيمانِ من أهل النفاقِ «ونبلو أخباركم»، فنعرفَ الصادقَ منكم من الكاذب.

وقوله: «إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إن الذين جحدوا توحيدَ الله، وصَدُّوا الناسَ عن دِينهِ الذي ابتعثَ به رُسُلَه «وَشاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى»، يقولُ: وخالفوا رسولَهُ محمداً ﷺ، فحاربوه وآذَوْهُ من بعدِ ما علموا أنه نبيٌّ مبعوث، ورسولٌ مُرْسَلٌ، وعرفوا الطريقَ الواضحَ بمعرفته، وأنه لله رسولٌ.

وقوله: «لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً» لأنَّ اللهَ بالغ أمره، وناصر رسوله، ومُظْهِره على مَنْ عَادَاهُ وخـالفه «وَسَيُحْبِطُ أعمالَهُمْ»، يقولُ: وسَيُذْهِبُ أعمالَهم التي عملوها في الدنيا فلا ينفعهم بها في الدنيا ولا الآخرة، ويُبْطِلُها إلا مما يَضُرُّهُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنْوا» باللهِ ورسولِه «أطِيعُوا اللهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ» في أمْرِهما ونَهْيِهما «وَلا تُبْطِلُوا أعمالَكُم»، يقولُ: ولا تُبْطِلُوا بمعصيتكم إياهما، وكُفْرِكُمْ بربِّكم ثوابَ أعمالكم فإنَّ الكفرَ باللهِ يحبطُ السالفَ من العملِ الصالح.

وقوله: «إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين أنكروا توحيدَ الله، وصَدُّوا مَنْ أرادَ الإيمانَ باللهِ وبرسولِه عن ذلك، فَفَتَنُوهم عنه، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من ذلك، «ثم ماتوا وهم كفارٌ»، يقولُ: ثم ماتوا وهم على ذلك من كفرهم «فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ»، يقولُ: فلن يعفوَ اللهُ عما صنع من ذلك، ولكنه يعاقبُه عليه، ويفضحُه به على رؤوسِ الأشهاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلا تَضْعُفُوا أيها المؤمنونَ بالله عن جهادِ المشركينَ وتَجْبُنُوا عن قتالهم.

وقوله: «وَتَدْعُوا إلى السَّلْمِ وأنْتُم الأعْلَوْنَ»، يقولُ: لا تَضْعُفُوا عنهم وتدعوهم إلى الصلحِ والمسالمةِ، وأنتم القاهرونَ لهم والعالُونَ عليهم» «واللهُ مَعَكُمْ»، يقولُ: واللهُ معكم بالنصرِ لكم عليهم.

وقوله: «وَلَنْ يَتِرَكُمْ أعمالَكُمْ»، يقولُ: ولن يظلمكم أجورَ أعمالِكم فينقصكم ثوابَها، من قولهم: وَتَرْتَ الرجلَ إذا قتلتَ له قتيلاً، فأخذتَ له مالاً غَصْباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: حَاضًّا عبادَهُ المؤمنينَ على جهادِ أعدائه، والنفقة في سبيله، وبذل مُهْجَتِهم في قتالِ أهلِ الكفر به: قاتلوا أيها المؤمنونَ أعداءَ الله وأعداءَكم من أهلِ الكفر، ولا تَدعكم الرغبةُ في الحياة إلى تركِ قتالهم، فإنما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ ولهوٌ، إلا ما كانَ منها للهِ من عملٍ في سبيله، وطَلَبِ رِضَاهُ، فأما ماعدا ذلك فإنما هو لَعِبٌ ولهو، يضمحلُّ فيذهبُ ويندرسُ فيمرّ، أو إثمٌ يبقى على صاحبِهِ عارُهُ وخزيه «وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ»، يقولُ: وإنْ تعملوا في هذه الدنيا التي ما كان فيها مما هُوَ لها، فَلَعِبٌ ولهوٌ، فَتُؤْمِنُوا به وتَتَّقُوه بأداءِ فرائِضِه، واجتناب معاصيه، وهو الذي يبقى لكم منها، ولا يبطل بطول اللهو واللعب، ثم يُؤْتِكُمْ رَبُّكُم عليه أجورَكُمْ، فَيُعَوِّضَكُمْ منه ما هو خيرٌ لكم منه يومَ فقركم، وحاجتكم إلى أعمالكم «وَلا يَسألْكُمْ أَمْوَالَكُمْ»، يقولُ: ولا يسألكم رَبُّكم أموالَكم، ولكنه يكلفكم توحيدَهُ، وخلعَ ما سِواهُ من الأندادِ، وإفرادَ الأُلوهةِ والطاعةِ له «إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا»: يقول جَلَّ ثناؤه: إنْ يسألكم رَبُّكم أموالكم «فَيُحْفِكُمْ»، يقولُ: فَيُجْهِدَكُمْ بالمسألةِ، ويُلِحَّ عليكم بطلبها منكم فيلحف، «تبخلوا» يقول: تبخلوا بها وتمنعوها إياه، ضَنًّا منكم بها، ولكنه عَلِمَ ذلك منكم، ومِنْ ضِيقِ أنفسكم فلم يسألْكُموها.

وقوله: «وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ» يقولُ: ويخرج جَلَّ ثَنَاؤُهُ لو سألَكُمْ أموالكم بمسألته ذلك منكم أضغانَكُمْ قال: قد علم الله أنَّ في مسألته المالَ خروجَ الأضغان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ «ها أَنْتُم» أيها الناسُ «هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا في سَبِيلِ اللهِ»، يقولُ: تُدْعَوْنَ إلى النفقةِ في جهادِ أعداءِ الله ونُصْرَةِ دِينِه «فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ» بالنفقةِ فيه.

وقوله: «وَمَنْ يَبْخَلْ فإنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وَمَنْ يبخلْ بالنفقةِ في سبيل الله، فإنما يبخلُ عن بُخْلِ نفسه، لأنَّ نفسَهُ لو كانت جواداً لم تبخلْ بالنفقةِ في سبيلِ الله، ولكن كانت تجودُ بها «وَاللهُ الغَنِيّ وأَنْتُمُ الفُقَرَاءُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولا حاجةَ لله أيها الناسُ إلى أموالكم ولا نفقاتِكم، لأنه الغنيُّ عن خَلْقِهِ، والخَلْقُ الفقراءُ إليه، وأنتم مِنْ خَلْقِه، فأنتم الفقراءُ إليه، وإنما حَضَّكم على النفقة في سبيله، لِيُكْسِبَكُمْ بذلك الجزيلَ من ثوابِهِ.

وقوله تعالى ذِكْرُه: «وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ تتولَّوْا أيها الناسُ عن هذا الدين الذي جاءكم به محمدٌ ﷺ، فترتدُّوا راجعينَ عنه. «يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ»، يقولُ: يُهْلِكْكُمْ ثم يجيءُ بقومٍ آخرينَ غيركم بدلاً منكم يُصَدِّقُونَ به، ويعملون بشرائعه «ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ»، يقولُ: ثم لا يبخلوا بما أُمِرُوا به من النفقةِ في سبيلِ الله، ولا يضيعونَ شيئاً من حدودِ دينهم، ولكنهم يقومون بذلك كله على ما يُؤْمَرُونَ به.

سُورَةُ الفَتْح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً»، يقولُ: إنَّا حكمنا لك يا محمدُ حُكماً لمن سمعه أو بلغه على مَنْ خالفكَ وناصبكَ من كفارِ قومك، وقَضَيْنا لكَ عليهم بالنصرِ والظفرِ، لتشكُرَ رَبَّكَ، وتحمده على نعمتِه بقضائِه لكَ عليهم، وفتحِه ما فتحَ لك، ولتسبحه وتستغفره، فيغفر لكَ بفعالِكَ ذلكَ رَبُّكَ، ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ قبلَ فتحِهِ لكَ ما فتحَ، وما تأخَّر بعد فتحِه لك ذلك ما شَكَرْتَهُ واستغفرته.

وإنما اخترنا هذا القولَ في تأويلِ هذه الآيةِ لدلالةِ قولِ الله عَزَّ وجَلَّ: «إِذَا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْح، ورأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ في دِينِ اللهِ أَفْواجاً، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً» على صحته، إذ أَمَرَهُ تعالى ذِكْرُه أَنْ يُسَبِّحَ بحمدِ رَبِّهِ إذا جاءه نصر الله وفتح مكة، وأن يستغفروه، وأعلمه أنه تَوَّابٌ على مَنْ فعل ذلك، ففي ذلك بيانٌ واضحٌ أَنَّ قوله تعالى ذِكْرُه «لِيَغْفِرَ لَكَ الله ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» إنما هو خَبَرٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ نبيه عليه الصلاة والسلام عن جزائِه له على شُكْرِه له، على النعمة التي أنعمَ بها عليه من إظهاره له ما فتح، لأن جزاء الله تعالى عباده على أعمالهم دون غيرها.

وَبَعْدُ ففي صحةِ الخبرِ عنه ﷺ «أنه كان يقومُ حتى تَرِمَ[1] قدماهُ، فقيل له: يا رسولَ الله تفعلُ هذا وقد غفرَ لكَ ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال أفَلا أكُونُ عَبْداً شَكُوراً[2]؟»، الدلالةُ الواضحةُ على أنَّ الذي قلنا من ذلك هو الصحيح من القول، وأنَّ الله تبارك وتعالى، إنما وَعَدَ نبيه محمداً ﷺ غفرانَ ذنوبِهِ المتقدمة، فتح ما فتح عليه، وبعده على شُكْره له، على نِعَمِه التي أنعمها عليه. وكذلك كان يقول ﷺ: «إنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وأتُوبُ إلَيْهِ في كُلِّ يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ»[3] ولو كان القولُ في ذلك أنه من خبرِ الله تعالى نبيه أنه قد غفرَ له ما تقدَّمَ من ذنبه وما تأخرَ على غير الوجهِ الذي ذكرنا، لم يكنْ لأمرِه إياهُ بالاستغفارِ بعد هذه الآية، ولا لاستغفارِ نبيِّ الله ﷺ رَبَّهُ جلَّ جلالَهُ من ذنوبِهِ بعدها معنىً يعقل، إذِ الاستغفارُ معناه: طَلَبُ العبدِ من رَبِّه عَزَّ وجَلَّ غفرانَ ذنوبِه، فإذا لم يكنْ ذنوبٌ تغفر لم يكن لمسألتِه إياهُ غفرانَها معنىً، لأنه من المحالِ أنْ يقالَ: اللهمّ اغفر لي ذنباً لم أعمله، وقد تأوَّلَ ذلك بعضهم بمعنى: ليغفرَ لك ما تقدّم من ذنبك قبلَ الرسالةِ، وما تأخَّرَ إلى الوقتِ الذي قال: «إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ». وأما الفتحُ الذي وَعَدَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ نبيه ﷺ هذه العِدَةِ على شُكْرِه إياهُ عليه، فإنه فيما ذُكِرَ الهدنةُ التي جرت بين رسولِ الله ﷺ وبين مشركي قريش بالحديبية.

وذُكر أنَّ هذه السورةَ أُنزلتْ على رسولِ الله ﷺ مُنْصَرَفه عن الحديبية بعد الهدنةِ التي جرَت بينه وبين قومه.

وقـوله تعالى: «وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ»، بإظهاره إياكَ على عدوِّكَ، ورفعه

---

(١) تَرِمَ: بلفظ المضارع، من الورم، هكذا سُمِعَ، وهو نادرٌ.

(٢) متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة: البخاري (١١٣٠) و(٤٨٣٦) و(٦٤٧١)، ومسلم (٢٨١٩).

(٣) حديث صحيح، انظر فتح الباري: ١٠١/١١، وفيه كلام جيد في الموضوع.

ذِكْرِكَ في الدنيا، وغفرانه ذنوبكَ في الآخرة. «وَيَهْدِيكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً»، يقولُ: ويرشدك طريقاً من الدين لا اعوجاجَ فيه، يستقيم بك إلى رِضا ربك «ويَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً»، يقولُ: وينصركَ على سائرِ أعدائك، ومَنْ ناوأكَ نصراً، لا يغلبهُ غالبٌ، ولا يدفعهُ دافعٌ للبأسِ الذي يُؤَيِّدُكَ اللهُ به، وبالظفرِ الذي يُمِدُّكَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

يعني جلَّ ذِكْرُه بقوله: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ في قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ» اللهُ أنزلَ السكونَ والطمأنينةَ في قلوبِ المؤمنينَ بالله ورسوله إلى الإيمان. والحقِّ الذي بعثك الله به يا محمدُ.

«لِيَزْدَادُوا إيمانا مَعَ إيمانِهِمْ»، يقولُ: ليزدادوا بتصديقِهم بما جَدَّدَ اللهُ من الفرائضِ التي أَلْزَمَهُمُوهَا، التي لم تكنْ لهم لازمةً «إيماناً مع إيمانهم»، يقولُ: ليزدادوا إلى إيمانهم بالفرائضِ التي كانت لهم لازمة قبل ذلك.

وقوله: «وللهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولله جنودُ السمواتِ والأرض أنصارٌ ينتقمُ بهم مِمَّنْ يشاءُ من أعدائِه. «وكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولم يَزَلِ اللهُ ذا علمٍ بما هو كائنٌ قبل كونه، وما خَلْقُه عامِلُوهُ، حكيماً في تدبيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا

عَظِيمًا ﴿٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً، لتشكرَ رَبَّكَ، وتحمده على ذلك، فيغفرَ لك ما تقدَّمَ من ذنبك وما تأخر، وليحمد رَبَّهُمُ المؤمنونَ بالله، ويشكروهُ على إنعامِه عليهم بما أنعمَ به عليهم من الفتحِ الذي فتحه، وقَضَاهُ بينهم وبين أعدائهم من المشركين، بإظهارِه إياهم عليهم، فيدخلهم بذلك جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، ماكثينَ فيها إلى غيرِ نهاية، وليكفِّرَ عنهم سيِّئَ أعمالِهم بالحسناتِ التي يعملونها شكراً منهم لربهم على ما قضى لهم، وأنعم عليهم به. «وكانَ ذلكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكان ما وَعَدَهم الله به من هذه العِدَة، وذلك إدخالهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، وتكفيره سيئاتِهم بحسناتِ أعمالهم التي يعملونها عند الله لهم «فَوْزاً عَظِيماً»، يقولُ: ظَفَراً منهم بما كانوا تأمَّلوهُ ويسعون له، ونجاةً مما كانوا يحذرونه من عذابِ الله عظيماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لكَ الله، وليدخل المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، وليعذِّب المنافقينَ والمنافقاتِ، بفتحِ اللهِ لكَ يا محمدُ، ما فتحَ لك من نصركَ على مشركي قريش، فيكبتوا لذلك ويحزنوا، ويخيب رجاؤهم الذي كانوا يرجونَ من رؤيتهم في أهلِ الإيمان بكَ من الضعفِ والوهنِ والتولي عنكَ في عاجلِ الدنيا،

وصِلِيِّ النارِ والخلود فيها في آجلِ الآخرة. «وَالمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ»، يقولُ: وليعذِّبَ كذلك أيضاً المشركينَ والمشركات «الظَّانِّينَ باللهِ» أنه لن ينصركَ، وأهلَ الإيمانِ بكَ على أعدائِكَ، ولَنْ يُظْهِرَ كلمته فيجعلها العليا على كلمةِ الكافرين به، وذلك كان السوء من ظنونهم التي ذكرها الله في هذا الموضع، يقول تعالى ذِكْرُه: على المنافقينَ والمنافقاتِ، والمشركينَ والمشركاتِ الذين ظنوا هذا الظنَّ «دائرةُ السوء»، يعني: دائرةُ العذابِ تدورُ عليهم به.

وقوله: «وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ»، يقولُ: ونالهم اللهُ بغضبٍ منه، «ولعنهم»، يقـولُ: وأبْعَدَهُمْ فأقصاهم من رحمته «وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ»، يقول: وأعدَّ لهم جهنَّمَ يصلونها يومَ القيامة «وَسَاءَتْ مَصِيراً»، يقولُ: وساءت جهنم منزلاً يصيرُ إليه هؤلاءِ المنافقونَ والمنافقات. والمشركونَ والمشركات.

وقـولـه: «وَللهِ جُنُـودُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: ولله جنودُ السمواتِ والأرض أنصاراً على أعدائِه، إنْ أمرهم بإهلاكِهم أهلكُوهم، وسارعوا إلى ذلك بالطاعة منهم له. «وكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولم يَزَلِ اللهُ ذا عزَّةٍ، لا يغلبه غالبٌ، ولا يمتنعُ عليه مما أراده به ممتنعٌ، لِعظَمِ سلطانِه وقدرته، حكيم في تدبيره خَلْقَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ» يا محمدُ «شاهِداً» على أمتكَ بما أجابوكَ فيما دَعَوْتَهُمْ إليه مما أرسلتُكَ به إليهم من الرسالة، ومبشراً لهم بالجنةِ إنْ أجابوكَ إلى ما دعوتهم إليه من الدين القيم، ونذيراً لهم عذاب الله إنْ هُمْ تَوَلَّوْا عما جِئْتَهُمْ به من عند ربك.

وقـولـه: «وَتُعَزِّرُوهُ وَتُـوَقِّرُوهُ»، معنى التعزير في هذا الموضع: التقويةُ بالنُّصرةِ والمعونةِ. فأما التوقير: فهو التعظيمُ والإجلالُ والتفخيم.

وقوله: «وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وأَصِيلاً»، يقولُ: وتُصَلُّوا له، يعني لله، بالغدواتِ والعشياتِ، والهاء في قوله: «وَتُسَبِّحُوهُ» من ذِكْرِ اللهِ وحده دونَ الرسول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ» بالحديبيةِ من أصحابكَ على أن لا يفرُّوا عند لقاءِ العدوِّ، ولا يولُّوهم الأدبارَ «إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ»، يقولُ: إنما يبايعون ببيعتهم إياكَ اللهَ، لأنَّ اللهَ ضمن لهم الجنةَ بوفائِهم له بذلك.

وفي قوله: «يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» وجهان من التأويل: أحدهما: يَدُ اللهِ فوق أيديهم عند البيعة، لأنهم كانوا يبايعونَ اللهَ ببيعتهم نَبِيَّهُ ﷺ، والآخر: قوّةُ اللهِ فوقَ قُوَّتهم في نُصْـرةِ رسوله ﷺ، لأنهم إنما بايعوا رسولَ اللهِ ﷺ على نُصْرَتِه على العدوِّ.

وقوله: «فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ على نَفْسِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فمن نَكَثَ ببيعتِه إياكَ يا محمدُ، ونقضها فلم ينصرك على أعدائك، وخالف ما وعد ربَّهُ «فـإِنَّمَـا ينكث على نفسـه»، يقـول: فإنما ينقض بيعتَهُ، لأنه بِفِعْلِهِ ذلك يخرجُ ممن وَعَدَهُ اللهُ الجنةَ بوفائِه بالبيعة، فلم يَضُرَّ بنكثِه غيرَ نفسِه، ولم ينكثْ إلا عليها، فأما رسولُ الله ﷺ، فإن الله تبارك وتعالى ناصرُه على أعدائِه، نكثَ الناكثُ منهم، أو وَفَى ببيعته.

وقوله: «وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عاهَدَ عليهُ اللهَ»... الآية، يقول تعالى ذِكْرُه:

ومَنْ أوفى بما عاهد الله عليه من الصبرِ عند لقاءِ العدوِّ فِي سبيل الله ونُصرةِ نبيه ﷺ على أعدائه «فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً»، يقولُ: فسيعطيه الله ثواباً عظيماً، وذلك أن يُدخله الجنةَ جزاءً له على وفائه بما عاهد عليه الله، ووثق لرسوله على الصبر معه عند البأسِ بالمؤكدة من الأيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: سيقولُ لك يا محمدُ الذين خلفهم في أهليهم عن صُحْبَتِكَ، والخروج معك في سفرك الذي سافرتَ، ومسيركَ الذي سِرْتَ إلى مكة معتمراً، زائراً بيتَ الله الحرام إذا انصرفتَ إليهم، فعاتبتهم على التخلفِ عنك، شَغَلَتْنا عن الخروجِ معكَ معالجةُ أموالنا، وإصلاح معايشنا وأهلونا، فاستغفرْ لنا ربنا لتخلُّفنا عنكَ، قال الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ مُكَذِّبَهُمْ في قِيلِهم ذلك: يقول هؤلاءِ الأعرابُ المخلَّفونَ عنكَ بألسنتهم ما ليسَ في قلوبهم، وذلك مسألتهم رسولَ الله ﷺ الاستغفارَ لهم، يقولُ: يسألونه بغير توبةٍ منهم ولا نَدَمٍ على ما سَلَفَ منهم من معصيةِ الله في تخلفهم عن صحبةِ رسولِ الله ﷺ والمسير معه «قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: قل لهؤلاءِ الأعرابِ الذين يسألونكَ أنْ تستغفرَ لهم لِتَخَلُّفِهم عنكَ: إنْ أنا استغفرتُ لكم أيها القومُ، ثم أرادَ اللهُ هلاكَكُمْ أو هلاكَ أموالِكم وأهليكم، أو أرادَ بكم نفعاً بتثميره أموالكم، وإصلاحه لكم أهلِيكُمْ، فَمَنْ ذا الذي يقدرُ على دفعِ ما أراد الله بكم من خيرٍ أو شرٍّ، والله لا يعازّه أحد، ولا يغالبه غالبٌ.

وقوله: «بَلْ كانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُون خبيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما الأمرُ كما يظنُّ هؤلاءِ المنافقونَ من الأعرابِ أنَّ اللهَ لا يعلمُ ما هم عليها منطوون من النفاقِ، بل لم يزل اللهُ بما يعملون من خيرٍ وشرٍّ خبيراً، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أعمالِ خَلْقِه، سرِّها وعلانيتها، وهو مُحْصِيها عليهم حتى يجازيهم بها، وكان رسولُ الله ﷺ فيما ذُكِرَ عنه حين أراد المسيرَ إلى مكةَ عامَ الحُديبية معتمراً استنفر العربَ ومَنْ حولَ مدينتِهِ من أهلِ البوادي والأعرابِ ليخرجُوا معه حَذَراً من قومِه قريش أنْ يعرضوا له الحربَ، أو يَصُدُّوهُ عن البيتِ، وأحْرَمَ هو ﷺ بالعمرةِ، وساقَ معه الهَدْيَ، ليعلمَ الناسُ أنه لا يريدُ حرباً، فتثاقلَ عنه كثيرٌ من الأعرابِ، وتخلَّفُوا خِلافَهُ فهم الذين عَنَى الله تبارك وتعالى بقوله: «سَيَقُول لَكَ المُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَاب شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنا وأَهْلُونا». . . الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لهؤلاءِ الأعرابِ المعتذرينَ إلى رسولِ الله ﷺ عند مُنْصَـرَفِـه من سَفَره إليهم بقولهم: «شَغَلَتْنا أمْوالُنا وأهْلُونا» ما تخلفتم خِلافَ رسـولِ الله ﷺ حين شَخَصَ عنكم، وقَعَدْتُم عن صحبتِهِ من أجلِ شُغْلِكم بأموالِكم وأهليكم، بل تَخَلَّفْتُمْ بعده في منازلكم، ظناً منكم أنَّ رسولَ الله ﷺ ومَنْ معه من أصحابه سيهلكون، فلا يرجعونَ إليكم أبداً باستئصالِ العدوِّ إياهم وزُيِّنَ ذلك في قلوبكم، وحَسَّنَ الشيطانَ ذلك في قلوبكم، وصَحَّحَهُ عندكم حتى حَسُنَ عندكم التخلفُ عنه، فقعدتم عن صُحْبَتِه «وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ»، يقولُ: وظننتم أنَّ الله لن ينصرَ محمداً ﷺ وأصحابه المؤمنينَ على أعدائهم، وأنَّ العدوَّ سيقهرونَهم ويغلبونهم فيقتلونهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاءِ المنافقينَ من الأعرابِ: ومَنْ لم يؤمن أيها الأعرابُ بالله ورسوله منكم ومن غيركم، فيصدِّقَهُ على ما أخبرَ به، ويقرَّ بما جاءَ به من الحقِّ من عندِ ربه، فإنَّا أعْدَدْنَا لهم جميعاً سعيراً من النارِ تستعرُ عليهم في جهنم إذا وَرَدُوهَا يومَ القيامة. يقال من ذلك: سعرت النار: إذا أوقدتها، فأنا أسعرها سعراً؛ ويقال: سعرتها أيضاً إذا حرَّكتها. وإنما قيل للمِسْعر مِسْعر، لأنه يُحَرَّكُ به النارُ، ومنه قولهم: إنه لمِسْعر حربٍ: يُرادُ به مُوقِدُهَا ومُهَيِّجُها.

وقوله: «وَللهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولله سلطانُ السمواتِ والأرض، فلا أحد يقدرُ أيها المنافقونَ على دفعه عما أراد بكم من تعذيبٍ على نِفاقِكم إنْ أصررتُمْ عليه، أو منعه من عفوه عنكم إنْ عفا، إنْ أنتم تبتم من نفاقِكم وكفركم، وهذا من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ حَثٌّ لهؤلاءِ الأعرابِ المتخلفينَ عن رسولِ الله ﷺ على التوبةِ والمراجعةِ إلى أمرِ الله في طاعةِ رسولِه ﷺ، يقولُ لهم: بَادِرُوا بالتوبةِ من تَخلُّفِكُمْ عن رسولِ الله ﷺ، فإنَّ الله يغفرُ للتائبين. «وكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً»، يقولُ: ولم يزل اللهُ ذا عفوٍ من عقوبةِ التائبينَ إليه من ذنوبِهم ومعاصِيهم من عبادِه، وذا رحمةٍ بهم أنْ يعاقبهم على ذنوبهم بعدَ توبتهم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ اللَّهِۚ قُل لَّن

تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: سيقولُ يا محمدُ المُخَلَّفُونَ في أهليهم عن صُحْبَتِكَ إذا سرتَ معتمراً تريدُ بيتَ الله الحرام، إذا انطلقتَ أنتَ ومَنْ صَحِبَكَ في سفركَ ذلك إلى ما أفاءَ الله عليك وعليهم من الغنيمة «لِتَأْخُذُوها» وذلك ما كان اللهُ وَعَدَ أهلَ الحديبية من غنائمِ خيبر «ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ» إلى خيبرَ، فنشهد معكم قتالَ أهلها «يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كلامَ اللهِ»، يقولُ: يريدون أنْ يُغَيِّرُوا وعدَ الله الذي وَعَدَ أهلَ الحديبية، وذلك أنَّ الله جعل غنائم خيبرَ لهم، ووعدهم ذلك عِوَضاً من غنائمِ أهلِ مكةَ إذا انصرفوا عنهم على صُلْحٍ، ولم يصيبوا منهم شيئاً.

وقوله: «قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا، كَذَلِكُمْ قالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاءِ المخلفين عن المسيرِ معكَ يا محمدُ: لن تتبعونا إلى خيبرَ إذا أردنا السيرَ إليهم لقتالِهم. «كَذَلِكُمْ قالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ»، يقولُ: هكذا قالَ اللهُ لنا من قبل مَرْجِعنا إليكم، إن غنيمةَ خيبرَ لمن شَهِدَ الحديبيةَ معنا، ولستم ممن شَهِدَهَا، فليس لكم أن تَتَّبعونا إلى خيبرَ، لأنَّ غنيمتها لغيركم.

وقوله: «فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا» أنْ نصيبَ معكم مغنماً إنْ نحنُ شهدنا معكم، فلذلك تَمْنَعُونَنَا من الخروجِ معكم.

وقوله: «بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إلاَّ قَلِيلاً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ وأصحابه: ما الأمرُ كما يقولُ هؤلاءِ المنافقونَ من الأعرابِ من أنكم إنما تمنعونَهُمْ من اتباعكم حَسَداً منكم لهم على أنْ يُصيبوا معكم من العدوِّ مغنماً، بل كانوا لا يفقهونَ عن اللهِ مالَهُمْ وعليهم من أمرِ الدينِ إلا قليلاً يسيراً، ولو عقلوا ذلك ما قالوا لرسولِ الله والمؤمنينَ به، وقد أخبروهم عن الله تعالى ذِكْرُه

أنه حرمهم غنائمَ خيبر، إنما تمنعوننا من صُحْبَتِكم إليها لأنكم تَحْسُدُونَنَا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ «لِلْمُخلَّفِينَ مِنَ الأعْرَابِ» عن المسيرِ معكَ، «سَتُدْعَوْنَ إلى» قتالِ «قَوْمٍ أُولي بَأْسٍ» في القتال «شَدِيدٍ».

وقوله: «تُقَاتِلُونَهُمْ أوْ يُسْلِمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه للمخلَّفِينَ من الأعراب: تقاتلونَ هؤلاءِ الذين تُدْعَوْنَ إلى قتالِهم، أو يُسلمونَ من غيرِ حربٍ ولا قتال.

وقوله: «فإنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أجراً حَسَناً»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإن تُطِيعُوا اللهَ في إجابتكم إياه إذا دعاكم إلى قتالِ هؤلاءِ القومِ الأولي البأسِ الشديدِ، فَتُجيبُوا إلى قتالِهم والجهادِ مع المؤمنينَ «يُؤْتِكُم اللهُ أجْراً حَسَناً»، يقولُ: يُعْطِكُمْ اللهُ على إجابتكم إياهُ إلى حربهم الجنةَ، وهي الأجرُ الحَسَنُ. «وَإنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُم مِنْ قَبْلُ»، يقولُ: وإنْ تعصوا رَبَّكم فَتُدْبِرُوا عن طاعتِه وتخالفوا أمرَهُ، فتتركوا قتالَ الأولي البأسِ الشديد إذا دُعيتم إلى قتالِهم «كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ»، يقولُ: كما عَصَيْتُمُوهُ في أمرِه إياكم بالمسيرِ مع رسولِ اللهِ ﷺ إلى مكةَ، من قبل أن تُدْعَوْا إلى قتالِ أولي البأسِ الشديد «يُعَذِّبْكُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً»، يعني: وجيعاً، وذلك عذاب النار على عصيانِكم إياهُ، وترككم جهادكم وقتالهم مع المؤمنينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ليس على الأعمى منكم أيها الناسُ ضِيقٌ، ولا على الأعرجِ ضِيقٌ، ولا على المريضِ ضِيقٌ أنْ يتخلَّفُوا عن الجهادِ مع المؤمنينَ، وشهودِ الحربِ معهم إذا هم لَقُوا عَدُوَّهُمْ، للعللِ التي بهم، والأسبابِ التي تمنعهم من شهودِها.

وقوله: «وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يُطع اللهَ ورسولَهُ فيجيب إلى حربِ أعداء الله من أهلِ الشركِ، وإلى القتالِ مع المؤمنينَ ابتغاء وجهِ الله إذا دُعِيَ إلى ذلك، يُدْخله اللهُ يومَ القيامـةِ جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار. «وَمَنْ يَتَولَّ»، يقولُ: ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورسولَهُ، فيتخلَّفْ عن قتالِ أهلِ الشركِ باللهِ إذا دُعِيَ إليه، ولم يستجبْ لدعاءِ اللهِ ورسولِه يُعَذِّبه عذاباً موجعاً، وذلك عذابُ جهنمَ يومَ القيامة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لقد رضيَ اللهُ يا محمدُ عن المؤمنينَ «إذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»، يعني: بيعةُ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ رسولَ اللهِ بالحديبيةِ حين بايعوهُ على مُناجَزَةِ قريشٍ الحربَ، وعلى أنْ لا يَفِرُّوا، ولا يُوَلُّوهم الدبرَ تحتَ الشجرةِ، وكانتْ بيعتُهم إياهُ هنالك فيما ذُكِرَ تحتَ شجرةٍ.

وكان سبب هذه البيعةِ ما قيلَ: إنَّ رسولَ الله ﷺ كان أرسلَ عثمانَ بن عفان رضي الله عنه برسالتِه إلى الملإِ من قريشٍ، فأبطأَ عثمانُ عليه بعضَ الإبطاءِ، فَظَنَّ أنه قد قُتِلَ، فدعا أصحابَهُ إلى تجديدِ البيعةِ على حربهم على ما وصفتُ، فبايعوه على ذلك، وهذه البيعةُ التي تسمى بيعةَ الرضوان، وكان الذين بايعوهُ هذه البيعةَ فيما ذُكِرَ في قولِ بعضهم: ألفاً وأربع مئة، وفي قول بعضِهم: ألفاً وخمس مئة، وفي قول بعضهم: ألفاً وثلاث مئة.

وقوله: «فَعَلِمَ ما في قُلُوبِهِم»، يقول تعالى ذِكْرُه: فعلمَ رَبُّكَ يا محمدُ ما في قلوبِ المؤمنينَ من أصحابِكَ إذْ يبايعونكَ تحتَ الشجرةِ، من صِدْقِ النيةِ، والوفاءِ بما يبايعونكَ عليه، والصبرِ معك «فأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ»، يقولُ: فأنزل الطمأنينةَ، والثباتَ على ما هُمْ عليه من دينهم وحُسْنِ بَصِيرتهم بالحقِّ الذي هداهم الله له.

وقـوله: «وأثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً»، يقولُ: وعَوَّضَهُم في العاجلِ مما رَجوا الظفرَ به من غنائمِ أهلِ مكة بقتالهم أهلَها فتحاً قريباً، وذلك فيما قيل: فتح خيبر.

وقوله: «وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يأْخُذُونَها»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأثابَ الله هؤلاءِ الذين بايعوا رسولَ الله ﷺ تحتَ الشجرةِ، مع ما أكرمَهُمْ من رِضَاهُ عنهم، وإنزاله السكينةَ عليهم، وإثابته إياهم فتحاً قريباً، معه مغانم كثيرة يأخذونها من أموالِ يهودِ خيبرَ، فإنَّ الله جعلَ ذلك خاصةً لأهلِ بيعةِ الرضوان دونَ غيرهم.

وقوله: «وكانَ الله عَزيزاً حَكِيماً»، يقولُ: وكان الله ذا عزَّةٍ في انتقامِه ممن انتقمَ من أعدائِه، حكيماً في تدبيره خَلْقَهُ وتصريفه إياهم فيما شاء من قضائِه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ

صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لأهلِ بيعةِ الرضوان: «وَعَدَكُمُ اللهُ» أيها القومُ «مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها»، اختلفَ أهلُ التأويل في هذه المغانم التي ذكر اللهُ أنه وَعَدَها هؤلاءِ القوم أيّ المغانمِ هِيَ، فقال بعضهم: هي كُلُّ مغنمٍ غَنَّمَهَا اللهُ المؤمنينَ به من أموالِ أهلِ الشركِ من لَدُن أنزلَ هذه الآيةَ على لسانِ نبيه ﷺ.

وعلى هذا التأويلِ يحتمل الكلام أنْ يكون مراداً بالمغانمِ الثانية المغانمَ الأولى. ويكون معناه عند ذلك، فأثابهم فتحاً قريباً، ومغانمَ كثيرة يأخذونَها، وَعَدَكُمْ اللهُ أيها القوم هذه المغانمَ التي تأخذونها، وأنتم إليها واصلونَ عدة، فجعلَ لكم الفتحَ القريبَ من فتحِ خيبر. ويُحتمل أن تكون الثانية غير الأولى، وتكون الأولى من غنائم خيبر، والغنائم الثانية التي وَعَدَهُمُوهَا من غنائمِ سائرِ أهلِ الشركِ سِواهم.

وقال آخرون: هذه المغانمُ التي وَعَدَ اللهُ هؤلاءِ القومِ هي مغانمُ خيبر.

وقوله: «فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ»، اختلف أهلُ التأويل في التي عُجِّلَتْ لهم، فقال جماعةٌ: غنائمُ خيبر، والمؤخرةُ سائرُ فتوحِ المسلمينَ بعد ذلك الوقتِ إلى قيامِ الساعة.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك الصلحَ الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش.

وأوْلى الأقوال في تأويل ذلك بالصوابِ هو أن الذي أثابهم اللهُ من مسيرهم ذلك مع الفتحِ القريبِ المغانمَ الكثيرةَ من مغانمِ خيبرَ، وذلك أنَّ المسلمينَ لم يغنموا بعد الحديبيةِ غنيمةً، ولم يفتحوا فتحاً أقرب من بيعتهم رسولَ الله ﷺ بالحديبيةِ إليها من فتح خيبرَ وغنائمِها.

وأما قوله: «وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً» فهي سائرُ المغانمِ التي غَنَّمَهُمُوها اللهُ بعد خيبرَ، كغنائمِ هوازن، وغطفان، وفارس، والروم.

وإنما قلنا ذلك كذلك دونَ غنائمِ خيبرَ، لأنَّ اللهَ أخبرَ أنه عَجَّلَ لهم هذه التي أثابهم من مسيرهم الذي ساروه مع رسولِ الله ﷺ إلى مكةَ، ولما علم من صحة نيتهم في قتال أهلها، إذْ بايعوا رسولَ الله ﷺ. على أنْ لا يَفِرُّوا عنه، ولاشكَّ أنَّ التي عجَّلت لهم غير التي لم تُعجَّلْ لهم.

وقوله: «وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه لأهلِ بيعةِ الرضوانِ: وكَفَّ اللهُ أيدي المشركينَ عنكم.

ثم اختلف أهلُ التأويل في الذين كُفَّتْ أيديهم عنها مَنْ هم؟ فقال بعضهم: هم اليهودُ كَفَّ اللهُ أيديهم عن عيالِ الذين ساروا من المدينةِ مع رسولِ الله ﷺ إلى مكةَ.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك أيدي قريشٍ إذْ حَبَسَهُمْ اللهُ عنهم، فلم يقدروا له على مكروهٍ. والقولُ الأول في ذلك عندي أشبه بتأويل الآية، وذلك أنَّ كفَّ اللهِ أيديَ المشركينَ من أهلِ مكةَ عن أهلِ الحُديبية قد ذكرهُ اللهُ بعد هذه الآية في قوله: «وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ» فعلم بذلك أنَّ الكفَّ الذي ذكره الله تعالى في قوله: «وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ» غير الكفِّ الذي ذكر اللهُ بعدَ هذه الآيةِ في قوله: «وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ، وأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ».

وقوله: «وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ»، يقولُ: وليكون كَفُّه تعالى ذِكْرُه أيديهم عن عيالِهم آيةً وعبرةً للمؤمنينَ به فيعلموا أنَّ اللهَ هو المتولي حياطَتَهُمْ وكلاءَتَهُمْ في مَشْهَدِهم ومَغِيبِهم، ويتقوا الله في أنفسهم وأموالهم وأهليهم بالحِفْظِ وحُسْنِ الولايةِ ما كانوا مقيمينَ على طاعته، منتهين إلى أمره ونهيه.

وقولـه: «وَيَهْـدِيكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً»، يقولُ: ويُسَدِّدكم أيها المؤمنونَ طريقاً واضحاً لا أعوجاجَ فيه، فيُبَيِّنه لكم، وهو أنْ تَتَّقُوا في أموركم كلها بربكم، فتتوكلوا عليه في جميعها، ليحوطَكُمْ حِياطَتَهُ إياكم في مسيركم إلى مكةَ مع رسولِ الله ﷺ في أنفسكم وأهليكم وأموالكم، فقد رأيتم أثرَ فِعْلِ الله بكم، إذْ وثقتم في مسيركم هذا.

وقوله: «وأُخْرَى لم تَقْدِروا عليها قَدْ أحاطَ اللهُ بِهَا»، يقول تعالى ذِكْرُه ووعدكم أيها القومُ رَبُّكم فتحَ بلدةٍ أُخرى لم تقدروا على فتحها، قد أحاطَ اللهُ بها لكم حتى يفتحها لكم.

واختلف أهلُ التأويل في هذه البلدةِ الأخرى، والقرية الأخرى التي وعدهم فتحَها، التي أخبرهم أنه محيطٌ بها، فقال بعضهم: هي أرضُ فارس والروم. وما يفتحهُ المسلمونَ من البلادِ إلى قيامِ الساعة.

وقال آخرون: بل هي خيبر.

وقال آخرون: بل هي مكة. وهذا القولُ أشبه بما دلَّ عليه ظاهرُ التنزيل، وذلك أنَّ الله أخبرَ هؤلاءِ الذين بايعوا رسولَ الله ﷺ تحتَ الشجرةِ، أنه محيطٌ بقريةٍ لم يَقْدِرُوا عليها، ومعقولٌ أنه لا يقال لقومٍ لم يقدروا على هذه المدينة، إلا أنْ يكونوا قد رَامُوهَا فتعذَّرَتْ عليهم، فأمَّا وهُمْ لم يَرُومُوهَا فتتعذَّر عليهم فلا يقال: إنهم لم يقدروا عليها.

فإذْ كان ذلك كذلك، وكان معلوماً أنَّ رسولَ الله ﷺ لم يقصد قبلَ نزولِ هذه الآية عليه خيبرَ لحربٍ، ولا وجَّهَ إليها لقتالِ أهلها جيشاً ولا سريةً. عُلِمَ أن المعنيَّ بقوله: «وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها» غيرَها، وأنها هي التي قد عالجها ورامها، فتعذَّرتْ فكانت مكة وأهلها كذلك، وأخبر اللهُ تعالى ذِكْرُه نبيه ﷺ والمؤمنينَ أنه أحاطَ بها وبأهلها، وأنه فاتحها عليهم، وكان اللهُ على كلِّ ما يشاءُ من الأشياءِ ذا قُدرةٍ، لا يتعذَّرُ عليه شيءٌ شاءه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به من أهلِ بيعةِ الرضوان: «وَلَو قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا» باللهِ أيها المؤمنونَ بمكةَ «لَوَلَّوُا الأَدْبارَ»، يقولُ: لانهزموا عنكم، فولوكم أعجازَهُمْ، وكذلك يفعلُ المنهزمُ من قرنِه في الحربِ «ثُمَّ لا يَجِدونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً»، يقولُ: ثم لا يجد هؤلاءِ الكفارُ المنهزمونَ عنكم، المُوَلُّوكُم الأدبارَ، ولياً يُواليهم على حَرْبِكم، ولا نصيراً ينصرهم عليكم، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه معكم، ولن يُغْلَبَ حزبٌ اللهُ ناصِرُه.

وقوله: «سُنَّةَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لو قاتلكم هؤلاءِ الكفارُ من قريشٍ، لخذلهم الله حتى يهزمهم عنكم خذلانه أمثالهم من أهلِ الكفرِ به. الذين قاتلوا أولياءَهُ من الأممِ الذين مضوا قَبْلَهم.

وقوله: «وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً»، يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولن تجدَ يا محمدُ لسنةِ اللهِ التي سَنَّها في خَلْقِه تغييراً، بل ذلك دائم، للإِحسانِ جزاؤهُ من الإِحسانِ، وللإِساءةِ والكفرِ العقابُ والنكالُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لرسوله ﷺ: والذين بايعوا بيعة الرضوانِ، «وهو الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ»، يعني: أنَّ الله كفَّ أيدي المشركينَ الذين كانوا خرجوا على عسكرِ رسولِ الله ﷺ، بالحديبيةِ يلتمسون غِرَّتَهُمْ لِيُصِيبُوا منهم، فبعث

رسولُ الله ﷺ فأتى بهم أَسْرَى، فَخَلَّى عنهم رسولُ الله ﷺ، ومَنَّ عليهم ولم يقتلهم، فقال اللهُ للمؤمنين: وهو الذي كَفَّ أيديَ هؤلاءِ المشركينَ عنكم، وأيديَكُمْ عنهم ببطنِ مكةَ، من بعدِ أنْ أظفرَكُمْ عليهم.

وقوله: «وكانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكان الله بأعمالكم وأعمالهم بصيراً لا يَخْفَى عليه منها شيءٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ المشركون من قريش هم الذين جَحَدُوا توحيدَ الله، وصَدُّوكُمْ أيها المؤمنونَ باللهِ عن دخولِ المسجدِ الحرام، وصَدُّوا «الهَدْيَ معكوفاً»، يقولُ: محبوساً عن أنْ يبلغَ مَحِلَّهُ.

وعنى بقوله تعالى ذِكْرُه: «أنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ» أن يبلغ محلَّ نَحْرِه، وذلك دخول الحرم، والموضع الذي إذا صار إليه حلَّ نحرهُ، وكان رسولُ الله ﷺ ساقَ معه حين خرجَ إلى مكةَ في سَفرته تلك سبعين بَدَنة.

وقوله: «وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنات لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أنْ تَطَؤُوهُمْ، فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بغَيرِ عِلْمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولولا رجالٌ من أهلِ الإيمانِ ونساءٌ منهم أيها المؤمنونَ باللهِ أنْ تطؤوهم بخَيْلِكُمْ ورجلكم لم تعلموهم بمكةَ، وقد حبسهم المشركونَ بها عنكم، فلا يستطيعونَ من أجلِ ذلك الخروجَ إليكم فتقتلُوهم.

والمَعَرَّةُ: هي المفعلة من العرِّ، وهو الجربُ، وإنما المعنى: فتصيبكم من قبلهم معرّة تعرّون بها، يَلْزَمُكُمْ من أجلها كفَّارةُ قتلِ الخطأ، وذلك عتق رقبةٍ مؤمنةٍ، مَنْ أطاقَ ذلك، ومَنْ لم يُطِقْ فصيامُ شهرين.

وإنما اخترتُ هذا القولَ، لأنَّ الله إنما أوجبَ على قاتلِ المؤمن في دارِ الحرب إذا لم يكنْ هاجرَ منها، ولم يكن قاتِلُه عَلِمَ إيمانَهُ الكفارةَ دونَ الدية، فقال: «وإنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وهُوَ مُؤْمِنٌ، فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ» لم يوجبْ على قاتِله خطأً ديتـه، فلذلك قلنا: عنى بالمعرّةِ في هذا الموضع الكفارةَ، و«أنْ» من قوله: «أنْ تَطَئُوهُمْ» في موضعِ رفعٍ ردّاً على الرجال، لأن معنى الكـلام: ولـولا أنْ تَطَؤوا رجـالاً مؤمنينَ ونساءً مؤمناتٍ لم تعلموهم، فتصيبَكُمْ منهم معرَّةٌ بغير علمٍ لأَذِنَ اللهُ لكم أيها المؤمنونَ في دخولِ مكةَ، ولكنه حالَ بينكم وبين ذلك «لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ»، يقولُ: ليدخلَ اللهُ في الإسلام من أهلِ مكةَ مَنْ يشاء قبلَ أنْ تدخلوها، وحذفَ جوابَ لولا استغناءً بدلالةِ الكلامِ عليه.

وقوله: «لَوْ تَزَيَّلُوا»، يقولُ: لو تَمَيَّزَ الذين في مشركي مكةَ من الرجالِ المؤمنينَ والنساءِ المؤمناتِ، الذين لم تعلموهم منهم، ففارقوهم وخرجوا من بين أظهـرهم «لَعَذَّبْنا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُم عَذاباً أَلِيماً»، يقولُ: لقتلنا مَنْ بقيَ فيها بالسيفِ، أو لأهلكناهم ببعضِ ما يؤلمهم من عذابنا العاجل.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه بقوله: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ

الجاهِلِيَّةِ» حين جعل سُهيل بن عمرو في قلبه الحمية، فامتنعَ أنْ يكتبَ في كتـابِ المقاضاةِ الذي كتبَ بين يدي رسولِ الله ﷺ والمشركينَ: بسم الله الرحمن الرحيم، وأنْ يكتبَ فيه: محمدٌ رسول الله، وامتنعَ هو وقومُه من دخولِ رسولِ الله ﷺ عامَهُ ذلك.

وقوله: «فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وعَلَى المُؤْمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه فأنزلَ الله الصبرَ والطمأنينةَ والوقارَ على رسولِه وعلى المؤمنينَ، إذْ حميَ الذين كفروا حميةَ الجاهلية، ومنعوهم من الطوافِ بالبيتِ، وأبوا أنْ يكتبوا في الكتاب بينـه وبينهم بسم الله الـرحمن الـرحيم، ومحمـدٌ رسـول الله «وأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى»، يقال: ألزمهم قولَ لا إله إلا الله التي يتقون بها النارَ، وأليمَ العذاب.

وقوله: «وكانُوا أَحَقَّ بِها وأَهْلَها»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكان رسولُ الله ﷺ: والمؤمنونَ أحقَّ بكلمةِ التقوى من المشركينَ «وأهلها»، يقولُ: وكان رسولُ الله ﷺ والمؤمنونَ أهل كلمةِ التقوى دونَ المشركينَ.

وقوله: «وكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولم يزل اللهُ بكل شيءٍ ذَا علمٍ، لا يَخْفَى عليه شيءٌ هو كائنٌ، ولعلمه أيها الناسُ بما يحدثُ من دخولِكم مكةَ وبها رجالٌ مؤمنون، ونساءٌ مؤمنات لم تعلموهم، لم يأذَنْ لكم بدخولِكم مكةَ في سفرتكم هذه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لقد صَدَقَ اللهُ رسولَهُ محمداً رُؤْيَاهُ التي أراها إياهُ أنه يدخلُ هو وأصحابه بيتَ الله الحرام آمنينَ، لا يخافون أهلَ الشرك، مقصِّراً

بعضُهم رأسَهُ، ومحلِّقاً بعضهم.

وقوله: «فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فعلمَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ما لم تعلموا، وذلك علمه تعالى ذِكْرُه بما بمكةَ من الرجالِ والنساءِ المؤمنينَ، الذين لم يعلمهم المؤمنونَ، ولو دخلوها في ذلك العام لوطئوهم بالخيلِ والرَّجلِ، فأصابتهم منهم معرَّةٌ بغيرِ علمٍ، فردَّهم اللهُ عن مكة من أجلِ ذلك.

وقوله: «فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلكَ فَتْحاً قَرِيباً»، اختلف أهلُ التأويل في الفتحِ القريبِ، الذي جعله الله للمؤمنينَ دونَ دخولهم المسجدَ الحرام محلِّقِينَ رُؤوسهم ومقصِّرينَ، فقال بعضعم: هو الصلحُ الذي جرى بين رسولِ الله ﷺ وبين مشركي قريش.

وقال آخرون: عنى بالفتحِ القريبِ في هذا الموضع: فتح خيبر.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أن يقال: إنَّ الله أخبرَ أنه جعلَ لرسولِه والذين كانوا معه من أهلِ بيعةِ الرضوانِ فتحاً قريباً من دونِ دخولهم المسجدَ الحرام، ودونَ تصديقِه رؤيا رسولِ الله ﷺ وكان صلح الحُديبية وفتح خيبر دونَ ذلك، ولم يخصص الله تعالى ذِكْرُه خبره ذلك عن فتحٍ من ذلك دونَ فتحٍ، بل عَمَّ ذلك، وذلك كله فتحٌ جعله الله من دونِ ذلك.

والصوابُ أنْ يَعُمَّهُ كما عَمَّهُ، فيقال: جعلَ اللهُ من دونِ تصديقِه رؤيا رسولِ الله ﷺ بدخولِه وأصحابِه المسجدَ الحرامَ محلِّقينَ رؤوسهم ومقصِّرينَ، لا يخافونَ المشركينَ، صلحَ الحُديبية وفتحَ خيبر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ

ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ» الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالبيانِ الواضح، وَدِينِ الحَقِّ، وهو الإسلامُ؛ الذي أرسله داعياً خَلْقَهُ إليه. «لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ»، يقولُ: لِيُبْطِلَ به المللَ كُلَّها ، حتى لا يكونَ دينٌ سواه، وذلك كان كذلك حتى ينزل عيسى بن مريم، فيقتل الدجال، فحينئذٍ تبطلُ الأديانُ كلها، غير دينِ الله الذي بَعَثَ به محمداً ﷺ، ويظهر الإسلام على الأديان كلها.

وقوله: «وَكَفَى باللهِ شَهِيداً»، يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: أُشْهِدُكَ يا محمدُ رَبُّكَ على نفسِه، أنه سيظهرُ الدينَ الذي بعثَكَ به «وَكَفَى باللهِ شَهِيداً»، يقولُ: وحَسْبُكَ به شاهداً.

وقوله: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: محمدٌ رسولُ الله وأتباعُه من أصحابِه الذين هُمْ معه على دينه، أشدَّاءُ على الكفارِ، غليظةٌ عليهم قلوبُهم، قليلةٌ بهم رحمتهم. «رُحَماءُ بَيْنَهُمْ»، يقولُ: رقيقةٌ قلوبُ بعضِهم لبعضٍ، لينةٌ أنفُسُهم لهم، هَيِّنَةٌ عليهم لهم.

«تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً»، يقولُ: تراهم ركعاً أحياناً لله في صلاتهم سُجَّداً أحياناً. «يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ»، يقولُ: يلتمسونَ بركوعِهم وسجودِهم وشِدَّتِهم على الكفارِ ورحمةِ بعضِهم بعضاً، فضلاً من الله، وذلك رحمته إياهم، بأنْ يتفضلَ عليهم، فَيُدْخِلَهُمْ جَنَّتَهُ «وَرِضْوَاناً»، يقولُ: وأنْ يرضى عنهم رَبُّهم.

وقوله: «سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ»، يقولُ: علامتهم في وجوههم من أثر السجودِ في صلاتهم.

ثم اختلف أهلُ التأويل في السيما الذي عَنَاهُ اللهُ في هذا الموضع، فقال بعضهم: ذلك علامةٌ يجعلها الله في وجوهِ المؤمنينَ يومَ القيامة، يُعْرَفُونَ بها لِمَا كان من سجودِهم له في الدنيا.

وقال آخرون: بل ذلك سيما الإسلام وسَمْته وخشوعه، وعَنَى بذلك أنه يُرَى من ذلك عليهم في الدنيا.

وقال آخرون: ذلك أثرٌ يكون في وجوهِ المصلين، مثل أثرِ السهرِ الذي يظهرُ في الوجهِ مثل الكَلَفِ والتهيُّجِ والصُّفْرَةِ، وما أشبه ذلك مما يظهرُهُ السهرُ والتعبُ في الوجه، ووجَّهُوا التأويل في ذلك إلى أنه سيما في الدنيا.

وقال آخرون: ذلك آثارٌ تُرى في الوجه من ثرى الأرضِ، أو نَدَى الطَّهُور.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ أنْ يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرنا أنَّ سِيَمـا هؤلاءِ القومِ الذين وَصَفَ صِفَتَهُمْ في وجوههم من أثرِ السجود، ولم يخصَّ ذلـك على وقتٍ دونَ وقتٍ، وإذا كان ذلك كذلك، فذلك على كلِّ الأوقاتِ، فكان سيماهم الذي كانوا يُعْرَفُونَ به في الدنيا أثرُ الإسلامِ، وذلك خشوعُه وهَدْيُه وزُهْدُه وسمته، وآثارُ أداء فرائضِه وتطوّعه، وفي الآخرة ما أخبرَ أنهم يعرفونَ به، وذلك الغرَّة في الوجه، والتحجيلُ في الأيدي والأرجلِ من أثرِ الوضوءِ، وبياضُ الوجوهِ من أثرِ السجود.

وقوله: «ذلكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ»، يقولُ: هذه الصفةُ التي وصفتُ لكم من صفةِ أتباعِ محمدٍ ﷺ، الذين معه، صفتهم في التوراة.

وقوله: «وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ»، يقولُ: وصِفَتُهم في

إنجيلِ عيسى صِفَةُ زرعٍ أخرج شطأه. وهو فراخه، يقال منه: قد أشطأ الزرع: إذا فرَّخ فهو يشطىء إشطاءً، وإنما مَثَّلَهُمْ بالزرعِ المشطىء، لأنهم ابتدؤوا في الدخولِ في الإسلامِ، وهم عَدَدٌ قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعةُ بعدهم، ثم الجماعةُ بعد الجماعةِ، حتى كَثُرَ عددهم، كما يحدثُ في أصلِ الزرعِ الفرخ منه، ثم الفرخُ بعده حتى يكثرَ وينمي.

وقال آخرون: هذان المَثَلان في التوراة والإنجيلِ مثلهم.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: مَثَلُهُم في التوراة، غيرُ مثَلِهم في الإنجيلِ، وإنَّ الخبرَ عن مَثلهم في التوراة مُتَنَاهٍ عند قولِهِ: «ذلكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ» وذلك أنَّ القولَ لو كان كما قيل أنَّ مثلهم في التوراةِ والإنجيلِ واحدٌ، لكان التنزيل: ومثلهم في الإنجيل، وكزرع أخرج شطأه، فكان تمثيلهم بالزرع معطوفاً على قوله: «سيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» حتى يكون ذلك خبراً عن أنَّ ذلك مَثلهم في التوراة والإنجيل، وفي مجيء الكلامِ بغيرِ واوٍ في قوله: «كَزَرْعٍ» دليلٌ بَيِّنٌ على صحةِ ما قُلنا، وأنَّ قولهم: «وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ» خبرٌ مبتدأً عن صِفَتِهم التي هي في الإنجيلِ دونَ ما في التوراة منها.

وقوله: «فآزَرَهُ»، يقول: فَقَوَّاهُ: أي قَوَّى الزرع شطأه وأعانه، وهو من المؤازرةِ التي بمعنى المعاونة. «فاسْتَغْلَظَ»، يقولُ: فغلظ الزرع «فاسْتَوَى على سُوقِهِ»، والسوق: جمع ساق، وساقُ الزرع والشجر: حاملته.

وقوله: «يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يعجبُ هذا الزرعُ الذي استغلظَ فاستوى على سُوقِه في تمامه وحُسْنِ نباته، وبلوغِه وانتهائِه الذين زرعوه «لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ»، يقولُ: فكذلك مَثَلُ محمدٍ ﷺ وأصحابه، واجتماع عددهم حتى كثروا ونموا، وغَلُظَ أَمْرُهُمْ كهذا الزرعِ الذي وصفَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ صِفَتَهُ، ثم قال: «لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ» فدلَّ ذلك على متروكٍ من الكلامِ،

وهو أنَّ الله تعالى فعلَ ذلك بمحمدٍ ﷺ وأصحابه ليغيظَ بهمُ الكفارَ.

وقولـه: «وَعَـدَ اللهُ الَّـذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وأجْراً عَظِيمـاً»، يقـول تعـالى ذِكْرُه: وَعَدَ اللهُ الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، «وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ»، يقولُ: وعملوا بما أمرهم اللهُ به من فرائضِه التي أوجبها عليهم.

وقوله: «مِنْهُمْ»، يعني: من الشَّطْءِ الذي أخرجَهُ الزرعُ، وهم الداخلونَ في الإسلامِ بعدَ الزرعِ الذي وصفَ رَبُّنَا تبارك وتعالى صفته. والهاء والميم في قوله: «مِنْهُمْ» عائدةٌ على معنى الشطء، لا على لفظِه، ولذلك جمع فقيل: «منهم»، ولم يقل: «منه». وإنما جمع الشطء لأنه أُرِيدَ به مَنْ يدخل في دينِ محمـدٍ ﷺ إلى يوم القيامـة بعـد الجماعةِ الذين وصفَ الله صِفَتَهُمْ بقوله: «وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلى الكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً».

وقوله: «وَمَغْفِرَةً»، يعني: عفواً عَمَّا مَضَى من ذنوبهم، وسيِّئِ أعمالهم بحسنها.

وقوله: «وأجْراً عَظِيماً»، يعني: وثواباً جزيلاً، وذلك الجنة.

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا»: يا أيها الذين أقرُّوا بوحدانيةِ الله، وبنبوَّةِ نبيهِ محمدٍ ﷺ «لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِه»، يقولُ: لا تعجلوا بقضاء أمرٍ في حروبكم أو دينكم، قبل أن يقضي اللهُ لكم فيه ورسولُه، فتقضوا بخلافِ أمرِ اللهِ وأمرِ رسوله، محكيٌّ عن العرب: فلانٌ يُقَدِّمُ بين يدي إمامِه، بمعنى: يعجلُ بالأمرِ والنهي دونه.

وقوله: «وَاتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»، يقولُ: وخافوا اللهَ أيها الذين آمنوا في قولكمْ، أنْ تقولُوا ما لَمْ يأذَنْ لكم به اللهُ ولا رسولُه، وفي غير ذلك من أموركم، وراقبوه، إنَّ الله سميعٌ لما تقولون، عليمٌ بما تريدون بقولكم إذا قلتم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من ضمائرِ صدوركم، وغيرِ ذلك من أموركم وأمورِ غيركم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، لا ترفعوا أصواتَكُم فوقَ صوتِ رسولِ الله تَتَجهَّمُوه بالكلام، وتغلظون له في الخطاب «وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ»، يقولُ: ولا تنادوه كما ينادي بعضُكم بعضاً، يا محمدُ، يا محمدُ، يا نبيَّ الله، يا نبيَّ الله، يا رسولَ الله.

وقوله: «أنْ تَحْبَطَ أعمالُكُمْ»، يقولُ: أنْ لا تحبطَ أعمالُكم فتذهبَ باطلةً لا ثوابَ لكم عليها، ولا جزاء برفعِكم أصواتَكُمْ فوقَ صوتِ نبيكم، وجَهْرِكم له بالقولِ كجهرِ بعضِكم لبعض.

وقوله: «وأنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ»، يقولُ: وأنتم لا تعلمونَ ولا تدرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين يَكُفُّونَ رفعَ أصواتِهم عندَ رسولِ الله، وأصلُ الغضِّ: الكفُّ في لِيْنٍ. ومنه: غَضُّ البصر، وهو كَفُّه عن النظرِ.

وقوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ للتَّقْوَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين يَغُضُّونَ أصواتَهم عندَ رسولِ الله، هم الذين اختبرَ اللهُ قلوبَهم بامتحانِه إياها، فاصطفاها وأخلَصَها للتقوى. يعني لاتقائِه بأداءِ طاعتِه، واجتنابِ معاصيه، كما يُمْتَحَنُ الذهبُ بالنارِ، فيخلص جيدها، ويبطل خبثها[1].

وقوله: «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ» يقولُ: لهم من الله عفوٌ عن ذنوبِهم السالفة، وصَفْحٌ منه عنها لهم، «وأَجْرٌ عَظِيمٌ»، يقولُ: وثوابٌ جزيل، وهو الجنةُ.

(١) الضمير في جيدها وخبثها راجع إلى الذهب، لأنها مؤنثة، وقد تُذكر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّ الذين ينادونك يا محمدُ من وراءِ حجراتكَ، والحجراتُ: جمع حجرة، والثلاث: حُجَر، ثم تجمع الحجر فيقال: حُجُرات وحُجْرات.

وقوله: «وأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُون»، يقولُ: أكثرهم جهالٌ بدينِ الله، واللازمُ لهم من حقك وتعظيمك.

وذُكر أنَّ هذه الآيةَ والتي بعدها نزلتْ في قومٍ من الأعرابِ جاؤوا ينادونَ رسولَ الله ﷺ من وراءِ حُجُراتِه: يا محمدُ اخرجْ إلينا.

وقوله: «وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حتى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولو أنَّ هؤلاءِ الذين ينادوك يامحمد من وراء الحجرات صبروا فلم ينادوكَ حتى تخرجَ إليهم إذا خرجتَ، لكان خيراً لهم عند الله، لأنَّ الله قد أمرهم بتوقيركَ وتعظيمكَ، فهم بتركِهم نداءكَ تاركونَ ما قد نَهاهُمُ اللهُ عنه، «وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: الله ذُو عفوٍ عَمَّنْ ناداكَ من وراءِ الحجابِ، إنْ هو تابَ من معصيةِ الله بندائِكَ كذلك، وراجعَ أمرَ اللهِ في ذلك وفي غيره؛ رحيمٌ به أنْ يعاقبه على ذَنْبِه ذلك من بعدِ توبته منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ «إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ» عن قوم «فَتَبَيَّنُوا».

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «فَتَبَيَّنُوا» فقرأ ذلك عامة قَرَأَة أهلِ المدينة «فَتَثَبَّتُوا» بالثاء، وذُكِر أنها في مصحف عبدالله منقوطة بالثاء. وقرأ ذلك بعض القَرَأَة «فتبيَّنوا» بالباء، بمعنى: أمهلوا حتى تعرفوا صحته، لا تعجلوا بقبولِه، وكذلك معنى: «فَتَثَبَّتُوا».

والصوابُ من القولِ في ذلك أنهما قراءتان معروفتان متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىءُ فمصيبٌ.

وذُكر أنَّ هذه الآيةَ نزلت في الوليدِ بن عقبة بن أبي مُعَيط[1].

وقوله: «أنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فتبيَّنوا لئلا تصيبوا قوماً برآء مما قُذفوا به بجناية بجهالةٍ منكم «فَتُصْبِحُوا على ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ»، يقولُ: فتندموا على إصابَتِكُمْ إياهم بالجنايةِ التي تُصيبونهم بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لأصحابِ نبيِّ الله ﷺ: واعلموا أيها المؤمنونَ بالله ورسوله،

(١) ساق المؤلف عدداً من الأحاديث والآثار لإثبات ذلك، وليس فيها من حديث ذي سند صحيح. وإنما أبقينا ذلك لأنه سيعتمده في تفسير الآية الآتية، ويذكر فيها ملخص القصة.

«أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ» فاتقوا الله أنْ تقولوا الباطلَ، وتفتروا الكذبَ، فإنَّ الله يخبره أخباركم، ويعرِّفُه أنباءكم، ويُقوِّمُه على الصوابِ في أموره.

وقوله: «لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لو كان رسولُ الله ﷺ يعملُ في الأمور بآرائِكم، ويقبلُ منكم ما تقولونَ له فيطيعكم «لَعَنِتُّمْ»، يقولُ: لَنالَكُمْ عَنَتٌ، يعني: الشدّةُ والمشقةُ في كثيرٍ من الأمورِ بطاعتِهِ إياكم لو أطاعَكُمْ لأنه كان يخطىءُ في أفعاله كما لو قَبِلَ من الوليد بن عقبة قولَهُ في بني المصطلق: إنهم قد ارتَدُّوا، ومنعوا الصدقةَ، وجمعوا الجموعَ لغزو المسلمين، فغزاهم فَقَتَلَ منهم، وأصابَ من دمائِهم وأموالِهم كانَ قد قَتَلَ، وقَتَلْتُمْ مَنْ لا يحلُّ لَهُ ولا لَكُمْ قَتْلُه، وأَخَذَ وأخَذْتُم من المالِ ما لا يحلُّ له ولكم أخذُه من أموالِ قومٍ مسلمينَ، فنالكم من الله بذلك عَنَتٌ «وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمانَ» باللهِ ورسولِه، فأنتم تطيعون رسولَ الله، وتأتَمُّونَ به فَيَقِيكُمُ اللهُ بذلك من العنتِ ما لو لم تُطِيعُوهُ وتَتَّبِعُوه، وكان يُطِيعكم لنالَكُمْ وأصابَكُمْ.

وقوله: «وَزَيَّنَهُ في قُلُوبِكُمْ»، يقولُ: وحَسَّنَ الإيمانَ في قلوبكم فآمنتم، «وكَـرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْـرَ» بالله «وَالفُسُـوقَ»، يعني: الكذبَ، «والعِصْيانَ» يعني: ركوبَ ما نهى الله عنه في خلافِ أمرِ رسولِ الله ﷺ، وتضييع ما أمرَ اللهُ به «أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ»، يقولُ: هؤلاءِ الذين حَبَّبَ اللهُ إليهم الإيمانَ، وزيَّنَهُ في قلوبهم، وكَرَّهَ إليهم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ أولئك هم الراشدونَ السالكونَ طريقَ الحقِّ.

وقوله: «فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً»، يقولُ: ولكن الله حَبَّبَ إليكم الإيمانَ، وأنعمَ عليكم هذه النعمـةَ التي عَدَّها فضلاً منه، وإحساناً ونعمةً منه أنعمها عليكـم «وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِـيمٌ»، يقـولُ: والله ذُو علمٍ ـ بالـمحسنِ منكم من المسيء، ومَنْ هو لنعمِ اللهِ وفَضْلِه أهلٌ، ومَنْ هو لذلك غير أهلٍ ـ وحكمةٍ في تدبيره خَلْقَهُ، وصَرْفه إياهم فيما شاءَ من قضائه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ طائفتانِ من أهلِ الإيمان اقتتلوا، فأصلحُوا أيها المؤمنونَ بينهما بالدعاءِ إلى حُكْمِ كتابِ الله، والرضا بما فيه لهما وعليهما، وذلك هو الإصلاحُ بينهما بالعدل «فإنْ بَغَتْ إحْداهُما عَلى الأُخْرَى»، يقولُ: فإن أبَتْ إحـدى هاتين الـطائفتين الإجابةَ إلى حُكْمِ كتاب الله له، وعليه وتَعدَّتْ ما جعلَ اللهُ عدلاً بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما «فَقاتِلُوا الَّتي تَبْغِي»، يقولُ: فقاتلوا التي تعتدي، وتأبى الإجابةَ إلى حُكْمِ الله «حتى تَفِيءَ إلى أمْرِ اللهِ»، يقولُ: حتى ترجعَ إلى حكم الله الذي حكم في كتابهِ بين خَلْقِه «فإنْ فاءَتْ فأصْلِحُوا بَيْنَهُما بالعَدْلِ»، يقولُ: فإنْ رجعت الباغيةُ بعد قتالكم إياهم إلى الرضا بحكم الله في كتابه، فأصلحوا بينها وبين الطائفةِ الأخرى التي قاتلتها بالعدلِ: يعني بالإنصافِ بينهما، وذلك حكم الله في كتابه الذي جعله عدلاً بين خلقه.

وقوله: «وأَقْسِطُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: واعدلوا أيها المؤمنونَ في حكمكم بين مَنْ حكمتم بينهم بأنْ لا تتجاوزوا في أحكامكم حُكْمَ اللهِ وحكمَ رسولِه. «إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ»، يقولُ: إنَّ الله يحبُّ العادلينَ في أحكامهم، القاضينَ بين خَلْقِه بالقسط.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه لأهلِ الإيمان به «إنَّما المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» في الدين «فأَصْلِحُوا بَينَ أَخَوَيْكُمْ» إذا اقتتلا بأنْ تحملوهما على حُكْمِ الله وحُكْمِ رسوله. ومعنى الأخوين في هذا الموضع: كل مُقْتَتِلَيْنِ من أهلِ الإيمان.

«وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وخافُوا اللهَ أيها الناسُ بأداءِ فرائضِه عليكم في الإصلاحِ بين المقتتلين من أهل الإيمانِ بالعدلِ، وفي غيرِ ذلك من فرائضِه، واجتنابِ معاصيه، ليرحمكم رَبُّكم، فيصفح لكم عن سالفِ إجرامِكم إذا أنتم أطعتموه، واتبعتم أَمْرَهُ ونهيه، واتقيتموهُ بطاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ، لا يهزأْ قومٌ مؤمنونَ من قومٍ مؤمنين «عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ»، يقولُ: المهزوءُ منهم خيرٌ من الهازئين «وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ»، يقولُ: ولا يهزأْ نساءٌ مؤمناتٌ من نساءٍ مؤمنات، عسى المهزوء منهنَّ أنْ يَكُنَّ خيراً من الهازئات.

وقوله: «وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولا يغتبْ بعضُكم بعضاً أيها المؤمنونَ، ولا يطعنْ بعضُكم على بعضٍ؛ وقال: «لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ» فجعل اللامزَ أخاهُ لامزاً نفسَهُ، لأن المؤمنينَ كرجلٍ واحد فيما يلزمُ بعضَهم لبعضٍ من تحسينِ أمره، وطلب صلاحه، ومحبته الخير. ولذلك رُوي الخبر عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «المُؤْمِنُونَ كالجَسَدِ الوَاحِدِ إذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ

تَدَاعَى لَهُ سائِرُ جَسَدِهِ بالحُمَّى والسَّهَر»(١). وهذا نظير قوله: «يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطِلِ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ»، بمعنى: ولا يقتلْ بعضكم بعضاً.

وقوله: «وَلَا تَنَابَزُوا بالأَلْقاب»، يقولُ: ولا تَدَاعَوْا بالألقابِ؛ والنبز واللقبُ بمعنى واحد، يجمع النبز: أنبازاً، واللقبُ: ألقاباً.

واختلف أهلُ التأويل في الألقابِ التي نهى اللهُ عن التنابزِ بها في هذه الآية، فقال بعضهم: عنى بها الألقاب التي يكرهُ النبزَ بها الملقَّب، وقالوا: إنما نزلت هذه الآيةُ في قومٍ كانت لهم أسماء في الجاهلية، فلما أسلموا نُهُوا أنْ يدعوَ بعضُهم بعضاً بما يكرهُ من أسمائِه التي كان يُدْعَى بها في الجاهلية.

وقال آخرون: بل ذلك قول الرجلِ المسلمِ للرجلِ المسلم: يا فاسق، يا زاني.

وقال آخرون: بل ذلك تسميةُ الرجلِ الرجلَ بالكفرِ بعد الإسلامِ، وبالفسوقِ والأعمالِ القبيحةِ بعد التوبة.

والذي هو أوْلى الأقوالِ في تأويل ذلك عندي بالصوابِ أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه نهى المؤمنينَ أنْ يتنابزوا بالألقاب؛ والتنابزُ بالألقاب: هو دعاءُ المرءِ صاحبَهُ بما يكرههُ من اسمٍ أو صفةٍ، وعَمَّ الله بنهيه ذلك، ولم يخصص به بعضَ الألقاب دونَ بعضٍ، فغير جائزٍ لأحدٍ من المسلمين أن ينبزَ أخاهُ باسمٍ يَكْرَهُهُ، أو صفةٍ يكرهها. وإذا كان ذلك كذلك صحّت الأقوالُ التي قالها أهلُ التأويل في ذلك التي ذكرناها كلها، ولم يكن بعضُ ذلك أوْلى بالصوابِ من بعض، لأنَّ كلّ ذلك مما نهى الله المسلمينَ أنْ ينبزَ بعضهم بعضاً.

---

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه: البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

وقوله: «بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمَانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ فعلَ ما نَهَيْنا عنه، وتقدَّمَ على معصيتنا بعد إيمانِه، فسخرَ من المؤمنينَ، ولَمَزَ أخاهُ المؤمنَ، ونبزه بالألقابِ، فهو فاسقٌ «بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمَانِ»، يقولُ: فلا تفعلوا فتستحقوا إنْ فعلتموه أنْ تُسمَّوا فساقاً، بئسَ الاسمُ الفسوقُ، وترك ذكر ما وصفنا من الكلام، اكتفاء بدلالة قوله: «وبِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ» عليه.

وقوله: «وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ لم يَتُبْ من نبزِهِ أخاهُ بما نهى الله عن نبزِه به من الألقابِ، أو لَمْزِه إياه، أو سخريته منه، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم، فأكسبوها عقابَ الله بركوبهم ما نهاهم عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ، لا تقربوا كثيراً من الظنِّ بالمؤمنين، وذلك أنْ تظنوا بهم سوءً، فإنَّ الظانَّ غير مُحِقٍّ، وقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ»، ولم يقل: الظنَّ كله، إذ كان قد أذِنَ للمؤمنينَ أنْ يظنَّ بعضُهم ببعضٍ الخيرَ، فقال: «لَوْلا إذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بأَنْفُسِهِمْ خَيْراً، وقَالُوا هَذَا إفْكٌ مُبِينٌ»، فأذِنَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ للمؤمنينَ أنْ يَظُنَّ بعضهم ببعضٍ الخيرَ وأنْ يقولوه، وإنْ لم يكونوا من قِيلِه فيهم على يقين.

وقوله: «إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ»، يقولُ: إنَّ ظنَّ المؤمنِ بالمؤمنِ الشرَّ لا الخيرَ إثمٌ، لأنَّ الله قد نهاه عنه، فَفِعْلُ ما نهى اللهُ عنه إثْمٌ.

وقوله: «وَلا تَجَسَّسُوا»، يقولُ: ولا يَتَتَبَّعْ بعضُكم عورةَ بعضٍ، ولا يبحثْ عن سرائرِه، يبتغي بذلك الظهورَ على عيوبِه، ولكنْ اقنعوا بما ظهرَ لكم من أمرِه، وبه فاحمدوا أو ذموا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره.

وقوله: «ولا يَغْتَبْ بعضُكم بعضاً»، يقولُ: ولا يَقُلْ بعضُكم في بعضٍ بظهر الغيبِ ما يكرهُ المقولُ فيه ذلك أنْ يُقَالَ له في وجهه.

وقوله: «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يأكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ: أيحبُّ أحدكم أيها القومُ أنْ يأكلَ لحمَ أخيهِ بعد مماتِه ميتاً، فإنْ لم تُحِبُّوا ذلك وكَرِهْتُموه، لأنَّ الله حَرَّمَ ذلك عليكم، فكذلك لا تحبوا أنْ تغتابوه في حياته، فاكْرَهُوا غيبتَهُ حياً، كما كرهتم لَحْمَهُ ميتاً، فإنَّ الله حَرَّمَ غيبته حياً، كما حرّم أكلَ لحمِه ميتاً.

وقوله: «وَاتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فاتقوا اللهَ أيها الناسُ، فخافوا عقوبتَهُ بانتهائِكم عما نَهاكُمْ عنه من ظَنِّ أحدِكم بأخيهِ المؤمن ظنَّ السوء، وتتبعِ عوراتِه، والتجسسِ عما ستر عنه من أمره. واغتيابه بما يكرهه، تريدون به شَيْنَهُ وعَيْبَهُ، وغير ذلك من الأمور التي نهاكم عنها رَبُّكم «إنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ»، يقولُ: إنَّ الله راجعٌ لعبدِه إلى ما يحبه إذا رجعَ العبدُ لربهِ إلى ما يُحِبُّهُ منه، رحيمٌ به بأنْ يعاقبه على ذنبٍ أذنبه بعد توبتِه منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الناسُ إنَّا أنشأنا خلقكم من ماءِ ذَكَرٍ من الرجالِ، وماءِ أُنثى من النساء.

وقوله: «وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعارَفُوا»، يقولُ: وجعلناكم متناسبين، فبعضُكم يناسبُ بعضاً نسباً بعيداً، وبعضُكم يناسبُ بعضاً نسباً قريباً؛ فالمناسب النسبَ البعيدَ من لم ينسبه: أهل الشعوب، وذلك إذا قيلَ للرجل من العربِ: من أيِّ شعبٍ أنتَ؟ قال: أنا من مُضَر، أو من ربيعةَ. وأما أهلُ المناسبة القريبة أهل القبائل، وهم كتميم من مضر، وبكر من ربيعة، وأقرب القبائل الأفخاذ وهما كشيبان من بكر ودارم من تميم، ونحو ذلك.

وقوله: «لِتَعارَفُوا»، يقولُ: ليعرفَ بعضُكم بعضاً في النسبِ، يقول تعالى ذِكْرُه: إنما جعلنا هذه الشعوبَ والقبائلَ لكم أيها الناسُ، ليعرفَ بعضُكم بعضاً في قُرْبِ القرابةِ منه وبعده، لا لفضيلةٍ لكم في ذلك، وقُرْبةٍ تُقَرِّبُكُمْ إلى الله، بَلْ أكرمُكُم عندَ الله أتقاكم.

وقوله: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ أكرمكم أيها الناسُ عند ربكم، أشدّكم اتقاءً له بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصيه، لا أعظمكم بيتاً ولا أكثركم عشيرةً.

وقوله: «إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله أيها الناسُ ذُو علمٍ بأتقاكم عند الله وأكرمكم عنده، ذُو خبرةٍ بكم وبمصالحكم، وغير ذلك من أموركم، لا تَخفَى عليه خافية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت الأعرابُ: صدّقنا باللهِ ورسولِه، فنحنُ مؤمنونَ، قال الله لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لهم: «لَمْ تُؤْمِنُوا» ولستم مؤمنينَ «وَلَكِنْ

قُولُوا أَسْلَمْنَا».

واختلف أهـلُ التأويل في السببِ الذي من أجله قِيلَ للنبيِّ ﷺ: قُلْ لهؤلاءِ الأعراب: قولوا أسلمنا، ولا تقولوا آمنا، فقال بعضهم: إنما أُمِر النبي ﷺ بذلك، لأنَّ القومَ كانوا صدّقوا بألسنتهم، ولم يُصَدِّقُوا قولَهم بفعلِهم، فقيل لهم: قولوا أسلمنا، لأنَّ الإسلامَ قولٌ، والإيمانَ قولٌ وعملٌ.

وقال آخرون: إنما أُمِرَ النبيُّ ﷺ بقيلِ ذلك لهم، لأنهم أرادوا أنْ يتسمّوا بأسماءِ المهاجرينَ قبلَ أنْ يُهاجِرُوا، فأعلمهم الله أنَّ لهم أسماءَ الأعرابِ، لا أسماءَ المهاجرين.

وقال آخرون: قيل لهم ذلك لأنهم مَنُّوا على رسولِ الله ﷺ بإسلامِهم، فقال الله لنبيه ﷺ: قُلْ لهم لم تؤمنوا، ولكن استسلمتم خوفَ السِّباءِ والقتلِ.

وأَوْلى الأقوالِ بالصوابِ في تأويلِ ذلك القول الأول، وهو أنَّ الله تقدَّمَ إلى هؤلاءِ الأعرابِ الذين دخلوا في الملة إقراراً منهم بالقول، ولم يحققوا قولهم بعملهم أنْ يقـولـوا بالإطلاقِ آمنا دونَ تقييدِ قولهم بذلك بأنْ يقولوا آمنا بالله ورسولِه، ولكنْ أمرهم أنْ يقولوا القولَ الذي لا يشكلُ على سامعيه والذي قائلُه فيه مُحِقٌّ، وهـو أنْ يقـولـوا أسلمنا، بمعنى: دخلنا في الملة لحفظ الأنفس والأموالِ، والشهادة الحقّ.

قوله: «وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ في قُلُوبِكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولَمَّا يدخل العِلْمُ بشرائعِ الإيمانِ، وحقائقِ معانيهِ في قلوبِكم.

وقوله: «وَإنْ تُطِيعُوا الله ورَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أعمالِكُمْ شَيْئاً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاءِ الأعرابِ القائلينَ آمنا ولما يدخلِ الإيمانُ في قلوبهم، إنْ تُطيعوا الله ورسولَهُ أيها القومُ، فتأتمروا لأمرهِ وأمرِ رسوله، وتعملوا بمـا فرضَ عليكم، وتنتهوا عما نهاكم عنه، «لا يَلِتْكُمْ مِنْ أعمالِكُمْ شَيْئاً»،

يقولُ: لا يظلمكم من أجورِ أعمالِكم شيئاً ولا ينقصكم من ثوابها شيئاً.

وقوله: «إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله ذُو عفوٍ أيها الأعرابُ لمن أطاعه، وتابَ إليه من سالفِ ذُنوبه، فأطيعوه، وانتهوا إلى أمره ونهيه، يغفر لكم ذنوبَكم، رحيمٌ بخلقِه التائبينَ إليه أن يعاقبهم بعد توبتهم من ذُنوبِهم على ما تابُوا منه، فتوبُوا إليه يرحمكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للأعرابِ الذين قالوا آمنا ولما يدخل الإيمانُ في قلوبهم: إنما المؤمنونَ أيها القومُ الذين صدّقوا اللهَ ورسولَهُ، «ثم لم يرتابوا»، يقولُ: ثم لم يَشُكُّوا في وحدانيةِ الله، ولا في نبوّةِ نبيه ﷺ، وألزَمَ نفسَهُ طاعةَ الله وطاعةَ رسولِه، والعملَ بما وجَبَ عليه من فرائضِ الله بغير شكٍّ منه في وجوب ذلك عليه، «وَجاهَدُوا بأمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ»، يقولُ: جاهدوا المشركينَ بإنفاقِ أموالهم، وبَذْلِ مُهَجِهِم في جهادهم، على ما أمرهم اللهُ به من جهادِهم، وذلك سبيله لتكونَ كلمةُ اللهِ العليا، وكلمةُ الذين كفروا السُّفْلَى.

وقوله: «أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ»، يقول: هؤلاءِ الذين يفعلون ذلك هم الصادقونَ في قولهم: إنَّا مؤمنونَ، لا مَنْ دخلَ في الملةِ خوفَ السيفِ ليحقنَ دَمَهُ وماله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ الأعرابِ القائلينَ آمنا ولمَّا يدخلِ الإيمانُ في قلوبهم: «أتُعَلِّمُونَ الله» أيها القومُ بدينكم، يعني بطاعتكم ربَّكم «وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّمَواتِ ومَا فِي الأَرْضِ»، يقولُ: واللهُ الذي تعلِّمونه أنكم مؤمنونَ، عَلَّامُ جميعِ ما في السمواتِ السبعِ والأرضين السبعِ، لا يَخْفَى عليه منه شيءٌ، فكيف تعلمونه بدينكم، والذي أنتم عليه من الإيمانِ، وهو لا يَخْفَى عليه خافيةٌ، في سماءٍ ولا أرضٍ، فيخفى عليه ما أنتم عليه من الدين «وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، يقولُ: والله بكلِّ ما كانَ، وما هو كائنٌ، وبما يكونُ ذُو علمٍ. وإنما هذا تقدّم من الله إلى هؤلاءِ الأعرابِ بالنهي، من أنْ يُكَذِّبُوا ويقولوا غيرَ الذي هُمْ عليه في دِينهم. يقولُ: اللهُ محيطٌ بكلِّ شيءٍ عالم به، فاحذروا أنْ تقولوا خِلافَ ما يعلمُ من ضمائرِ صُدورِكم، فينالكم عقوبته، فإنه لا يَخْفَى عليه شيءٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يَمُنُّ عليكَ هؤلاءِ الأعرابُ يا محمدُ أنْ أَسْلَمُوا «قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ، بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ»، يقولُ: بل الله يمن عليكم أيها القومُ أنْ وَفَّقَكُمْ للإيمانِ به وبرسولِه «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، يقولُ: إنْ كنتم صادقينَ في قولكم آمنا، فإن الله هو الذي مَنَّ عليكم بأنْ هداكم له، فلا تمنوا عليَّ بإسلامكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

الحجرات: ١٨

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ اللهَ أيها الأعرابُ لا يَخْفَى عليه الصادقُ منكم من الكاذب، ومَنِ الداخلُ منكم في ملةِ الإسلامِ رغبةً فيه، ومَن الداخلُ فيه رهبةً من رسولنا محمدٍ ﷺ وجنده، فلا تعلمونا دينكم وضمائر صدوركم، فإنَّ الله يعلم ما تُكِنُّهُ ضمائرُ صدوركم، وتحدِّثُونَ به أنفسكم، ويعلمُ ما غابَ عنكم، فاسْتَسَرَّ في خبايا السمواتِ والأرضِ، لا يخفى عليه شيءٌ من ذلكِ. «وَاللهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ»، يقولُ: والله ذو بَصَرٍ بأعمالِكم التي تعملونها، أجهراً تعملون أم سِرّاً، طاعةً تعملونَ أو معصيةً؟ وهو مُجَازِيكم على جميعِ ذلك، إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشرّ وكُفُؤه.

سُورَةُ قٓ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾

اختلف أهلُ التأويل في قوله: «قٓ»، فقال بعضهم: هو اسمٌ من أسماء الله تعالى أقسم به.

وقال آخرون: هو اسمٌ من أسماءِ القرآنِ.

وقال آخرون: «قٓ» اسمُ الجبلِ المحيطِ بالأرض، وقد تَقَدَّمَ بيانُنا في تأويل حروفِ المعجمِ التي في أوائلِ سورِ القرآن بما فيه الكفايةُ عن إعادتِه في هذا الموضع[1].

وقوله: «وَالقُرآنِ المَجِيدِ»، يقولُ: والقرآن الكريم.

وقوله: «بَلْ عَجِبُوا أنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ ما كذَّبكَ يا محمدُ مشركو قومكَ أنْ لا يكونوا عالمينَ بأنكَ صادقٌ مُحِقٌّ، ولكنهم كذَّبوكَ تعجباً من أن جاءهم مُنْذِرٌ يُنْذِرُهم عقابَ الله منهم، يعني: بشراً منهم من بني آدم، ولم يأتهم مَلَكٌ برسالةٍ من عند الله.

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

وقـوله: «فَقَالَ الكافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فقال المُكَذِّبُونَ باللهِ ورسولِه من قريش إذ جاءهم مُنْذِرٌ منهم «هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ»، أي: مجيءُ رجلٍ منا من بني آدم برسالةِ اللهِ إلينا، «هَلاَّ أُنْزِلَ إلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾

يقول القائلُ: لم يجرِ للبعثِ ذِكْرٌ، فيخبر عن هؤلاءِ القومِ بكفرهم ما دعوا إليه من ذلك، فما وجهُ الخبر عنهم بإنكارِهم ما لم يدعوا إليه، وجوابهم عما لم يُسْألُوا عنه؟

قيل: قد اختلفَ أهلُ العربية في ذلك، فنذكر ما قالوا في ذلك، ثم نُتبعه البيانَ إنْ شاء الله تعالى، فقال في ذلك بعض نحويِّي البصرة قال: «أئذا مِتْنا وكُنَّا تُراباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ»، لم يذكر أنه راجع، وذلك والله أعلم لأنه كان على جواب، كأنه قيل لهم: إنكم ترجعون، فـ«قالُوا أئِذَا متنا وكُنَّا تُراباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ». وقال بعض نحويِّي الكوفة قوله: «أئِذَا مِتْنا وكُنَّا تُراباً» كلام لم يظهر قبله، ما يكون هذا جواباً له، ولكن معناه مُضْمَرٌ، إنما كان والله أعلم: «قٓ والقـرآن المجيد» لَتُبْعثُنَّ بعـد المـوتِ، فقـالوا: أئذا كنا تراباً بُعثنا؟ جَحَدُوا البعثَ، ثم قالوا: «ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» جحدوه أصلاً، قوله: «بَعِيدٌ» كما تقولُ للرجلِ يخطىء في المسألة، لقد ذهبتَ مذهباً بعيداً من الصواب: أي أخطأتَ.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندنا، أنَّ في هذا الكلام متروكاً استغني بدلالـةِ ما ذُكـرَ عليه من ذِكْـرِه، وذلـك أنَّ الله دلَّ بخبره عن تكذيبِ هؤلاءِ المشركينَ الذين ابتدأ هذه السورةَ بالخبرِ عن تكذيبهم رسولَهُ محمداً ﷺ بقوله:

«بَلْ عَجِبُوا أنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنهُمْ، فَقالَ الكافِرُونَ هَذا شَيْءٌ عَجِيبٌ» على وعيدِه إياهم على تكذيبهم محمداً ﷺ، فكأنه قال لهم: إذ قالوا مُنكرينَ رسالةَ الله رسوله محمداً ﷺ «هَذا شَيْءٌ عَجِيبٌ» ستعلمون أيها القومُ إذا أنتم بُعِثْتُمْ يومَ القيامةِ ما يكونُ حالُكُمْ في تكذيبكم محمداً ﷺ، وإنكاركم نبوَّتَهُ، فقالوا مُجيبينَ رسولَ الله ﷺ «أئِذَا مِتْنا وكُنّا تُراباً» نعلم ذلك، ونرى ما تَعِدُنا على تكذيبكَ «ذلكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ»: أي أن ذلك غير كائنٍ، ولسنا راجعينَ أحياءْ بعد مماتنا، فاستغنى بدلالة قوله: «بَلْ عَجِبُوا أنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ» فقال الكافرون: «هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ» من ذِكْرِ ما ذكرتَ من الخبرِ عن وعيدهم.

وقوله: «قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأرضَ مِنْهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قد علمنا ما تأكلُ الأرضُ من أجسامهم بعد مماتهم، وعندنا كتابٌ بما تأكلُ الأرضُ وتفني من أجسامِهم، ولهم كتابٌ مكتوبٌ مع علمنا بذلك، حافظ لذلك كله، وسمَّاهُ الله تعالى حفيظاً، لأنه لا يدرسُ ما كُتِبَ فيه، ولا يتغيرُ ولا يتبدلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: بَلْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما أصابَ هؤلاءِ المشركونَ القائلون: «أئِذَا مِتْنا وكُنَّا تُراباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» في قِيلِهم هذا «بَلْ كَذَّبُوا بالحَقِّ»، وهو القرآنُ «لَمَّا جاءَهُمْ» من الله.

«فَهُمْ في أمْرٍ مَريجٍ»، يقولُ: فهم في أمرٍ مختلطٍ عليهم ملتبسٍ، لا يعرفون حَقَّهُ من باطلِه، يقال: قد مَرَجَ أمرُ الناس إذا اختلطَ وأهمل.

وقوله: «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إلى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها»، يقول تعالى ذِكْرُه: أفلم يَنْظُرْ هؤلاءِ المكذِّبُونَ بالبعثِ بعد الموتِ المُنكرون قُدْرَتَنا على إحيائِهم بعد بلائِهم «إلى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْف بَنَيْناها» فَسَوَّيْناها سقفاً محفوظاً، وزَيَّنَّاها بالنجومِ «وَما لَهَا مِنْ فُرُوجٍ»، يعني: وما لها من صُدُوعٍ وفُتوق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾

وقوله: «والأَرْضَ مَدَدْناها»، يقولُ: والأرضَ بسطناها «وأَلْقَيْنا فِيها رَوَاسِيَ»، يقولُ: وجعلنا فيها جبالاً ثوابتَ، رَسَتْ في الأرض، «وأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنبتنا في الأرضِ من كلِّ نوعٍ من نباتٍ حَسنٍ، وهو البهيجُ.

وقوله: «تَبْصِرَةً»، يقولُ: فعلنا ذلك تبصرةً لكم أيها الناسُ بنصركم بها قُدْرَةَ رَبِّكم على ما يشاء، «وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ»، يقولُ: وتذكيراً من اللهِ عظمته وسلطانه، وتنبيهاً على وحدانيته «لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ»، يقولُ: لكلِّ عبدٍ رجعَ إلى الإيمانِ بالله، والعملِ بطاعته.

القَوْلُ في تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً»، مطراً مباركاً، فأنبتنا به بساتينَ: أشجاراً، وحبَّ الزَّرعِ المحصودِ من البُرِّ والشعيرِ، وسائر أنواعِ الحبوب.

وقوله: «والنَّخْلَ باسِقاتٍ»، يقولُ: وأنبتنا بالماء الذي أنزلنا من السماءِ النخلَ طوالاً، والباسق: هو الطويل، يقال للجبل الطويل: جبل باسق.

وقوله: «لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ»، يقولُ: لهذا النخلِ الباسقات طَلْعٌ وهو الكُفُرَّى[١]، «نضيد»، يقولُ: منضودٌ بعضُه على بعضٍ متراكب.

وقوله: «رِزْقاً للْعِبادِ»، يقولُ: أنبتنا بهذا الماء، الذي أنزلناهُ من السماء هذه الجنات، والحبَّ والنخلَ قُوتاً للعبادِ، بعضها غذاءً، وبعضها فاكهةً ومتاعاً.

وقوله: «وأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأحيينا بهذا الماء الذي أنزلناهُ من السماء بلدةً ميتاً قد أجدبتْ وقَحِطَت، فلا زرعَ فيها ولا نَبْتَ.

وقوله: «كَذَلِكَ الخُرُوجُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كما أنبتنا بهذا الماء هذه الأرضَ الميتةَ، فأحييناها به، فأخرجنا نباتَها وزَرْعَها، كذلك نُخْرِجُكم يومَ القيامةِ أحياءً من قبوركم من بعد بلائكم فيها بما ينزل عليها من الماء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «كذَّبتْ» قبلَ هؤلاءِ المشركينَ الذين كَذَّبُوا محمداً ﷺ من قومِه «قَوْمُ نوحٍ وأصْحابُ الرَّسِّ»، وقد مضى ذِكْرُنا قَبْلُ أمرَ أصحابِ الرسِّ[٢]، وأنهم قوم رسُّوا نبيهم في بئر.

---

(١) الكُفُرَّى: وعاء الطلع وقشره الأعلى، فالطلع قبل أن يخرج من أكمامه فهو نضيد، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد (انظر معاني القرآن للفراء: ٣/٧٦).

(٢) انظر تفسير الآية ٣٨ من سورة الفرقان.

«وَثَمُودُ، وعَادٌ وَفِرْعَوْنُ، وَإِخْوَانُ لُوطٍ، وأَصْحابُ الأَيْكَةِ»، وهم قومُ شعيبٍ، وقد مضى خبرهم قَبْلُ.

«وَقَوْمُ تُبَّعٍ»، وكان قومُ تُبَّعٍ أهلَ أوثانٍ يعبدونها، وكان من خبرِه وخبرِ قومه: أنَّ تبعاً كان رجلاً من العربِ، وإنه ظهرَ على الناسِ، فاختار فِتيةً من الأخيارِ فاستبطنهم واستدخلهم، حتى أخذ منهم وبايعهم، وإنَّ قومه استكبَرُوا ذلكَ وقالوا: قد ترك دِينَكُمْ، وبايعَ الفِتيةَ؛ فلما فَشا ذلك، قال للفتية، فقال الفتيةُ: بيننا وبينَهم النارُ تُحْرِق الكاذبَ، وينجو منها الصادقُ، ففعلوا فَعَلَّقَ الفِتيةُ مصاحفَهُمْ في أعناقِهم، ثم غدوا إلى النارِ، فلما ذهبوا أنْ يدخلوها، سفعت النـارُ في وجـوههم، فنكصـوا عنها، فقال لهم تُبَّع: لتدخُلُنَّها؛ فلما دخلوهـا أُفـرجتْ عنهم حتى قَطَعُوها، وأنه قال لقومه: ادخلوها؛ فلما ذهبوا يدخلونها سفعت النارُ وجوههم، فنكصوا عنها، فقال لهم تُبَّع: لتدخلنها، فلما دخلوها أُفرجتْ عنهم، حتى إذا تَوَسَّطُوا أحاطتْ بهم، فأحرقتهم، فأسلم تُبَّعٌ، وكان تُبَّعٌ رجلاً صالحاً.

وقوله: «كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كلُّ هؤلاءِ الذين ذكرناهم كَذَّبُوا رُسُلَ الله الذين أرسلهم «فَحَقَّ وَعِيدِ»، يقولُ: فَوَجَبَ لهم الـوعيدُ الذي وعدناهم على كُفْرِهم بالله، وحَلَّ بهم العذابُ والنقمة. وإنما وصفَ رَبُّنا جَلَّ ثَنَاؤُهُ ما وصفَ في هذه الآية من إحلالِه عقوبته بهؤلاءِ المكذِّبينَ الرسلَ ترهيباً منه بذلك مشركي قريش وإعلاماً منه لهم أنهم إنْ لم يُنِيبُوا من تكذيبهم رَسُولَهُ محمداً ﷺ، أنه مُحِلٌّ بهم من العذابِ، مِثْلَ الذي أَحَلَّ بهم.

القَوْلُ في تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾

وهذا تقريعٌ من الله لمشركي قريش الذين قالوا: «أئِذَا مِتْنَا وكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ»، يقول لهم جلَّ ثَنَاؤُهُ: أَفَعَيِينَا بابتداعِ الخَلْقِ الأوَّلِ الذي خلقناه، ولم يكن شيئاً فَنَعْيَا بإعادَتِهم خَلْقاً جديداً بعد بلائِهم في التراب، وبعد فنائهم؛ يقولُ: ليس يُعْيِينَا ذلك، بل نحنُ عليه قادرونَ.

وقوله: «بَلْ هُمْ في لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما يشكُّ هؤلاءِ المشركونَ المكذِّبون بالبعث أنَّا لم نَعْيَ بالخَلْقِ الأوَّلِ، ولكنهم في شكٍّ من قُدْرَتِنَا على أنْ نخلقهم خَلْقاً جديداً بعد فنائهم، وبَلائهم في قبورهم.

وقوله: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد خلقنا الإنسانَ ونعلمُ ما تُحدِّثُ به نفسُه، فلا يَخْفَى علينا سرائرُه وضمائرُ قلبِه. «ونَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ»، يقولُ: ونحنُ أقربُ للإنسانِ من حبلِ العاتقِ؛ والوريد: عِرْقٌ بين الحلقومِ والعلباوين، والحبلُ: هو الوريدُ، فأُضيفَ إلى نفسِه لاختلافِ لفظِ اسميه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ونحنُ أقربُ إلى الإنسانِ من وريدِ حَلْقِه، حين يَتَلَقَّى الملَكَانِ، وهما المتلقيان، «عَنِ اليَمِينِ، وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيد»، وقيل: عَنَى بالقعيد: الرَّصَد.

وقوله: «ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما يلفظُ الإنسانُ من قولٍ فيتكلم به، إلا عندما يلفظ به من قول «رقيبٌ عَتيدٌ»، يعني: حافظٌ يحفظُهُ، عتيدٌ مُعَدٌّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ۝٢٠﴾

وفي قوله: «وَجاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقّ» وجهان من التأويل، أحدهما: وجاءتْ سكرةُ الموتِ، وهي شِدَّته وغَلَبته على فَهْم الإنسان، كالسكرةِ من النومِ أو الشرابِ، بالحقِّ من أمرِ الآخرةِ، فَتَبَيَّنَهُ الإنسانُ حتى تَثَبَّتَهُ وعَرَفَهُ. والثاني: وجاءتْ سكرةُ الموتِ بحقيقةِ الموت.

وقوله: «ذلكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ»، يقولُ: هذه السكرةُ التي جاءتك أيها الإنسانُ بالحقِّ هو الشيء الذي كنت تهربُ منه، وعنه تروغ.

وقوله: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلكَ يَوْمُ الوَعِيدِ»، قد تقدّم بياننا عن معنى الصُّور[1]، وكيف النَّفخُ فيه بذكرِ اختلافِ المختلفين، والذي هو أولى الأقوالِ عندنا فيه بالصواب، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقولـه: «ذلكَ يَوْمُ الوَعِيدِ»، يقولُ: هذا اليومُ الذي ينفخُ فيه هو يومُ الوعيدِ الذي وعده الله الكفارَ أنْ يُعذِّبَهُمْ فيه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجاءتْ يومَ يُنْفَخُ في الصور كُلُّ نفسٍ رَبَّها، معها سائقٌ يسوقُهَا إلى اللهِ، وشهيدٌ يشهدُ عليها بما عملت في الدنيا من خيرٍ أو شرّ.

---

(١) انظر تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام.

وقد عُنِيَ بهذه الآيات البَرُّ والفاجرُ، لأنَّ الله أتبعَ هذه الآيات قوله: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ ونَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُه»، والإنسانُ في هذا الموضع بمعنى: الناسُ كُلُّهم، غير مخصوصٍ منهم بعضٌ دونَ بعضٍ. فمعلومٌ إذا كان ذلك كذلك أنَّ معنى قوله: «وَجاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقّ»، وجاءتك أيها الإنسانُ سكرةُ الموتِ بالحقِّ «ذلكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ»، وإذا كان ذلك كذلك كانت بَيِّنَةً صحةُ ما قلنا.

وقوله: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: يُقالُ له: لقد كنتَ في غفلةٍ من هذا الذي عاينتَ اليومَ أيها الإنسانُ من الأهوالِ والشدائد «فَكَشَفْنا عَنْكَ غطاءَكَ»، يقولُ: فَجَلَّيْنَا ذلك لكَ، وأظهرناه لعينيكَ، حتى رأيتَهُ وعاينته، فزالت الغفلةُ عنك.

وقوله: «فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ»، يقولُ: فأنتَ اليومَ نافذُ البصر، عالمٌ بما كنتَ عنه في الدنيا في غفلة، وهو من قولهم: فلان بصيرٌ بهذا الأمر: إذا كانَ ذا علمٍ به، وله بهذا الأمر بَصَرٌ: أي عِلْمٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال قرينُ هذا الإنسانِ الذي جاء به يوم القيامة معه سائق وشهيد.

وقوله: «هَذَا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيلِ قَرينِ هذا الإنسانِ عند موافاته رَبَّهُ به، ربِّ هذا ما لديَّ عتيد: يقولُ: هذا الذي هو عندي مُعَدٌّ محفوظ.

وقوله: «أَلْقِيا في جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ» فيه متروك استغني بدلالةِ الظاهرِ

عليه منـه، وهو: يقال: ألقيا في جهنمَ، أو قال تعالى: ألقيا، فأخرجَ الأمرَ للقرينِ، وهو بلفظٍ واحد مخرجَ خطابِ الاثنين. وفي ذلك وجهان من التأويل: أحدهما: أنْ يكون القرينُ بمعنى الاثنين، كالرسول، والاسم الذي يكون بلفظِ الواحدِ في الواحد، والتثنية والجمع، فردَّ قوله: «أَلْقِيا في جَهَنَّمَ» إلى المعنى. والثـاني: أنْ يكون كما كان بعضُ أهلِ العربية يقول، وهو أنَّ العربَ تأمرُ الواحدَ والجماعةَ بما تأمر به الاثنين، فتقول للرجل: ويلك أرحلاها وازْجُراها[1].

«كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ»، يعني: كُلَّ جاحدٍ وحدانيةَ الله «عنيد»، وهو العامدُ عن الحقِّ وسبيلِ الهدى.

وقوله: «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ»، أي: يمنع الخير، وهو في هذا الموضع: المال، وهو عندي كل حق وجَبَ لله، أو لآدمي في ماله.

وقوله: «مُعْتَدٍ»، يقولُ: معتدٍ على الناسِ بلسانه بالبذاءِ والفُحْشِ في المنطقِ، وبيدهِ بالسطوةِ والبطشِ ظلماً.

وقوله: «مُرِيبٍ»، يعني: شاكّ في وحدانيةِ الله وقُدْرَتِه على ما يشاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: الذي أشرك بالله فعبدَ معه معبوداً أخرَ من خَلْقِه «فأَلْقِياهُ في العَذَابِ الشَّدِيدِ»، يقولُ: فألقياه في عذابِ جهنمَ الشديد.

(١) هذا كلام الفراء في معاني القرآن: ٣/٧٨.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: قال قرينُ هذا الإنسانِ الكفّارِ المنّاعِ للخيرِ، وهو شيطانُه الذي كان موكلًا به في الدنيا.

وقوله: «رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ»، يقولُ: ما أَنَا جَعَلْتُه طاغياً متعدِّياً إلى ما ليسَ له، وإنمـا يعني بذلـك الكفرَ بالله «وَلكِنْ كانَ في ضلالٍ بَعِيدٍ»، يقولُ: ولكن كان في طريقٍ جائرٍ عن سبيلِ الهدى جوراً بعيداً. وإنما أخبر تعالى ذِكْرُه هذا الخبرَ عن قولِ قرينِ الكافرِ له يومَ القيامة، إعلاماً منه عبادَهُ، تَبَرُّؤَ بعضُهم من بعضٍ يومَ القيامة.

وقوله: «لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال الله لهؤلاءِ المشركينَ الذين وصفَ صِفَتَهُمْ، وصفةَ قُرنائِهم من الشياطين «لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ» اليومَ «وَقَـدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ» في الدنيا قبل اختصامكم هذا، بالوعيدِ لمن كفرَ بي، وعصاني، وخالفَ أمري ونَهْيِي في كتبي، وعلى أَلْسُنِ رسلي.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه مخبـراً عن قِيلِه للمشركينَ وقرنائهم من الجنِّ يومَ القيامةِ، إذْ تبرأ بعضُهم من بعضٍ: ما يُغَيَّرُ القولُ الذي قلته لكم في الدنيا، وهـو قولـه: «لأَمْـلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّـةِ وَالنَّاسِ أجمَعِينَ» [هـود: ١١٩، والسجدة: ١٣]، ولا قضائي الذي قضيتُه فيهم فيها.

وقوله: «وَما أنا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»، يقولُ: ولا أنا بمعاقبٍ أحداً من خَلْقي بجرمِ غيرِه، ولا حاملٍ على أحدٍ منهم ذنبَ غيرِه فمعذّبه به.

وقوله: «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ»، يقولُ: وما أنا بظلامٍ للعبيد في «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلأْتِ» وذلك يوم القيامة، ويومَ نقولُ من صلة ظلَّام. وقال تعالى ذِكْرُه لجهنمَ يومَ القيامة: «هَلِ امْتَلأْتِ»؟ لما سَبَقَ من وَعْدِه إياها بأنه يملؤها من الجِنَّةِ والناسِ أجمعين.

وأما قوله: «هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: معناه: ما مِنْ مزيد. قالوا: وإنما يقولُ الله لها: هل امتلأتِ بعد أنْ يضعَ قدمه فيها، فينزوي بعضُها إلى بعضٍ، وتقول: قط قط، من تَضَايُقِهَا؛ فإذا قال لها وقد صارتْ كذلك: هل امتلأتِ؟ قالت حينئذٍ: «هل من مزيد»، أي ما مِنْ مزيدٍ، لشدَّةِ امتلائها، وتضايُقِ بعضِها إلى بعضٍ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: زِدْني، إنما هو هل من مزيد، بمعنى الاستزادة.

وأوْلى القولين في ذلك عندي بالصوابِ قولُ مَنْ قال: هو بمعنى الاستزادة، هل من شيء أزداده؟

وإنما قلنا ذلك أوْلى القولين بالصواب لصحةِ الخبر عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «احْتَجَّت الجَنَّةُ والنَّارُ، فَقالَتِ النَّارُ: يَدْخُلُنِي الجَبَّارُونَ والمُتَكَبِّرُونَ؛ وَقالَتِ الجَنَّةُ: يَدْخُلُنِي الفُقَراءُ وَالمَساكِينُ؛ فَأَوْحَى اللهُ عَزَّ وجَلَّ إلى الجَنَّة: أَنْتِ رَحْمَتِي أُصِيبُ بِكِ مَنْ أشاءُ؛ وأَوْحَى إلى النَّارِ: أَنْتِ عَذَابي أُصِيبُ بِكِ مَن أشاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُما مِلْؤُهَا؛ فَأَمَّا النَّارُ فَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حتى يَضَعَ قَدَمَهُ فِيها، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ»[1]. ففي قولِ النبيِّ ﷺ: «لا تَزَالُ جهنَّمُ

(١) ساق المؤلف من حديث أبي هريرة، وهو في الصحيحين: البخاري (٤٨٤٩) =

تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» دليلٌ واضحٌ على أن ذلك بمعنى الاستزادةِ لا بمعنى النفي، لأنَّ قوله: «لا تزالُ» دليلٌ على اتصال قولٍ بعد قولٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وأُزْلِفَتِ الجنَّةُ للْمُتَّقِينَ غيرَ بَعِيدٍ»، وأُدْنِيَتِ الجنةُ وقُرِّبَتْ للذين اتقوا ربَّهم، فخافوا عقوبتَهُ بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه.

وقوله: «هَذَا ما تُوعَدُونَ»، يقولُ: قال لهم: هذا الذي تُوعَدُونَ أيها المتقون، أنْ تدخلوها وتسكنوها.

وقوله: «لِكُلِّ أوَّابٍ»، يعني: لكلِّ راجعٍ من معصية الله إلى طاعته، تائبٍ من ذنوبه.

وقوله: «حَفِيظٍ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: حفظ ذنوبه حتى تاب منها.

وقال آخرون: معناه: أنه حفيظٌ على فرائضِ الله وما ائتمنه عليه.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أنْ يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه وَصَفَ هذا التائبَ الأوَّابَ بأنه حفيظٌ، ولم يخصَّ به على حفظِ نوعٍ من أنواع الطاعاتِ دونَ نوعٍ، فالواجبُ أنْ يَعُمَّ كما عَمَّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، فيقال: هو حفيظٌ لكلِّ ما قَرَّبَهُ

= و(٤٨٥٠) و(٧٤٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦)، ومن حديث أنس. وهو في الصحيحين أيضاً: البخاري (٤٨٤٨) و(٦٦٦١) و(٧٣٨٤)، ومسلم (٢٨٤٨). وقولها ـ أعاذنا الله منها ـ قط قط: حسبي حسبي!

إلى رَبِّه من الفرائضِ والطاعاتِ والذنوبِ التي سلفَتْ منه للتوبة منها والاستغفار.

وقوله: «مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بالغَيْبِ»، يقولُ: مَنْ خاف الله في الدنيا من قبل أنْ يلقاه، فأطاعه، واتبع أمره.

وقـوله: «وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ»، يقولُ: وجاء الله بقلبٍ تائبٍ من ذنوبِه، راجع مما يكرههُ اللهُ إلى ما يُرْضِيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۢ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ادْخُلُوها بِسَلامٍ» ادخلوا هذه الجنةَ بأمانٍ من الهَمِّ والغضبِ والعذابِ، وما كنتم تَلقَوْنَهُ في الدنيا من المكارِه.

وقوله: «ذَلكَ يَوْمُ الخُلُودِ»، يقولُ: هذا الذي وصفتُ لكم أيها الناسُ صِفَتَهُ من إدخالي الجنةَ مَنْ أُدْخِلُه، هو يومُ دخولِ الناسِ الجنةَ، ماكثينَ فيها إلى غيرِ نهاية.

وقوله: «لَهُمْ ما يَشاؤونَ فِيها»، يقولُ: لهؤلاءِ المتقينَ ما يُريدونَ في هذه الجنة التي أُزْلِفَتْ لهم من كُلِّ ما تَشتَهيهِ نُفوسُهم، وتَلَذُّهُ عيونهم.

وقـوله: «وَلَدَيْنا مَزِيدٌ»، يقولُ: وعندنا لهم على ما أعطيناهم من هذه الكـرامةِ التي وصَفَ جَلَّ ثَنـاؤُهُ صِفتَهـا مزيدٌ يزيدهم إياه. وقيل: إنَّ ذلك المَزِيدَ: النظرُ إلى الله جَلَّ ثَناؤُهُ.

وقوله: «وكمْ أهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: وكثيراً أهلكنا

قبلَ هؤلاءِ المشركينَ من قريش من القرونِ، «هُمْ أَشَدُّ» من قريشٍ الذين كذَّبُوا محمداً «بَطْشاً، فَنَقَّبُوا في البِلادِ»، يقول: فَخَرقُوا البلادَ فساروا فيها[1]، فطافوا وتوغَّلُوا إلى الأقاصي منها.

وقوله: «هَلْ مِنْ مَحِيصٍ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فهل كان لهم بتنقبهم في البلاد مَن معدل عن الموت؛ ومَنْجى مِن الهلاك إذ جاءهم أمرنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إن في إهلاكنا القرونَ التي أهلكناها من قبلِ قريشٍ «لَذِكْرَى» يُتَذَكَّرُ بها. «لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ»، يعني: لمن كان له عقلٌ من هذه الأمةِ، فينتهي عن الفعلِ الذي كانوا يفعلونَهُ من كُفْرِهم بربِّهم، خوفاً من أنْ يحلَّ بهم مثلُ الذي حَلَّ بهم من العذاب.

وقوله: «أوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ»، يقولُ: أو أصغى لإخبارِنَا إياهُ عن هذه القرونِ التي أهلكناها بسمعه، فيسمع الخبر عنهم، كيف فَعَلْنَا بهم حين كفـروا بربِّهم، وعَصَوْا رُسُلَهُ. «وَهُوَ شَهِيدٌ»، يقولُ: وهو مُتَفَهِّمٌ لما يخبرُ به عنهم شاهدٌ له بقلبهِ، غيرُ غافلٍ عنه ولا ساهٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾

---

(١) هذا كلام الفراء في معاني القرآن: ٣/٧٩، وشَدَّدَ مُحَقِّقُه الرَّاء من «خَرَقُوا» وما أصاب.

ق: ٣٨ ـ ٤٠

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد خلقنا السمواتِ السبع والأرض وما بينهما من الخلائقِ في ستةِ أيام، وما مسَّنا من إعياء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فاصبرْ يا محمدُ على ما يقولُ هؤلاءِ اليهود، وما يفترون على الله، ويكذبونَ عليه، فإنَّ الله لهم بالمرصاد «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ»، يقولُ: وصَلِّ بحمدِ رَبِّكَ صلاةَ الصبحِ قبلَ طلوعِ الشمس، وصلاةَ العصر قبل الغروب.

وقوله: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ»، اختلف أهلُ التأويل في التسبيحِ الذي أُمِرَ به من الليلِ، فقال بعضهم: عَنَى به صلاةَ العَتَمة.

وقال آخرون: هي الصلاةُ بالليلِ في أيِّ وقتٍ صلى.

والقولُ الأخير في ذلك أقربُ إلى الصواب، وذلك أنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ قال: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ» فلم يَحُدَّ وقتاً من الليلِ دونَ وقتٍ. وإذا كان ذلك كذلك كان على جميعِ ساعاتِ الليل. وإذا كان الأمرُ في ذلك على ما وصفنا، فهو بأنْ يكونَ أمراً بصلاةِ المغربِ والعشاء، أشبه منه بأنْ يكون أمراً بصلاةِ العَتَمة، لأنهما يصلَّيان ليلاً.

وقوله: «وأدْبارَ السُّجُودِ»، يقولُ: سبح بحمدِ رَبِّكَ أدبارَ السجودِ من صلاتك.

واختلف أهلُ التأويل في معنى التسبيح الذي أمرَ اللهُ نبيه أنْ يسبحه أدبارَ السجودِ، فقال بعضهم: عَنَى به الصلاة، قالوا: وهما الركعتانِ اللتانِ يُصَلَّيانِ بعدَ صلاةِ المغرب.

وقال آخرون: عَنَى بقوله: «وأدْبارَ السُّجُودِ»، التسبيح في أدبارِ الصلواتِ المكتوباتِ، دونَ الصلاةِ بعدها.

وقال آخرون: هي النوافلُ في أدبارِ المكتوباتِ، وهو قول ابن زيد.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصحةِ، قولُ مَنْ قال: هما الركعتان بعد المغرب، لإجماع الحُجَّةِ من أهلِ التأويلِ على ذلك، ولولا ما ذكرت من إجماعها عليه، لرأيتُ أنَّ القولَ في ذلك ما قاله ابن زيد. لأنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ لم يخصصْ بذلك صلاةً دونَ صلاةٍ، بل عَمَّ أدبارَ الصلواتِ كلها، فقال: وأدبارَ السجودِ، ولم تَقُمْ بأنه معنيٌّ به: دبرَ صلاةٍ دونَ صلاةٍ، حجةٌ يجبُ التسليمُ لها من خبرٍ ولا عقلٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واستمعْ يا محمدُ صيحةَ يومِ القيامةِ، يوم ينادي بها مُنَادِينا من موضعٍ قريب.

وقوله: «يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بالحَقِّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يوم يسمع الخلائقُ صيحةَ البعثِ من القبورِ بالحقِّ، يعني بالأمرِ بالإجابةِ للهِ إلى موقفِ الحساب.

وقوله: «ذلكَ يَوْمُ الخُرُوجِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يوم خروج أهلِ القبورِ من قبورهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنا نحنُ نُحيي الموتى ونُميتُ الأحياءَ، وإلينا مصيرُ جميعِهم يومَ القيامة «يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً»، يقول جَلَّ ثناؤه: وإلينا مَصِيرُهم يومَ تَشَقَّقُ الأرضُ، فاليوم من صِلَةِ مصير.

وقوله: «تَشَقَّقُ الأَرْض عَنْهُمْ»، يقولُ: تَصَدَّعُ الأرضُ عنهم. وقوله: «سِرَاعاً» ونُصبت سراعاً على الحالِ من الهاءِ والميم في قوله: «عنهم»، والمعنى: يومَ تشقَّقُ الأرضُ عنهم فيخرجون منها سراعاً، فاكتفى بدلالةِ قوله: «يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ» على ذلك من ذِكْرِه.

وقوله: «ذلك حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ»، يقولُ: جَمْعُهم ذلك جَمْعٌ في موقفِ الحساب، علينا يسيرٌ سَهْلٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: نحنُ يا محمدُ أعلمُ بما يقولُ هؤلاءِ المشركونَ باللهِ من فِرْيَتهم على الله، وتكذِيبهم بآياته، وإنكارهم قُدرةَ الله على البعثِ بعد الموتِ «وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ»، يقولُ: وما أنتَ عليهم بِمُسَلَّط.

وقوله: «فَذَكِّرْ بالقُرآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَذَكِّر يا محمدُ بهذا القرآنِ الذي أنزلته إليك مَنْ يخافُ الوعيدَ الذي أوعدتُه مَنْ عصاني وخالفَ أمري.

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَالذَّارِياتِ ذَرْواً»، يقولُ: والرياح التي تَذْرُو الترابَ ذَرْواً، يقال: ذرت الريح الترابَ وأذْرَتْ.

وقوله: «فالْحامِلاتِ وِقْراً»، يقولُ: فالسحاب التي تحملُ وقرها من الماء.

وقوله: «فالجارِياتِ يُسْراً»، يقولُ: فالسفن التي تجري في البحار سهلاً يسيراً، «فالمُقَسِّماتِ أمْراً»، يقولُ: فالملائكة التي تقسم أمرَ اللهِ في خلقه.

وقوله: «إنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذي تُوعَدُونَ أيها الناسُ من قيامِ الساعة، وبعثِ الموتى من قبورهم «الصادقُ»، يقولُ: لكائنٌ حقٌّ يقين.

«وَإنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ»، يقولُ: وإنَّ الحسابَ والثوابَ والعقابَ لواجبٌ، والله مُجازٍ عبادَهُ بأعمالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والسماء ذاتِ الخَلْق الحَسَن، وعنى بقوله: «ذَاتِ الحُبُكِ»: ذات الطرائق، وتكسيرُ كُلِّ شيءٍ: حُبُكُه، وهو جمع حِباكٍ وحَبيكة(١).

وقوله: «إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ»، يقولُ: إنكم أيها الناسُ لفي قولٍ مختلفٍ في هذا القرآن، فمن مُصَدِّقٍ به ومُكَذِّب.

وقوله: «يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ»، يقولُ: يصرف عن الإيمانِ بهذا القرآنِ مَنْ صرف، ويدفع عنه من يُدْفع، فيُحْرَمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لُعِنَ المُتَكَهِّنُونَ الذينَ يَتَخَرَّصُونَ الكذبَ والباطلَ فيَتَظَنَّنُونَهُ.

وقوله: «الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: الذين هم في غمرةِ الضلالةِ وغَلَبتها عليهم متمادون، وعن الحقِّ الذي بعثَ الله به محمداً ﷺ ساهون، قد لَهُوا عنه.

وقــولـه: «يَســأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ؟»، يقول تعالى ذِكْرُه: يسأل هؤلاءِ الخرَّاصُونَ الذين وصف صِفَتهم: متى يوم المجازاة والحساب، ويوم يُدِينُ الله العبادَ بأعمالهم.

---

(١) القول بأنها ذات الخَلْق الحسن، هو قول المفسرين منهم ابن عباس وقتادة. والقول بأنها ذات الطرائق هو تفسير اللغويين، وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحُسْنُ والبهاء. قال ابن كثير: فإنها من حُسْنِهَا مرتفعة شفافة صفيقة شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مُكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات.

وقوله: «يَوْمَ هُمْ على النَّارِ يُفْتَنُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يومَ هُمْ على نارِ جهنمَ يُفْتَنُونَ.

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «يُفْتَنُونَ» في هذا الموضع، فقال بعضهم: عنى به أنهم يعذَّبون بالإحراقِ بالنار.

وقال آخرون: بل عنى بذلك: أنهم يكذبون.

وأوْلى القولين بالصوابِ في تأويلِ قوله: «يَوْمَ هُمْ عَلى النَّارِ يُفْتَنُونَ» قولُ مَنْ قال: يُعَـذَّبُونَ بالإحراقِ، لأنَّ الفتنةَ أصلها الاختبار، وإنما يقال: فتنت الذهب بالنار: إذا طبختها بها لتعرف جودتها، فكذلك قوله: «يَوْمَ هُمْ عَلى النَّارِ يُفْتَنُونَ» يُحْرَقُونَ بها كما يُحْرَقُ الذهبُ بها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ١٤ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ»، يقال لهم: ذُوقُوا فتنتكم وتَرَكَ: يقال لهم، لدلالةِ الكلام عليها.

ويعني بقوله: «فِتْنَتَكُمْ»: عذابكم وحريقكم.

وقوله: «هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهم: هذا العذابُ الذي تُوَفَّوْنَهُ اليومَ، هو العذابُ الذي كنتم به تستعجلون في الدنيا.

وقوله: «إِنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين اتقوا

الله بطاعته، واجتناب معاصيه في الدنيا في بساتينَ وعيونِ ماءٍ في الآخرة.

وقوله: «آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: عاملينَ ما أَمَرَهُمْ به رَبُّهم مؤدِّينَ فرائضه.

وقوله: «إنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلكَ مُحْسِنِينَ»، يقولُ: إنهم كانوا قبلَ أنْ يفرضَ عليهم الفرائض محسنينَ، يقولُ: كانوا لله قبلَ ذلك مُطِيعينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ١٩﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ»، قال بعضهم: معناه كانوا قليلاً من الليل لا يهجعون، وقالوا: «ما» بمعنى الجحد.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: كانوا قليلاً من الليل يهجعون، ووجهوا «ما» ـ التي في قوله: «ما يَهْجَعُونَ» إلى أنها صِلَة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: كانوا يُصَلُّونَ العَتَمة، وعلى هذا التأويل «ما» ـ في معنى الجحد.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: كانوا هؤلاء المحسنونَ قبلَ أنْ تُفرضَ عليهم الفرائضُ قليلاً من الناسِ، وقالوا الكلام بعد قوله: «إنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلكَ مُحْسِنِين» كانوا قليلاً مستأنفٌ بقوله: «مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ» فالواجبُ أن تكون «ما» على هذا التأويلِ بمعنى الجحد.

وأما قوله: «يَهْجَعُونَ»، فإنه يعني: ينامونَ، والهجوعُ: النوم.

وأَوْلى الأقوالِ بالصحةِ في تأويل قوله: «كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما

يَهْجَعُون»، قولُ مَنْ قال: كانوا قليلاً من الليل هُجُوعُهم، لأنَّ الله تبارك وتعالى وَصَفَهم بذلك مَدْحاً لهم، وأثنى عليهم به، فوصفهم بكثرةِ العملِ، وسهر الليلِ، ومكابدته فيما يُقَرِّبُهم منه ويُرْضِيه عنهم أوْلى وأشبه من وَصْفِهم من قلةِ العملِ، وكثرةِ النوم، مع أنَّ الذي اخترنا في ذلك هو أغلب المعاني على ظاهرِ التنزيل.

وقوله: «وَبالأسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله: فقال بعضهم: معناه: وبالأسحارِ يُصَلُّون.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك أنهم أَخَّرُوا الاستغفارَ من ذنوبهم إلى السحر.

وقوله: «وفِي أمْوَالِهِمْ حَقٌّ للسَّائِلِ والمَحْرُومِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وفي أموالِ هؤلاءِ المحسنينَ الذي وَصَفَ صِفَتَهُمْ حقٌّ لسائِلهم المحتاج إلى ما في أيدِيهم والمحروم.

وبنحو الذي قلنا في معنى السائل، قال أهلُ التأويل، وهم في معنى المحرومِ مختلفونَ، فمن قائلٍ: هو المحارَفُ الذي ليس له في الإسلامِ سهم.

ومن قائل: هو المُتَعَفِّفُ الذي لا يسأل الناس شيئاً.

وقائل: هو الذي لا سهمَ له في الغنيمة.

وقائل: هو الذي لا يَنْمي له مالٌ.

وقائل: هو الذي قد ذهب ثمره وزرعه.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أنه الذي قد حُرِمَ الرزقَ واحتاجَ، وقد يكون ذلك بذهابِ ماله وثمره، فصار ممن حرمه الله ذلك، وقد يكون بسبب تَعَفُّفِه وتركِه المسألةَ، ويكون بأنه لا سهم له في الغنيمة لغيبته عن الوقعة، فلا

قولَ في ذلك أوْلى بالصوابِ من أنْ تعمَّ، كما قال جَلَّ ثَناؤُهُ: «وفي أمْوَالِهِمْ حَقٌّ للسَّائِلِ وَالمَحْرُومِ»[1]

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وفي الأرضِ عِبَرٌ وعِظَاتٌ لأهلِ اليقينِ بحقيقةِ ما عايَنُوا ورأوا إذا ساروا فيها.

وقوله: «وفي أنْفُسِكُمْ أفَلا تُبْصِرُونَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: وفي سبيلِ الخلاءِ والبولِ في أنفسكم عِبرةٌ لكم، ودليلٌ لكم على رَبِّكم، أفلا تُبصرونَ إلى ذلك منكم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وفي تسويةِ الله تباركَ وتعالى مفاصلَ أبدانِكم وجوارحكم دلالةٌ لكم على أنْ خُلِقْتُمْ لعبادته.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: معنى ذلك: وفي أنفسكم أيضاً أيها الناسُ آياتٌ وعِبرٌ تَدُلُّكم على وحدانيةِ صانِعكم، وأنه لا إلهَ لكم سِواهُ، إذْ كان لا شيء يقدرُ على أنْ يخلقَ مِثْلَ خَلْقِه إياكم «أفلا تُبْصِرُونَ»، يقولُ: أفلا تنظرونَ في ذلك فتتفكَّرُوا فيه، فتعلموا حقيقةَ وحدانيةِ خالقِكم.

وقوله: «وفي السَّماءِ رِزْقُكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: «وفي السماء» المطرُ

---

(١) رجَّح ابن الجوزي أنَّ المحروم هو المتعفف، وقال: «لأنه قَرَنَهُ بالسائل، والمتعفف لا يسأل ـ ولا يكاد الناسُ يعطونَ مَنْ لا يسأل ـ ثم يتحفظ بالتعفف من ظهور أثر الفاقة عليه، فيكون محروماً من قِبَلِ نفسه حين لم يسأل، ومن قِبَلِ الناس حين لا يعطونه، وإنما يفطنُ له متيقظ» (أنظر: زاد المسير: ٨/٣٣). وهذا كلام جيد.

والثلجُ اللذان بهما تُخْرِجُ الأرضَ رِزْقَكُمْ، وقُوتَكم من الطعامِ والثمارِ وغير ذلك.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «وَما تُوعَدُونَ»، فقالَ بعضهم: معنى ذلك: وما تُوعَدُونَ من خيرٍ، أو شرٍّ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما تُوعدون من الجنةِ والنار.

وأَوْلى القولين بالصواب في ذلك عندي، القولُ الأول، لأنَّ اللهَ عَمَّ الخبرَ بقوله: «وَما تُوعَدُونَ» عن كلِّ ما وعدنا من خيرٍ أو شرٍّ، ولم يُخَصِّصْ بذلك بعضاً دونَ بعضٍ، فهو على عمومهِ كما عَمَّهُ اللهُ جلّ ثناؤه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُقْسِماً لخلْقِه بنفسِه: فوربِّ السماءِ والأرض، إنَّ الذي قلتُ لكم أيها الناسُ: إنَّ في السماء رزقُكم وما تُوعدونَ لحقٌّ، كما حقٌّ أنكم تَنْطِقُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، يخبره أنه مُحِلٌّ بمن تمادى في غيِّه، وأصرَّ على كُفْره، فلم يَتُبْ منه من كفارِ قومه، ما أحلَّ بمن قَبْلَهم من الأممِ الخالية، ومُذَكِّراً قومَهُ من قريشٍ بإخبارِه إياهم أخبارَهُمْ وقَصَصَهُمْ، وما فعلَ

بهم، هل أتاك يا محمدُ حديث ضيفِ إبراهيمَ خليلِ الرحمن المكرمين.

يعني بقوله: «المُكْرَمِينَ» أنَّ إبراهيمَ عليه السلام وسارّة خَدَمَاهم بأنفسهما.

وقوله: «إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ»، يقولُ: حين دخل ضيفُ إبراهيمَ عليه، فقالوا له سلاماً: أي أسلموا إسلاماً، قال: سلام.

وقـولـه: «قَوْمٌ مُنْكَرُونَ»، يقولُ: قومٌ لا نَعْرِفُكم، ورفع «قوم منكرون» باضمارِ أنتم.

وقـوله: «فَرَاغَ إلى أهْلِهِ»، يقولُ: عَدَلَ إلى أهله ورَجَعَ. وكان الفَرَّاءُ يقول[1]: الروغُ وإنْ كان على هذا المعنى فإنه لا يُنْطَقُ به حتى يكون صاحبه مُخْفِياً ذهابه أو مجيئه، وقال: ألا ترى أنكَ تقولُ: قد راغَ أهلُ مكة وأنتَ تريدُ رجعوا أو صدروا، فلو أخفى راجعٌ رجوعَهُ حَسُنَتْ فيه راغَ ويروغُ.

وقـولـه: «فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ»، يقولُ: فجاء ضيفَه بعجلٍ سمينٍ قد أنضجه شيّاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

وقـوله: «فقَرَّبهُ إلَيهِمْ، قالَ ألا تَأْكُلونَ؟»، وفي الكلام متروك استُغني بدلالـةِ الـظاهـرِ عليه منه وهو: فقرَّبَهُ إليهم، فأمسكوا عن أكْلِه، فقال: ألا تأكلونَ؟ «فـأوجَسَ منهم»، يقولُ: فأوجَسَ في نفسِه إبراهيمُ من ضيفِه خِيفةً

---

(١) معاني القرآن: ٣/٨٦.

وأضمرها. «قالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بغُلامٍ عَلِيمٍ»، يعني: بإسحاقَ، وقال: «عليم» بمعنى عالم إذا كبر.

وإنما قلت: عَنَى به إسحاق، لأنَّ البشارةَ كانت بالولد من سارَّة، وإسماعيل لهاجرَ لا لسارّة.

قوله: «فأقْبَلَتِ امرأتُهُ في صَرَّةٍ»، يعني: سارّة، وليس ذلك إقبال نقلةٍ من موضعٍ إلى موضعٍ، ولا تَحوُّلٍ من مكانٍ إلى مكانٍ، وإنما هو كقولِ القائلِ: أقبل يشتمني، بمعنى: أخذ في شتمي. وقوله «في صَرَّةٍ» يعني: في صَيْحةٍ.

وقوله: «فَصَكَّتْ وَجْهَها» اختلف أهل التأويل في معنى صكها، والموضع الذي ضربته من وجهها فقال بعضهم: معنى صَكِّها وَجْهَهَا: لَطْمِها إياه.

وقال آخرون: بل ضَرَبَتْ بيدها جَبْهَتَها تعجباً.

والصكُّ عند العرب: هو الضربُ. وقد قيل: إنْ صَكَّهَا وَجْهَهَا، أنْ جَمَعَتْ أصابعها، فضربتْ بها جَبْهَتَها «وَقالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ»، يقولُ: وقالت: أَتَلِدُ، وحُذِفَتْ أَتَلِدُ لدلالةِ الكلامِ عليه، وبضمير أَتَلِدُ رُفِعَتْ عجوزٌ عقيمٌ، وعنى بالعقيم: التي لا تَلِدُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ ضيفِ إبراهيمَ لزوجتِه إذْ قالت لهم، وقد بَشَّرُوها بغلامٍ عليم: أَتَلِدُ عجوزٌ عقيم. «قالُوا كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ»، يقولُ: «هكذا قال رَبُّكِ»، أي كما أخبرناكِ وقلنا لكِ: «إنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ العَلِيمُ» والهاء في قوله: «إنه» من ذكر الربِّ، «هو الحكيم» في تدبيره خَلْقَهُ، «العليم» بمصالِحهم، وبما كان، وبما هو كائن.

وقوله: «قَال فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّها المُرْسَلُونَ»، يقولُ: قال إبراهيمُ لضيفه: فما شأنكم أيها المُرْسَلُونَ. «قالُوا إنَّا أُرْسِلْنَا إلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ» قد أجرموا لِكُفْرِهم بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾

«لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ»، يقولُ: لنمطرَ عليهم من السماءِ حجارةً من طينٍ «مُسَوَّمَةً»، ـ يعني: مُعلَّمة ـ «عند ربك» يا إبراهيمُ «للمُسْرفين»، يعني: للمتعدِّينَ حدودَ الله، الكافرينَ به من قوم لوط.

«فأخرَجْنا مَنْ كانَ فيها مِنَ المُؤْمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأخرجنا مَنْ كان في قرية سَدُوم، قرية قوم لوطٍ من أهلِ الإيمانِ باللهِ وهُمْ لوطٌ وابنتاهُ، وكَنَّى عن القريةِ بقوله: «مَنْ كانَ فيها» ولم يَجْرِ لها ذكرٌ قبل ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فما وجدنا في تلك القريةِ التي أخرجنا منها مَنْ كان فيها من المؤمنينَ غيرَ بيتٍ من المسلمينَ، وهو بيتُ لوط.

وقوله: «وَتَرَكْنافِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ العَذابَ الأَلِيمَ»، يقولُ: وتركنا في هذه القريةِ التي أخرجنا مَنْ كان فيها من المؤمنينَ آيةً، وقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وتَرَكْنا فِيها آيَةً»، والمعنَى: وتركناها آيةً لأنها التي ائْتُفِكَتْ بأهلِها، فهي الآية، وذلك كقولِ القائل: ترى في هذا الشيء عبرةً وآيةً؛ ومعناها: هذا الشيءُ آيةٌ وعبرة، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ للسَّائِلِينَ» [يوسف: ٧]

وهم كانوا الآيات وفعلهم، ويعني بالآية: العظة والعبرة، للذين يخافونَ عذابَ اللهِ الأليمَ في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وفي موسى بن عمران إذْ أرسلناهُ إلى فرعونَ بحجةٍ تبينُ لِمَنْ رآها أنها حجةٌ لموسى على حقيقةِ ما يقولُ ويدعو إليه.

وقوله: «فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ»، يقولُ: فأدبرَ فرعونُ كما أرسلنا إليه موسى بقومِه من جُنْدِه وأصحابه.

وقوله: «وَقَالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ»، يقولُ: وقال لموسى: هو ساحرٌ يسحرُ عيونَ الناسِ، أو مجنونٌ، به جنَّة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأخذنا فرعونَ وجنودَهُ بالغضبِ منا والأسف «فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ»، يقولُ: فألقيناهم في البحر، فَغَرَّقْنَاهُمْ فيه: «وَهُوَ مُلِيمٌ»، يقولُ: وفرعونُ مليمٌ، والمليمُ: هو الذي قد أتى ما يُلامُ عليه من الفعل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وفي عادٍ» أيضاً، وما فعلنا بهم لهم آية وعبرة «إذْ أرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ»، يعني بالريحِ العقيم: التي لا تلقحُ الشجرَ.

وقوله: «ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إلاَّ جَعَلَتْهُ كالرَّمِيمِ» والرميمُ في كلام العرب: ما يَبِسَ من نباتِ الأرضِ ودِيْسَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وفي ثمود أيضاً لهم عبرةٌ ومُتَّعَظٌ، إذْ قال لهم رَبُّهم، يقولُ: فَتَكَبَّرُوا عن أمرِ رَبِّهم وعلَوْا استكباراً عن طاعةِ الله.

وقوله: «فأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأخذتهم صاعقةُ العذابِ فجأة، «وهم يَنْظرون»، يقولُ: ينتظرون حُلُولَهُ بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فما استطاعوا من دفاعٍ لما نزلَ بهم من عذابِ الله، ولا قدروا على نهوضٍ به.

وقوله: «وَما كانُوا مُنتَصِرينَ»، يقولُ: وما كانوا قادرينَ على أنْ يَسْتَفِيدُوا مِمَّنْ أحَلَّ بهم العقوبةَ التي حَلَّتْ بهم.

وقوله: «وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قولِه: «وقَوْمَ نُوحٍ» نصباً، ولنصب ذلك وجوهٌ: أحدها: أنْ يكونَ القومُ عطفاً على الهاء والميم في قوله: «فأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ» إذْ كان كلُّ عذابٍ مُهْلِكٍ تُسميه العربُ صاعقة، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: فأخذتهم الصاعقةُ وأخذتْ قومَ نوحٍ من قَبْلُ. والثاني: أن يكون منصوباً بمعنى الكلام، إذْ كان فيما مضى

من أخبارِ الأممِ قبلُ دلالةٌ على المرادِ من الكلامِ، وأنَّ معناهُ: أهلكنا هذه الأممَ، وأهلكنا قومَ نوحٍ من قَبْلُ. والثالث: أن يضمر له فعلاً ناصباً، فيكون معنى الكلام: واذكُرْ لهم قومَ نوحٍ، كما قال: «وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ» ونحو ذلك، بمعنى أَخْبِرْهُمْ واذْكُرْ لهم.

وقرأ ذلك عامة قَرَأَة الكوفة والبصرة «وَقَوْمِ نُوحٍ» بخفضِ القومِ على معنى: وفي قومِ نوح عطفاً بالقومِ على موسى في قوله: «وفي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْناهُ إلى فِرْعَوْنَ».

والصوابُ من القولِ في ذلك أنهما قراءتان معروفتان في قرأةِ الأمصار، فبأيتهما قرأ القارىءُ فمصيبٌ، وتأويلُ ذلك في قراءة مَنْ قرأه خفضاً: وفي قومِ نوحٍ لهم أيضاً عبرةٌ، إذْ أهلكناهم من قبل ثمود لما كَذَّبُوا رسولَنَا نوحاً.

«إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ»، يقولُ: إنهم كانوا مخالفينَ أمرَ الله، خارجينَ عن طاعته.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والسماءَ رفعناها سقفاً بقوّةٍ.

وقـولـه: «وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ»، يقولُ: لذو سعةٍ بخلقِها وخلقِ ما شِئْنَا أَنْ نَخْلقَـهُ وقـدرةٍ عليه. ومنـه قولـه: «على المُوسعِ قَدَرُهُ وعلى المُقْتِرِ قَدَرُهُ» [البقرة: ٢٣٦] يراد به القويّ.

وقوله: «والأَرْضَ فَرَشْناها»، يقول تعالى ذِكْرُه: والأرضَ جعلناها فراشاً للخَلْقِ «فَنِعْمَ المَاهِدُونَ» يقولُ: فنعم الماهدونَ لهم نحنُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وخلقنا من كلِّ شيءٍ خلقنا زوجين، وتَرَكَ خَلَقْنَا الأُولى استغناءً بدلالةِ الكلامِ عليها.

واختُلف في معنى: «خَلَقْنا زَوْجَيْنِ»، فقال بعضهم: عَنَى به: ومِنْ كُلِّ شيءٍ خلقنا نوعين مختلفين كالشقاءِ والسعادةِ والهدى والضلالة، ونحو ذلك.

وقال آخرون: عَنَى بالزوجين: الذكرَ والأنثى.

وأَوْلى القولين في ذلك القول الأول، وهو أنَّ الله تبارك وتعالى، خَلَقَ لكلِّ ما خَلَقَ من خَلْقِه ثانياً له مُخَالِفاً في معناه، فكلُّ واحدٍ منهما زوجٌ للآخر، ولذلك قيل: خلقنا زوجين. وإنما نبَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بذلك من قوله: خَلْقَهُ، على قُدْرَتِه على خَلْقِ ما يشاءُ خَلْقَهُ من شيءٍ، وأنه ليس كالأشياءِ التي شأنها فعل نوعٍ واحدٍ دونَ خلافِه، إذ كلُّ ما صِفَتُه فِعْلُ نوعٍ واحدٍ دونَ ما عَدَاهُ كالنارِ التي شأنهـا التسخينُ، ولا تَصْلُحُ للتبريد، وكالثلجِ الذي شأنُه التبريدُ، ولا يصلحُ للتسخينِ، فلا يجوزُ أنْ يُوصَفَ بالكمالِ، وإنما كمالُ المدحِ للقادرِ على فعلِ كُلِّ ما شاء فِعْلَه من الأشياء المختلفةِ والمُتَّفِقَةِ.

وقوله: «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»، يقولُ: لتذكروا وتَعْتَبِرُوا بذلك، فَتَعْلَمُوا أيها المشركونَ باللهِ أنَّ رَبَّكم الذي يستوجبُ عليكم العبادةَ هو الذي يقدرُ على خلقِ الشيءِ وخِلافِه، وابتداعِ زوجينِ من كلِّ شيءٍ لا ما لا يقدرُ على ذلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فاهربوا أيها الناسُ من عقابِ الله إلى رحمتِه بالإيمانِ به، واتباعِ أمره، والعمل بطاعتِه «إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ»، يقولُ: إني لكم من اللهِ نذيرٌ أُنذِرُكم عقابَهُ، وأُخَوِّفُكُمْ عذابَهُ الذي أَحَلَّهُ بهؤلاءِ الأممِ الذين قصَّ عليكم قَصَصَهُمْ، والذي هو مُذِيقُهم في الآخرة.

وقوله: «مُبِينٌ»، يقولُ: يبينُ لكم نذارته.

وقوله: «وَلا تَجْعَلُوا مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: ولا تجعلوا أيها الناسُ مع معبودِكم الذي خلقكم معبوداً آخرَ سِواهُ، فإنه لا معبودَ تصلحُ له العبادةُ غيره «إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ»، يقولُ: إني لكم أيها الناسُ نذيرٌ من عقابِهِ على عبادَتِكُمْ إلهاً غيرَهُ: مبينٌ قد أبانَ لكم النذارة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كما كَذَّبَتْ قريش نَبِيَّهَا محمداً ﷺ، وقالت: هو شاعرٌ، أو ساحرٌ أو مجنونٌ، كذلك فعلت الأممُ المكذِّبةُ رُسُلَها، الذين أَحَلَّ اللهُ بهم نِقْمَتَهُ، كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمود، وفرعون وقومه، ما أتى هؤلاءِ القوم الذين ذكرناهم من قبلهم، يعني من قبلِ قريشٍ قومِ محمدٍ ﷺ «مِنْ رسولٍ إلا قالوا: ساحرٌ أو مجنون»، كما قالت قريشٌ لمحمدٍ ﷺ.

وقوله: «أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أَأَوْصَى هؤلاءِ المُكَذِّبينَ ـ من قريش محمداً ﷺ على ما جاءهم به من الحقِّ ـ أوائلُهم وآباؤهم الماضونَ مِنْ قَبْلِهِمْ، بتكذيبِ محمدٍ ﷺ، فَقَبِلُوا ذلكَ عنهم.

وقوله: «بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما أوصى هؤلاءِ المشركونَ آخرهم بذلك، ولكنهم قومٌ مُتَعَدُّونَ طُغاةٌ عن أمرِ رَبِّهم، لا يأتمرون

لأمرِه، ولا ينتهونَ عما نهاهم عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، فَتَوَلَّ يا محمدُ عن هؤلاءِ المشركينَ باللهِ من قريش، يقول: فأعْرِضْ عنهم حتى يأتيكَ فيهم أمرُ الله، يقال: ولَّى فلانٌ عن فلان: إذا أعرضَ عنه وتركه.

وقوله: «فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فما أنتَ يا محمدُ بمَلُومٍ، لا يلومُكَ رَبُّكَ على تفريطٍ كان منكَ في الإنذار فقد أنذرتَ، وبَلَّغْتَ ما أُرْسِلْتَ به.

وقوله: «وَذَكِّرْ فإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ، يقولُ: وعِظْ يا محمدُ، مَنْ أُرْسِلْتَ إليه، فإنَّ العِظَةَ تنفع أهلَ الإيمانِ باللهِ.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِــهِ تَعَــالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾

اختلف أهـلُ التـأويل في تأويل قولـه: «وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: وما خلقتُ السُّعداءَ من الجِنِّ والإنسِ إلا لعبادتي، والأشقياء منهم لمعصيتي.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليُذْعِنُوا لي بالعُبودةِ.

وأَوْلى القـولين في ذلـك بالصوابِ قولُ من قال هو: ما خلقتُ الجنَّ

والإنسَ إلا لعبادتنا، والتذللِ لأمرنا.

فإنْ قال قائل: فكيف كفروا وقد خلقهم للتذللِ لأمرِه؟ قيل: إنهم قد تَذَلَّلوا لقضائِه الذي قضاه عليهم، لأن قضاءَهُ جارٍ عليهم، لا يقدرونَ من الامتناعِ منه إذا نزلَ بهم، وإنما خالفه مَنْ كفرَ به في العملِ بما أمرَهُ به، فأما التذللُ لقضائه فإنه غير ممتنعٍ منه.

وقوله: «ما أُرِيدَ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما أُرِيدُ ممن خلقتُ من الجنِّ والإنسِ من رزقٍ يرزقونه خَلْقي «وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ»، يقولُ: وما أُريدُ منهم من قُوتٍ أَنْ يقوتُوهم، ومن طعامٍ أن يطعموهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله هو الرزَّاقُ خَلْقَهُ، المتكفِّلُ بأقواتِهم، «ذو القوّة المتين»، يعني بالمتين: الشديد.

وقوله: «فإنَّ للذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوب أصحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإنَّ للذينَ أشركوا باللهِ من قريشٍ وغيرِهم ذَنُوباً، وهي الدَّلْوُ العظيمةُ، وهو السجلُ أيضاً إذا مُلِئتْ أو قاربت الملءَ، وإنما أُريدَ بالذَّنُوب في هذا الموضع: الحظُّ والنصيب.

ومعنى الكلام: فإنَّ للذين ظلموا من عذابِ الله نصيباً وحظاً نازلاً بهم، مثل نصيب أصحابهم الذين مضوا من قَبْلِهم من الأممِ، على منهاجِهم من العذابِ، فلا يستعجلونَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى

يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فالوادي السائلُ في جهنمَ من قَيْحٍ وصديدٍ للذينَ كَفَرُوا باللهِ وجَحَدُوا وحدانيتَهُ «من يومهم الذين يُوعدون» فيه نزولَ عذابِ الله إذا نزلَ بهم ماذا يَلْقَوْنَ فيه من البلاءِ والجَهْدِ.

سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢
فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ
۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «والطُّورِ»: والجبلِ الذي يُدعى الطور.

وقوله: «وكِتابٍ مَسْطُورٍ»، يقولُ: وكتابٍ مكتوبٍ.

وقوله: «في رَقٍّ مَنْشُورٍ»، يقولُ: في ورقٍ منشور.

وقوله: «في» من صلة مسطور، ومعنى الكلام: وكتابٍ سطر، وكُتِبَ في ورقٍ منشور.

وقوله: «وَالبَيْتِ المَعْمُورِ»، يقولُ: والبيتِ الذي يعمرُ بكثرةِ غاشيتهِ وهو بيتٌ فيما ذُكِرَ في السماء بحيالِ الكعبةِ من الأرض، يدخلُه كلَّ يومٍ سبعونَ ألفاً من الملائكة، ثم لا يعودون فيه أبداً.

وقوله: «وَالسَّقْفِ المَرْفُوعِ»، يعني بالسقف في هذا الموضع: السماء، وجعلها سقفاً، لأنها سماء للأرضِ، كسماءِ البيتِ الذي هو سقفه.

وقـولـه: «وَالبَحْـرِ المَسْجُـورِ»، اختلف أهـلُ التـأويل في معنى البحر المسجور، فقال بعضهم: الموقد، وتأوَّلَ ذلك: والبحرِ الموقد المَحْمِيِّ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وإذا البحارُ مُلِئَتْ، وقال: المسجور: المملوء.

وقال آخرون: بل المسجور: الذي قد ذَهَبَ ماؤه.

وقال آخرون: المسجورُ: المحبوسُ.

وأوْلى الأقوال في ذلك عندي بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معناه: والبحرِ المملوءِ المجموعِ ماؤه بعضُه في بعضٍ، وذلك أنَّ الأغلب من معاني السجر: الإيقاد، كما يقال: سجرتُ التنورَ، بمعنى: أوقدتُ، أو الامتلاء على ما وصفت.

فإذا كان ذلك الأغلب من معاني السَّجْرِ، وكان البحرُ غير مُوقَدٍ اليوم، وكان الله تعالى ذِكْرُه قد وصفه بأنه مسجورٌ، فبطل عنه إحدى الصفتين، وهو الإيقاد صَحَّت الصفةُ الأخرى التي هي له اليوم، وهو الامتلاء، لأنه كلَّ وقتٍ ممتليء.

وقوله: «إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ» يا محمدُ، لكائنٌ حالٌّ بالكافرينَ به يومَ القيامة.

وقوله: «ما لَهُ من دَافِعٌ»، يقولُ: ما لذلكَ العذابِ الواقعِ بالكافرينَ من دافعٍ يدفعُه عنهم، فينقذهم منه إذا وقع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ عَذابَ رَبِّكَ لواقعٌ «يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً» فيومَ مِنْ صِلَةِ واقعٍ، ويعني بقوله: «تمور»، تدور وتكفأ.

وقوله: «وَتَسِيرُ الجِبالُ سَيْراً»، يقولُ: وتسيرُ الجبالُ عن أماكنها من الأرضِ سيراً، فتصيرُ هباءً مُنْبَثّاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فالوادي الذي يسيلُ من قَيْحٍ وصَديدٍ في جهنم، يومَ تمورُ السماءُ موراً، وذلك يوم القيامةِ للمُكَذِّبينَ بوقوعِ عذابِ اللهِ للكافرينَ، يوم تمورُ السماء مَوْراً.

وقوله: «الَّذينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ»، يقولُ: الذينَ هُمْ في فتنةٍ واختلاطٍ في الدنيا يلعبون، غافلينَ عما هُمْ صائرونَ إليه من عذابِ الله في الآخرة.

وقوله: «يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نارِ جَهَنَّمَ دَعّاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: فويلٌ للمكذِّبينَ يومَ يُدَعُّونَ، وعَنَى بقوله: «يُدَعُّونَ» يدفعون بإرهاقٍ وإزعاجٍ، يقال منه: دَعَعْت في قفاه: إذا دفعت فيه.

وقوله: «هَذِهِ النَّارُ التي كُنْتُمْ بها تُكَذِّبُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهم: هذه النارُ التي كنتم بها في الدنيا تُكَذِّبُونَ، فتجحدونَ أَنْ ترِدوها، وتصلوها، أو يعاقبكم بها رَبُّكم، وتَرَكَ ذِكْرَ: يُقال لهم، اجتزاءً بدلالةِ الكلامِ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عما يُقالُ لهؤلاءِ المكذِّبينَ الذين وَصَفَ صِفَتَهُمْ إذا وَرَدُوا جهنمَ يومَ القيامة: أَفَسِحْرٌ أيها القومُ هذا الذي وَرَدْتُمُوهُ الآنَ أَمْ أنتم لا تُعَايِنُونَهُ ولا تُبْصِرُونَهُ؟ وقيل هذا لهم توبيخاً لا استفهاماً.

وقوله: «اصْلَوْهَا»، يقولُ: ذُوقُوا حَرَّ هذه النارِ التي كنتم بها تُكَذِّبُونَ، وَرِدُوها فاصبروا على ألمها وشِدَّتِهَا، أو لا تصبروا على ذلك، سواءٌ عليكم صبرتم أو لَمْ تصبروا «إِنَّمَا تُجزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقولُ: ما تُجْزَوْنَ إلا أعمالكم: أي لا تعاقبونَ إلا على معصيتِكُمْ في الدنيا رَبَّكُمْ وكفركم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين اتقوا اللهَ بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصِيهِ «في جناتٍ»، يقولُ: في بساتين، «ونعيم» فيها، وذلك في الآخرة.

وقوله: «فاكِهِينَ»، يقولُ: عندهم فاكهةٌ كثيرة، وذلك نظير قولِ العربِ للرجلِ يكونُ عنده تمرٌ كثير: رجلٌ تامِرٌ، أو يكون عنده لَبَنٌ كثيرٌ، فيقال: هو لابِنٌ.

وقوله: «بِمَا آتاهُمْ رَبُّهُمْ»، يقولُ: عندهم فاكهةٌ كثيرةٌ بإعطاءِ اللهِ إياهم ذلك. «ووَقاهُمْ رَبُّهُم عَذَابَ الجَحِيم»، يقولُ: ورفع عنهم رَبُّهم عقابَهُ الذي عَذَّبَ به أهلَ الجحيم.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «كُلُوا واشربوا»، يُقالُ لهؤلاءِ المتقينَ في الجناتِ: كُلُوا أيها القومُ مما آتاكم رَبُّكم واشربوا من شرابها هنيئاً، لا تخافونَ مما تأكلونَ وتشربونَ فيها أذًى ولا غائلةً. «بما كنتم تعملونَ» في الدنيا لله من الأعمالِ.

وقوله: «متكئين على سُرُرٍ مصفوفةٍ»، قد جُعِلَتْ صفوفاً، وترك قوله: على نمارق، اكتفاءً بدلالة ما ذُكرَ من الكلام عليه.

وقوله: «وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وَزَوَّجْنا الذُّكُورَ من هؤلاءِ المتقينَ أزواجاً «بحورٍ عين» من النساء، يقول الرجلُ: زوِّج هذا الخف الفرد أو النعل الفرد بهذا الفرد، بمعنى: اجعلهما زوجاً، وقد بيَّنا معنى الزوج فيما مضى بما أغنى عن أعادته ها هنا، والحُور: جمع حَوْراء، وهي الشديدةُ بياضِ مقلةِ العينِ في شدّةِ سوادِ الحدقة، والعِين: جمع عَيْنَاء، وهي العظيمةُ العين في حُسْنٍ وسَعَة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: والذين آمنوا باللهِ ورسولِه، وأتبعناهم ذُرِّياتِهم الذين أدركُوا الإيمانَ بإيمانٍ، وآمَنُوا باللهِ ورسولِه، ألحقنا بالذين آمنوا ذُرِّيَتَهُمْ الذين أدركوا الإيمانَ فآمنوا، في الجنة فجعلناهم مَعَهم في درجاتِهم، وإنْ قصرت أعمالهم عن أعمالهم تَكْرِمةً منا لآبائِهم، وما أَلَتْنَاهُمْ من أجورِ عملهم شيئاً.

وقوله: «وما أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما أَلَتْنا الآباءَ، يعني بقوله: «وما أَلَتْناهُمْ»، وما نَقَصْناهُمْ من أجورِ أعمالِهم شيئاً، فنأخذه منهم، فنجعله لأبنائِهم الذين ألحقناهم بهم، ولكنا وَفَّيْنَاهُمْ أجورَ أعمالِهم، وألحقنا أبناءَهُمْ بدرجاتِهم، تَفَضُّلاً منا عليهم، والألْتُ في كلام

العرب: النقصُ والبَخْسُ.

وقوله: «كُلّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ»، يقولُ: كُلُّ نفسٍ بما كسبتْ وعملتْ من خيرٍ وشرٍّ مرتهنة لا يُؤاخَذُ أحدٌ منهم بذنبِ غيرِه، وإنما يعاقب بذنبِ نفسه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأَمْدَدْنَا هؤلاءِ الذين آمنوا باللهِ ورسولِه، واتبعتهم ذريتهم بإيمانٍ في الجنة، «بفاكهة ولحم مما يشتهون» من اللحمان.

وقوله: «يَتَنَازَعُونَ فِيها كَأساً»، يقولُ: يتعاطون فيها كأس الشراب، ويتداوَلُونها بينهم.

وقوله: «لا لَغْوٌ فِيها»، يقولُ: لا باطلَ في الجنة، والهاء في قوله: «فيها» من ذِكْرِ الكأسِ، ويكون المعنى: لما فيها من الشرابِ، بمعنى: أنَّ أهلَها لا لغوٌ عندهم فيها ولا تأثيمٌ، واللغو: الباطلُ.

وقوله: «وَلا تَأْثِيمٌ»، يقولُ: ولا فِعْلَ فيها يُؤَثِّمُ صاحبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه. ويطوفُ على هؤلاءِ القومِ الذين وَصَفَ صِفَتَهُمْ في الجنةِ غلمانٌ لهم، «كأنهم لؤلؤ» في بياضِه وصفائِه «مكنون»: يعني: مَصُونٌ في كِنٍّ، فهو أنقى له، وأصفى لبياضه. وإنما عَنَى بذلك أن هؤلاءِ الغلمان

يطوفونَ على هؤلاءِ المؤمنينَ في الجنة بكؤوسِ الشرابِ التي وَصَفَ جَلَّ ثناؤُه صِفَتها.

وقولُه: «وأقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ»... الآية، يقول تعالى ذِكْرُه: وأقبلَ بعضُ هؤلاءِ المؤمنينَ في الجنة على بعضٍ، يسألُ بعضُهم بعضاً، وقد قيل: إنَّ ذلك يكونُ منهم عند البعثِ من قبورهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال بعضُهم لبعض: إنَّا أيها القومُ كنا في أهلنا في الدنيا مُشفقينَ خائفينَ من عذابِ الله وَجِلينَ أنْ يُعذِّبَنا رَبُّنا اليومَ «فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنا» بفضْلِه «وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ»، يعني: عذابَ النارِ، يعني: فَنجَّانا من النارِ، وأدخلنا الجنةَ.

وقوله: «إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ»، يقولُ: إنَّا كنا في الدنيا من قبلِ يومِنا هذا نَدْعُوه: نعبده مُخْلَصاً له الدين، لا نُشْرِكُ به شيئاً «إنَّهُ هُوَ البَرُّ»، يعني: اللطيفُ بعباده.

وقوله: «الرَّحِيمُ»، يقول: الرحيمُ بخلقِه أنْ يعذِّبهم بعد توبتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ٢٩ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فذكِّرْ يا محمدُ مَنْ أُرْسِلْتَ إليه من قومِكَ وغيرهم، وعِظْهُمْ بنعمِ الله عندهم «فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ»، يقولُ: فلستَ بنعمةِ اللهِ عليكَ بكاهنٍ تَتَكَهَّنُ، ولا مجنون له رئيٌّ يخبرُ عنه قومه ما أخبره به، ولكنكَ رسولُ الله، واللهُ لا يخذلكَ، ولكنه ينصركَ.

وقوله: «أَمْ يَقُولُونَ شاعِر نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: بل يقول المشركونَ: يا محمدُ لكَ: هو شاعرٌ نتربصُ به حوادثَ الدهرِ، يَكْفِينَاهُ بموتٍ أو حادثةٍ مُتْلِفَةٍ.

وقـولـه: «قُلْ تَرَبَّصُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمـدُ، لهؤلاءِ المشـركينَ الذين يقولون لك: إنك شاعرٌ نتربصُ بكَ ريبَ المنون، «تربصوا»، أي: انتظروا وتَمَهَّلُوا فيَّ رَيْبَ المنونِ، «فإني معكم من المتربصين»، بكم، حتى يأتيَ أمرُ الله فيكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: أتأمرُ هؤلاءِ المشركينَ أحلامُهم بأنْ يقولوا لمحمدٍ ﷺ: هو شاعرٌ، وأنَّ ما جاء به شعر «أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: ما تأمرهم بذلك أحلامُهم وعقولُهم «بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ» قد طَغَوا على رَبِّهم، فتجاوزوا ما أَذِنَ لهم وأمرهم به من الإيمانِ إلى الكفرِ به.

وقوله: «أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أم يقولُ هؤلاءِ المشركونَ: تَقَوَّلَ محمدٌ هذا القرآنَ وتخلَّقه.

وقوله: «بَلْ لا يُؤْمِنُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: كذبوا فيما قالوا من ذلك، بَلْ لا يؤمنونَ فيصدِّقُوا بالحقِّ الذي جاءهم من عِندِ رَبِّهم.

وقوله: «فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فليأتِ قائلو ذلك له من المشركينَ بقرآنٍ مِثْلِه، فإنهم من أهلِ لسانِ محمدٍ ﷺ. ولنْ يتعذَّرَ عليهم أنْ يأتوا من ذلك بمثلِ الذي أتى به محمدٌ ﷺ إنْ كانوا صادقينَ في أنَّ محمداً ﷺ تقوَّلَهُ وتخلَّقَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَخُلِقَ هؤلاءِ المشركونَ من غيرِ شيءٍ، أي: من غيرِ آباءٍ ولا أمَّهاتٍ، فهم كالجمادِ، لا يعقلونَ ولا يفهمونَ للهِ حجةً، ولا يعتبرونَ له بعبرةٍ، ولا يتعظونَ بموعظةٍ.

وقوله: «أَمْ هُمُ الخالِقُونَ»، يقولُ: أَمْ هم الخالقونَ هذا الخَلْقَ. فهم لذلك لا يأتمرونَ لأمرِ اللهِ، ولا ينتهونَ عما نَهاهم عنه، لأنَّ للخالقِ الأمر والنهي. «أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ والأَرْضَ»، يقولُ: أَخَلَقُوا السموات والأرض فيكونوا هم الخالقينَ، وإنما معنى ذلك: لم يَخْلُقُوا السمواتِ والأرض، «بَلْ لا يُوقِنُونَ»، يقولُ: لم يتركوا أن يأتمروا لأمرِ رَبِّهم، وينتهوا إلى طاعتِه فيما أمرَ ونهى، لأنهم خلقوا السموات والأرض، فكانوا بذلك أرباباً، ولكنهم فعلوا، لأنهم لا يوقنون بوعيدِ اللهِ وما أعَدَّ لأهلِ الكفر به من العذابِ في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أعندَ هؤلاءِ المكذِّبينَ بآياتِ اللهِ خزائنُ رَبِّكَ يا

محمدُ، فهم لاستغنائِهم بذلكَ عن آياتِ رَبِّهم مُعْرِضُونَ، أم هم المسيطرون.

وقوله: «أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ»، يقولُ: أمْ لهم سُلَّمٌ يرتقونَ فيه إلى السماءِ يستمعونَ عليه الوحيَ، فَيَدَّعُونَ أنهم سمعوا هنالك من اللهِ أنَّ الذي هُمْ عليه حقٌّ، فهم بذلك متمسِّكونَ بما هُمْ عليه.

وقوله: «فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ»، يقولُ: فإنْ كانوا يَدَّعُونَ ذلك فليأتِ مَنْ يزعم أنه استمعَ ذلك، فَسِمعَهُ «بسلطان مبين»، يعني: بحجةٍ تبين أنها حقٌّ، كما أتى محمدٌ ﷺ بها على حقيقةِ قولِه، وصَدَّقَهُ فيما جاءهم به من عند اللهِ. والسُّلَّمُ في كلام العرب: السَّبَبُ والمِرْقاةُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه للمشركينَ به من قريشٍ: أَلِرَبِّكُم أيها القومُ البناتُ ولكم البنون؟ ذلك إذْنْ قسمةٌ ضِيزَى.

وقوله: «أَمْ تَسأَلُهُمْ أجراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: أتسألُ هؤلاءِ المشركينَ الذين أرسلناكَ إليهم يا محمدُ على ما تَدْعُوهُمْ إليه من توحيدِ اللهِ وطاعتِه ثواباً وعِوَضاً من أموالهم، فهم من ثِقَلِ ما حَمَّلْتَهُمْ من الغُرْمِ لا يقدرون على إجابتكَ إلى ما تَدْعُوهُمْ إليه.

وقوله: «أَمْ عِنْدَهُمُ الغيبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أم عندهم عِلْمُ الغيبِ فهم يكتبونَ ذلك للناسِ، فَيُنَبِّئُونَهُمْ بما شاؤوا، ويخبرونهم بما أرادوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: بل يريدُ هؤلاءِ المشركونَ يا محمدُ بكَ، وبدينِ الله كيداً «فالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ المَكِيدُونَ»، يقولُ: فهم المُكِيدُونَ المَمْكُورُ بهم دونكَ، فَثِقْ باللهِ، وامضِ لما أمركَ به.

وقوله: «أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غيرُ اللهِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: أمْ لَهُمْ معبودٌ يستحقُّ عليهم العبادةَ غير الله، فيجوز لهم عبادتُه، يقول: ليس لهم إلهٌ غير الله الذي له العبادةُ من جميعِ خَلْقِه. «سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ»، يقولُ: تنزيهاً لله عن شِرْكِهم وعبادَتِهم مَعَهُ غيرَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ٤٤ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ٤٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ يَرَ هؤلاءِ المشركونَ قطعاً من السماء ساقطاً، والكِسْفُ: جمع كِسفة، مثل التمر جمع تمرة، والسِّدْر جمع سِدْرة.

وقوله: «مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: يقولونَ لذلك الكِسْفِ من السماء الساقط: هذا سحابٌ مركوم، يعني بقوله مركوم: بعضه على بعض.

وإنما عنى بذلك جَلَّ ثَنَاؤُهُ المشركينَ من قريش الذين سألوا رسولَ الله ﷺ الآيات، فقالوا له: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً». . . إلى قوله: «عَلَيْنا كِسَفاً» [الإسراء: ٩٠-٩٢]، فقال الله لنبيه محمدٍ ﷺ: وإنْ يَرَ هؤلاءِ المشركونَ ما سألوا من الآياتِ، فعاينوا كِسْفاً من السماء ساقطاً، لم ينتقلوا عما هُمْ عليه من التكذيبِ، ولقالوا: إنما هذا سحابٌ بعضُه فوق بعضٍ، لأن الله قد حتَّمَ عليهم أنهم لا يؤمنون.

وقوله: «فَذَرْهُمْ حتى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فَدَعْ يا محمدُ هؤلاءِ المشركينَ حتى يُلاقوا يومَهُمْ الذي فيه يهلكون، وذلك عند النفخةِ الأولى.

واختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «فيهِ يصعقونَ» فقرأته عامة قَرَأة الأمصار سوى عاصم بفتحِ الياء من «يَصْعَقُونَ»، وقرأ عاصم «يُصْعَقُونَ» بضم الياء، والفتح أعجبُ القراءتين إلينا، لأنه أفصح اللغتين وأشهرهما، وإن كانت الأخرى جائزة، وذلك أنَّ العربَ تقول: صَعِقَ الرجلُ وصُعِقَ، وسَعد وسُعد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً» يومَ القيامة، حتى يُلاقُوا يومهم الذي فيه يصعقون، ثم بَيَّنَ عن ذلك اليوم أيّ يومٍ هُوَ، فقال: يومَ لا يغني عنهم كيدُهم شيئاً، يعني: مَكْرُهم أنه لا يدفعُ عنهم من عذابِ الله شيئاً، فاليوم الثاني ترجمة عن الأوّل.

وقوله: «وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ»، يقولُ: ولا هُمْ ينصرهم ناصر، فيستقيد لهم ممن عَذَّبهم وعاقبهم.

وقوله: «وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذلكَ»، اختلف أهلُ التأويل في العذاب الذي تَوَعَّدَ الله به هؤلاءِ الظَّلَمَةَ من دونِ يومِ الصعقة. فقال بعضهم: هو عذابُ القبر.

وقال آخرون: عَنَى بذلك: الجوع.

وقال آخرون: عنى بذلك: المصائب التي تصيبهم في الدنيا من ذهابِ

الأموالِ والأولاد.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ أنَّ للذين ظلموا أنفسَهُم بكفرهم به عذاباً دونَ يومِهم الذي فيه يصعقون، وذلك يوم القيامة، فعذابُ القبر دونَ يومِ القيامة، لأنه في البرزخِ، والجوعُ الذي أصابَ كفارَ قريشٍ، والمصائبُ التي تُصيبهم في أنفسهم وأموالهم وأولادهم دونَ يوم القيامة، ولم يخصص الله نوعاً من ذلك أنه لهم دونَ يومِ القيامة دون نوعٍ بَلْ عَمَّ فقال «وإنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ» فكلُّ ذلك لهم عذابٌ، وذلك لهم دونَ يومِ القيامة، فتأويلُ الكلام: وإن للذين كفروا بالله عذاباً من الله دونَ يومِ القيامة «وَلَكِنَّ أكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» بأنهم ذائِقُو ذلك العذاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ» يا محمدُ الذي حكم به عليكَ، وامضِ لأمره ونهيِهِ، وبلِّغْ رسالاته «فإنَّكَ بأَعْيُنِنا»، يقول جَلَّ ثناؤُه: فإنك بمرأى مِنَّا نراكَ ونَرَى عملكَ، ونحنُ نَحُوطُكَ ونحفظك، فلا يصل إليك مَنْ أرادكَ بسوءٍ من المشركينَ.

وقوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: إذا قمتَ من نومكَ فقل: سبحان اللهِ وبحمده، وهو قول ابن زيد وأبي الأحوص.

وقال بعضهم: بل معنى ذلك: إذا قمتَ إلى الصلاةِ المفروضةِ فقل: سبحانك اللهمَّ وبحمدكَ، وهو قول الضحاك.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: وصَلِّ بحمدِ

رَبِّكَ حين تقومُ من مَنامك. وذلك نومُ القائلةِ، وإنما عَنَى صلاةَ الظهر.

وإنما قلت: هذا القول أولى القولين بالصواب، لأنَّ الجميعَ مُجْمِعُونَ على أنه غير واجبٍ أن يقال في الصلاة: سبحانك وبحمدك.

فلو كان القولُ كما قاله الضحاك لكان فرضاً أنْ يُقال، لأن قوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» أمرٌ من الله تعالى بالتسبيح، وفي إجماع الجميع، على أنَّ ذلك غير واجبٍ، الدليلُ الواضحُ على أنَّ القولَ في ذلك غير الذي قاله الضحاك.

فإنْ قال قائل: ولعله أُريدَ به الندبُ والإرشادُ. قيل: لا دلالةَ في الآيةِ على ذلك، ولم تقم حجةٌ بأنَّ ذلك معنيٌّ به ما قاله الضحاك، فيجعل أجماع الجميع على أنَّ التسبيحَ عند القيامِ إلى الصلاةِ مما خُيِّرَ المسلمونَ فيه دليلاً لنا على أنه أُريدَ به الندب والإرشاد.

وإنما قلنا: عُنِي به القيامُ من نومِ القائلةِ، لأنه لا صلاةَ تجبُ فرضاً بعد وقتٍ من أوقاتِ نومِ الناسِ المعروفِ إلا بعد نومِ الليل، وذلك صلاة الفجر، أو بعدَ نومِ القائلة، وذلك صلاة الظهر؛ فلما أمر بعد قوله «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ» بالتسبيحِ بعد إدبارِ النجوم، وذلك ركعتا الفجر بعد قيامِ الناسِ من نومها ليلاً، عُلِمَ أنَّ الأمرَ بالتسبيحِ بعد القيامِ من النومِ هو أمرٌ بالصلاة التي تجبُ بعد قيامٍ من نومِ القائلةِ على ما ذكرنا دونَ القيامِ من نومِ الليل.

وقوله: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ»، يقولُ: ومن الليل فعظِّمْ رَبَّكَ يا محمدُ بالصلاةِ والعبادة، وذلك صلاة المغرب والعشاء. «وإدبارَ النُّجُومِ»، يعني: حين تدبر النجومُ للأُفول عند إقبال النهار.

وأَوْلى القولين في ذلك عندي بالصوابِ قولُ مَنْ قال: عنى بها: الصلاة المكتـوبة صلاة الفجر، وذلك أنَّ الله أمرَ فقال: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبارَ

الطـور: ٤٩

النُّجُوم » والركعتان قبلَ الفريضةِ غير واجبتين، ولم تَقُمْ حجةٌ يجبُ التسليمُ لها، أنَّ قوله: «فسبحه» على النَّدْبِ، وقد دللنا في غير موضع من كتبنا على أنَّ أمرَ الله على الفرضِ حتى تقومَ حجةٌ بأنه مرادٌ به الندب، أو غير الفرض بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

سُورَةُ النَّجْمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى»، فقال بعضهم: عُنِي بالنجم: الثُّريا، وعُنِي بقوله: «إِذَا هَوَى»: إذا سقطَ، قالوا: تأويل الكلام: والثريا إذا سقطت.

وقال آخرون: معنى ذلك: والقرآن إذا نزل.

والصواب من القول في ذلك عندي أنه عُنِيَ بالنجم في هذا الموضع: الثريا، وذلك أن العربَ تدعوها النجم.

وقوله: «ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما حادَ صاحِبُكم أيها الناسُ عن الحقِّ ولا زالَ عنه، ولكنه على استقامةٍ وسداد.

ويعني بقوله: «وَما غَوَى»: وما صار غويًّا، ولكنه رشيدٌ سديدٌ؛ يقال: غَوَى يَغْوِي من الغيّ، وهو غاوٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما ينطقُ محمدٌ بهذا القرآنِ عن هواه «إنْ هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوحَى»، يقولُ: ما هذا القرآنُ إلا وحيٌ من الله يوحيه إليه.

وقوله: «عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: عَلَّمَ محمداً ﷺ هذا القرآنَ جبريلُ عليه السلام، وعُنِي بقوله: «شَدِيدُ القُوَى» شديد الأسباب. والقُوى: جمع قوّة.

وقوله: «ذُو مِرَّةٍ فاسْتَوَى»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «ذُو مِرَّةٍ»، فقال بعضهم: معناه: ذو خَلْقٍ حَسَن.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ذُو قُوَّةٍ.

وأوْلى القولين في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: عَنَى بالمِرَّة: صِحَّةَ الجسم وسلامته من الآفاتِ والعاهات. والجسمُ إذا كان كذلك من الإنسانِ، كان قوياً، وإنما قلنا إنَّ ذلك كذلك، لأنَّ المِرَّةَ واحدةُ المِرَر. وإنما أُريدَ به: ذو مِرَّةٍ سويَّةٍ. وإذا كانت المِرَّةُ صحيحةً، كان الإنسان صحيحاً. ومنه قول النبيّ ﷺ: «لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ، وَلا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»[1].

وقوله: «فاسْتَوَى وَهُوَ بالأُفُقِ الأَعْلَى»، يقولُ: فاستوى هذا الشديد القويُّ وصاحِبُكم محمدٌ بالأفقِ الأعلى، وذلك لما أُسريَ برسولِ الله ﷺ استوى هو وجبريل عليهما السلام بمطلعِ الشمسِ الأعلى، وهو الأفق الأعلى[2].

---

(١) حديث صحيح. أخرجه المؤلف من غير إسناد، وهو من حديث أبي هريرة عن ابن ماجة (١٨٣٩)، والنسائي: ٩٩/٥، وأنظر: إرواء الغليل للعلامة الألباني (٨٧٦) و(٨٧٨).

(٢) هذا قول الفراء في معاني القرآن: ٩٥/٣، وبه أخذ المؤلف الطبري.

وقد قيل: إن المستوي هو جبريلُ، فإنْ كان ذلك كذلك، فلا مُؤْنةَ في ذلك، لأنَّ قوله: «وهو» من ذِكْرِ اسمِ جبريلَ، وكأنَّ قائلَ ذلك وجَّه معنى قوله: «فاسْتَوَى»: أي: ارتفع واعتدل[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم دنا جبريلُ من محمدٍ ﷺ فتدلى إليه، وهذا من المؤخَّرِ الذي معناهُ التقديمُ، وإنما هو: ثم تدلى فدنا، ولكنه حسن تقديم قوله: «دنا». إذ كان الدنوُّ يدلُّ على التدلي والتدلي على الدنوِّ، كما يقال: زارني فلانٌ فأحسنَ، وأحسنَ إليَّ فزارني، وشتمني فأساء، وأساء فشتمني. لأنَّ الإساءةَ هي الشتمُ: والشتمُ هو الإساءة[2].

وقوله: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى»، يقولُ: فكان جبرائيلُ من محمدٍ ﷺ على قَدْرِ قوسينِ، أو أدنى من ذلك، يعني: أو أقرب منه.

---

(١) هذا هو الذي اختاره ابن كثير، ورَدَّ قولَ الطبري الأول، وقال: وقد قال ابن جرير ها هنا قولاً لم أره لغيره، ولا حكاه هو عن أحد (يعني من المفسرين، وإلا فقد قاله الفراء كما أشرنا في الهامش السابق) ولم يوافقه أحد على ذلك، ثم شرع يوجه ما قال من حديث العربية... وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه، لكن لا يساعده المعنى على ذلك.

(٢) هذا كلام الفراء في معاني القرآن ٣/٩٥، ويدل عليه حديث عبدالله بن مسعود في الصحيحين: البخاري (٣٢٣٢) و(٤٨٥٦) و(٤٨٥٧)، ومسلم (١٧٤)، وحديث عائشة في الصحيحين: البخاري (٣٢٣٤) و(٣٢٣٥) و(٤٦١٢) و(٤٨٥٥) و(٧٣٨٠) و(٧٥٣١)، ومسلم (١٧٧).

وقوله: «فأوْحَى إلى عَبْدِه ما أوْحَى»، معناه: فأوحى جبريلُ إلى عبدهِ[(١)] محمدٍ ﷺ ما أوحى إليه ربُّه، لأنَّ افتتاحَ الكلامِ جرى في أوَّلِ السورة بالخبرِ عن رسـول الله ﷺ، وعن جبريل عليه السلام، وقوله: فأوْحَى إلى عَبْدِهِ ما أوْحَى» في سِياقِ ذلكَ، ولم يأتِ ما يدلُّ على انصرافِ الخبرِ عنهما، فيوجه ذلك إلى ما صُرِفَ إليه.

وقوله: «ما كَذَبَ الفُؤَادُ ما رأى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما كَذَّب فؤادُ محمدٍ محمداً الذي رأى، ولكنه صَدَّقَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: أفتجادلونَ أيها المشركونَ محمداً على ما يرى مما أراهُ من آياته.

وقوله: «وَلَقَدْ رآهُ نَزْلَةً أُخْرَى»، يقولُ: لقد رآهُ مَرَّةً أخرى.

وقوله: «عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد رآه عند سدرةِ المنتهى، فعند من صلةِ قوله: «رآهُ»، والسدرةُ: شجرة النَّبق[(٢)].

وإنَّ معنى المنتهى الانتهاءُ، فكأنه قيل: عند سدرةِ الانتهاءِ. وجائزٌ أنْ يكونَ قِيلَ لها سدرة المنتهى: لانتهاءِ عِلْمِ كُلِّ عالمٍ من الخَلْقِ إليها. وجائزٌ

---

(١) من المعلوم بداهـة أن الهاء من ذكر الله سبحانه وتعالى، فيكون المعنى: فأوحى جبريل إلى عبدالله محمد ﷺ.

(٢)

أن يكونَ قيل ذلك لها، لانتهاءِ ما يصعدُ من تحتِها، وينزلُ من فوقها إليها.

وجائزٌ أن يكون قيل ذلك كذلك لانتهاءِ كلِّ مَنْ خلا من الناسِ على سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ إليها. وجائزٌ أنْ يكون قِيلَ لها ذلك لجميعِ ذلك، ولا خبرَ يقطعُ العذرَ بأنه قيل ذلك لها لبعضِ ذلك دونَ بعض، فلا قول فيه أصحّ من القولِ الذي قال رَبُّنا جَلَّ جَلالَه، وهو أنها سدرةُ المنتهى.

وقوله: «عِنْدَها جَنَّةُ المأْوَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: عند سدرةِ المنتهى جنةُ مأوى الشهداء.

وقوله: «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد رآهُ نَزْلَةً أخرى، إِذْ يغشى السدرة ما يغشى، فإِذْ من صِلَةِ رآهُ.

واختلف أهلُ التأويل في الذي يَغْشَى السدرةَ، فقال بعضهم: غَشِيَها فَراشُ الذَّهَبِ.

وقال آخرون: الذي غشيها ربُّ العِزَّةِ وملائكته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما مالَ بصرُ محمدٍ يَعْدِل يميناً وشمالاً عما رأى، أي: ولا جاوز ما أُمِر به قطعاً، يقولُ: فارتفع عن الحدِّ الذي حُدَّ له.

وقوله: «لَقَدْ رأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الكُبْرَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: لقد رأى محمدٌ هنالك من أعلام رَبِّه وأدلته الأعلامَ والأدلةَ الكبرى.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ

﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفرأيتم أيها المشركونَ اللاَّتَ، وهي من الله ألحقت فيه التاء فَأُنِّثَتْ، كما قيل عمرو للذكرِ، وللأنثى عمرة؛ وكما قيل للذَّكرِ عباسٌ، ثم قيل للأنثى عباسة، فكذلك سَمَّى المشركونَ أوثانهم بأسماءِ الله يعني تعالى ذِكْرُهُ، وتقدَّسَتْ أسماؤُه، فقالوا من الله اللات، ومن العزيز العُزَّى؛ وزعموا أنهن بنات الله، تعالى الله عَمَّا يقولونَ وافتروا، فقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ لهم: أفرأيتم أيها الزاعمونَ أنَّ اللاتَ والعُزَّى ومَنَاةَ الثالثة بناتُ الله. «أَلَكُمُ الذَّكَرُ»، يقولُ: أتختارونَ لأنفسِكم الذكر من الأولادِ، وتكرهونَ لها الأنثى، وتجعلون «لَهُ الأُنْثَى» التي لا ترضونها لأنفسِكم، ولكنكم، تقتلونها كراهةً منكم لهنّ.

وقوله: «أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى»، يقولُ: أتزعمونَ أنَّ لكم الذكرَ الذي ترضونه، ولله الأنثى «تلك إذاً قسمةٌ ضيزىٰ»، يقول جلَّ ثناؤُهُ: قسمتكم هذه قسمة جائرةٌ غير مستوية، ناقصةٌ غير تامة، لأنكم جعلتم لربِّكم من الولدِ ما تكرهونَ لأنفسِكم، وآثَرْتُمْ أنفُسَكُمْ بما ترضونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما هذه الأسماءُ التي سَمَّيْتُموها وهي اللات والعُزَّى ومناة الثالثة الأخرى، «إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم» أيها المشركونَ بالله، وآباؤكم من قبلكم، «ما أنزل الله بها»، يعني: بهذه الأسماء، يقولُ: لم يُبِح اللهُ ذلك لكم، ولا أذِنَ لكم به.

وقوله: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما يتبع هؤلاءِ المشركونَ في هذه الأسماءِ التي سموا بها آلهتَهُمْ إلَّا الظنَّ بأنَّ ما يقولونَ حقٌّ لا اليَّقين. «وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ»، يقولُ: وهوى أنْفُسِهم، لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحيٍ جاءهم من اللهِ، ولا عن رسولٍ لله أخبرهم به، وإنما هو اختراقٌ من قِبَلِ أنفسهم، أو أخذوه عن آبائِهم الذين كانوا من الكفرِ باللهِ على مِثْلِ ما هُمْ عليه منه.

وقوله: «وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الهُدَى»، يقولُ: ولقد جاء هؤلاءِ المشركينَ بالله من رَبِّهم البيانُ مما هُمْ منه على غير يقينٍ، وذلك تسميتهم اللاتَ والعُزَّى ومناةَ الثالثة بهذه الأسماءِ وعبادتهم إياها. يقولُ: لقد جاءهم من رَبِّهم الهدى في ذلك، والبيان بالوحي الذي أوحيناه إلى محمدٍ ﷺ أنَّ عبادَتَها لا تنبغي، وأنه لا تصلحُ العبادةُ إلا لله الواحد القهار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ۝٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أم اشتهى محمدٌ ﷺ ما أعطاهُ الله من هذه الكرامةِ التي كَرَّمَهُ بها من النبوةِ والرسالةِ، وأنزل الوحي عليه، وتمنى ذلك، فأعطاهُ إياه رَبُّه، فللَّه ما في الدارِ الآخرةِ والأولى، وهي الدنيا، يعطي مَنْ شاء من خَلْقِه ما شاء، ويحرمُ مَنْ شاء منهم ما شاء.

وقوله: «وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ في السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: «وكم من مَلَكٍ في السموات لا تغني»: كثيرٌ من ملائكةِ الله، لا تنفعُ شفاعتهم عند الله لِمَنْ شَفعُوا له شيئاً، «إلا» أنْ يشفعوا له «من بعدِ أنْ

يأذَنَ اللهُ» لهم بالشفاعةِ «لمن يشاءُ» منهم أنْ يشفعوا له «ويرضى»، يقولُ: ومِنْ بعدِ أنْ يرضى لملائكتِه الذين يشفعونَ له أنْ يشفَعُوا له، فتنفعه حينئذٍ شفاعتهم.

وإنما هذا توبيخٌ من الله تعالى ذِكْرُه لِعَبَدَةِ الأوثانِ والملأ من قريشٍ وغيرهم الذين كانوا يقولون «ما نَعْبُدهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى»، فقال الله جلَّ ذِكْرُه لهم: ما تنفعُ شفاعةُ ملائكتي الذين هم عندي لمن شَفعُوا له، إلا مِنْ بعدِ إذني لهم بالشفاعةِ له ورضاي، فكيفَ بشفاعةِ مَنْ دُونَهم، فأعْلَمَهُمْ أنَّ شفاعةَ ما يعبدونَ من دونِه غير نافِعَتِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين لا يُصدِّقُون بالبعثِ في الدارِ الآخرةِ، وذلك يومِ القيامة، لَيُسَمُّونَ ملائكةَ الله تسميةَ الإناثِ، وذلك أنهم كانوا يقولون: هم بناتُ الله.

وقوله: «وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ»، يقولُ تعالى: وما لهم بما يقولونَ من تسميتهم الملائكةَ تسميةَ الأنثى من حقيقةِ علمٍ «إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ»، يقولُ: ما يتبعونَ في ذلك إلا الظنَّ، يعني: أنهم إنما يقولون ذلك ظناً بغير علم.

وقوله: «وَإنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً»، يقولُ: وإنَّ الظنَّ لا ينفعُ من الحقِّ شيئاً فيقوم مقامه.

وقوله: «فأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا»، يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: فَدَعْ مَنْ أدبرَ يا محمدُ عن ذِكْرِ الله ولم يؤمنْ به فيوحده.

وقوله: «وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيا»، يقولُ: ولم يطلبْ ما عندَ اللهِ في الدارِ الآخرة، ولكنه طلب زينةَ الحياةِ الدنيا، والتمسَ البقاءَ فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي يقوله هؤلاءِ الذين لا يؤمنونَ بالآخرةِ في الملائكةِ مِنْ تسميتِهم إيَّاهَا تسميةَ الأنثى«مَبْلَغُهُمْ مِنَ العِلْمِ »، يقولُ: ليس لهم عِلْمٌ إلا هذا الكفر بالله، والشرك به على وجهِ الظنِّ بغيرِ يقينِ عِلْمٍ.

وقوله: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ ربكَ يا محمدُ هو أعلمُ بمن جَارَ عن طريقهِ في سابقِ عِلْمِه، فلا يؤمن، وذلك الطريقُ هو الإسلامُ. «وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى»، يقولُ: وربُّكَ أعلمُ بمن أصابَ طريقه فسلكه في سابقِ عِلْمِه، وذلك الطريقُ أيضاً الإسلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلِلهِ» مُلكُ «ما في السَّمٰواتِ وَما فِي الأَرْضِ» من شيء، وهو يُضِلُّ مَنْ يشاء، وهو أعلمُ بهم «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أساؤُوا بِمَا عَمِلُوا»، يقولُ: ليجزي الذين عَصَوْه من خَلْقِه، فأساؤوا بمعصيتهم إياهُ، فيثيبهم بها النار «وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بالحُسْنَى»، يقولُ: وليجزيَ الذين أطاعوه فأحسنوا بطاعتهم إياهُ في الدنيا بالحسنى وهي الجنة، فيثيبهم بها.

وقوله: «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ»، يقولُ: الذين يبتعدونَ عن كبائرِ الإثمِ التي نهى اللهُ عنها وحَرَّمَها عليهم فلا يَقْرَبُونَها، وذلك الشركُ بالله، وما قد بيَّنَّاهُ في قوله: «إنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ» [النساء: ٣١].

وقوله: «وَالفَوَاحِشَ»، وهي الزنا وما أشبهه، مما أوجبَ اللهُ فيه حَدّاً.

وقوله: «إلَّا اللَّمَمَ»، اختلفَ أهلُ التأويل في معنى «إلا» في هذا الموضع، فقال بعضهم: هي بمعنى الاستثناء المنقطع، وقالوا: معنى الكلام: الذين يجتنبونَ كبائرَ الإثمِ والفواحشَ، إلا اللممَ الذي ألَمُّوا به من الإثمِ والفواحش في الجاهليةِ قبلَ الإسلامِ، فإنَّ الله قد عَفَا لهم عنه، فلا يُؤاخِذْهم به.

وكان بعضُ أهلِ العلمِ بكلامِ العربِ ممن يوجه تأويل «إلا» في هذا الموضع إلى هذا الوجهِ الذي ذكرته.

يقول في تأويل ذلك: لم يُؤْذَنْ لهم في اللمم، وليس هو من الفواحشِ، ولا من كبائرِ الإثمِ، وقد يُسْتثنى الشيءُ من الشيء، وليس منه على ضميرٍ قد كَفَّ عنه فَمُجَازِه، إلا أنْ يَلِمَّ بشيءٍ ليس من الفواحشِ ولا من الكبائرِ.

وقال آخرون: بَلْ ذلك استثناءٌ صحيحٌ، ومعنى الكلام: الذين يجتنبونَ كبائرَ الإثمِ والفواحشَ إلا اللمم إلا أنْ يُلِمَّ بها ثم يتوب.

وقال آخرون: ممن وَجَّهَ معنى «إلا» إلى الاستثناءِ المنقطع: اللمم: هو دونَ حَدِّ الدنيا وحدِّ الآخرة، قد تجاوزَ اللهُ عنه.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصوابِ قولُ مَنْ قال «إلا» بمعنى الاستثناء المنقطع، ووجَّه معنى الكلام إلى «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الإِثْمِ والفَوَاحِشَ إلَّا اللَّمَمَ»، بما دونَ كبائر الإثم، ودون الفواحش الموجبة للحدود

في الدنيا، والعذاب في الآخرة، فإنَّ ذلك مَعْفُوٌّ لهم عنه، وذلك عندي نظير قوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُم، وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً» [النساء: ٣١]. فوعد جَلَّ ثَنَاؤُهُ باجتناب الكبائر، العفوَ عما دُونَها من السيئاتِ، وهو اللممُ الذي قال النبيُّ ﷺ: «العَيْنانِ تَزْنِيانِ، وَاليَدانِ تَزْنِيانِ، وَالرِّجْلانِ تَزْنِيانِ وَيُصَدِّقُ ذلكَ الفَرْجُ أَوْ يُكَذِّبُهُ»[1]، وذلك أنه لا حَدَّ فيما دون ولوجِ الفَرْجِ في الفرجِ، وذلك هو العفوُ من الله في الدنيا عن عقوبةِ العبدِ عليه، واللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أكرمُ من أنْ يعودَ فيما قد عَفَا عنه، كما رُوِي عن النبيِّ ﷺ. واللممُ في كلام العرب: المقاربةُ للشيء، ذكر الفَرّاء[2] أنه سمع العربَ تقول: ضربه ما لَمَم القتلَ، يريدونَ ضرباً مُقَارِباً للقتلِ، قال: وسمعت من آخر: أَلَمَّ يفعلُ في معنى: كادَ يفعلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «إِنَّ رَبَّكَ» يا محمدُ «وَاسِعُ المَغْفِرَةِ»: واسعٌ عَفْوُه للمذنبينَ الذين لم تَبْلُغْ ذنوبُهم الفواحشَ وكبائرَ الإثمِ، وإنما أعلم جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله هذا عبادَهُ أنه يغفرُ اللممَ بما وصفنا من الذنوبِ لمن اجتنب كبائرَ الإثمِ والفواحش.

وقوله: «هُو أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه:

---

(١) من حديث أبي هريرة الذي في الصحيحين: (البخاري (٦٢٤٣) و(٦٦١٢)، ومسلم (٢٦٥٧).

(٢) معاني القرآن: ٣/١٠٠.

رَبُّكم أعلمُ بالمؤمنِ منكم من الكافر، والمحسن منكم من المسيء، والمطيع من العـاصي، حين ابتدعَكُمْ من الأرض ، فأحدثكم منها بخلقِ أبيكم آدم منها، وحين «أنتم أجِنَّةٌ في بطونِ أمهاتكم»، يقولُ: وحين أنتم حمل لم تُولَدُوا.

وقوله: «فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فلا تَشْهَدُوا لأنفسِكم بأنها زكيةٌ بريئةٌ من الذنوبِ والمعاصي.

وقوله: «هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى»، يقول جَلَّ ثناؤه: رَبُّكَ يا محمدُ أعلمُ بمن خافَ عقوبةَ الله فاجتنبَ معاصيهِ من عبادِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفرأيتَ يا محمدُ الذي أدبرَ عن الإيمانِ باللهِ، وأعرضَ عنه وعن دِينه، وأعطى صاحبَهُ قليلاً من مالِه، ثم منعه فلم يُعْطِه، فَبَخِلَ عليه.

وذُكر أن هذه الآيةَ نزلتْ في الوليدِ بن المغيرةِ من أجلِ أنه عاتبه بعضُ المشركينَ، وكان قد اتَّبَعَ رسولَ الله ﷺ على دِينه، فضمنَ له الذي عاتبه إنْ هو أعـطاهُ شيئاً من ماله، ورجعَ إلى شِرْكِه أنْ يتحملَ عنه عذابَ الآخرةِ، ففعلَ، فأعطى الذي عاتَبَهُ على ذلك بعضَ ما كانَ ضَمِنَ له، ثم بَخِلَ عليه ومنعه تمامَ ما ضَمِنَ له.

وقوله: «أَعِنْدَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فَهُوَ يَرَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: أعندَ هذا الذي ضَمِنَ له صاحبُه أنْ يَتَحَمَّلَ عنه عذابَ الله في الآخرةِ عِلْمُ الغيبِ، فهو يرى

حقيقةَ قولِه، ووفائه بما وَعَدَهُ.

وقوله: «أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: أم لم يُخَبَّرْ هذا المضمونُ له، أنْ يتحملْ عنه عذابَ اللهِ في الآخرةِ، بالذي في صُحُفِ موسى بن عمران عليه السلام.

وقوله: «وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى»، يقولُ: وإبراهيمَ الذي وفى مَنْ أَرْسَلَ إليه ما أُرْسِلَ به.

وإنما عُنِي بقوله: «أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»، الذي ضَمِن للوليدِ بن المغيرة أنْ يتحمـلَ عنـه عذابَ اللهِ يومَ القيامة، يقول: ألم يُخْبَرْ قائلُ هذا القولِ، وضامِنُ هذا الضمانِ بالذي في صُحُفِ موسى وإبراهيم مكتوبٌ: أنْ لا تأثم آثمةٌ إثمَ أُخرى غيرها. «وأنْ لَيْسَ للإِنْسانِ إلاَّ ما سَعَى»، يقول جَلَّ ثناؤه: أَوَ لَمْ يُنَبأْ أنه لا يُجازى عاملٌ إلا بعمله، خيراً كان ذلك أو شرّاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾

قوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنَّ عملَ كُلِّ عاملٍ سوف يراهُ يومَ القيامةِ، مَنْ وَرَدَ القيامةَ بالجزاءِ الذي يُجازى عليه، خيراً كان أو شرّاً، لا يؤاخذ بعقوبةِ ذنبِ غير عامله، ولا يُثاب على صالحِ عَمَلِهِ عاملٌ غيره. وإنما عُنِي بذلك: الذي رجعَ عن إسلامِهِ بضمانِ صاحبِه له أنْ يتحملَ عنه العذابَ، أنَّ ضمانَهُ ذلك لا ينفعَهُ، ولا يُغني عنه يومَ القيامةِ شيئاً، لأنَّ كُلَّ عاملٍ فبِعَمَلِه مأخوذٌ.

وقوله: «ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم يُثابُ بسعيه ذلك الثواب الأوفى. وإنما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «الأَوْفَى» لأنه أوفى ما وعد خَلْقَهُ

عليه من الجزاء، والهاء في قوله: «ثُمَّ يُجْزاهُ» من ذِكْرِ السعي، وعليه عادت.

وقوله: «وأنَّ إلى رَبِّكَ المُنْتَهى»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وأنَّ إلى رَبِّكَ يا محمدُ انتهاء جميعِ خَلْقِه ومرجعهم، وهو المجازي جميعَهُمْ بأعمالِهم، صالحهم وطالحهم، ومحسنهم ومسيئهم.

وقوله: «وأنَّهُ هُوَ أضْحَكَ وأبْكَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنَّ رَبَّكَ هو أضحكَ أهلَ الجنةِ في الجنةِ بدخولهم إياها، وأبكى أهلَ النارِ في النار بدخُولِهِمُوها، وأضحكَ مَنْ شاء من أهل الدنيا، وأبكى مَنْ أرادَ أنْ يبكيه منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأنه هو أماتَ مَنْ مات من خَلْقِه، وهو أحيا مَنْ حَيِيَ منهم. وعنى بقوله: «أحيا» نَفْخَ الروحِ في النطفةِ الميتة، فجعلها حيةً بتصييره الروحَ فيها.

وقوله: «وأنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَى، مِنْ نُطْفَةٍ إذَا تُمْنَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنه ابتدعَ إنشاء الزوجين الذكر والأنثى، وجعلهما زوجين، لأنَّ الذكرَ زوجُ الأنثى، والأنثى له زوجٌ فهما زوجانِ، يكون كلُّ واحدٍ منهما زوجاً للآخر.

وقوله: «مِنْ نُطْفَةٍ إذَا تُمْنَى» و«مِنْ» من صِلَةِ «خَلَقَ» يقول تعالى ذِكْرُه: خَلَقَ ذلك من نطفةٍ إذا أمناهُ الرجلُ والمرأة.

وقوله: «وأنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنَّ على رَبِّكَ يا محمدُ أنْ يخلقَ هذين الزوجينِ بعدَ مماتهم، وبِلاَهُمْ في قبورهم الخلق الآخر، وذلك إعادتهم أحياء خَلْقاً جديداً، كما كانوا قبل مماتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝٤٨ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٩ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأنَّ رَبَّكَ هو أغنى مَنْ أغنى من خَلْقِه بالمالِ وأقناه، فجعلَ له قُنيةَ أصولِ أموالٍ.

وقوله: «وأنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنَّ رَبَّكَ يا محمدُ هو ربُّ الشِّعْرَى، يعني بالشعرى: النجم الذي يسمى هذا الاسم، وهو نجمٌ كان بعضُ أهلِ الجاهلية يعبدُه من دونِ الله.

وقوله: «وأنَّهُ أهْلَكَ عاداً الأُولى»، يعني تعالى ذِكْرُه بعادٍ الأولى: عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وهُمْ الذين أهلكهم اللهُ بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية، وإياهم عَنَى بقوله: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بعادٍ إِرَمَ».

وقوله: «وَثَمُودَ فَمَا أبْقَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولم يُبْقِ اللهُ ثمودَ فيتركها على طُغيانِها وتَمَرُّدِهَا على رَبِّها مُقيمةً، ولكنه عاقبها بكفرها وعُتُوِّهَا فأهلكها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأنه أهلكَ قومَ نوحٍ من قبلِ عادٍ وثمود، إنهم كانوا هم أشدّ ظلماً لأنفسهم، وأعظم كفراً بربهم، وأشدّ طغياناً وتمرّداً على الله من الذين أهلكهم مِنْ بَعْدُ من الأمم، وكان طغيانهم الذي وصَفَهم اللهُ به، وأنهم كانوا بذلك أكثر طغياناً من غيرهم من الأمم.

وقـولـه: «وَالمُؤْتَفِكَةَ أهْوَى»، يقول تعالى: والمخسوف بها، المقلوب

أعلاها أسفلَها، وهي قريةُ سَدُوم قوم لوط، أهوى اللهُ، فأمرَ جبريلَ ﷺ، فرفعها من الأرضِ السابعةِ بجناحِه، ثم أهواها مقلوبةً.

وقوله: «فَغَشَّاهَا ما غَشَّى»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَغَشَّى اللهُ المؤتفكة من الحجارةِ المنضودةِ المُسَوَّمةِ ما غَشَّاهَا، فأمطرها إياه من سِجِّيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ٥٥ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ٥٦ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ٥٨﴾

يقولُ: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نعمات رَبِّك يا ابنَ آدم التي أنعمها عليك ترتابُ وتشكُّ وتجادلُ.

وقوله: «هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولى» اختلف أهلُ التأويل في معنى قوله جلَّ ثناؤُهُ لمحمدٍ ﷺ «هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُر الأولى» ووصفه إياه بأنه من النذر الأولى وهو آخرهم، فقال بعضهم: معنى ذلك: إنه نذيرٌ لقومه، وكانت النُّذُرُ الذين قَبْلَهُ نُذراً لقومهم، كما يقال: هذا واحدٌ من بني آدم، وواحدٌ من الناس.

وقال آخرون: معنى ذلك غير هذا كله، وقالوا: معناه هذا الذي أنذرتُكُمْ به أيها القومُ من الوقائعِ التي ذكرتُ لكم أني أوقعتُها بالأممِ قَبْلَكُمْ من النُّذُرِ التي أنذرتها الأمم قبلكم في صحفِ إبراهيمِ وموسى.

وهذا القولُ الأخيرُ أشبهُ بتأويلِ الآية، وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه ذكرَ ذلك في سياق الآياتِ التي أخبر عنها أنها في صحفِ إبرايمَ وموسى نذيرٌ من النُّذرِ الأولى التي جاءت الأممَ قَبْلَكُمْ كما جاءتكم، فقوله: «هَذَا» بأن تكون إشارة إلى ما تَقَدَّمَهَا من الكلامِ أَوْلى وأشبه منه بغير ذلك.

وقوله: «أزِفَتِ الآزِفَةُ»، يقولُ: دَنَتِ الدانيةُ، وإنما يعني: دنت القيامةُ

القريبةُ منكم أيها الناسُ. يقال منه: أزف رَحيلُ فلانٍ: إذا دَنَا وقَرُبَ.

وقوله: «لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كاشِفَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ليس للآزفة التي قد أزفت، وهي السـاعةُ التي قد دَنَتْ من دونِ الله كاشفٌ، يقول: ليس تنكشف فتقوم إلا بإقامةِ الله إيَّاها، وكَشْفِهَا دونَ مَنْ سِواهُ من خَلْقِه، لأنه لم يُطْلعْ عليها مَلَكاً مُقرَّباً، ولا نبياً مُرْسَلاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لمشركي قريش: أَفَمِنْ هذا القرآنِ أيها الناسُ تَعْجَبُونَ، أنْ نَزَلَ على محمدٍ ﷺ، وتضحكونَ منه استهزاءً به، ولا تبكون مما فيه من الوعيدِ لأهلِ معاصي الله، وأنتم من أهلِ معاصيه «وأَنْتُمْ سامِدُونَ»، يقولُ: وأنتم لاهُونَ عَمَّا فيه من العِبَرِ والذكر، مُعْرِضُونَ عن آياتِه؛ يقال للرجل: دَعْ عنا سُمودَكَ، يُرادُ به: دَعْ عنا لَهْوَكَ، يقال منه: سَمَد فلانٌ يَسْمُد سُمُوداً.

وقوله: «فاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فاسجدوا لله أيها الناسُ في صلاتكم دونَ مَنْ سِواهُ من الآلهةِ والأندادِ، وإياهُ فاعبدوا دونَ غيرِه، فإنه لا ينبغي أنْ تكون العبادةُ إلا له، فأخلِصُوا له العبادةَ والسجودَ، ولا تجعلوا له شريكاً في عبادتكم إياه.

سُورَةُ القَمَر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ»: دَنَت الساعةُ التي تقومُ فيها القيامة.

وقوله: «اقْتَرَبَت» افتعلت من القُرب، وهذا من الله تعالى ذِكْرُه إنذارٌ لعبادِه بِدُنُوِّ القيامةِ، وقُرْبِ فناءِ الدنيا، وأمرٌ لهم بالاستعدادِ لأهوالِ القيامةِ قبلَ هُجومِهَا عليهم، وهم عنها في غَفْلةٍ ساهون.

وقوله: «وَانشَقَّ القَمَرُ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وانفلقَ القمرُ، وكان ذلك فيما ذُكِرَ على عهدِ رسولِ الله ﷺ وهو بمكةَ، قبل هجرتهِ إلى المدينةِ، وذلك أنَّ كُفَّارَ أهلِ مكة سألوه آيةً، فأراهم ﷺ انشقاقَ القمر، آيةً حُجَّةً على صِدْقِ قوله، وحقيقةِ نُبُوَّتِه؛ فلما أراهم أعْرَضُوا وكذَّبوا، وقالوا: «هذا سِحْرٌ مستمرٌّ»، سَحَرَنَا محمدٌ، فقال الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ».

وقوله: «وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ يَرَ المشركونَ علامةً تَدُلُّهم على حقيقةِ نبوَّةِ محمد ﷺ: ودلالة تدلهم على صِدْقِه فيما جاءهم به عن رَبِّهم، يُعْرِضُوا عنها، فِيُوَلُّوا مُكَذِّبينَ بها مُنكرينَ أنْ يكونَ يقيناً، ويقولوا

تكذيباً منهم بها، وإنكاراً لها أنْ تكونَ حقاً: هذا سحرٌ سَحَرَنا به محمدٌ حين خيَّلَ إلينا أنَّا نرى القمرَ منفلقاً باثنين بِسِحْرِه، وهو سحرٌ مستمرٌّ، يعني يقول: سِحر مستمرّ ذاهبٌ، من قولهم: قد مَرَّ هذا السحرُ إذا ذهبَ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكَذَّبَ هؤلاءِ المشركونَ من قريشٍ بآياتِ الله بعد ما أتتهم حقيقَتُهَا، وعاينوا الدلالةَ على صحتها برؤيتهم القمرَ منفلقاً فلقتين «وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ»، يقولُ: وآثروا اتباعَ ما دَعَتْهُمْ إليه أهواءُ أنفسهم من تكذيبِ ذلك على التصديقِ بما قد أيقنوا صِحَّتَهُ من نبوَّةِ محمدٍ ﷺ، وحقيقة ما جاءهم به من ربهم.

وقوله: «وكُلُّ أمْرٍ مُسْتَقِرٌّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكلُّ أمرٍ من خيرٍ أو شرٍّ مستقرٌّ قرارهُ، ومتناهٍ نهايته، فالخيرُ مستقرٌّ بأهلِهِ في الجنة، والشرُّ مستقرٌّ بأهله في النار.

وقوله: «وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الأنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد جاء هؤلاء المشركينَ من قريشٍ الذين كذَّبُوا بآياتِ الله، واتَّبَعُوا أهواءَهُمْ من الأخبارِ عن الأممِ السالفةِ، الذين كانوا من تكذيبِ رُسُلِ الله على مِثْلِ الذي هُمْ عليه، وأحَلَّ اللهُ بهم من عقوباتِه ما قَصَّ في هذا القرآن ما فيه لهم مُزْدَجَرٌ، يعني: ما يَرْدَعُهُمْ، ويَزْجُرُهم عَمَّا هُمْ عليه مُقيمونَ، من التكذيبِ بآياتِ الله، وهو مُفْتَعَلٌ من الزَّجْر.

وقـولـه: «حِكْمَةٌ بالِغَةٌ»، يعني بالحكمةِ البالغة: هذا القرآن، ورُفِعت

الحكمةُ ردّاً على «ما» التي في قوله: «وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الأنْباءِ ما فيهِ مُزْدَجَرٌ».

وتأويلُ الكلام: ولقد جاءهم من الأنباءِ النبأُ الذي فيه مزدَجَرٌ، حكمة بالغـة. ولو رُفعت الحكمةُ على الاستئنافِ كان جائزاً، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: ولقد جاءهم من الأنباء النبأ الذي فيه مُزْدَجَرٌ، ذلك حكمةٌ بالغةٌ، أو هو حكمةٌ بالغةٌ، فتكون الحكمة كالتفسير لها.

وقـولـه: «فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ» وفي «ما» التي في قوله: «فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ» وجهان: أحدهما أنْ تكونَ بمعنى الجَحْدِ، فيكون إذا وجهت إلى ذلك معنى الكلام، فليست تُغْني عنهم النذرُ ولا ينتفعونَ بها، لإعراضِهم عنها وتكذيبهم بهـا. والآخر: أنْ تكونَ بمعنى: أنى، فيكون معنى الكلام إذا وجهت إلى ذلك: فأيّ شيء تُغني عنهم النُّذر[1]. والنُّذر: جمع نذير، كما الجُدُدُ: جمع جَديد، والحُصُرُ: جمع حَصير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾

يعني تعـالى ذِكْـره بقوله: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ»: فأعْرِضْ يا محمدُ عن هؤلاءِ المشركينَ من قومكَ، الذينَ إنْ يَرَوْا آيةً يُعْرِضُوا ويقولوا: سِحْرٌ مستمرٌّ، فإنهم يوم يَدْعُـو داعي الله إلى موقفِ القيامـة، وذلـك هو الشيء النُّكُـر «خُشَّعـاً أبْصَـارُهُمْ»، يقـولُ: ذليلة أبصـارُهم خاشعـة، لا ضررَ بهـا «يَخْرُجُونَ مِنَ الأجْداثِ». وهي جمع جَدَثٍ، وهي القبورُ.

---

(١) أنظر معاني القرآن للفراء: ١٠٥/٣.

وإنما وصف جَلَّ ثَنَاؤُهُ بالخشوع الأبصارَ دونَ سائرِ أجسامِهم، والمراد به جميعَ أجسامِهم، لأنَّ أثرَ ذِلَّةِ كُلِّ ذليلٍ، وعِزَّةِ كُلِّ عزيزٍ، تتبينُ في ناظريه دونَ سائرِ جسده، فلذلك خَصَّ الأبصارَ بوصفها بالخشوع.

وقوله: «كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يخرجونَ من قبورِهم كأنهم في انتشارهم وسعيهم إلى موقِفِ الحساب جرادٌ منتشر.

وقوله: «مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ»، يقولُ: مُسرعينَ بنظرهم قِبَلَ داعِيهم إلى ذلك الموقفِ.

وقوله: «يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يقولُ الكافرونَ بالله يومَ يَدْعُ الداعي إلى شيءٍ نُكُر: هذا يوم عسر. وإنما وصفوه بالعسر لشدةِ أهوالِه وبَلْبَاله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾

وهذا وعيدٌ من الله تعالى ذِكْرُه، وتهديدٌ للمشركينَ من أهلِ مكةَ وسائرِ من أرْسَلَ إليه رَسُولَهُ محمداً ﷺ على تكذِيبهم إياهُ، وتَقَدَّمَ منه إليهم إنْ هُمْ لم يُنِيبُوا من تكذيبهم إياه، أنه مُحِلٌ بهم ما أحلَّ بالأمم الذين قَصَّ قصصهم في هذه السورةِ من الهلاكِ والعذابِ، ومُنَجٍّ نبيَّهُ محمداً والمؤمنينَ به، كما نجَّى من قبله الرسلَ وأتباعَهُمْ من نِقَمِه التي أحلَّها بأممهم، فقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: كَذَّبَتْ يا محمدُ قبلَ هؤلاءِ الذين كَذَّبُوكَ من قومكَ، الذين إذا رأوْا آيةً أعرضوا وقالوا سحرٌ مستمرٌّ، قومُ نوحٍ، فكذَّبوا عَبْدَنَا نوحاً إذْ أرسلناهُ إليهم، كما كذَّبتكَ قريش إذ أتيتَهُمْ بالحقِّ من عندنا وقالوا: هو مجنونٌ وازْدُجِر، وهو افْتُعِلَ من زجرت، وكذا تفعلُ العربُ بالحرف إذا كان أوّله زاياً صيروا تاءَ الافتعالِ منه

دالاً من ذلك قولهم: ازدجر من زجرت، وازدلف من زلفت، وازديد من زدت.

وقوله: «فَدَعا رَبَّهُ أني مَغْلُوبٌ فانْتَصِرْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فدعا نوحُ رَبَّهُ: إنَّ قومي قد غلبوني، تمرّداً وعتوّاً، ولا طاقة لي بهم، فانتصرْ منهم بعقابٍ من عندكَ على كُفْرِهم بك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فَفَتَحْنَا» لَمَّا دعانا نوحٌ مُسْتغيثاً بنا على قومِه «أبْوَابَ السَّماءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ» وهو المندفقُ.

وقوله: «وَفَجَّرْنا الأَرْضَ عُيُوناً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأَسَلْنَا الأرضَ عيون الماء.

«فالْتَقَى المَاءُ على أمْرٍ قَدْ قُدِر»، يقول تعالى ذِكْرُه: فالتقى ماءُ السماء وماءُ الأرضِ على أمرٍ قد قَدَّرَهُ الله وقَضَاه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وحملنا نوحاً إذ التقى الماءُ على أمرٍ قد قُدِرَ، على سفينةٍ ذات ألواحٍ ودُسُر. والدُّسُر: جمع دسار؛ وقد يقال في واحدها: دسير، كما يقال: حَبِيك وحِباك؛ والدِّسار: المسمار الذي تُشَدُّ به السفينةُ؛ يقال منه: دسرت السفينة إذا شددتها بمساميرَ أو غيرها.

وقوله: « تَجْري بأعْيُنِنا»، يقول جَلَّ ثناؤه: تجري السفينةُ التي حملنا نوحاً فيها بمرأى مِنَّا ومنظرٍ.

وقوله: «جزاءً لمن كان كُفِر»، معناه: ففتحنا أبوابَ السماء بماءٍ مُنْهَمِرٍ، وفجَّرنا الأرضَ عيوناً، فَغَرَّقْنَا قومَ نوح ونجينا نوحاً، عقاباً من الله وثواباً للذي جُحِـدَ وكُفِر، لأنَّ معنى الكفرِ: الجحود، والذي جحدَ أُلُوهَتَهُ ووحدانيتَهُ قومُ نوحٍ، فقال بعضُهم لبعضٍ: «لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ، وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً ولا سُواعاً، ولَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ ونَسْراً» [نوح: ٢٣]، ومَنْ ذهب به إلى هذا التأويلِ، كانت من الله، كأنه قِيلَ: عُوقِبُوا لله ولكفرهم به. ولو وَجَّه مُوَجِّهٌ إلى أنها مرادٌ بها نوح والمؤمنون به كان مذهباً، فيكون معنى الكلام حينئذٍ، فعلنا ذلك جزاء لنوحٍ ولِمَنْ كان معه في الفُلْكِ، كأنه قيل: غَرَّقْنَاهُمْ لنوحٍ ولِصَنِيعِهِم بنوحٍ ما صَنَعُوا من كُفْرِهم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد تركنا السفينةَ التي حملنا فيها نوحاً ومَنْ كان معه آيةً، يعني: عِبْرةً وعِظةً لمن بعد قومِ نوحٍ من الأممِ ليعتبروا ويَتَّعِظُوا، فينتهوا عن أنْ يسلكـوا مَسْلكهم في الكفرِ بالله، وتكذيبِ رسله، فيصيبهم مثل ما أصابهم من العقوبة.

وقوله: «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ»، يقولُ: فهل من ذي تَذَكُّرٍ يتذكَّرُ ما قد فعلنا بهذه الأمةِ التي كفرت بربها، وعَصَتْ رسولَهُ نوحاً، وكذَّبته فيما أتاهم به عن رَبِّهم من النصيحـةِ، فيعتبر بهم، ويحذر أنْ يَحِلَّ به من عذابِ الله بكفرِه بربِّهِ، وتكذيبه رسولَهُ محمداً ﷺ، مثل الذي حَلَّ بهم، فينيبَ إلى التوبةِ، ويراجعَ

الطاعةَ، وأصل مُدَّكر: مفتعل من ذكر، اجتمعت فاءُ الفعلِ، وهي ذال وتاء، وهي بعد الذال، فَصُيِّرَتا دالاً مشدّدة، وكذلك تفعلُ العرب فيما كان أوَّله ذالاً يتبعها تاءُ الافتعال يجعلونهما جميعاً دالاً مُشَدَّدةً، فيقولون: ادَّكرتُ ادّكاراً، وإنما هو اذتكرتُ اذتكاراً، و: فَهَلْ من مُذْتَكِر.

وقوله: «فَكَيْفَ كانَ عَذَابِي وَنُذُر»، يقولُ تعالى ذِكْرُهُ: فكيفَ كانَ عذابِي لهؤلاءِ الـذين كفروا بربهم من قوم نوحٍ، وكَذَّبوا رَسُولَهُ نوحاً، إذ تمادوا في غيهم وضلالهم وكيف كان إنذاري بما فعلتُ بهم من العقوبةِ التي أحللتُ بهم بكفرِهم بربِّهم، وتكـذيبهم رسولَهُ نوحاً. صلواتُ الله عليه، وهو إنذارٌ لمن كفر من قومِه من قريشٍ، وتحذيرٌ منه لهم، أنْ يُحِلَّ بهم على تمادِيهم في غيهم، مثل الذي حَلَّ بقومِ نوحٍ من العذاب.

وقوله: «وَنُذُرِ»، يعني: وإنذاري، وهو مَصْدَرٌ.

وقـولـه: «وَلَقَـدْ يَسَّـرْنا القُرْآنَ للذِّكْرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد سَهَّلْنَا القرآنَ، بَيَّناهُ وفَصَّلناه للذكرِ، لمن أرادَ أنْ يتذكَّرَ ويعتبرَ ويَتَّعِظَ، وهَوَّنَّاهُ.

وقوله: «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِر»، يقولُ: فَهَلْ من مُعْتَبِرٍ مُتَّعِظٍ يتذكرُ فيعتبرُ بما فيه من العبرِ والذكر.

وقد قال بعضُهم في تأويل ذلك: هل مِنْ طالبِ علمٍ أو خيرٍ فيُعان عليه، وذلك قريبُ المعنى مما قلناه، ولكنَّا اخترنا العبارةَ التي عبرناها في تأويله، لأنَّ ذلك هو الأغلب من معانيهِ على ظاهرِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾

إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ

نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كَذَّبَتْ أيضاً عادُ نَبِيَّهُمْ هوداً ﷺ فيما أتاهم به عن الله، كالذي كذَّبَتْ قومُ نوحٍ، وكالذي كذَّبتم مَعْشَر قريشٍ نبيَّكُمْ محمداً ﷺ وعلى جميعِ رُسُلِه، «فكَيْفَ كانَ عَذابي وَنُذُرِ»، يقولُ: فانظروا معشرَ كَفَرَةِ قريشٍ باللهِ كيف كان عذابي إياهم، وعقابي لهم على كُفْرِهم بالله، وتكذيبهم رسولَهُ هوداً، وإنذاري بفِعلي بهم ما فعلتُ مَنْ سلكَ طرائِقَهُمْ، وكانوا على مِثْلِ ما كانوا عليه من التمادي في الغيِّ والضلالة.

وقوله: «إنَّا أرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنا بعثنا على عادٍ إذْ تمـادوا في طغيانهم وكفـرهم بالله ريحاً صرصراً، وهي الشديدةُ العصوفِ في بردٍ، التي لِصَوْتِها صريرٌ، وهي مأخوذةٌ من شدة صوتِ هبوبها إذا سمع فيها كهيئةِ قولِ القائل: صرّ. فقيل منه: صرصر، كما قيل: فَكُبْكِبُوا فيها، من فَكُبُّوا، ونَهْنَهتْ من نَهْنَهْتُ.

وقوله: «في يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ»، يقولُ: في يوم شرٍّ وشُؤْمٍ لهم.

وقوله: «مُسْتَمِرٍّ»، يقولُ: في يومِ شرٍّ وشؤم، استمرَّ بهم البلاءُ والعذابُ فيه إلى أنْ وافى بهم جهنم.

وقوله: «تَنْزِعُ النَّاسَ كأنَّهُمْ أعجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ»، يقولُ: تقتلعُ الناسَ ثم تَرْمي بهم على رؤوسهم، فتندقُّ رِقابُهم، وتبينُ من أجسامِهم.

وقال: «كأنهم أعجازُ نخل»؛ ومعنى الكلام: فيتركهم كأنهم أعجازُ نخلٍ منقعر، فترك ذِكْرَ: فيتركهم، استغناءً بدلالةِ الكلامِ عليه. وقيل: إنما شَبَّهَهُمْ بأعجازِ نخلٍ منقعر، لأنَّ رؤوسهم كانت تبينُ من أجسامهم، فتذهب لذلك رِقابُهم، وتبقى أجسادهم.

«فَكَيْفَ كانَ عَذَابي وَنُـذُرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فانظروا يا معشرَ كفارِ قريش، كيف كان عذابي قومَ عادٍ، إذْ كفروا بربِّهم، وكَذَّبُوا رسولَهُ، فإنَّ ذلك

سنة الله في أمثالهم، وكيف كان إنذاري بهم مَنْ أنذرتُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد سَهَّلْنا القرآنَ وهَوَّنّاهُ لِمَنْ أرادَ التذكُّرَ به والاتِّعاظَ «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ»، يقولُ: فهل مِنْ مُتَّعِظٍ ومُنْزَجِرٍ بآياتِه.

وقوله: «كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنُّذُرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كذّبت ثمودُ قومُ صالحٍ بنذرِ الله التي أتتهم من عنده، فقالوا تكذيباً منهم لصالح رسولِ رَبِّهم: أبشراً مِنَّا نتبعه نحنُ الجماعةُ الكبيرةُ، وهو واحد؟.

وقوله: «إنَّا إذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ»، يقولُ: قالوا: إنَّا إذاً باتِّباعِنا صالحاً إن اتبعناهُ، وهو بَشَرٌ منا واحدٌ، «لفي ضلال»، يعنون: لفي ذَهابٍ عن الصوابِ وأخذٍ على غير استقامةٍ؛ «وسُعُر»، يعنون بالسُّعُر: جمع سَعير.

وكان قتادة يقول: عنى بالسُّعُر: العَنَاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيلِ مُكَذِّبي رسوله صالحٍ ﷺ من قومه ثمود: «أأُلْقِيَ عليه الذكر من بيننا» يَعنونَ بذلك: أَنَزَلَ الوحيُ وخُصَّ بالنبوّةِ من بيننا وهو واحدٌ منا؟ إنكاراً منهم أنْ يكون الله يُرسل رسولا من بني آدم.

وقوله: «بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أشِرٌ»، يقولُ: قالوا: ما ذلكَ كذلكَ، بَلْ هو كَذَّابٌ أشر، يعنون بالأشر: المَرِح ذا التَّجَبُّرِ والكِبْرياءِ، والمَرِح من النشاط.

وقوله: «سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال اللهُ لهم: ستعلمونَ غداً في القيامةِ مَنِ الكذَّابُ الأشِرُ منكم معشرَ ثمود، ومَن رسولُنا صالحٌ حين تَرِدُونَ على رَبِّكم. وهذا التأويلُ تأويلُ مَنْ قرأه «سَتَعْلَمُونَ» بالتاء، وهي قراءةُ عامة أهلِ الكوفة سوى عاصم والكسائي. وأما تأويل ذلك على قراءةِ مَنْ قرأه بالياء، وهي قراءة عامة قَرَأة أهل المدينة والبصرة وعاصم والكسائي، فإنه قال الله: «سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ» وتُرِكَ من الكلامِ ذِكْرُ: قالَ اللهُ، استغناءً بدلالةِ الكلامِ عليه.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أنهما قراءتان معروفتان، قد قرأ بكل واحدةٍ منهما علماء من القَرَأة، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيبٌ، لتقارب معنييهما، وصحتهما في الإعرابِ والتأويل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّا باعثو الناقة التي سَأَلْتَهَا ثمودُ صالحاً، من الهضبةِ التي سألوهُ بَعْثَها منها، آيةً لهم، وحجةً لصالح على حقيقةِ نُبُوَّته وصِدْقِ قوله.

وقوله: «فِتْنَةً لَهُمْ»، يقولُ: ابتلاءً لهم واختباراً، هل يؤمنونَ باللهِ ويتبعون صالحاً ويصدِّقونه بما دَعَاهُمْ إليه من توحيدِ الله إذا أرسلَ الناقةَ. أم يُكَذِّبُونَهُ ويكفرونَ باللهِ؟

وقوله: «فارْتَقِبْهُم»، يقول تعالى ذِكْرُه لصالح: إنا مُرسِلُو الناقةِ فتنةً لهم، فانتظرهم. وتَبَصَّرْ ما هُمْ صانِعُوه بها «وَاصْطَبِرْ»، يقول له: واصطبرْ على ارتقابهم ولا تعجلْ، وانتظر ما يصنعونَ بناقةِ الله. وقيل: «وَاصْطَبِرْ» وأصل الطاء تاء، فجعلت طاء، وإنما هو افتعل من الصبر.

وقولـه: «وَنَبِّئْهُم أنَّ المـاءَ قِسْمَـةٌ بَيْنَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: نَبِّئْهُمْ: أَخْبِرْهُمْ أنَّ الماءَ قسمةٌ بينهم، يومَ غبِّ الناقةِ، وذلك أنها كانت تَرِدُ الماءَ يوماً، وتغبُّ يوماً، فقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ لصالح: أخبر قومك من ثمود أنَّ الماء يوم غبِّ الناقةِ قسمةٌ بينهم، فكانوا يقتسمون ذلك يوم غبها، فيشربون منه ذلك اليوم، ويتزوَّدُونَ فيه منه ليوم وُرُودِها.

وقوله: «كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كُلُّ شِرْبٍ من ماء يومَ غبِّ الناقةِ، ومن لَبَنِ يوم وُرُودِها محتضرٌ يحتضرونَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فنادت ثمودُ صاحِبَهم عاقِرَ الناقةِ قدار بن سالف ليعقرَ الناقةَ حضّاً منهم له على ذلك.

وقوله: «فتَعَاطَى فَعَقَرَ»، يقولُ: فتناولَ الناقةَ بيده فعقَرَهَا.

وقوله: «فَكَيْفَ كانَ عَذَابِي وَنُذُرِ»، يقول جَلَّ ثناؤه لقريش: فكيف كان عذابي إياهم معشرَ قريشٍ حين عَذَّبْتُهم أَلَمْ أُهْلِكْهُمْ بالرجفةِ؟ «ونُذُرِ». يقولُ: فكيف كان إنذاري مَنْ أنذرتُ من الأممِ بعدهم بما فعلتُ بهم وأحللتُ بهم من العقوبة.

وقـولـه: «إنَّـا أرْسَلْنـا عَلَيْهِمْ صَيْحَـة وَاحِدَةً»، وقد بيَّنا فيما مضى أمرَ الصيحةِ، وكيف أتتهم.

وقوله: «فكانُوا كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فكانوا بهلاكِهم بالصيحةِ بعد نَضارتِهم أحياء، وحُسْنِهم قَبْلَ بَوارِهم كَيَبْسِ الشجرِ الذي حظرته بحظير حظرته بعد حُسْنِ نباتِه. وخُضْرَةِ ورقِهِ قبل يُبْسِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد هَوَّنَّا القرآنَ بَيَّناه للذِّكْر: يقول: لِمَنْ أراد أنْ يتذكرَ به فيَتَّعِظَ «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ»، يقولُ: فهل من مُتَّعِظٍ به ومعتبرٍ فيعتبر به، فيرتدع عما يكرهه الله منه.

وقوله: «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنُّذُرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كذَّبَتْ قومُ لوطٍ بآياتِ الله التي أنذرهم وذَكَّرهم بها.

وقوله: «إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّا أرسلنا عليهم حجارةً.

وقوله: «إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بسَحَرٍ»، يقولُ: غير آلِ لوطٍ الذين صَدَّقُوهُ واتَّبعوهُ على دِينِهِ فإنا نجَّيناهم من العذابِ الذي عَذَّبنا به قومَهُ الذين كذَّبوه، والحاصبُ الذي حَصَبْنَاهُمْ به بِسَحَرٍ «نعمةً من عندنا»، يقولُ: نعمة أنعمناها على لوطٍ وآلِهِ، وكرامة أكرمناهم بها من عندنا.

وقوله: «كَذَلكَ نَجْزِي مَنْ شَكَر»، يقولُ: وكما أثَبْنَا لوطاً وآلَهُ، وأنعمنا عليه. فأنجيناهم من عذابنا بطاعتهم إيَّانا كذلك نُثِيبُ مَنْ شَكَرَنَا على نِعْمَتنا عليه، فأطاعنا وانتهى إلى أمرنا ونهينا من جميعِ خلقنا. وأجرى قوله: بِسَحَر، لأنه نكرةٌ، وإذا قالوا: فعلت هذا سَحَر بغير باءٍ لم يُجْرُوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد أنذر لوطٌ قومَهُ بَطْشَتَنَا التي بطشناها قبل ذلك «فَتَمارَوْا بالنُّذُرِ»، يقولُ: فكذَّبوا بإنذارِهِ ما أنذرَهُمْ من ذلك شكاً منهم فيه.

وقوله: «وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ولقد راودَ لوطاً قومُهُ عن ضيفِهِ الذين نزلوا به حين أرادَ اللهُ إهلاكَهم «فَطَمَسْنا أعْيُنَهُمْ»، يقولُ: فطمسنا على أعينهم حتى صيَّرناها كسائرِ الوجهِ لا يُرَى لها شقٌّ، فلم يُبْصِرُوا ضيفَهُ. والعربُ تقول: قد طمستِ الريحُ الأعلامَ: إذا دفنتها بما تسفي عليها من الترابِ.

وقوله: «فَذُوقُوا عَذَابي وَنُذُرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فذوقوا معشرَ قومِ لوطٍ من سذوم، عذابي الذي حَلَّ بكم، وإنذاري الذي أنذرتُ به غيرَكُمْ من الأممِ من النكالِ والمَثُلاتِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾
فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد صَبَّحَ قَوْمَ لوطٍ بُكْرَةً ذُكِرَ أنَّ ذلك كان عندَ طلوعِ الفجر.

وقوله: «عَذَاب»، وذلك قَلْبُ الأرضِ بهم، وتصييرُ أعلاها أسفلَها بهم، ثم إتباعهم بحجارةٍ من سجيلٍ منضود.

وقوله: «مُسْتَقِرّ»، يقولُ: استقرَّ ذلك العذابُ فيهم إلى يومِ القيامةِ حتى يوافوا عذابَ اللهِ الأكبرَ في جهنم.

وقوله: «فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه لهم: فَذُوقُوا معشرَ قومِ لوطٍ عذابي الذي أَحْلَلْتُه بكم، بكفركم باللهِ وتكذِيبكم رسولَهُ، وإنذاري بكم

الأممَ سِواكُمْ بما أنزلته بكم من العقاب.

وقوله: «وَلَقَدْ يَسَّرْنا القُرْآنَ للذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد سَهَّلْنا القرآنَ للذكرِ لِمَنْ أرادَ التذكُّرَ به فَهَلْ من مُتَّعِظٍ ومعتبرٍ به فينزجر به عما نهاهُ اللهُ عنه إلى ما أمرَهُ به وأذِنَ له فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد جاء أتباعَ فرعونَ وقومَهُ إنذارُنا بالعقوبةِ بكفرهم بنا وبرسولنا موسى ﷺ «كَذَّبُوا بآياتِنا كُلِّها»، يقول جَلَّ ثناؤه كَذَّبَ آلُ فرعونَ بأدلتنا التي جاءتهم من عندنا، وحُجَجِنَا التي أتتهم بأنه لا إلهَ إلا اللهُ وحده كلها «فأخَذْناهُمْ أخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فعاقبناهم بكفرهم باللهِ عقوبةَ شديدٍ لا يُغْلَبُ، مُقْتَدِرٍ على ما يشاءُ، غير عاجزٍ ولا ضعيف.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لكفار قريش الذين أخبر الله عنهم أنهم «إنْ يَرَوْا آيَةً يُعْـرِضُـوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ» أَكُفَّارُكُمْ معشرَ قريشٍ خيرٌ من أولئكم الذين أحللتُ بهم نقمتي من قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، وقومِ لوطٍ وآلِ فرعونَ، فهم يأملون أنْ يَنْجُـوا من عذابي، ونقمي على كفـرهم بي، وتكذيبهم رسولي. يقولُ: إنما أنتم في كفركم باللهِ وتكذيبكم رسولَهُ، كبعضِ هذه الأممِ التي وصفتُ لكم أمْرَهُمْ، وعقوبة الله بكم نازلة على كُفْرِكُمْ به، كالذي نزلَ بهم إنْ لم تَتُوبُوا وتُنِيبُوا.

وقوله: «أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: أم لكم براءةٌ من عقابِ الله معشرَ قريشٍ، أنْ يُصِيبَكُم بكفرِكُمْ بما جاءكم به الوحيُ من اللهِ في الزُّبُرِ، وهي الكُتُب.

وقوله: «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أيقولُ هؤلاء الكفارُ من قريشٍ: نحنُ جميعٌ منتصر ممن قَصَدَنَا بسوءٍ ومكروهٍ، وأراد حَرْبَنا وتفريقَ جَمْعِنَا، فقال الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: سَيُهْزَمُ الجمعُ يعني جمعُ كفارِ قريشٍ «وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ»، يقولُ: ويُوَلُّونَ أدبارهم المؤمنينَ بالله عند انهزامهم عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما الأمرُ كما يزعمُ هؤلاءِ المشركون من أنهم لا يُبْعَثُونَ بعد مماتهم «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ» للبعثِ والعقابِ «والسَّاعَةُ أدْهَى وأَمَرُّ» عليهم من الهزيمةِ التي يُهْزَمُونَها عند التقائهم مع المؤمنينَ ببدرٍ.

وقوله: «إِنَّ المُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ المجرمينَ في ذهابٍ عن الحقِّ، وأخذٍ على غيرِ هدى «وَسُعُرٍ»، يقولُ: في احتراقٍ من شدّةِ العَنَاء والنصب في الباطل.

وقوله: «يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ على وُجُوهِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يوم يُسْحَبُ هؤلاءِ المجرمون في النار على وجوههم.

وقوله: «ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يوم يَسحبونَ في النار على وجوههم، يقال لهم: ذُوقُوا مَسَّ سقَر، وتركَ ذكر: «يقال لهم» استغناءً بدلالةِ الكلامِ عليه من ذكره.

فإنْ قالَ قائلٌ: وكيف يُذاقُ مَسُّ سقر، أَوَلَهُ طَعْمٌ فَيُذاق؟

قيل إنَّ ذلك مختلفٌ فيه؛ فقال بعضهم: قِيلَ ذلك كذلك على مجازِ الكلام، كما يقال: كيفَ وجدتَ طَعْمَ الضربِ؟ وهو مجازٌ. وقال آخر: ذلك كما يقال: وجدتُ مَسَّ الحُمَّى يُرادُ به أوّل ما نالني منها، وكذلك وجدتُ طعمَ عَفْوِكَ. وأما سَقَرُ فإنها اسمُ بابٍ من أبوابِ جهنم[1] وترك إجراؤها لأنها اسم لمؤنث معرفة.

وقوله: «إنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بقَدَرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّا خلقنا كُلَّ شيءٍ بمقدارٍ قَدَّرْنَاهُ وقضيناه. وفي هذا بيانٌ، أنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُه، تَوَعَّدَ هؤلاءِ المجرمينَ على تكذيبهم في القدر مع كُفْرِهم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما أَمْرُنَا للشيءِ إذا أمرناهُ وأردنا أنْ نُكَوِّنه إلا قولةً واحدة: كُنْ فيكون، لا مراجعةَ فيها ولا مُرادةَ «كَلَمْحٍ بالبَصَرِ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: فيوجد ما أمرناه وقلنا له: كُنْ كَسُرْعَةِ اللمحِ بالبصرِ لا يُبطىءُ ولا يتأخر.

يقول تعالى ذِكْرُه لمشركي قريشٍ الذين كَذَّبُوا رسولَهُ محمداً ﷺ: ولقد

---

(١) هكذا قال، والذي في كتب اللغة والتفسير أنها اسم من أسماء جهنم. أنظر مثلاً: معاني القرآن للفراء: ١١٠/٣، ومعاني القرآن للزجاج: ٢٤٧/٥، ومفردات الراغب: ٤١٤، وزاد المسير: ١٠١/٨ وغيرها. ويدل عليه قوله تعالى في سورة المدثر: ﴿سأُصْليه سَقَر، وما أدراك ما سقر﴾.

أهلكنا أشياعَكُمْ معشرَ قريشٍ من الأممِ السالفةِ والقرونِ الخالية، على مِثْلِ الذي أنتم عليه من الكفرِ بالله، وتكذيب رُسُله «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ»، يقولُ: فهل من مُتَّعظٍ بذلك منزجرٍ ينزجرُ به.

وقوله: «وكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ في الزُّبُرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكل شيءٍ فعله أشياعُكم الذين مضوا قبلكم معشرَ كفَّارِ قريشٍ في الزُّبر، يعني: في الكتبِ التي كَتَبْتَهَا الحَفَظَةُ عليهم. وقد يحتمل أنْ يكون مراداً به في أمِّ الكتابِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وكُلُّ صَغيرٍ وكَبيرٍ» من الأشياءِ «مُسْتَطَرٌ»، يقولُ: مُثْبَتٌ في الكتابِ مكتوبٌ.

وقوله: «إنَّ المُتَّقينَ فِي جَنَّاتٍ ونَهَرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين اتقوا عقـابَ الله بطاعتِـه وأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه في بساتينَ يومَ القيامةِ، وأنهارٍ، وَوَحَّدَ النهرَ في اللفظ، ومعناه الجمع، كما وَحَّدَ الدُّبَرَ، ومعناه الإدبار في قوله: «يُوَلُّونَ الدُّبُرَ».

وقوله: «في مَقْعَدِ صِدْقٍ»، يقولُ: في مجلسِ حَقٍّ لا لغوٌ فيه ولا تأثيمٌ «عِنْدَ مَليكٍ مُقْتَدِرٍ»، يقولُ: عند ذي مُلْكٍ مقتدرٍ على ما يشاءُ، وهو الله ذُو القوّةِ المتين، تباركَ وتعالى.

سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الرحمنُ أيها الناسُ برحمته إياكم عَلَّمكم القرآنَ، فأنعمَ بذلك عليكم، إذ بَصَّرَكُمْ به ما فيه رضا رَبِّكم، وعَرَّفكم ما فيه سخطه، لتطيعوه باتباعكم ما يُرْضِيه عنكم، وعملكم بما أَمَرَكُمْ به، وبِتَجَنُّبِكُمْ ما يُسْخِطُه عليكم، فتستوجبوا بذلك جزيلَ ثوابِهِ، وتَنْجُوا من أليمِ عقابه.

وقوله: «خَلَقَ الإنْسانَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: خَلَقَ آدم وهو الإنسانُ في قولِ بعضهم.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك الناسَ جميعاً، وإنما وَحَّدَ في اللفظ لأدائه عن جنسه، كما قيل: إن الإنسان لفي خُسر، والقولان كلاهما غير بعيدين من الصوابِ لاحتمال ظاهرِ الكلام إياهما.

وقوله: «عَلَّمَهُ البيانَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: علَّم الإنسانَ البيان.

ثم اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بالبيانِ في هذا الموضع، فقال بعضهم: عَنَى به بيانَ الحلال والحرام.

وقال آخرون: عنى به الكلام: أي: أن الله عزّ وجلّ عَلَّمَ الإنسانَ البيان.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: معنى ذلك: أنَّ الله علَّم الإنسانَ ما به الحاجةُ إليه من أمرِ دينه ودُنياه من الحلالِ والحرام، والمعايشِ والمنطقِ، وغير ذلك مما به الحاجةُ إليه، لأن الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ لم يخصص بخبرِه ذلك، أنه علَّمه من البيانِ بعضاً دونَ بعضٍ، بل عَمَّ فقال: علَّمه البيان. فهو كما عَمَّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ.

وقوله: «الشَّمْسُ والقَمَرُ بِحُسْبانٍ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: الشمسُ والقمرُ بحسبان، ومنازل لها يجريانِ ولا يَعْدُوَانِهَا.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهما يجريان بقَدَرٍ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهما يدوران في مثل قطبِ الرَّحا.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معناه: الشمسُ والقمر يجريان بحسابٍ ومنازل، لأنَّ الحسبانَ مصدرٌ من قول القائل: حسبته حساباً وحسباناً، مثل قولهم: كُفرته كُفراناً، وغُفرته غُفْراناً. وقد قيل: إنه جمع حساب، كما الشُّهبان: جمع شِهاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى النجم في هذا الموضع مع إجماعهم على أنَّ الشجرَ ما قام على ساقٍ، فقال بعضهم: عنى بالنجم في هذا الموضع من النبات: ما نجمَ من الأرضِ، مما ينبسطُ عليها، ولم يكن على ساقٍ مثل البقلِ ونحوه.

وقال آخرون: عُنِي بالنجمِ في هذا الموضع: نجم السماء.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: عُنِي بالنجم: ما نجمَ من الأرضِ من نَبْتٍ لعطف الشجرِ عليه، فكان بأنْ يكون معناه لذلك: ما قامَ على ساقٍ وما لا يقومُ على ساقٍ يَسْجُدَانِ لله، بمعنى: أنه تسجدُ له الأشياءُ كلها المختلفة الهيئاتِ من خلقه أشبه وأَوْلى بمعنى الكلام من غيره.

وأما قوله: «والشَّجَرُ» فإن الشجر ما قد وصفتُ صِفَتَهُ قَبْلُ.

وأما قوله: «يَسْجُدانِ»، فإنه عُنِي به سجودُ ظِلِّهما، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وللهِ يَسْجُدُ مَنْ في السَّمَوَاتِ والأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بالغُدُو والآصَالِ» [الرعد: ١٥].

وقوله: «والسَّماءَ رَفَعَها»، يقول تعالى ذِكْرُه: والسماءَ رفعها فوقَ الأرضِ.

وقوله: «وَوَضَعَ المِيزَانَ»، يقولُ: ووضع العدلَ بين خَلْقِه في الأرض.

وقوله: «أَلاَّ تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ألا تَظْلِمُوا وتبخَسُوا في الوزن.

وقوله: «وأَقِيمُوا الوَزْنَ بالقِسْطِ»، يقولُ: وأقيموا لسانَ الميزانِ بالعدل.

وقوله: «وَلا تُخْسِرُوا المِيزَانَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولا تُنْقِصُوا الوزنَ إذا وزنتم للناسِ وتظلموهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَالأَرْضَ وَضَعَها لِلأَنَامِ» والأرضَ وَطَّأَها للخَلْقِ وهم الأنام.

وقوله: «فِيها فاكِهَةٌ والنَّخْلُ ذَاتُ الأكمَام»، يقول تعالى ذِكْرُه: في الأرض فاكهة، والهاء والألف فيها من ذِكْرِ الأرض. «والنَّخْلُ ذَاتُ الأكمام» والأكمام: جمع كِمّ، وهو ما تكممتْ فيه.

واختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك. فقال بعضهم: عنى بذلك تَكَمُّمَ النخلِ في الليف.

وقال آخرون: يعني بالأكمام: الرُّفَات.

وقال آخرون: بل معنى الكلام: والنخل ذات الطلع المتكمم في كمامه.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أن يقال: إنَّ الله وصفَ النخلَ بأنها ذات أكمامٍ. وهي متكممةٌ في ليفها، وطلعها متكمم في جُفِّهِ، ولم يخصص اللهُ الخبرَ عنها بتكممها ولا تكممِ طَلْعِهَا في جفه، بل عَمَّ الخبرَ عنها بأنها ذات أكمام.

والصوابُ أن يقال: عَنَى بذلك ذات ليف، وهي به مُتَكَممةٌ وذات طَلْعٍ هو في جُفِّه متكَمِّمٌ فيُعَمِّم، كما عَمَّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ.

وقوله: «والحَبُّ ذُو العَصْفِ والرَّيْحان»، يقول تعالى ذِكْرُه: وفيها الحبُّ، وهو حبُّ البُرِّ والشعير ذو الورق، والتبن: هو العَصْف.

وأما قوله: «والرَّيْحانُ» فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: هو الرزقُ.

وقال آخرون: هو الريحانُ الذي يشمّ.

وقال آخرون: هو خُضْرَةُ الزرع.

وقال آخرون: هو ما قامَ على ساق.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: عُنِي به الرزق، وهو

الحبُّ الذي يُؤكَلُ منه.

وإنما قلنا ذلك أوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب، لأنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أخبر عن الحَبِّ أنه ذُو العصفِ، وذلك ما وصفنا من الورقِ الحادثِ منه، والتبن إذا يبس، فالذي هو أوْلى بالريحان، أنْ يكونَ حَبُّه الحادث منه، إذ كان من جنس الشيء الذي منه العصفُ، ومسموعٌ من العربِ تقول: خرجنا نطلبُ رَيْحانَ الله ورِزْقَهُ، ويقال: سبحانَك وريحانَك: أي ورِزْقَك.

واختلفت القَرَأَة في قراءة قوله: «والرَّيْحان» فقرأ ذلك عامة قَرَأَة المدينة والبصرة وبعض المكيين وبعض الكوفيين بالرفع عطفاً به على الحبِّ، بمعنى: وفيها الحبُّ ذُو العصفِ، وفيها الريحانُ أيضاً. وقرأ ذلك عامة قَرَأَة الكوفيين «والرَّيْحانِ» بالخفضِ عطفاً به على العصف، بمعنى: والحبِّ ذُو العصفِ وذُو الريحانِ.

وأوْلى القراءتين في ذلك بالصواب: قراءةُ من قرأه بالخفضِ للعلة التي بَيَّنْتُ في تأويله، وأنه بمعنى الرزق. وأما الذين قرءوه رفعاً، فإنهم وجَّهوا تأويله فيما أرى إلى أنه الريحانُ الذي يُشَمُّ، فلذلك اختاروا الرفع فيه. وكونُه خَفْضاً بمعنى: وفيها الحبُّ ذو الورقِ والتبنِ، وذو الرِّزْقِ المَطْعوم أوْلىٰ وأحسن لما قد بيَّناه قبلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾

يعني تعالى ذِكْره بقوله: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»: فبأيّ نِعَمِ رَبِّكُما معشرَ الجنِّ والإنسِ من هذه النعم تُكَذِّبان.

فإنْ قال لنا قائل: وكيف قيل: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» فخاطب اثنين، وإنما ذُكِرَ في أوَّلِ الكلام واحدٌ، وهو الإنسانُ؟ قيل: عاد بالخطابِ في قوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» إلى الإنسانِ والجانّ، ويدلُّ على أنَّ ذلك كذلك ما بعدَ هذا من الكلامِ. وهو قوله: «خَلَقَ الإنسانَ مِنْ صَلْصَالٍ كالفَخَّارِ، وخَلَقَ الجانَّ مِنْ مارجٍ مِنْ نارٍ». وقد قيل: إنما جعل الكلام خطاباً لاثنين، وقد ابتدىء الخبر عن واحدٍ لما قد جرى من فِعْلِ العربِ تفعل ذلك. وهو أن يخاطبوا الواحدَ بفعلِ الاثنين، فيقولون: خلياها يا غلام، وما أشبه ذلك[1] مما قد بيَّناه في كتابنا هذا في غير موضع[2].

وقوله: «خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ صَلْصَالٍ كالفَخَّارِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: خلقَ اللهُ الإنسانَ وهو آدم من صلصالٍ: وهو الطينُ اليابسُ الذي لم يطبخ، فإنه من يُبْسِه له صَلْصَلَةٌ إذا حُرِّكَ ونُقِرَ كالفخار؛ يعني أنه من يُبْسه وإنْ لم يكن مطبوخاً، كالذي قد طُبِخَ بالنارِ فهو يُصَلْصِلُ كما يُصلصل الفخارُ، والفخار: هو الذي قد طُبخ من الطين بالنار.

وقوله: «وَخَلَقَ الجانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وخلق الجانَّ من مارِجٍ من نار، هو ما اختلط بعضُه ببعضٍ، من بين أحمر وأصفر وأخضر من قولهم: مَرِجَ أمرُ القوم: إذا اختلط، ومن قول النبيِّ ﷺ لعبدالله بن عمرو: «كَيْفَ بِكَ إذَا كُنْتَ في حُثَالَةٍ مِنَ النَّاسِ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وأماناتُهُمْ»[3]: وَذلكَ هُوَ لَهَبُ النَّارِ وَلِسانُهُ.

---

(١) مثل: ارحلاها وازجراها، ونحوهما.

(٢) ذكر الوجهين الفراء في معاني القرآن: ٣/١١٤، واختيار المؤلف هو الأول، نعني: الإنسان والجان، وهو الأصوبُ إن شاء الله لما دلل عليه المؤلف.

(٣) قطعة من حديث صحيح. أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجة والدارمي، وعلق البخاري بعضه (أنظر: فتح الباري: ١/٥٦٥، وسلسلة الأحاديث الصحيحة للعلامة الألباني: ٢٠٥).

وقوله: «فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نعمةِ رَبِّكما معشرَ الثقلين من هذه النعم تُكذّبان؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ذلكم أيها الثقلان «رَبُّ المَشْرِقَينِ»، يعني بالمشرقين: مشرقَ الشمسِ في الشتاء، ومشرقها في الصيف.

وقولـه: «وَرَبُّ المَغْرِبَينِ»، يعني: وربّ مغربِ الشمسِ في الشتاء، ومغربها في الصيف.

وقوله: «فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقولُ: فبأيِّ نعم رَبِّكما معشرَ الجنِّ والإنسِ من هذه النعم التي أنعم بها عليكم من تسخيرِه الشمسَ لكم في هذين المشرقين والمغربين تجري لكما دائبةً بمرافقكما، ومصالح دُنياكُمَا ومَعَايشكُمَا تكذبان.

وقوله: «مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مَرَجَ ربُّ المشرقين وربُّ المغربين البحرينِ يلتقيانِ، يعني بقوله: «مَرَجَ»: أرسل وخَلَّى، من قولهم: مرجَ فلانٌ دابته: إذا خَلَّاها وتركها.

واختلف أهلُ العلم في البحرين اللذين ذكرهما الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ في هذه الآية، أيّ البحرينِ هُمَا؟ فقال بعضهم: هما بحران: أحدهما في السماء، والآخرُ في الأرض.

وقال آخرون: عَنَى بذلك بحرَ فارس وبحرَ الروم.

وأَوْلى الأقـوالَ في ذلـك عنـدي بالصواب قولُ مَنْ قال: عُنِيَ به بحرُ السماء، وبحرُ الأرضِ، وذلك أن الله قال: «يَخْرُجُ مِنْهُما اللُّؤلُؤُ وَالمَرْجانُ» واللؤلؤ والمرجان إنما يخرجُ من أصدافِ بحرِ الأرضِ عن قَطْرِ ماء السماء، فمعلومٌ أن ذلك بحر الأرض وبحر السماء.

وقوله: «بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بينهما حاجزٌ وبُعْدٌ، لا يُفْسِدُ أَحَدُهما صاحِبَهُ فيبغي بذلك عليه، وكل شيء كان بين شيئين فهو برزخٌ عند العرب، وما بين الدنيا والآخرة برزخ.

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «لا يَبْغِيانِ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: لا يبغي أحدهما على صاحبه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهما لا يختلطانِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا يبغيانِ على اليَبَس.

وقال آخرون: بل معناه: لا يبغيانِ أنْ يلتقيا.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنَّ الله وصفَ البحرينِ اللذين ذكرهما في هذه الآية أنهما لا يبغيان، ولم يخصصْ وَصْفَهُمَا في شيءٍ دونَ شيءٍ، بل عَمَّ الخبـرَ عنهمـا بذلك، فالصوابُ أن يُعَمَّ كما عمّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ. فيقـال: إنهمـا لا يبغيانِ على شيء، ولا يبغي أحـدهمـا على صاحبه، ولا يتجاوزان حَدَّ الله الذي حَدَّهُ لهما.

وقـوله: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نعم الله رَبِّكُمَا معشرَ الجنِّ والإنس تُكَذِّبان من هذه النعم التي أنعمَ عليكم من مَرْجِهِ البحرينِ، حتى جعلَ لكم بذلك حليةً تلبسونها كذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يخرجُ من هذين البحرين اللذين مَرَجَهُمَا الله، وجعل بينهما برزخاً اللؤلؤُ والمرجان.

واختلف أهلُ التأويل في صفة اللؤلؤِ والمرجانِ، فقال بعضهم: اللؤلؤ: ما عظم من الدُّرِّ، والمرجانُ: ما صَغُرَ منه.

وقال آخرون: المرجانُ من اللؤلؤ: الكبار، واللؤلؤ منها: الصغار.

وقال آخرون: المرجان: جَيِّدُ اللؤلؤ.

وقال آخرون: المرجان: حجر.

والصوابُ من القول في اللؤلؤ، أنه هو الذي عرفه الناسُ مما يخرجُ من أصدافِ البحرِ من الحَبِّ؛ وأما المرجان، فإني رأيتُ أهلَ المعرفةِ بكلامِ العربِ لا يتدافعون أنه جمع مرجانة، وأنه الصغارُ من اللؤلؤ، قد ذكرنا ما فيه من الاختلاف بين متقدمي أهلِ العلم، والله أعلمُ بصوابِ ذلك.

وقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نِعمِ ربكما معشرَ الثقلينِ التي أنعم بها عليكم فيما أخرجَ لكم من منافع هذين البحرينِ تكذِّبان.

وقوله: «وَلَهُ الجَوارِ المُنْشَئاتُ فِي البَحْرِ كالأعْلام»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولربِّ المشرقين والمغربين الجواري، وهي السفنُ الجاريةُ في البحار.

وقوله: «كالأعْلام»، يقولُ: كالجبالِ، شبَّه السفنَ بالجبالِ، والعربُ تسمي كُلَّ جبلٍ طويلٍ علماً.

وقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نعم رَبِّكما معشرَ الجنِّ والإنس التي أنعمها عليكم بإجرائِه الجواري المنشئاتِ في البحرِ جاريةً بمنافعكم تُكذِّبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كُلُّ مَنْ على ظهرِ الأرضِ من جنٍّ وإنسٍ فإنه هالكٌ، ويبقى وجهُ رَبِّكَ يا محمدُ ذو الجلال والإكرام؛ وذو الجلال والإكرام من نعت الوجه، فلذلك رفع ذو.

وقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما معشرَ الثقلين من هذه النعم تكذّبان.

وقوله: «يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ والأرضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إليه يَفْزَعُ بمسألةِ الحاجات كُلُّ مَنْ في السمواتِ والأرضِ، من مَلَكٍ وإنسٍ وجِنٍّ وغيرِهم، لا غِنَى بأحدٍ منهم عنه.

وقوله: «كُلَّ يومٍ هُوَ في شأنٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هو كلَّ يومٍ في شأنِ خَلْقِه، فيفرج كَرْبَ ذي كرب ويرفع قوماً ويخفض آخرين، وغير ذلك من شؤونِ خلقه.

وقوله: «فبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما معشرَ الجنِّ والإنس التي أنعم عليكم من صَرْفِه إياكم في مصالحكم، وما هو أعلمُ به منكم من تقليبِه إياكم فيما هو أنفعُ لكم تكذبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ۝٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
۝٣٤﴾

هذا وعيدٌ من الله لعبادِه وتَهَدُّدٌ، كقولِ القائلِ الذي يتهدَّدُ غيره ويتوعده، ولا شغلَ له يَشْغَلُه عن عقابه. لأتفرغنَّ لكَ، وسأتفرَّغُ لكَ، بمعنى: سأجِدُّ في أمركَ وأعاقبكَ، وقد يقول القائلُ للذي لا شغلَ له، قد فرغت لي، وقد فرغت لشتمي: أي أخذت فيه وأقبلت عليه، وكذلك قوله جَلَّ ثَناؤُهُ: «سَنَفْرُغُ لَكُمْ» سنحاسبكم، ونأخذ في أمركم أيها الإنسُ والجنُّ، فنعاقب أهلَ المعاصي، ونثيب أهلَ الطاعة.

وقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»: فبأيِّ نعمِ رَبِّكُما معشرَ الثقلين التي أنعمها عليكم، من ثوابِهِ أهلَ طاعتِه، وعقابه أهلَ معصيتِه تكذِّبان.

وقوله: «يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ إن اسْتَطَعْتُمْ أنْ تَنفُذُوا مِنْ أقْطارِ السَّمَوَاتِ والأرْضِ فانْفُذُوا» اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «إنِ اسْتَطَعْتُمْ أنْ تَنفُذُوا»، فقال بعضهم: معنى ذلك: إن استطعتم أنْ تَجُوزُوا أطرافَ السمواتِ والأرضِ، فتعجزوا رَبَّكم حتى لا يقدر عليكم، فَجُوزُوا ذلك، فإنكم لا تجوزونه إلا بسلطانٍ من رَبِّكم، قالوا: وإنما هذا قولٌ يقالُ لهم يومَ القيامة، قالوا: ومعنى الكلامِ: سنفرغُ لكم أيها الثقلانِ، فيقال لهم: «يا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ إنِ اسْتَطَعْتُمْ أنْ تَنفُذُوا مِنْ أقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فانْفُذُوا».

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنْ تنفذوا من أقطارِ السمواتِ والأرضِ، فانفذوا هاربينَ من الموتِ، فإنَّ الموتَ مُدْرِكُكُمْ، ولا ينفعكم هَرَبُكُمْ منه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إن استطعتم أنْ تعلموا ما في السمواتِ والأرض فاعلموا.

وقال آخرون: معنى قوله: «لا تَنْفُذُونَ» لا تَخْرُجُونَ من سلطاني.

وأما الأقطار فهي جمع قُطْر، وهي الأطرافُ.

وأما قوله: «إلَّا بسُلْطانٍ»، فإن أهلَ التأويلِ اختلفوا في معناه، فقال بعضهم: معناه: إلا بِبيِّنَةٍ، وقد ذكرنا ذلك قَبْلُ.

وقال آخرون: معناه: إلا بحجةٍ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إلا بملكٍ وليس لكم ملكٌ.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: إلا بحجةٍ وبيِّنةٍ، لأنَّ ذلك هو معنى السلطان في كلام العرب، وقد يدخل الملك في ذلك، لأن الملك حجة.

وقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما تكذِّبان معشرَ الثقلين التي أنعمتُ عليكم، من التسويةِ بين جميعكم، لا يقدرونَ على خلافِ أمرٍ أراده بكم تكذّبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «يُرْسَلُ عَليكُمَا» أيها الثقلانِ يومَ القيامة «شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ» وهو لَهَبُهَا من حيث تشتعلُ وتؤجَّج بغيرِ دخانٍ كان فيه.

وأما قوله: «ونُحاسٌ» فإن أهلَ التأويلِ اختلفوا في المعنيِّ به، فقال

بعضهم: عُنِي به الدخان.

وقال آخرون: عني بالنحاس في هذا الموضع: الصُّفر.

وأَوْلى القولين في ذلك عندي بالصوابِ قولُ مَنْ قال: عُني بالنحاس: الـدخان، وذلك أنه جَلَّ ثَناؤُهُ ذَكَرَ أنه يُرْسَلُ على هذين الحيَّين شواظٌ من نار، وهو النارُ المَحْضَة التي لا يخلطها دخان، والذي هو أولى بالكلام أنه تَوَعَّدَهُمْ بنارٍ هذه صِفَتُها أنْ يُتبع ذلك الوعد بما هو خلافها من نوعها من العذابِ دونَ ما هو من غير جنسها، وذلك هو الدخان، والعربُ تسمي الدخان نُحاساً بضم النون، ونِحاساً بكسرها، والقَرَأة مُجْمِعَةٌ على ضمها.

وقوله: «فَلا تَنْتَصِرَانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلا تنتصرانِ أيها الجنُّ والإِنسُ منه إذا هو عاقبكما هذه العقوبةَ، ولا تُسْتَنْقذَانِ منه.

قال: وقوله: «فإذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَة كالدِّهانِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فإذا انشقَّت السماء وتفطَّرت، وذلك يوم القيامة، فكان لونُها لون البرذون الورد الأحمر.

وقوله: «فَبأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تكذبان»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فبأيِّ قدرةِ ربكما معشرَ الجنِّ والإِنسِ على ما أخبركم بأنه فاعلٌ بكم تكذِّبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فيومئذٍ لا يسألُ الملائكةُ المجرمينَ عن ذنوبهم، لأنَّ الله قد حَفِظَها عليها، ولا يسأل بعضُهم عن ذنوبِ بعضٍ رَبُّهم.

وقوله: «فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما معشـرَ الثقلين، التي أنعمَ عليكم من عَدْلِـه فيكم، أنه لم يعاقبْ منكم إلا مجرماً، تكذبان.

وقوله: «يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تعرفُ الملائكةُ المجرمينَ بعلاماتهم وسيماهم التي يسوّمهم الله بها من اسْوِدَادِ الوجوهِ، وازْرِقَاقِ العيون.

وقوله: «فيُؤْخَذُ بالنَّواصِي والأقْدَامِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فتأخذهم الزبانيةُ بنـواصيهم وأقـدامهم فتسحبهم إلى جهنمَ، وتقـذفهم فيها «فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نعم رَبِّكُما معشرَ الجنِّ والإنسِ التي أنعم عليكم بها من تعريفِه ملائكتَهُ أهلَ الإجرامِ من أهلِ الطاعة منكم حتى خَصُّوا بالإذلالِ والإهانةِ المجرمينَ دونَ غيرهم.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِــهِ تَعَــالَى: هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: يقال لهؤلاءِ المجرمين الذين أخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنهم يُعْرفُونَ يومَ القيامةِ بسيماهم حين يؤخذُ بالنواصي والأقدام: هذه جهنمُ التي يُكَذِّبُ بها المجرمون، فترك ذكر: «يقال» اكتفاءً بدلالةِ الكلامِ عليه منه.

وقوله: «يَطُوفُونَ بَيْنَها وبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يطوفُ هؤلاءِ المجـرمونَ الذين وَصَفَ صفتهم في جهنمَ بين أطباقها «وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ»، يقولُ: وبينَ ماءٍ قد أُسْخِنَ وأُغْلِيَ حتى انتهى حَرُّه وأنَى طَبْخُه؛ وكلُّ شيءٍ قد أدرك وبلغ فقد أنى. ومنه قوله: «غَيرَ ناظِرِينَ إناهُ» [الأحزاب: ٥٣]، يعني: إدراكَهُ وبُلوغَهُ.

وقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقولُ: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما معشرَ الجنِّ والإنسِ التي أنعمها عليكم بعقوبته أهلَ الكفرِ به وتكريمه أهلَ الإيمانِ به تكذّبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولمن اتقى الله من عبادِه، فخافَ مقامَهُ بين يديهِ، فأطاعَهُ بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه جنتان، يعني: بستانين.

وقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نعم رَبِّكُما أيها الثقلانِ التي أنعم عليكم بإثابته المحسنَ منكم ما وصف جَلَّ ثَناؤُهُ في هذه الآيات تكذّبان.

وقوله: «ذَوَاتا أفْنانٍ»، يقولُ: «ذَوَاتا ألوانٍ»، واحدها فن، وهو من قولهم: افْتَنَّ فلانٌ في حديثه: إذا أخذ في فنونٍ منه وضروبٍ.

وقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما تكذِّبان معشرَ الثقلين التي أنعم عليكما بإثابته هذا الثوابَ أهلَ طاعته تكذّبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: في هاتين الجنتين عينا ماءٍ تجريانِ خلالهما، فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذّبان.

وقوله: «فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فيهما من كلِّ

نوعٍ من الفاكهةِ ضَرْبانِ، فبأيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا التي أنعم بها على أهل طاعته من ذلك تكذِّبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ولِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّه جنَّتانِ» يتنعمون فيهما «مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ»، فنصبَ متكئينَ على الحـالِ من معنى الكلام الذي قَبْلَهُ لأن الذي قبله بمعنى الخبر عَمَّنْ خافَ مقامَ رَبِّه أنه في نَعْمة وسرورٍ، يتنعمون في الجنتين.

وقوله: «عَلَى فُرشٍ بَطَائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بطائنُ هذه الفرشِ من غليظِ الديباجِ، والإستبرق عند العرب: ما غَلُظَ من الديباج وخَشُنَ.

وقوله: «وَجَنى الجَنَّتَينِ دانٍ»، يقولُ: وثَمرُ الجنتينِ الذي يُجْتَنَى قريبٌ منهم، لأنهم لا يتعبونَ بصعودِ نَخْلِهَا وشجرها، لاجتناءِ ثمرها، ولكنهم يجتنونها من قعودٍ بغير عناء.

وقوله: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه فبأيِّ آلاء رَبِّكُما معشرَ الثقلين التي أنعمَ عليكما مَنْ أنْ أثابَ أهلَ طاعته منكم هذا الثوابَ، وأكرمهم هذه الكرامةَ تكذِّبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: في هذه الفرش التي بطائنها من إستبرق «قاصِراتُ

الطَّرْفِ» وهُنَّ النساءُ اللاتي قد قَصرَ طرفهنَّ على أزواجهنَّ، فلا ينظرن إلى غيرهم من الرجال. ١

وقوله: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جانٌّ»، يقولُ: لم يمسهنَّ إنسٌ قبلَ هؤلاءِ الذين وصف جَلَّ ثَنَاؤُهُ صفتهم، وهم الذين قال فيهم: «ولِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ». «ولا جان»، يقال منه: ما طمثَ هذا البعيرَ حَبلٌ قطّ: أي ما مَسَّهُ حبل.

وقوله: «فبأي آلاء ربكما تكذبان»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فبأي آلاء ربكما معشرَ الجنِّ والإنسِ من هذه النِّعَمِ التي أنعمها على أهل طاعته تكذبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِه تَعالَى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كأن هؤلاءِ القاصرات الطرفِ اللواتي هُنَّ في هاتين الجنتينِ في صَفَائهنَّ الياقوت الذي يُرَى السِّلْكُ الذي فيه من ورائه، فكذلك يُرى مُخُّ سُوقِهنَّ من وراءِ أجسامهنَّ، وفي حُسْنِهنَّ الياقوتُ والمرجان.

وقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نعمِ رَبِّكما التي أنعمَ عليكم معشرَ الثقلين من إثابتِه أهلَ طاعته منكم بما وَصَفَ في هذه الآيات تكذّبان.

وقوله: «هَلْ جَزاءُ الإحْسانِ إلَّا الإحْسانُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هل ثوابُ خوفِ مقامِ الله عَزَّ وجَلَّ لمن خافه فأحسنَ في الدنيا عمله، وأطاعَ رَبَّهُ، إلا أنْ يُحْسِنَ إليه في الآخرة ربُّهُ، بأنْ يُجازيه على إحسانِه ذلك في الدنيا ما وصفَ في هذه الآيات من قوله: «ولِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ». . . إلى قوله:

«كأنَّهنَّ الياقُوتُ والمَرْجانُ».

وقـولـه: «فَبـأيِّ آلاءِ ربِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقولُ: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكُما معشرَ الثقلين التي أنعمَ عليكم من إثابته المحسنَ منكم بإحسانِه تكذِّبان؟

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومِنْ دُونِ هاتين الجنتين اللتين وصفَ اللهُ جَلَّ ثَناؤُهُ صِفَتَهُمَا التي ذكرَ أنهما لمن خافَ مقامَ رَبِّه جنتان.

ثم اختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «وَمِنْ دُونِهِما» في هذا الموضع، فقال بعضهم: معنى ذلك: ومن دونهما في الدرَج.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ومن دونهما في الفضل[1].

وقوله: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكذِّبان»، يقولُ: فبأيِّ نعم ربِّكُما التي أنعم عليكم بإثابته أهلَ الإحسانِ ما وصفَ من هاتين الجنتين تكذِّبان؟

وقوله: «مُدْهامَّتانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مُسْوادَّتانِ من شِدَّةِ خُضْرَتِهِمَا.

وقـوله: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكذِّبانِ»، يقولُ: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما التي أنعمَ عليكم بإثابتِه أهلَ الإحسانِ ما وصفَ في هاتين الجنتين تكذِّبان.

وقوله: «فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: في هاتين الجنتين اللتين من دونِ الجنتينِ اللتين هُمَا لمن خافَ مقامَ رَبِّه، عينانِ نَضَّاختانِ، يعني:

---

(١) لم يرجح المؤلف أحد القولين، والقول الأخير يدل عليه حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ: «جنتـان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما...» الحديث، وهي في الصحيحين: البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

فَوَّارتانِ، وعُنِيَ بذلك أنهما تنضخان بالماء.

وقوله: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما التي أنعم عليكم بإثابته مُحْسِنَكُمْ هذا الثوابَ الجزيل تكذِّبان؟.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٩ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وفي هاتين الجنتين المُدْهَامَّتَيْنِ فاكهةٌ ونخلٌ ورُمَّان.

وقد اختلف في المعنى الذي من أجله أُعيدَ ذِكْرُ النخلِ والرمانِ؛ وقد ذُكر قَبْلُ أنَّ فيهما الفاكهة، فقال بعضهم: أُعيدَ ذلك لأنَّ النخل والرمان ليسا من الفاكهة.

وقال آخرون: هما من الفاكهة؛ وقالوا: قلنا هما من الفاكهة، لأنَّ العربَ تجعلهما من الفاكهة، قالوا: فإنْ قيل لنا: فكيف أُعيدَا وقد مضى ذِكْرُهما مع ذِكْرِ سائرِ الفواكه؟ قلنا: ذلك كقوله: «حافِظوا على الصَّلَوَاتِ والصَّلاةِ الوُسْطَى» [البقرة: ٢٣٨] فقد أمرهم بالمحافظةِ على كلِّ صلاةٍ، ثم أعادَ العصرَ تشديداً لها، كذلك أُعيدَ النخلُ والرمَّانُ ترغيباً لأهلِ الجنة. وقال: وذلك كقوله: «أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السَّمواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ»، ثم قال: «وكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ» [الحج: ١٨]، وقد ذكرهم في أوّلِ الكلمة في قوله: «مَنْ فِي السَّمواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ».

وقوله: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تكذِّبانِ»، يقولُ: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ، يقولُ: فبأيِّ نعم ربكما التي أنعمها عليكم بهذه الكرامةِ التي أكرمَ بها مُحْسِنَكُمْ تكذِّبان.

وقوله: «فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسانٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: في هذه الجنانِ الأربع

اللواتي اثنتان منهنّ لمن يخاف مقامَ رَبِّه، والأُخْريانِ منهنّ من دُونِهِما المُدْهامَّتانِ خيراتُ الأخلاقِ. حِسانُ الوجوه.

وقوله: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقولُ: فبأيِّ نِعَم رَبِّكُما التي أنعمَ عليكما بما ذكر تُكَذِّبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن هؤلاءِ الخيرات الحسان: «حُورٌ»، يعني بقوله حور: بِيضٌ، وهي جمع حَوْراء، والحوراء: البيضاء.

وأما قوله: «مَقْصُوراتٌ» فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: تأويلُه أنهنَّ قُصِرْن على أزواجهنَّ، فلا يبغينَ بهم بَدَلاً، ولا يرفعنَ أطرافهنَّ إلى غيرهم من الرجالِ.

وقال آخرون: عُنِي بذلك أنهنَّ محبوساتٌ في الحِجال.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أنْ يقال: إنَّ الله تبارك وتعالى وصفهنَّ بأنهنَّ مقصوراتٍ في الخيام، والقصرُ: هو الحبسُ، ولم يخصص وصفهنَّ بأنهنَّ محبوساتٍ على معنى من المعنيين اللذين ذكرنا دونَ الآخر بل عَمَّ وَصْفَهُنَّ بذلك. والصوابُ أنْ يُعَمَّ الخبر عنهنَّ بأنهنَّ مقصورات في الخيام على أزواجهنَّ، فلا يردن غيرهم، كما عَمَّ ذلك.

وقوله: «فِي الخِيامِ»، يعني بالخيام: البيوت.

وقوله: «فَبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تكذِّبانِ»، يقولُ: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما التي أنعمَ

عليكما من الكرامةِ، بإثابةِ محسنكم هذه الكرامةَ تكذّبان.

وقوله: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جانٌّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لم يمسهنّ بنكاحٍ فيُدْمِيهنَّ إنسٌ قبلهم ولا جانٌّ.

وقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»، يقولُ: فبأيِّ نِعَم رَبِّكُما التي أنعمَ عليكم بها مما وَصَفَ تكذّبان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يُنَعَّمُ هؤلاءِ الذين أكرمهم جَلَّ ثَناؤُهُ هذه الكرامةَ التي وصفهـا في هذه الآياتِ في الجنتين اللتين وصفهمـا «مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خضرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ».

واختلف أهلُ التأويل في معنى الرفرف، فقال بعضهم: هي رياضُ الجنة، واحدتها: رَفْرَفة.

وقال آخرون: هي المحابس.

وقال آخرون: بل هي المرافق.

وأما العبقريّ، فإنه الطنافسُ الثِّخان، وهي جماع، واحدها: عبقريةٌ: وقد ذُكِرَ أنَّ العربَ تسمي كُلَّ شيءٍ من البسط عبقرياً.

وقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبان»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُما التي أنعم عليكم من إكرامهِ أهلَ الطاعةِ منكم هذه الكرامةَ تكذّبان.

وقوله: «تبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تباركَ ذِكْرُ رَبِّكَ يا محمدُ «ذِي الجَلالِ»، يعني: ذي العظمة «والإكْرامِ»، يعني: ومَنْ له الإكرامُ من جميعِ خَلْقِه.

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه بقوله: «إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ»: إذا نزلتْ صيحةُ القيامةِ، وذلك حين يُنفخ في الصورِ لقيامِ الساعة.

وقوله: «لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ»، يقول تعالى: ليس لوقعةِ الواقعةِ تكذيبٌ ولا مردوديةٌ ولا مَثْنويةٌ، والكاذبةُ في هذا الموضعِ مصدر، مثل العاقبة والعافية.

وقوله: «خافِضَةٌ رافِعَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: الواقعةُ حينئذٍ خافضةٌ، أقواماً كانوا في الدنيا، أعزّاءَ إلى نارِ الله.

وقوله: «رَافِعَةٌ»، يقولُ: رفعت أقواماً كانوا في الدنيا وُضَعاءَ إلى رحمةِ الله وجَنّتِه. وقيل: خفضت فأسمعت الأدنى، ورفعت فأسمعت الأقصى.

وقوله: «إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: إذا زلزلتِ الأرضُ فحرّكت تحريكاً من قولهم السهمُ يرتجُّ في الغرض، بمعنى: يهتزُّ ويضطرب.

وقوله: «وَبُسَّتِ الجِبالُ بَسًّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فُتِّتِ الجبالُ فتاً، فصارت كالدقيقِ المبسوس، وهو المبلولُ، كما قال جَلَّ ثَناؤُه: «وَكانَتِ الجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً» والبسيسةُ عند العرب: الدقيقُ والسَّويقُ تُلَتُّ وتُتَّخَذُ زاداً.

وقوله: «فَكَانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا»، اختلف أهلُ التأويل في معنى الهباء، فقال بعضهم: هو شعاعُ الشمسِ الذي يدخلُ من الكوَّةِ كهيئة الغبار.

وقال آخرون: هو رهج الدوابِّ.

وقال آخرون: هو ما تطايرَ من شررِ النارِ الذي لا عينَ له.

وقال آخرون: هو يَبِيسُ الشجرِ الذي تَذْرُوهُ الرياح.

وقد بيَّنا معنى الهباء في غير هذا الموضع، فأغنى عن إعادته في هذا الموضع(١).

وأما قوله: «مُنْبَثًّا» فإنه يعني: متفرّقاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكنتم أيها الناسُ أنواعاً ثلاثة وضروباً.

وقوله: «فأصحَابُ المَيْمَنَةِ ما أصحَابُ المَيْمَنَةِ»، وهذا بيانٌ من الله عن الأزواجِ الثلاثة، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وكنتم أزواجاً ثلاثة: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون، فجعل الخبرَ عنهم، مُغْنياً عن البيانِ عنهم، على الوجهِ الذي ذكرنا، لدلالةِ الكلامِ على معناه، فقال: «فَأصحَابُ المَيْمَنَةِ

(١) في الآية ٢٣ من سورة الفرقان، ولو بَيَّنَ اختياره هنا لكان أحسن. قال هناك: «والهباء هو الذي يُرى كهيئة الغبار إذا دخل ضوء الشمس من كوةٍ يحسبه الناظر غباراً ليس بشيءٍ تقبض عليه الأيدي ولا تمسه، ولا يرى ذلك في الظل».

ما أصْحَابُ المَيْمَنَةِ» يعجِّبُ نبيه محمداً منهم، وقال: «ما أصحَابُ اليَمِين» الذين يُؤخَذُ بهم ذات اليمين إلى الجنة، أيّ شيء أصحاب اليمين «وأصحَابُ المَشأَمَةِ ما أصحَابُ المَشْأَمَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأصحابُ الشمال الذين يُؤخَذُ بهم ذات الشمال إلى النار، والعربُ تسمي اليدَ اليسرى: الشؤمىٰ.

وقوله: «والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ» وهم الزوجُ الثالث، وهم الذين سَبقوا إلى الإيمانِ بالله ورسوله، وهم المهاجرونَ الأوّلون.

وقوله: «في جَنَّاتِ النَّعِيم»، يقولُ: في بساتين النعيم الدائم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: جماعةٌ من الأممِ الماضيةِ، وقليلٌ من أمةِ محمدٍ ﷺ، وهم الآخرونَ، وقيل لهم الآخرون: لأنهم آخرُ الأمم. «على سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ»، فوقَ سُرُرٍ منسوجةٍ، قد أُدخِلَ بعضُها في بعضٍ، كما يُوضَنُ حلق الدرع بعضُها فوقَ بعض مضاعفة.

وقوله: «مُتَّكِئينَ عليها مُتقابلينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: متكئينَ على السُّرر الموضونةِ، متقابلين بوجوههم، لا ينظرُ بعضُهم إلى قفا بعضٍ.

وقوله: «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يطوفُ على هؤلاءِ السابقينَ الذين قَرَّبهم الله في جناتِ النعيم، ولدانٌ على سنٍّ واحدةٍ، لا يتغيرونَ ولا يموتون.

الواقعة: ٢١

وقـوله: «بأكْوابٍ وأبارِيقَ» والأكوابُ: جمع كوبٍ، وهو من الأباريق ما اتسع رأسُه، ولم يكن له خرطومٌ.

وأما الأباريقُ: فهي التي لها عرى.

وقوله: «وكأسٍ مِنْ مَعِينٍ»، وكأس خمرٍ من شرابٍ معين، ظاهر العيون، جارٍ.

وقوله: «لا يُصَدَّعُونَ عَنْها»، يقولُ: لا تُصَدَّعُ رؤوسُهم عن شربها فتسكر.

وقوله: «وَلا يُنْزِفُونَ»، اختلفت القَرَأة في قراءته، فقرأت عامةُ قَرَأةِ المدينةِ والبصـرة «يُنْـزَفُـونَ» بفتـح الـزاي، ووجَّهوا ذلك إلى أنه لا تنزفُ عقولهم. وقرأته عامة قَرَأة الكوفة «لا يُنْزِفُونَ» بكسر الزاي بمعنى: ولا ينفدُ شرابهم.

والصـوابُ من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيبٌ فيها الصواب.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك على نحوِ اختلافِ القَرَأة فيه.

وقد بيَّنا الصوابَ من القولِ فيه في سورة الصافات[1]، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: «وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويطوفُ هؤلاءِ الولدانُ المُخَلَّدُونَ على هؤلاءِ السابقينَ بفاكهةٍ من الفواكهِ التي يتخيرونها من الجنةِ لأنفسهم، وتَشْتَهِيها نفوسُهم. «وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ»، يقولُ: ويطوفونَ أيضاً عليهم بلحمِ طيرٍ مما يشتهونَ من الطيرِ الذي تشتهيه نفوسهم.

---

(١) الصافات: ٤٧.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ
۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا
۝٢٦﴾

الحور جماعة حَوْراء: وهي النقيةُ بياضِ العينِ، الشديدةُ سوادها. والعِينُ: جمع عَيْناء، وهي النَّجْلاء العين في حُسْنٍ.

وقوله: «كأمْثالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ»، يقولُ: هُنَّ في صفاء بياضهنَّ وحُسْنِهن، كاللؤلؤِ المكنونِ الذي قد صِينَ في كِنٍّ.

وقوله: «جَزاءً بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثواباً لهم من الله بأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، وعوضاً من طاعتهم إياه.

وقوله: «لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تأثِيماً»، يقولُ: لا يسمعونَ فيها باطلاً من القولِ ولا تأثيماً، يقولُ: ليس فيها ما يُؤثمهم.

وقوله: «إلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً»، يقولُ: لا يسمعونَ فيها من القولِ إلا قيلاً سلاماً: أي ٱسْلَمْ مما تَكْرَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧
فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وأصحَابُ اليَمِينِ» وهم الذين يُؤخَذُ بهم يوم القيامة ذاتَ اليمين، الذين أُعطوا كُتُبَهم بأيمانِهم يا محمدُ «ما أصحابُ اليَمِينِ» أيّ شيء هُمْ وما لهم، وماذا أعدَّ لهم من الخيرِ، وقيل: إنهم أطفالُ المؤمنين.

ثم ابتدأ الخبرَ عَمَّا ذا أعدَّ لهم في الجنةِ، وكيف يكونُ حالُهم إذا هم دخلوها؟ فقال: هم: «في سِدْرٍ مَخْضُودٍ»، يعني: في ثمرِ سِدْرٍ مُوقَرٍ حملاً قد ذهبَ شوكُه.

وقوله: «وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ» أما القَرَأة[1] فعلى قراءةِ ذلك بالحاء «وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ»، وكذا هو في مصاحف أهلِ الأمصار، ورُوي عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقرأ «وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ» بالعين.

وأما الطلح فإن المعمر بن المثنى كان يقول: هو عندَ العربِ شجرٌ عِظامٌ كثيرُ الشوك[2].

وأما أهلُ التأويل من الصحابةِ والتابعينَ فإنهم يقولون: إنه هو الموز.

وقوله: «مَنْضُودٍ»، يعني: أنه قد نُضِدَ بعضُه على بعض، وجُمِعَ بعضُه إلى بعض.

وقوله: «وَظِلٍّ مَمْدُودٍ»، يقولُ: وهم في ظلٍّ دائمٍ لا تنسخه الشمسُ فتذهبه، وكلُّ ما لا انقطاعَ له فإنه ممدود.

وقوله: «وَماءٍ مَسْكُوبٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وفيه أيضاً ماءٌ مسكوبٌ، يعني: مصبوبٌ سائلٌ في غير أخدود.

القَولُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾

---

(١) في المطبوع: «الفرَّاء» مُصَحَّف.

(٢) مجاز القرآن: ٢/٢٥٠.

الواقعة: ٣٨

يقولُ: «وَفاكِهَةٍ كَثِيرةٍ، لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وفيها «فاكِهَة كَثِيرَة» لا ينقطع عنهم شيء منها أرادوهُ في وقتٍ من الأوقات، كما تنقطعُ فواكهُ الصيفِ في الشتاء في الدنيا، ولا يمنعهم منها، ولا يحولُ بينهم وبينها شوكٌ على أشجارها، أو بُعْدها منهم، كما تمتنعُ فواكهُ الدنيا من كثيرٍ ممن أرادها ببعدها على الشجرةِ منهم، أو بما على شجرها من الشوكِ، ولكنها إذا اشتهاها أحَدُهم وقعتْ في فيه أو دَنَتْ منه حتى يتناولها بيده.

وقوله: «وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولهم فيها فُرُشٌ مرفوعةٌ طويلة، بعضُها فوقَ بعض، كما يقال: بناء مرفوع.

وقوله: «إنَّا أنْشأناهُنَّ إنْشاءً، فجَعَلْناهُنَّ أبْكاراً عُرُباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّا خلقناهن خَلْقاً فأوجدناهنَّ؛ قال أبو عبيدة[1]: يعني بذلك: الحور العين اللاتي ذَكَرَهُنَّ قَبْلُ، فقال: «وَحُورٌ عِينٌ كأمْثالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ، إنَّا أنْشأناهُنَّ إنْشاءً».

وقوله: «فجَعَلْناهُنَّ أبْكاراً»، يقولُ: فَصَيَّرْناهُنَّ أبكاراً عَذارى بعد إذْ كُنَّ عجائز في الدنيا عُمشاً رُمْصاً[2].

وقوله: «عُرُباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: فجعلناهنَّ أبكاراً غَنجاتٍ مُتَحَبِّباتٍ إلى أزواجهنَّ يُحْسِنَّ التَّبَعُّلَ وهي جمع، واحدهن عَرُوب، كما واحدُ الرُّسُلِ رسولٌ، وواحدُ القطف قَطُوف.

وقوله: «أتْرَاباً»، يعني: أنهنّ مستويات على سِنٍّ واحدة، واحدتهنّ تِرْب، كما يقال: شَبَهٌ وأشْباه.

---

(١) مجاز القرآن: ٢/٢٥١.

(٢) الرَّمَص: وسخٌ يجتمع في مُوق العين، فإذا سال فهو غمص.

وقولـه: «لِأَصحَـابِ اليَمِينِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أنشأنا هؤلاءِ اللواتي وَصَفَ صِفتَهُنَّ من الأَبكارِ للذين يُؤخَذُ بهم ذاتَ اليمينِ من موقِفِ الحسابِ إلى الجنة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذين لهم هذه الكرامةُ التي وصفَ صِفَتَها في هذه الآياتِ ثُلَّتان، وهي جماعتان وأمتان وفرقتان: «ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ»، يعني: جماعة من الذين مضوا قبلَ أمةِ محمدٍ ﷺ، «وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ»، يقولُ: وجماعةٌ من أمةِ محمدٍ ﷺ.

وقوله: «وَأصحَابُ الشِّمالِ ما أصحَابُ الشِّمالِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مُعَجِّباً نبيه محمداً ﷺ من أهلِ النار: «وأصحَاب الشِّمالِ» الذين يُؤخَذُ بهم ذات الشمال من موقفِ الحسابِ إلى النارِ «ما أصحَابُ الشِّمالِ» ماذا لهم، وماذا أعدَّ لهم.

وقوله: «فِي سَمُومٍ وحَمِيمٍ»، يقولُ: هُمْ في سَموم جهنم وحَميمها.

وقوله: «وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وظلٍّ من دُخانٍ شديدِ السواد، والعربُ تقول لكلِّ شيء وصَفْتَهُ بشدَّةِ السواد: أسود يَحْموم.

وقوله: «لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ليس ذلك الظلُّ ببارِدٍ، كبـردِ ظِلالِ سائـرِ الأشياء، ولكنه حارٌّ، لأنه دخانٌ من سعيرِ جهنمَ، وليس

بكريمٍ لأنه مؤلمٌ مَن استظلَّ به، والعربُ تتبع كلَّ مَنْفِيٍّ عنه صفة حَمْدٍ نفي الكرمِ عنه، فتقول: ما هذا الطعامُ بطيبٍ ولا كريم، وما هذا اللحمُ بسمينٍ ولا كريم، وما هذه الدارُ بنظيفةٍ ولا كريمة،

وقـوله: «إنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلكَ مُتْرَفِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هؤلاءِ الذين وَصَفَ صفتهم من أصحابِ الشمال، كانوا قبل أنْ يُصيبهم من عذابِ الله ما أصابهم في الدنيا مُتْرَفِينَ، يعني: مُنَعَّمِينَ.

وقوله: «وكانُوا يُصِرونَ على الْحِنْثِ العَظِيمِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وكانوا يقيمون على الذَّنْبِ العظيم، وهو الشرك بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكانوا يقولون كفراً منهم بالبعثِ، وإنكاراً لإحياءِ الله خَلْقَهُ من بعدِ مماتِهم، أئِذا كُنَّا تراباً في قبورنا من بعد مماتنا، وعظاماً نَخِرَةً، أئنَّا لمبعوثونَ منها أحياء كما كُنَّا قبلَ الممات، أَوَ آباؤنا الأوّلون الذين كانوا قبلنا، وهم الأوّلون، يقولُ: الله لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ: إنَّ الأوّلين من آبائكم والآخرين منكم ومن غيركم، لمجموعونَ إلى ميقاتِ يوم معلوم، وذلك يوم القيامة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَـى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لأصحابِ الشمال: ثم إنكم أيها الضالونَ عن طريقِ الهدى، المُكَذِّبُونَ بوعيدِ الله وَوَعْدِهِ، لآكلونَ من شجرٍ من زقوم.

وقوله: «فَمالِئُونَ مِنْهَا البُطُونَ»، يقولُ: فمالئونَ من الشجرِ الزَّقوم بطونَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فشاربُ أصحابُ الشمالِ على الشجر من الزقُّومِ إذا أكلوه، فملأوا منه بطونَهم من الحميمِ الذي انتهى غَلْيُه وحَرُّهُ. وقد قيل: إن معنى قوله: «فَشارِبونَ عَلَيْهِ»: فشاربونَ على الأكلِ من الشجر من الزقوم.

وقوله: «فَشارِبُونَ شُرْبَ الهِيمِ»، الهيم: جمع أهيم، والأنثى هيماء؛ والهيم: الإبلُ التي يُصيبها داءٌ فلا تَرْوى من الماء. ومن العربِ من يقول: هائم، والأنثى هائمة، ثم يجمعونه على هِيم، كما قالوا: عائطٌ وعِيطٌ، وحائِلٌ وحول؛ ويقال: إنَّ الهيم: الرمل، بمعنى أنَّ أهلَ النارِ يشربونَ الحميمَ شُرْبَ الرملِ الماءَ.

وقوله: «هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّين»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي وصفتُ لكم أيها الناسُ، أن هؤلاءِ المكذِّبينَ الضالينَ يأكلونه من شجرٍ من زقوم، يشربونَ عليه من الحميمِ، هو نُزُلُهُمْ الذي يُنْزِلُهم رَبُّهم يومَ الدين، يعني: يومَ يدينُ اللهُ عبادَهُ.

وقوله: «نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لكفارِ قريشٍ والمكذِّبينَ بالبعثِ: نحنُ خلقناكم أيها الناسُ ولم تكونوا شيئاً، فأوجدناكم

بشراً، فهلاَّ تُصَدِّقُونَ مَنْ فعل ذلك بكم في قِيلِه لكم: إنه يبعثكم بعد مماتِكم وبِلاَكُمْ في قبوركم، كهيأتِكُمْ قبل مماتكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاءِ المكذِّبينَ بالبعثِ: أفرأيتم أيها المُنكرون قُدرةَ الله على إحيائِكم من بعد مماتكم النطف التي تمنون في أرحامِ نسائِكم، أأنتم تخلقونَ تلكَ أم نحنُ الخالقون.

وقوله: «نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ المَوْتَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: نحنُ قَدَّرْنا بينكم أيها الناسُ الموتَ، فعجَّلناه لبعضٍ، وأخَّرناه عن بعضٍ إلى أجلٍ مسمى.

وقوله: «وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ، عَلى أنْ نُبَدِّلَ أمْثالَكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: «وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ» أيها الناسُ في أنفسكم وآجالكم، فمُفْتَاتٌ علينا فيها في الأمرِ الذي قَدَّرْنَاهُ لها من حياةٍ وموتٍ بل لا يتقدمُ شيءٌ من أجلنا، ولا يتأخرُ عنه.

وقوله: «على أنْ نُبَدِّلَ أمْثالَكُمْ»، يقولُ: على أنْ نُبَدِّلَ منكم أمْثالَكُمْ بعد مَهْلِكِكُمْ فنجيء بآخرينَ من جِنْسِكم.

وقوله: «وَنُنْشِئَكُمْ فِيما لا تَعْلَمُون»، يقولُ: ونُبدلَكُمْ عَمَّا تعلمونَ من أنفسكم فيما لا تعلمونَ منها من الصورِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد علمتم أيها الناسُ الإحداثةَ الأولى التي أَحْدَثْنَاكُمُوهَا، ولم تكونوا من قبل ذلك شيئاً.

وقوله: «فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَهَلَّا تذكرون أيها الناسُ، فتعلموا أن الذي أنشأكم النشأة الأولى، ولم تكونوا شيئاً، لا يتعذَّرُ عليه أَنْ يُعيدَكُمْ من بعد مماتِكم وفنائِكم أحياء.

وقوله: «أَفَرأيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أفرأيتم أيها الناسُ الحرثَ الذي تحرثونه «أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ»، يقولُ: أأنتم تُصَيِّرُونَهُ زرعاً، أم نحن نجعله كذلك؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لو نشاءُ جعلنا ذلكَ الزرعَ الذي زرعناهُ حُطاماً، يعني: هشيماً لا يُنتفعُ به في مطعمٍ وغذاء.

وقوله: «فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك: فقال بعضهم: معنى ذلك: فظلتم تتعجبونَ مما نزل بكم في زرعكم من المصيبةِ باحتراقِه وهلاكِه.

وقال آخرون: معنى ذلك: فظلتم تَلَاوَمُونَ بينكم في تفريطِكم في طاعةِ رَبكم جَلَّ ثَنَاؤُهُ، حتى نالكم بما نالكم من إهلاكِ زَرْعِكم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فظلتم تندمونَ على ما سَلَفَ منكم في معصية الله التي أوجبَ لكم عقوبته، حتى نالكم في زرعكم ما نالكم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فظلتم تعجبونَ.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: معنى «فَظَلْتُمْ»: فأقمتم تعجبونَ مما نزلَ بزرعكم، وأصلُه من التَّفكُّهِ بالحديثِ إذا حَدَّثَ الرجلُ الرجلَ بالحديثِ يُعْجَبُ منه، ويلهى به، فكذلك ذلك، وكأنَّ معنى الكلام: فأقمتم تتعجبون يُعَجِّب بعضُكم بعضاً مما نزلَ بكم.

وقوله: «إِنَّا لَمُغْرَمُونَ»، اختلف أهلُ التأويل في معناه: فقال بعضهم: إنَّا لموَلَّعٌ بنا.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنا لَمُعَذَّبُونَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنا لَمُلَقَّوْنَ للشرِّ.

وأوْلى الأقـوال في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معناه: إنا لمعذَّبُونَ، وذلك أنَّ الغرامَ عند العرب: العذاب.

وقوله: «بَلْ نَحنُ مَحْرُومُونَ»، يعني بذلك تعالى ذِكْرُه أنهم يقولون: ما هلكَ زَرْعُنَا وأُصِبْنَا به من أجلِ «إِنَّا لَمُغْرَمُونَ» ولكنا قومٌ محرومون، يقولُ: إنهم غير مجدودينَ، ليس لهم جَدٌّ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفرأيتم أيها الناسُ الماءَ الذي تشربون، أأنتم أنزلتموهُ من السحابِ فوقَكم إلى قرارِ الأرضِ، أم نحنُ مُنْزِلُوهُ لكم.

وقوله: «لَوْ نَشاءُ جَعَلْنَاهُ أُجاجاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: لو نشاء جعلنا ذلك الماءَ الذي أنزلناه لكم من المُزْنِ مِلحاً، وهو الأجاجُ، والأجاج من الماء: ما اشتدَّتْ مُلوحتُه، يقول: لو نشاء فعلنا ذلك به فلم تنتفعوا به في شربٍ ولا

غرسٍ، ولا زرع.

وقوله: «فَلَوْلا تَشْكُرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَهَلّا تشكرونَ رَبَّكم على إعطائِه ما أعطاكم من الماءِ العذبِ لشربِكُمْ ومنافِعكم، وصلاحِ معايشكم، وتركه أنْ يجعله أُجاجاً لا تنتفعونَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفرأيتم أيها الناسُ النارَ التي تستخرجونَ من زَنْدِكم. «أأَنْتُمْ أنْشَأْتُم شَجَرَتَها»، يقول: أأنتم أحدثتم شجرتها واخترعتم أصْلَها «أمْ نَحْنُ المُنْشِئُونَ؟»، يقولُ: أم نحن اخترعنا ذلك وأحدثْناه؟

وقوله: «نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً»، يقولُ: نحنُ جعلنا النارَ تذكرةً لكم تذكرونَ بها نارَ جهنمَ، فتعتبرونَ وتَتَّعِظُونَ بها.

وقوله: «وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى المُقْوِينَ، فقال بعضهم: هم المسافرونَ.

وقال آخرون: عُنِي بالْمُقْوِين: المستمتعونَ بها.

وقال آخرون: بل عُنِي بذلك: الجائعون.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ عندي قولُ مَنْ قال: عُنِي بذلك المسافر الذي لا زادَ معه، ولا شيءَ له، وأصله من قولهم: أقوتِ الدارُ: إذا خَلَتْ من أهلِها وسكانِها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ
لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ
مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فَسَبِّحْ يا محمدُ بذكرِ رَبِّك العظيم، وتسميته.

وقوله: «فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقعِ النُّجُومِ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله.

فقال بعضهم: عُنِي بقوله: «فَلا أُقْسِمُ»: أقسم[1].

وقال بعضُ أهل العربية: معنى قوله: «فَلا» فليسَ الأمرُ كما تقولون ثم استأنفَ القسمَ بَعْدُ فقيل: أُقسم[2].

وقوله: «بِمَواقعِ النُّجُومِ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: فلا أقسم بمنازلِ القرآنِ، وقالوا: أُنْزِلَ القرآنُ على رسولِ الله ﷺ نجوماً متفرِّقة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فلا أقسمُ بمساقطِ النجوم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: بمنازلِ النجوم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: بانتثارِ النجومِ عند قيامِ الساعة.

وأولى الأقوال في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: فلا أقسم بمساقطِ النجوم ومغايبها في السماء. وذلك أنَّ المواقعَ جمعُ موقعٍ، والموقع المفعل، مِنْ وقع يقع موقعاً، فالأغلبُ من معانيهِ والأظهرُ من تأويله ما قلنا في

(١) يعني: أنها دخلت توكيداً.
(٢) أي: أنَّ «لا» هنا على أصلها.

ذلك، ولذلك قلنا: هو أولى معانيهِ به.

وقـولـه: «وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ هذا القسمَ الذي أقسمتُ لَقَسَمٌ لو تعلمونَ ما هو، وما قدره، قَسَمٌ عظيم من المؤخَّرِ الذي معناهُ التقديمُ، وإنما هو: وإنه لقسم عظيم لو تعلمونَ عِظَمَهُ.

وقوله: «إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلا أقسمُ بمواقعِ النجومِ أنَّ هذا القرآنَ لقرآنٌ كريم، والهاء في قوله: «إنه» من ذِكْرِ القرآن.

وقوله: «فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هو في كتابٍ مَصُونٍ عندَ اللهِ لا يَمسُّه شيءٌ من أذىً من غبارٍ ولا غيره.

وقـولـه: «لا يَمَسُّهُ إلاَّ المُطَهَّرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا يمسُّ ذلك الكتابَ المكنونَ إلا الذين قد طهَّرهم اللهُ من الذنوب.

واللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، أخبر أنه لا يمسُّ الكتابَ المكنونَ إلا المطهرونَ فَعَمَّ بخبرِهِ المطهرينَ، ولم يخصصْ بعضاً دونَ بعض، فالملائكةُ من المطهرين، والـرسـل والأنبياء من المطهرين وكُلُّ مَنْ كان مطهراً من الذنوب، فهو ممن استثني، وعُنِيَ بقوله: «إلا المُطَهَّرُونَ»[1].

وقـوله: «تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العالمِينَ»، يقولُ: هذا القرآنُ تنزيلٌ من رَبِّ العالمين، نَزَّلَهُ من الكتابِ المكنون.

---

(١) استدل بعض الفقهاء بهذه الآية فقالوا: «لا يمسه إلا المطهرون» أي: من الجنابة والحدث، واحتجوا في ذلك بما رواه مالك في «الموطأ» عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، أنَّ في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم أنْ لا يمسَّ القرآن إلا طاهر (٢٣٤) وهو حديث مرسل، روي موصولاً بطرق ضعيفة. قال ابن كثير: وهو صحيح بمجموع طرقه. والكتاب المذكور ساقه ابن حبان في صحيحه (٦٥٥٩) وفيه هذا، فانظر تعليق محققه عليه، فقد ساق له شواهد قد تحسنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفبهذا القرآنِ الذي أنبأتُكم خبرَهُ، وقصصتُ عليكم أمرَهُ أيها الناس أنتم تُلِينونَ القولَ للمكذِّبينَ به، ممالأةً منكم لهم على التكذيبِ به والكفر.

وقوله: «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ»، يقولُ: وتجعلونَ شُكْرَ اللهِ على رزقِهِ إياكم التكذيب، وذلك كقولِ القائلِ الآخر: جعلتَ إحساني إليكَ إساءةً منكَ إليَّ، بمعنى: جعلتَ شكر إحساني، أو ثوابَ إحساني إليكَ إساءةً منكَ إليَّ.

وقوله: «فَلَوْلا إذا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَهلَّا إذا بلغتِ النفوسُ عند خروجِها من أجسادِكم أيها الناسُ حَلاقِيمَكُم «وأَنْتُمْ حِينَئِذ تَنْظُرُونَ»، يقولُ: ومَنْ حَضَرَهُمْ منكم من أهلِيهم حينئذٍ إليهم ينظر.

وخرج الخطاب ها هنا عاماً للجميع، والمراد به: مَنْ حَضَرَ الميتَ من أهلِهِ وغيرهم، وذلك معروفٌ من كلام العرب وهو أنْ يخاطبَ الجماعة بالفعل، كأنهم أهلُه وأصحابُه، والمراد به بعضُهم غائباً كان أو شاهداً، فيقول: قتلتم فلاناً، والقاتلُ منهم واحدٌ، إما غائب، وإما شاهد. وقد بينّا نظائرَ ذلك في مواضع كثيرة من كتابنا هذا.

يقولُ: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ»، يقولُ: ورُسُلُنَا الذين يقبضونَ رُوحَهُ أقربُ إليه منكم، «وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَهَلاَّ إنْ كنتم أيها الناسُ غير مَدِينينَ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «مَدِينينَ»، فقال بعضهم: غيرَ محاسَبينَ.

وقال آخرون: معناه: غير مبعوثينَ.

وقال آخرون: بل معناه: غير مجزيينَ بأعمالِكم.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ قول مَنْ قال: غير محاسبينَ فمجزيينَ بأعمالِكم من قولهم: كما تَدينُ تُدان، ومن قول الله: «مالكِ يَوْمِ الدِّينِ».

وقوله: «تَرْجِعُونَها إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، يقولُ: تردّون تلكَ النفوسَ من بعدِ مصيرِهَا إلى الحلاقيمِ إلى مُسْتَقَرِّها من الأجسادِ إنْ كنتم صادقين، إن كنتم تمتنعونَ من الموتِ والحسابِ والمجازاة، وجواب قوله: «فَلَوْلا إذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ»، وجواب قوله: «فَلَوْلا إنْ كُنْتُمْ غَيرَ مَدِينِينَ» جوابٌ واحد وهو قوله: «تَرْجِعُونَها» وذلك نحو قوله: «فإمَّا يأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً، فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» جعل جوابَ الجزاءين جواباً واحداً.

وقوله: «فأمَّا إنْ كانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأما إن كان الميتُ من المقرّبين الذين قرّبهم الله من جوارِه في جنانه «فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ»، يقولُ: فله رَوْحٌ وريحان.

وعنى بالرَّوْح: الفرح والرحمة والمغفرة، وأصله من قولهم: وجدت رَوْحاً: إذا وجدَ نسيماً يستروحُ إليه من كرْبِ الحرِّ. وأما الريحان، فإنه عندي الريحانُ الذي يتلقى به عند الموت، فلم يكن أحدُ من المقربين يفارقُ الدنيا حتى يؤتى بغصنٍ من ريحان الجنة فيشمه، ثم يُقبض، لأنَّ ذلك الأغلب والأظهر من معانيه.

وقوله: «وَجَنَّةُ نَعِيمٍ»، يقولُ: وله مع ذلك بستانُ نعيمٍ يتنعمُ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وأمَّا إنْ كانَ» الميتُ «مِنْ أصحَابِ اليَمِينِ» الذين يُؤخَذُ بهم إلى الجنةِ من ذاتِ أيمانِهم «فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أصحَابِ اليَمِينِ»، يقولُ: فسلامٌ لكَ إنكَ من أصحابِ اليمين، فَسلِمْتَ من عذابِ الله، ومما تكرهُ، لأنك من أصحابِ اليمين.

وقوله: «وأمَّا إنْ كانَ مِنَ المُكَذِّبينَ الضَّالِّينَ، فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ»، يقول تعالى: وأما إنْ كان الميتُ من المكذِّبين بآياتِ الله، الجائرينَ عن سبيلِه، فله نُزُلٌ من حميمٍ قد أُغْلِيَ حتى انتهى حَرُّهُ، فهو شرابه. «وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ»، يقولُ: وحريقُ النار يُحْرَقُ بها؛ والتصليةُ: التفعلة من صَلَّاه الله النارَ فهو يُصْلِيه تَصْلِيةً، وذلك إذا أحرقه بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذا الذي أخبرتُكم به أيها الناسُ من الخبرِ عن المُقَرَّبينَ وأصحابِ اليمين، وعن المكذِّبين الضالينَ، وما إليهِ صائرةٌ أمورهم «لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ»، يقولُ: لهو الحقُّ من الخبرِ اليقين لاشكَّ فيه.

وقوله: «فَسَبِّحْ باسْم رَبِّكَ العَظِيمِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فسبح بتسميةِ رَبِّكَ العظيم بأسمائِه الحسنى.

سُورَةُ الحَدِيدِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «سَبَّحَ للهِ مافي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ» أن كلَّ مادُونَهُ من خَلْقِه يسبحه تعظيماً له، وإقراراً بربوبيته، وإذعاناً لطاعتهِ، كما قال جلّ ثناؤه: «تُسبِّحُ لَهُ السَّمواتُ السَّبْعُ والأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاتَفقهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» [الاسراء: ٤٤].

وقوله: «وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ»، يقولُ: ولكنه جلَّ جلاله العزيزُ في انتقامهِ مِمَّنْ عصاه، فخالفَ أمره مما في السموات والأرضِ من خلقه «الحَكِيم» في تَدْبيرِهِ أمرهم، وتصريفه إياهم فيما شاءَ وأحبَّ.

وقولـه: «لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: له سلطانُ السمواتِ والأرضِ وما فيهنَّ ولا شيء فيهنَّ يقدرُ على الامتناعِ منه، وهو في جميعهم نافذُ الأمر، ماضي الحكم.

وقوله: «يُحْيِي ويُميتُ»، يقول: يُحيي مايشاءُ من الخَلْقِ بأَنْ يوجده كيف يشاء، وذلك بأَنْ يحدثَ من النطفةِ الميتةِ حيواناً بنفخِ الروحِ فيها من بعد تاراتٍ يُقَلِّبُهَـا فيها، ونحوِ ذلك من الأَشياء، ويُميتُ مايشاء من الأَحياء بعد

الحياةِ بعد بلوغِه أجلَهُ فيُفْنيه «وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: وهو على كل شيء ذُو قدرة، لايتعذَّرُ عليه شيءٌ أرادَهُ، من إحياءٍ وإماتةٍ، وإعزازٍ وإذلالٍ، وغير ذلك من الأمور.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «هو الأَوَّل» قبل كل شيءٍ بغير حَدٍ «والآخر»، يقول: والاخر بعد كل شيءَ بغير نهاية. وإنما قيل ذلك كذلك، لأنه كان ولاشي موجودٌ سِواه، وهو كائنٌ بعد فناءِ الأَشياء كلها، كما قال جَلَّ ثناؤه: «كُلُّ شَيْءٍ هالكٌ إلاَّ وَجْهَهُ».

وقوله: «والظَّاهِرُ» يقول: وهو الظاهر على كلِّ شيءٍ دونه، وهو العالي فوق كل شيء، فلا شيءَ اعلى منـه «والبـاطِنُ»، يقول: وهو الباطن جميع الأَشياء، فلا شيء أقرب الى شيء منه، كما قال: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ» [ق: ١٦].

وقوله: «وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وهو بكلِّ شيءٍ ذُو علمٍ، لايَخْفى عليه شيء، فلا يعزبُ عنه مثقالُ ذرّةٍ في الأَرض ولا في السماءِ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، إلا في كتابٍ مبين.

وقوله « هُو الذَّي خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ »، يقول تعالى ذِكْرُه: هو الذي أنشأ السمواتِ السبع والأرضينَ، فدبرهُنَّ وما فيهنَّ، ثم استوى على عرشهِ، فارتفعَ عليهِ وعَلاَ.

وقوله: «يعلَم مايَلِج في الأَرْضِ وَمَا يَخْرجُ مِنْها»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن صفته، وأنه لايخفى عليه خافية من خلقه: يَعْلَمُ ما يَلِجُ في الأَرْضِ» من خَلْقِه. يعني بقوله: «يَلِجُ»: يدخل «وما يَخْرُج مِنها، وما يَنْزِلُ مِنَ السَّماء» إلى الأرض من شيءٍ قطّ «وما يَعْرُجُ فيها» فيصعد إليها من الأَرض. «وهو مَعَكُمْ أينما كُنْتُمْ»، يقول: وهو شاهدٌ لكم أيها الناسُ أينما كنتم يعلمكم، ويعلمُ أعمالَكُمْ، ومُتَقَلَّبَكُمْ ومَثْواكُمْ. وهو على عرشهِ فوقَ سمواتِهِ السبعْ. «وَاللهُ بِما تَعملون بَصير»، يقول: والله بأعمالكم التي تعملونها من حَسَنٍ وسيّئٍ، وطاعةٍ ومعصيةٍ، ذُو بصرٍ، وهو لها مُحْصٍ، ليجازي المحسن منكم بإحسانه، والمسيءَ بإساءِته، يَومَ تُجزَى كُلُّ نَفْسٍ بما كَسَبتْ، وَهُمْ لايُظلمون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: له سلطانُ السمواتِ والارضِ نافذٌ في جميعهنّ، وفي جميع مافيهنّ أمرُهُ «وَإلى الله تُرْجَعُ الأُمورُ»، يقول جَلَّ ثَناؤُهُ: والى الله مصيرُ أمورِ جميعِ خَلْقِهِ، فيقضي بينهم بحكمهِ.

وقـولـه: «يُولجُ اللَّيْلَ في النَّهار» يعني بقولِهِ: «يُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهار» يدخل مانقص من ساعات اللَّيلِ في النهارِ، فيجعلهُ زيادةً في ساعاتهِ «وَيُولجُ النَّهار في اللَّيْل» يقول: ويدخل مانقص من ساعاتِ النهارِ في اللَّيل، فيجعلهُ زيادةً في ساعاتِ اللَّيل.

وقوله: «وَهُوَ عَلِيمٌ بذاتِ الصدُورِ»، يقول وهو ذُو عِلمٍ بضمائرِ صدورِ عبـادهِ، ومـا عزمتْ عليهِ نُفوسُهم من خيرٍ أو شرٍّ، أو حدثت بهما أنفسهم، لايخفَى عليه من ذلك خافية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: آمنوا باللهِ أيها الناسُ، فأقِرُّوا بوحدانيتِهِ وبرسولِهِ محمدٍ ﷺ فصدِّقُوهُ فيما جاءكم به من عندِ الله واتبعوه، وأنفقوا مما جعلكم مُستخلَفِينَ فيه، يقول جَلَّ ثناؤه: وأنفقوا مما خَوَّلَكُمُ الله من المالِ الذي أورثكم عَمَّنْ كان قبلكم، فجعلكم خلفاءهم فيه في سبيلِ الله.

وقوله: «فالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وأنْفَقُوا» يقول: فالذين آمنوا بالله ورسوله منكم أيها الناسُ وأنفقوا مما خولهم اللهُ عَمَّنْ كان قبلهم ورزقهم من المال في سبيلِ الله «لَهُمْ أجْرٌ كَبِيرٌ»، يقول: لهم ثوابٌ عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومالكم لاتؤمنونَ بالله، وما شأنكم أيها الناسُ لاتُقِرُّون بوحدانيةِ الله، ورسولِهِ محمدٍ ﷺ يدعوكم إلى الاقرارِ بوحدانيتِه، وقد أتاكم من الحُججِ على حقيقةِ ذلك، ماقطعَ عُذْرَكُمْ، وأزال الشكَّ من قلوبكم، وقد أخذ ميثاقكم، قيل: عَنَى بذلك، وقد أخذ منكم رَبُّكم ميثاقكم في صلبِ آدم، بأنَّ الله رَبُّكم لا إله لكم سواه.

وقوله: «إنْ كُنْتُمْ مؤْمِنِينَ» يقول: إنْ كنتم تريدونَ أنْ تؤمنوا بالله يوماً من الأيام، فالآن أحرى الأوقات، أنْ تؤمنوا لتتابعِ الحُججِ عليكم بالرسولِ وإعلامِهِ، ودعائهِ إياكم الى ماقد تقرَّرتْ صِحَّتُهُ عندكم بالإعلامِ والأدلةِ والميثاقِ المأخوذِ عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الله الذي يُنَزِّلُ على عبدِه محمدٍ «آياتٍ بَيناتٍ» يعني: مفصَّلات «لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ليخرجكم أيها الناسُ من ظُلمةِ الكفرِ الى نورِ الإيمان، ومن الضلالةِ الى الهُدى.

وقوله: «وَانَّ الله بِكم لَرءوفٌ رَحِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ الله بإنزالِه على عبدِه ما أنزلَ عليه من الآياتِ البيِّناتِ لهدايتكم، وتبصيركم الرشادَ، لَذُو رأفةٍ بكم ورحمة، فمن رأفتهِ ورحمتهِ بكم فَعَلَ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ومالكم أيها الناسُ أنْ لاتنفقوا مما رزقَكم اللهُ في سبيلِ الله وإلى الله صائرٌ أموالكم إنْ لم تُنفِقوها في حياتِكم في سبيل الله، لأنَّ له ميراث السمواتِ والأرضِ، وإنما حَثَّهم جَلَّ ثَناؤهُ بذلك على حظهم، فقال لهم: أنفقوا أموالَكُمْ في سبيلِ الله ليكون ذلكم لكم ذُخْراً عند الله من قبل أنْ تموتوا، فلا تقدروا على ذلك، وتصيرُ الأموال ميراثاً لمن له السمواتُ والأرض.

وقوله: «لايسْتَوي مِنْكُمْ مَن أنْفَقَ مِن قَبْلِ الفَتْح وقَاتَلَ».

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ ذلك، فقال بعضهم: معناه: لايستوي

منكم أيها الناسُ مَنْ آمن قبلَ فتحِ مكةَ وهاجرَ.

وقال آخرون: عنى بالفتح: فتحَ مكة، وبالنفقةِ: النفقةَ في جهادِ المشركين.

وقال آخرون: عنى بالفتح في هذا الموضع: صُلْحَ الحديبية.

وأَوْلَى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: معنى ذلك: لايستوي منكم أيها الناسُ مَنْ أنفقَ في سبيلِ الله من قبل فتح الحُديبية وقاتل المشركينَ، بمن أنفقَ بعد ذلك وقاتل. وترَكَ ذِكْر من أنفقَ بعد ذلك وقاتل استغناءً بدلالةِ الكلامِ الذي ذُكِرَ عليه من ذِكْرِهِ: «أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجةً مِنَ الَّذين أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَـاتَلُوا». يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الذينَ انفقوا في سبيل الله من قبل فتحِ الحديبية، وقاتلوا المشركينَ أعظمُ درجة في الجنة عند الله من الذين أنفقوا من بعد ذلك، وقاتلوا.

وقوله: «وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكلُّ هؤلاء الذين أنفقوا من قبل الفتحِ وقاتلوا، والذين أنفقوا من بَعْدُ وقاتلوا، وَعَدَ اللهُ الجنةَ بإنفاقِهم في سبيلِه، وقتالِهِمْ أعداءَهُ.

وقولِه: «واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله بما تعملونَ من النفقةِ في سبيلِ الله، وقتالِ أعدائه، وغيرِ ذلك من أعمالكم التي تعملون، خبيرٌ لايَخْفَى عليه منها شيءٌ، وهو مُجازِيكم على جميعِ ذلك يومَ القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: من هذا الذي ينفقُ في سبيلِ الله في الدنيا محتسباً في نفقته مبتغياً ما عندَ الله، وذلك هو القرضُ الحَسَنُ، يقول: فيضاعف له ربُّه قَرْضَهُ ذلك الذي أقرضه، بإنفاقِهِ في سبيلِه، فيجعل له بالواحدةِ سبعَ مئةٍ.

«وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ»، يقول: وله ثوابٌ وجزاءٌ كريمٌ، يعني بذلك الأجر: الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

وقوله جَلَّ ثناؤه: وكلًّا وَعَدَ اللهُ الحسنى يومَ ترونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ يسعىٰ ثوابُ إيمانِهم وعملهم الصالح بين أيديهم، وفي أيمانِهم كُتُبُ أعمالِهم تتطايرُ.

وقوله: «بُشْرَاكُم اليَوْمَ جَنَّاتٌ تَجرِي من تَحْتِها الأَنهارُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهم: بشارتكم اليومَ أيها المؤمنونَ التي تبشرون بها جنات تجري من تحتها الأَنهارُ، فأبشروا بها.

وقوله: «خالِدِين فِيها» يقول: ماكثينَ في الجنات، لاينتقلونَ عنها ولا يتحولون.

وقوله: «ذلكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيم» يقول: خلودهم في الجناتِ التي وصفها هو النُّجْحُ العظيمُ الذي كانوا يطلبونه بعد النجاةِ من عقابِ الله ودخول الجنة خالدين فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ

﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هو الفوزُ العظيمُ في يوم يقولُ المنافقونَ والمنافقات: انظرونا: بمعنى: انتظرونا.

وقوله: «نَقْتَبِسْ مِنَ نُورِكُمْ» يقول: نَسْتَصْبِحْ من نُورِكم، والقبسُ: الشعلةُ:

وقوله: «قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فالتَمِسُوا نُوراً»، يقول جَلَّ ثناؤه: فَيُجَابُونَ بأنْ يقـال لهم: ارجعوا من حيث جئتم، واطلبوا لأنفسِكم هنالك نوراً، فإنه لاسبيلَ لكم الى الاقتباسِ من نورنا.

وقوله: «فَضُرِبَ بَينَهُمْ بْسُورٍ لَهُ بابٌ، باطِنُهُ فِيه الرَّحْمَةُ وظَاهِرُهُ مِنْ قِبلِهِ العذَابُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَضَرَبَ الله بين المؤمنينَ والمنافقينَ بسُورٍ، وهو حاجزٌ بين أهلِ الجنة وأهل النار.

وقوله: «لَهُ بابٌ باطنُهُ فِيه الرَّحْمَةُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لذلك السورِ بابٌ باطنُه فيه الرحمةُ وظاهرةُ من قبل ذلك الظاهر العذابُ: يعني: النار.

وقوله: «يُنادونَهُم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟ قالوا بَلى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ينادي المنافقون المؤمنين حين حُجِزَ بينهم بالسور، فبقوا في الظلمة والعذاب، وصار المؤمنـون في الجنـة، ألم نكن معكم في الـدنيا نصلي ونصوم، ونُنَاكِحُكم ونُوارِثُكم؟ «قالوا: بلىٰ» يقول: قال: المؤمنون: بلىٰ، بل كنتم كذلك، ولكنكم فَتَنتم أنفسكم، فنافقتم، وفِتْنَتُهُمْ أنفسهَم في هذا الموضع كانت النفاق.

وقوله: «وتَرَبَّصْتُمْ»، يقول: وتَلَبَّثْتُمْ بإيمانِ، ودافعتم بالاقرار بالله ورسولِه.

وقوله: «وَارتَبْتم»، يقول وشَكَكْتُمْ في توحيد الله وفي نبوة محمدٍ ﷺ.

وقوله: «وغرَّتْكُمُ الأمانِيُّ»، يقول: وخدعتكم أمانيُّ نفوسِكم، فَصَدَّتْكُمْ

عن سبيل الله وأضلتْكُمْ، «حتى جاء أمْر الله» يقـول: حتى جاء قضـاءُ الله بمنَايَاكُمْ، فاجْتاحَتْكُمْ.

وقوله: «وَغرَّكم بالله الغَرُورُ»، يقول وخدَعكم بالله الشيطانُ، فأطمعكم بالنجاةِ من عقوبته، والسلامة من عذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالىٰ ذِكْرُهُ مخبراً عن قيل المؤمنين لأهل النفاق، بعد أن مَيَّزَ بينهم في القيامة «فاليومَ» أيها المنافقون «لايُؤخَذُ مِنْكُم فِدْيَةٌ»، يعني: عِوَضاً وبَدَلاً، يقول: لايؤخذ ذلك منكم بَدَلاً من عقابكم وعذابكم فيخلصكم من عذاب الله «ولا من الذين كَفَروا يقول: ولا تؤخذُ الفديةُ أيضاً من الذين كفروا:

وقوله: «مأواكم النار» يقول: مَثْواكم ومَسْكَنُكم الذي تسكنونَه يومَ القيامة النارُ:

وقوله«هي مَولاكم» يقول: النار أولى بكم.

وقوله: «وبئس المصير»: يقول: وبئس مصير مَنْ صار الى النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ألم يأنِ للذَّين آمَنوا»: ألم يحن للذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ أنْ تلينَ قلوبُهم لذكرِ الله، فتخضع قلوبُهم له، ولِمَا نزلَ من الحقِّ،

وهو هذا القرآن الذي نَزَّلَهُ على رسولِهِ ﷺ.

وقوله: «وَلا يَكونُوا كالَّذين أوتُوا الكِتاب مِن قَبلُ فَطال عَليهم الأَمد»، يقول تعالى ذِكْرُه: ألم يأن لهم أن لا يكونوا، يعني: الذين آمنوا من أمةِ محمد ﷺ «كالذين أُوتوا الكْتاب مِن قَبل». يعني من بني إسرائيلَ، ويعني بالكتابِ الذي أُوتُوهُ من قبلهم التوراة والانجيل:

ويعني بقـولـه: «فَـطال عَلَيهم الأَمَدُ» مابينهم وبين موسىٰ ﷺ، وذلك الأَمدُ: الزمان.

وقـولـه: «فَقَستْ قُلوبُهمْ» عن الخيراتِ، واشتـدَّتْ على السكونِ إلى معاصي الله «وكثيرٌ مِنهُمْ فاسِقون»، يقول جَلَّ ثناؤه: وكثيرٌ من هؤلاءِ اللذينَ أُوتُوا الكتابَ من قبلِ أمةِ محمدٍ ﷺ فاسقون:

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «اعْلَمُوا» أيها الناسُ «أَنَّ الله يُحْيِي الأَرْضَ» الميتَةَ التي لاتُنْبِتُ شيئاً «بَعْد مَوتِها» يعني: بعد دُثُورِهَا ودُرُوسها، يقول: وكما نُحيي هذه الأرض الميتة بعد دروسها كذلك نهدي الإنسان الضالَ عن الحقِ الى الحقِ، فنوفِّقهُ ونسدِّدهُ للإيمان حتى يصيرَ مؤمناً من بعدِ كفرِهِ، ومهتدياً من بعد ضلالهِ:

وقوله «قَدْ بينا لَكُم الآيات لَعَلـَّكُمْ تَعْقِلُونَ»، يقول: قد بَيَّنا لكم الأدلةَ والحججَ لِتعقلوا.

وقوله: «إنَّ المُصَّدقين والمُصَّدِّقاتَ»: معناه: إن المُتَصدقين من أموالهم والمتصدقاتِ «وأَقْرَضُوا الله قَرْضاً حَسَناً» يعني: بالنفقة في سبيلِهِ، وفيما أمرَ

بالنفقةِ فيه، أو فيما ندبَ إليه «يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُم أجْرٌ كَرِيمٌ» يقول: يضاعف الله لهم قُروضَهم التي اقرضوها إياه، فيوفيهم ثوابها يومَ القيامةِ، «ولهم أجْرٌ كَرِيمٌ»، يقول: ولهم ثوابٌ من الله على صِدْقِهم وقُروضِهم إياه كريم، وذلك الجنة:

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: والذين أقَرُّوا بوحدانية الله وإرساله رُسُلَهُ، فَصَدَّقُوا الرسَل وآمنوا بما جاؤوهم به من عند رَبِّهم، أولئك هم الصِّديقون:

وقـوله: «والشُّهداء عِنْد رَبِّهِمْ»، اختلف أهلُ التأويلِ في ذلك، فقال بعضُهم: والشهداءُ عند رَبِّهم منفصل من الذي قبله: والخبر عن الذين آمنوا بالله ورسله متناهٍ عند قوله: الصديقون. والصديقون مرفوعونَ بقوله هم: ثم ابتـدىء الخبر عن الشهداء فقيل: والشهداءُ عند ربهم لَهم أجرهم ونورهم. والشهداءُ في قولهم مرفوعونَ بقوله: لهم أجـرهم ونورهم.

وقال آخرون: بل قوله: «والشهداء» مِنْ صفةِ الذين آمنوا بالله ورسلِهِ: قالوا: إنما تناهى الخبرُ عن الذين آمنوا عند قولهم: «والشُّهدَاءُ عِنْد رَبِّهم» ثم ابتدىء الخبر عَمَّا لهم. فقيل: لهم أَجْرُهُمْ ونُورهم.

وقـال آخرون: «الشهداءُ عند ربهم» في هذا الموضع: النبيونَ الذين يشهدونَ على أممهم، من قولِ الله عَزَّ وجَلَّ: «فَكَيْفَ إذا جِئنا مِن كل أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ على هَؤُلاءِ شَهِيداً» [النساء: ٤١].

والذي هو أوْلى الأقوال عندي في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: الكلامُ

والخبرُ عن الذين آمنوا، مُتَنَاةٍ عند قوله: «أُولئك هُمُ الصِّديقونَ» وإن قوله: «والشهداء عِنْدَ رَبِّهم» خبر مبتدأ عن الشهداء.

وإنمـا قلنـا: إنَّ ذلك أوْلى الأَقوال في ذلك بالصواب، لانَّ ذلك هو الأَغلب من معانيه في الظاهر، وأنّ الإيمان غير مُوجِبٍ في المتعارف للمؤمنِ اسم شهيد إلا بمعنى غيرِهِ، إلا أن يُراد به شهيدٌ على ما آمن به وصدّقه، فيكون ذلك وجهاً، وإنْ كان فيه بعضُ البُعْدِ، لأنَّ ذلك ليس بالمعروفِ من معانيهِ. إذا أطلق بغير وصلٍ، فتأويلُ قوله: «والشُهَداءُ عِنْد رَبِّهِمْ لَهُم أجرُهُمْ ونُورُهُمْ» إذن والشهداء الذين قُتِلُوا في سبيلِ الله، أو هلكوا في سبيله عند ربهم، لهم ثوابُ الله إياهم في الآخرة ونُورُهم:

وقـولـه: «والذِّين كَفرُوا وكَذَّبُوا بآياتنا أُولئك أصحَاب الجحيم»، يقول تعالى ذِكْرُه: والـذين كفروا بالله وكذّبوا بأدلتهِ وحججهِ، أولئك أصحاب الجحيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: اعلموا أيها الناس أنَّ متاعَ الحياةِ الدنيا المعجلة لكم، ماهي إلا لعبٌ ولهـوٌ تتفكهُونَ به، وزينةٌ تتزيَّنونَ بها، وتفاخرٌ بينكم، يفخرُ بعضكم على بعضٍ بمـا أولى فيهـا من رياشهـا «وتكـاثـرٌ في الأَمـوالِ والأولاد»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويباهي بعضُكم بعضاً بكثرةِ الأموال والأولاد «كمَثَلِ غَيْثٍ أعْجَبَ الكُفَّار نَباته ثُمَّ يَهِيجُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم يَيْبسُ ذلك النباتُ «فتراهُ

مُصْفراً» بعد أن كان أخضر نضِراً:

وقـولـه: «ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم يكون ذلك النباتُ حطاماً، يعني به أنه يكونُ نبتاً يابساً متهشماً. «وفي الآخرة عَذَاب شَدِيدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ للكفارِ. «ومغفرَةٌ مِنَ الله وَرِضوان» لأهلِ الإيمان بالله ورسوله:

وقوله: «وَما الحياةُ الدُّنْيا إلَّا مَتاع الغُرور» يقول تعالى ذِكْرُه: وما زينة الحياةِ الدنيا المعجلةِ لكم أيها الناسُ، إلا متاعُ الغرور.

القَوْلُ فِي تأْويلِ قَوْلِهِ تَعالى: سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «سابقوا» أيها الناسُ «إلىٰ» عملٍ يُوجِبُ لكم «مَغْفرةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرضُها كَعَرْضِ السَّماء والأرضِ أُعِدَّتْ» هذه الجنة «لِلذَّين آمنوا باللهِ ورَسُلهِ» يعني الذين وَحدُّوا الله، وصَدَّقُوا رسله.

وقوله: «ذَلك فَضْل الله يؤتِيهِ مَنْ يَشاءُ» يقول جَلَّ ثناؤه: هذه الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض التي أعدَّها الله للذين آمنوا بالله ورسله، فضل الله تَفَضَّلَ به على المؤمنينَ، والله يؤتي فضلهُ من يشاء من خَلْقِه، وهو ذُو الفضل العظيم عليهم، بما بَسَطَ لهم من الرزقِ في الدنيا، ووهب لهم من النِّعم، وعَرَّفهم موضعَ الشكرِ، ثم جزاهم في الآخرة على الطاعةِ ما وصفَ أنه أعدَّهُ لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ

أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ماأصابكم أيها الناس من مصيبةٍ في الأَرض بجدوبها وقُحُوطها وذهاب زرعها وفسادها «وَلا في أَنْفُسِكُمْ» بالأوصابِ والاوجاعِ والأسقامِ «إلاَّ فِي كِتابٍ» يعني: إلا في أم الكتابِ «من قَبْلِ أنْ نَبْرأها»، يقول: من قبل أن نبرأ الأَنفسَ، يعني: من قبلِ أنْ نخلقها: يقال: قد برأ الله هذا الشيءَ، بمعنى: خَلَقَهُ فهو بارِئُه.

وقوله: «إن ذلك على الله يَسير» يقول تعالى ذِكْرُه: إن خلق النفوس، وإحصاء ما هي لاقية من المصائب على الله سهل يسير:

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ: ماأصابكم أيها الناسُ من مصيبةٍ في أموالكم ولا في أنفسكم، إلا في كتابٍ قد كُتب ذلك فيه من قبل أنْ نخلقَ نفوسكم «لِكَيْلا تَأسَوْا»، يقول: لكيلا تحزنوا «على مافاتَكُمْ» من الدنيا، فلم تدركوه منها «وَلا تَفْرَحُوا بما آتاكُمْ» منها.

ومعنى قوله: «بما آتاكُمْ» إذا مُدَّت الأَلفُ منها: بالذي أعطاكم منها رَبُّكم وملَّكَكُمْ وخوَّلَكُمْ؛ وإذا قُصرت الأَلف، فمعناه: بالذي جاءكم منها.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «بما آتاكُمْ» فقرأ ذلك عامة قَرَأة الحجاز والكوفة «بما آتاكُمْ» بمدِّ الالف. وقرأه بعض قرأة البصرة «بما أتاكم» بقصر الألف؛ وكأن مَنْ قرأ ذلك بقصر الالف اختار قراءته كذلك، إذْ كان الذي قبله على ما فاتكم، ولم يكن على ماأفاتكم، فيردَّ الفعلَ الى اللهِ، فألحقَ قوله «بِما أتاكُم» به، ولم يردّه إلى أنه خبرٌ عن الله.

والصواب من القولِ في ذلك أنهما قراءتان صحيح معناهما، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ، وإنْ كنتُ أختارُ مَدَّ الألفِ لكثرةِ قارئي ذلك كذلك، وليس للذي اعتل به منه معتلو قارئيه بقصرِ الألفِ كبيرُ معنى، لأنَّ ماجعل من ذلك خبراً عن اللهِ، وما صرف منه الى الخبرِ عن غيرهِ فغير خارج جميعه عند سامعيه من أهل العلم أنه من فعل الله تعالى، فالفائت من الدنيا مَنْ فاته منها شيء، والمدرك منها ما أدرك عن تقدّم الله عَزَّ وجَلَّ وقضائه، وقد بين ذلك جَلَّ ثَنَاؤُهُ لمن عقل عنه بقوله: «ما أصاب مِنْ مُصيبةٍ في الارض وَلا في أنْفُسكُم إلاَّ في كِتاب مِن قَبْلِ أنْ نبرأَهَا»، فأخبر أنَّ الفائتَ منها بإفاتته إياهم فاتهم، والمدرك منها بإعطائه إياهم أدركوا، وأنَّ ذلك محفوظ لهم في كتابٍ من قبل أنْ يخلقهم.

وقوله: «والله لايُحب كُلَ مُختالٍ فَخُور»، يقولُ: والله لايحب كل متكبرٍ بما أوتيَ من الدنيا. فخور به على الناس.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله لايحب كُل مختال فخور، الباخلين بما أُوتُوا في الدنيا على اختيالهم به وفخرهم بذلك على الناس، فهم يبخلون بإخراج حَقِّ الله الـذي أوجبه عليهم فيه، ويشحون به، وهم مع بُخْلِهم به أيضا يأمرون الناس بالبخل.

وقولُه: «وَمَنْ يَتول فإنَّ الله هُوَ الغَنِيُّ الحَميدُ» يقول تعالى ذِكْرُه: ومن يُدْبر مُعْرضاً عن عِظَةِ الله «فإن الله هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يُدْبر معرضاً عن عِظَةِ الله، تاركاً العمل بما دعاهُ إليه من الإنفاق في سبيله، فَرِحاً بما أُوتِيَ من الدنيا مختالاً به فخوراً بخيلاً، فإنَّ الله هو الغنيُّ عن ماله

ونفقته، وعن غيرِه من سائر خَلْقِه، الحميد الى خَلْقِه، بما أنعمَ به عليهم من نِعمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لقد أرسلنا رُسُلَنا بالمفصَّلاتِ من البيان والدلائلِ، وأنزلنا معهم الكتابَ بالأحكامِ والشرائع، والميزانَ بالعدلِ.

وقوله: «لِيَقُومَ النَّاس بالقِسْطِ» يقول تعالى ذِكْرُه: ليعملَ الناسُ بينهم بالعدل.

وقوله: «وأَنْزَلْنا الحَديد فيهِ بأسٌ شَدِيدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنزلنا لهم الحديدَ فيه بأسٌ شديد: يقولُ: فيه قوةٌ شديدةٌ، ومنافع للناس، وذلك ماينتفعون به منه عند لقائهم العدوَّ، وغير ذلك من منافعه.

وقوله: «وَلِيعلم الله مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَه بالغَيْب»، يقول تعالى ذِكْرُه: أرسلنا رُسُلَنَا إلى خَلْقِنَا وأنزلنا معهم هذه الأشياء ليعدلُوا بينهم، وليعلم حزب الله مَن ينصر دينَ الله ورُسُلَهُ بالغيب منه عنهم.

وقوله: «إن الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله قويٌّ على الانتصار ممن بارزه بالمعاداة، وخالفَ أمرَهُ ونهيه، عزيزٌ في انتقامِه منهم، لايقدر أحدٌ على الانتصار منه مما أحل به من العقوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي

﴿ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد أرسلنا أيها الناسُ نوحاً الى خلقنا، وإبراهيم خليله إليهم رسولاً «وَجَعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِما النُّبوَّةَ وَالكتابَ»، وكذلك كانت النبوة في ذُرِّيتهما، وعليهم أُنزلتِ الكتبُ: التوراةُ، والإنجيلُ، والزبور، والفرقان، وسائرُ الكتبِ المعروفة «فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ» يقولُ: فمن ذُرِّيتهما مُهْتَدٍ إلى الحقّ مستبصر «وكَثيرٌ مِنْهُمْ»، يعني من ذُرِّيتهما «فاسِقُونَ»، يعني: ضُلَّالٌ، خارجون عن طاعة الله الى معصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم أتبعنا على آثارهم برسلنا الذين آرسلناهم بالبيناتِ على آثار نوحٍ وإبراهيم برسلنا، وأتبعنا بعيسىٰ بنِ مريمَ «وَجَعَلْنا فِي قُلُوب الَّذينَ اتَّبَعوهُ»، يعني: الذين اتبعوا عيسىٰ على منهاجِه وشريعته «رأْفَةً» وهو أشدُّ الرحمة «ورَحْمَةً ورَهْبانِيَّة ابْتَدَعُوها»، يقول: أحدثوها «ماكَتَبْناها عَلَيْهم» يقولُ: ماافترضنا تلك الرهبانية عليهم «إلا ابتغاءَ رِضْوانِ الله»، يقولُ: لكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوانِ الله «فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها».

واختلف أهـل التأويل في الذين لم يرعوا الرهبانيةَ حَق رعايتها، فقال بعضهم: هم الذين ابتدعوها، لم يقوموا بها، ولكنهم بَدَّلُوا وخالفوا دينَ الله الذي بعث به عيسىٰ: فتنصَّرُوا وتَهوَّدُوا.

وقال آخرون: بل هُمْ قومٌ جاؤوا من بعد الذين ابتدعوها فلم يَرْعَوْها حَقَّ رعايتها، لأنهم كانوا كفاراً ولكنهم قالوا: نفعل كالذي كانوا يفعلون من ذلك أوّلياً، فهم الذين وصف الله بأنهم لم يَرْعَوْها حَقَّ رعايتها.

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أنْ يقال: إنَّ الذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوا الرهبانية حقَّ رعايتها، بعض الطوائف التي ابْتَدَعَتْهَا، وذلك أنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أخبر أنه آتي الذين آمنوا منهم أجْرَهُمْ، قال: فَدَلَّ بذلك على أنَّ منهم مَنْ قد رعاها حق رعايتها، فلو لم يكن منهم مَنْ كان كذلك لم يكن مستحق الأَجرِ الذي قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «فآتَيْنا الَّذِين آمنوا مِنهم أجْرَهُمْ» إلا أنَّ الذين لم يرعوها حَقَّ رعايتها ممكنٌ أن يكونوا كانوا على عهدِ الذين ابتدعوها، وممكن أن يكونوا كانوا بعدهم، لأنَّ الذين هم من أبنائهم إذا لم يكونوا رعوها، فجائزٌ في كلامِ العربِ أن يقال: لم يَرْعَها القومَ على العموم: والمرادُ منهم البعضُ الحاضر، وقد مضى نظيرُ ذلك في مواضع كثيرة من هذ الكتاب.

وقـولـه: «فآتَيْنا الَّذين آمنوا مِنْهُمْ أجْرَهُم»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأعطينا الذين آمنوا باللهِ ورُسُله من هؤلاء الذين ابتدعوا الرهبانيةَ ثوابَهم على ابتغائِهم رضوانَ الله، وإيمانهم به وبرسولهِ في الآخرة، وكثير منهم أهلُ معاصٍ، وخروج عن طاعته، والايمان به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقوا الله ورسولَه من أهلِ الكتابين: التـوراة والإنجيل، خَافُـوا الله بأداءِ طاعتـهِ، وأجتناب معاصيه، وآمنوا برسولهِ محمدٍ ﷺ.

وقوله: «يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ» يُعْطِكُمْ ضِعْفَيْنِ من الأجرِ لإيمانكم بعيسى ﷺ، والانبياء قبل محمد ﷺ، ثم إيمانكم بمحمدٍ ﷺ حين بعث نبياً: وأصلُ الكفل: الحظّ، وأصله: مايكتفلُ به الراكبُ فيحبسه ويحفظه عن السقوط؛ يقولُ: يُحَصِّنكم هذا الكِفْلُ من العذاب، كما يُحَصِّنُ الكِفْلُ الراكبَ من السقوطِ.

وقوله: «وَيجْعل لَكُم نوراً تَمْشُونَ بِهِ»، اختلف أهلُ التأويل في الذي عنى به النور في هذا الموضع، فقال بعضهم: عنى به القرآن.

وقال آخرون: عُنِي بالنور في هذا الموضع: الهدى.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه وَعَدَ هؤلاء القوم أنْ يجعلَ لهم نوراً يمشونَ به، والقرآنُ، مع اتباعِ رسولِ الله ﷺ، نورٌ لمن آمنَ بهما وصَدقَّهما، وهُدَىً، لأن مَنْ آمن بذلك، فقد اهتدى.

وقوله: «وَيَغْفِرْ لَكُمْ»، يقولُ: ويصفح لكم عن ذنوبكم فيسترها عليكم «وَالله غَفُور رَحِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله ذُو مغفرةٍ ورحمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ٢٩

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنين به وبمحمدٍ ﷺ من أهل الكتاب، يفعل بكم رَبُّكم هذا لكي يعلمَ أهلُ الكتابِ أنهم لايقدرون على شيءٍ من فضلِ الله الذي آتاكم وخَصَّكم به، لأنهم كانوا يرون أن الله قد فضَّلهم على جميعَ الخَلْقِ، فأعلمهم الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنه قد آتى أمة محمدٍ ﷺ من الفضلِ والكرامةِ، مالم يؤتهم، وأنَّ أهلَ الكتاب حسدوا المؤمنين لما نزل قوله: «يا أَيُّها الَّذين

آمنوا اتَّقوا الله وآمنوا بِرَسُولِهِ يؤتِكُم كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ، ويَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُون بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، والله غَفُور رَحِيم»، فقال الله عَزَّ وجَلَّ: فعلتُ ذلك ليعلم أهلُ الكتابِ أنهم لايقدرون على شيءٍ من فضل الله.

وقوله: «وأنَّ الفَضْلَ بِيدِ الله»، يقول تعالى ذِكْرُه: وليعلموا أنَّ الفضلَ بيدِ الله دونهم، ودونَ غيرهم من الخلق «يُؤْتِيه مَنْ يَشاء»، يقولُ: يُعْطِي فضله ذلك من يشاء من خلقه، ليس ذلك الى أحدٍ سواه «والله ذُو الفَضْل العظِيم»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله ذُو الفضلِ على خَلْقِه، العظيم فضله.

سُورَةُ المُجَادَلَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتقدست أسماؤه

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ①﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قَدْ سمع الله» يا محمدُ، «قَوْل الَّتي تجادِلُكَ فِي زَوْجِها» والتي كانت تجادلُ رسول الله ﷺ في زوجها امرأةٌ من الأَنصار.

واختلفَ أهلُ العلم في نَسَبها واسمها، فقال بعضهم: خَوْلَة بنت ثَعْلَبة، وقال بعضهم: اسمها خُوَيلة بنت ثعلبة:

وقال آخرون: هي خويلة بنت خُويلد.

وقال آخرون: هي خويلة بنت الصَّامت.

وقال آخرون: هي خويلة ابنة الدليج(١).

وكانت مجادلتها رسول الله ﷺ في زوجها، وزوجُها أوسُ بن الصامت مراجعتها إياهُ في أمرِه، وما كانَ من قولِه لها: أنتِ عليَّ كظهر أمي، ومحاورتها

(١) انظر تفاصيل ذلك في تهذيب الكمال للمزي: ٢٨/٣١٣ و٣٥/١٦٣ وأصح ذلك: «خولة بنت ثعلبة» لحديث عائشة الصحيح عند ابن ماجة (٢٠٦٣)..

إياه في ذلك[1].

وقوله: «وَتَشْتَكي إلى الله»، يقولُ: وتشتكي المجادلة ما لديها من الهَمِّ بظِهَارِ زوجِها منها إلى الله، وتسأله الفَرَجَ «والله يَسْمَعُ تحاوركُما»، يعني: تحاور رسولِ الله ﷺ، والمجادلة خولة ابنة ثعلبة: «إنَّ الله سَميع بَصير»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله سميعٌ لِمَا يَتَجاوَبانِه ويتحاورانه، وغير ذلك من كلام خَلْقِهِ، بصيرٌ بما يعملون، ويعملُ جميعُ عباده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذين يُحَرِّمونَ نسائهم على أنْفُسِهم تحريمَ الله عليهم ظهـورَ أُمهاتِهم، فيقولونَ لهنَّ: أَنْتُنَّ علينا كظهور أمهاتِنا، وذلك كانَ طلاقَ الرجلِ امرأتَهُ في الجاهلية.

وقوله: «ما هُن أمَّهاتِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما نساؤهم اللائي يُظاهِرْنَ منهم بأمهاتِهِم، فيقولوا لهنَّ: أنتن علينا كظهرِ أمهاتنا، بل هُنَّ لهم حلال.

وقوله: «إنْ أُمهَّاتُهُمْ إلاَّ اللائي وَلَدْنَهُمْ» لا اللائي قالوا لَهُنَّ ذلك.

---

(١) قصتها في حديث عائشة عند المؤلف، وابن ماجة (٢٠٦٣)، والحاكم: ٢/٤٨١، والبيهقي: ٧/٣٨٢، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا. ورواه محمد ابن إسحاق، عن معمر بن عبدالله بن حنظلة، عن يوسف بن عبدالله بن سلام، عنها. أخرجه المؤلف، وأبو داود (٢٢١٤) و (٢٢١٥)، والطبري: ٢٤/٢٤٧، ولكن معمر ابن عبدالله مجهول، تفرد بالرواية عنه ابن إسحاق، ولم يوثقه سوى ابن حبان (انظر تهذيب الكمال: ٢٨/٣١٢ والتعليق عليه).

وقولـه: «وإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ القَوْلِ وَزُوراً» يقول جَلَّ ثناؤه: وإنَّ الرجال ليقولون منكراً من القولِ الذي لاتُعرفُ صحته «وزوراً» يعني كذباً.

«وَإِن الله لَعَفُو غفورٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: إنَّ الله لَذُو عفوٍ وصفحٍ عن ذنوبِ عبادِه إذا تابوا منها وأنابوا، غفور لهم أنْ يعاقبهم عليها بعدَ التوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: والذين يقولون لنسائهم: أنتنَّ علينا كظهورِ أمهاتنا.

وقوله: «ثُمَّ يَعُودُون لَما قالوا» اختلف أهلُ العلم في معنى العَوْدِ لما قال المظاهِرُ، فقال بعضهم: هو الرجوع في تحريم ما حَرَّم على نفسه من زوجتِه التي كانت له حلالاً قبل تظاهرِه، فيحلها بعد تحريمِه إيَّاها على نفسِه بعزمِه غشيانِها ووَطِئها.

وقال آخرون نحو هذا القول، إلا أنهم قالوا: إمساكُه إياها بعد تظهيرِه منها، وتَرْكُه فِراقَها، عَوْدٌ منه لِمَا قالَ، عَزَمَ على الوطءِ أو لَمْ يعزمْ.

وقال بعض نحويي الكوفة «ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قالوا» يصلحُ فيها في العربية: ثم يعودون الى ما قالوا، وفيما قالوا، يريدونَ النكاحَ، يريد: يرجعون عما قالوا: وفي نقض ماقالوا، قال: ويجوز في العربية أن تقول: إنْ عاد لما فعل، تريد إنْ فعلَ مرة أخرى، ويجوز إنْ عاد لما فعل: إنْ نَقَضَ مافعل، وهو كما تقول: حلف أنْ يضربك، فيكون معناه: حلف لايضربك، وحلف ليضربنك.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: معنى اللام في قوله: «لما

قالُوا» بمعنى: إلى أوْ في، لأنّ معنى الكلام: ثم يعودونَ لنقض ماقالوا من التحـريم فيحللونه، وإنْ قيل معناه: ثم يعودونَ الى تحليل ماحَرَّموا. أو في تحليل ماحَرَّمُوا فصوابٌ، لأن كلَّ ذلك عَوْدٌ له، فتأويلُ الكلام: ثم يعودون لتحليل ماحَرَّمُوا على أنفسهم مما أحَلَّهُ الله لهم.

وقوله: «فَتَحْريرُ رَقَبَة من قَبْلِ أنْ يَتماسا»، يقول: فعليه تحرير رقبةٍ، يعني: عِتْقُ رقبةِ عبدٍ أو أَمَةٍ، من قبلِ أنْ يماس الرجلُ المُظاهِرُ امرأتَهُ التي ظاهَر منها أو تماسه.

وقوله: «ذَلِكم تُوعَظُونَ بِهِ» يقول تعالى ذِكْرُه: أوْجَبَ رَبُّكم ذلك عليكم عِظَةً لكم تتعظون به، فتنتهونَ عن الظِّهارِ وقولِ الزور «والله بمَا تَعْملونَ خبيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله بأعمالكم التي تعملونها أيها الناس ذُو خبرةٍ لايخفَى عليه شيء منها، وهو مُجازِيكم عليها، فانتهوا عن قولِ المنكر والزور.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾٤

يقول تعالى ذِكْرُه: فَمَنْ لم يجد منكم مِمَّنْ ظاهَرَ من امرأتِه رقبة يُحَرِّرُها، فعليه صيامُ شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، والشهران المتتابعان هما اللذان لافَصْلَ بينهما بإفطارٍ في نهار شيء منهما الا مِنْ عُذْرٍ، فإنه إذا كان الإفطار بالعذر ففيه اختلافٌ بين أهل العلم، فقال. بعضهم: إذا كان إفطارهُ لعذر فزال العذر بنى على مامضى من الصوم.

وقال آخرون: بل يستأنفُ، لأنَّ مَنْ أفطرَ بعذرٍ أو غير عذرٍ لم يتابع صوم شهرين.

وأولى القولين عندنا بالصواب قولُ مَنْ قال: يبني المفطرُ بعذر، ويستقبل المفطر بغير عذر، لإجماع الجميع على أن المرأة إذا حاضت في صومها الشهرين المتتابعين بعذر، فمثله، لأنَّ إفطار الحائض بسبب حيضها بعذر كان من قبل الله فكل عذرٍ كان من قبل الله فمثله.

وقوله: «فَمَن لم يَستطع فإطعام ستين مِسكيناً» يقول تعالى ذِكْرُه: فَمَنَ لم يستطع منهم الصيامَ فعليه إطعام ستين مسكيناً، وقد بَينا وجهَ الإطعام في الكفَّارات فيما مضى قبل: فأغنى ذلك عن إعادته

وقوله: «ذَلك لتِؤْمنوا بالله ورَسُولِهِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: هذا الذي فرضتُ على مَنْ ظاهر منكم مافرضت في حال القدرة على الرقبة، ثم خففتُ عنه مع العجز بالصوم، ومع فَقْدِ الاستطاعة على الصوم بالإطعام، وإنما فعلته كي تقر الناسُ بتوحيد الله ورسالة الرسول محمد ﷺ، ويصدقوا بذلك، ويعملوا به، وينتهوا عن قولِ الزور والكذب «وَتِلكَ حُدُود الله» يقول تعالى ذِكْرُه: وهذه الحدود التي حَدَّها الله لكم، والفروض التي بينها لكم حدود الله فلا تتعدوها أيها الناس «وللكافرين» بها، وهم جَاحدو هذه الحدود وغيرها من فرائض الله أن تكون من عند الله «عَذابٌ أليمٌ» يقول عذابٌ مؤلم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين يخالفون الله في حدوده وفرائضه، فيجعلون حدوداً غير حدودهِ، وذلك هو المحادة لله ولرسوله.

وأما قوله: «كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الذين من قَبْلِهِمْ»، فإنه يعني: غِيظُوا وأُخْزُوا كما غيظَ الذين من قبلهم من الامم الذين حادّوا الله ورسولَهُ، وخُزُوا.

وقوله: «وقَد أنزَلْنا آيات بَيِّنات»، يقولُ: وقد أنزلنا دلالاتٍ مفصلاتٍ، وعلاماتٍ مُحْكماتٍ تدلُّ على حقائقِ حدود الله.

وقوله: «وللكافرينَ عَذابٌ مُهينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولجاحدي تلك الآيات البيِّنات التي أنزلناها على رسولنا محمد ﷺ، ومُنْكِريها عذابٌ يومَ القيامةِ «مهينٌ» يعني: مُذِلٌ في جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وللكافرين عذابٌ مهينٌ في يوم يبعثهمُ الله جميعاً، وذلك «يَوْمَ يَبْعثُهُمُ الله جَميعاً» من قبورهم لموقفِ القيامة «فَينَبِّئُهُمْ» الله «بِمَا عَمِلُوا، أحْصَاهُ الله وَنَسُوهُ» يقول تعالى ذِكْرُه: أحصى الله ماعملوا، فَعَدَّهُ عليهم، وأثبته وحفظَهُ، ونَسِيَهُ عامِلُوهُ «والله على كل شيءٍ شهيد»، يقول: «وَالله» جَلَّ ثَناؤُهُ «على كُلِّ شَيْءٍ» عَمِلُوه وغير ذلك من أَمْرِ خَلْقِه «شَهيد»، يعني: شاهد يعلمه، ويحيطُ به، فلا يعزبُ عنه شيء منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تنظرْ يا محمدُ، بعين قلبك فترى «أنَّ الله يَعْلَمُ مافي السَّموَات ومَا في الأرْض» من شيء، لايَخْفَى عليه صغيرُ

ذلك وكبيره، يقول جَلَّ ثناؤه: فكيف يخفى على مَنْ كانت هذه صِفَتُه أعمالُ هؤلاء الكافرين وعصيانُهم رَبَّهم، ثم وصف جَلَّ ثَناؤهُ قُرْبَهُ من عبادِه وسماعَهُ نَجْـوَاهُمْ، ومـا يكتمـونَهُ الناسَ من أحاديثهم، فيتحدثونه سراً بينهم، فقال: «مايَكونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثةٍ» من خَلْقِه «إلَّا هو رَابعُهُمْ» يسمعُ سِرَّهُمْ ونجواهم، لايخفى عليه شيئٌ من أسرارهم «ولا خَمْسةٍ إلَّا هُوَ سادسُـهُم »، يقولُ: ولا يكونُ من نجوى خمسةٍ الا هو سادسهم كذلك «ولا أدْنَى مِنْ ذلك»، يقول: ولا أقلَّ من ثلاثةٍ «ولا أكثرَ» من خمسةٍ «إلا هو مَعَهُمْ» إذا تناجوا «أيْنما كانوا» يقول: في أي موضعٍ ومكانٍ كانوا.

وعنى بقوله: «هُو رَابعهم» بمعنى أنه مُشَاهِدُهُمْ بعلْمِه، وهو على عَرْشِه.

وقوله: «ثُم يُنَبِّئهم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ القيامَةِ» يقول تعالى ذِكْرُه: ثم يخبر هؤلاء المتناجين وغيرهم بما عملوا من عملٍ مما يُحِبُّه أو يُسْخِطُهُ يومَ القيامة «إنَّ الله بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ»، يقول: إن الله بنجواهم وأسرارهم، وسرائر أعمالهم، وغير ذلك من أمورهم وأمور عباده عليم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «أَلَمْ تَرَ الى الذين نُهوا عن النَّجْوَى» من اليهود «ثُمَّ يَعودونَ» فقد نهى الله عَزَّ وجَلَّ إياهم عنها، ويتناجون بينهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول.

وقوله: «ثُم يَعُودُون لمَا نُهوا عَنه»، يقولُ جَلَّ ثَنَاؤهُ : ثم يرجعون إلى

مانُهُوا عنه من النجوى. «وَيَتَناجَوْنَ بالإِثم وَالعُدوَانِ وَمَعْصِية الرَّسُولِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ويتناجون بما حَرَّمَ الله عليهم من الفواحش والعدوان، وذلك خلاف أمر الله ومعصية الرسول محمد ﷺ.

وقوله: «وَإِذا جاؤوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَم يُحَيِّكَ به الله» يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإذا جاءك يا محمدُ، هؤلاء الذين نُهوا عن النجوى الذين وصف الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ صفتهم، حَيَّوْكَ بغير التحية التي جعلها الله لكَ تحيةً، وكانت تحيتهم التي كانوا يحيونه بها التي أخبر الله أنه لم يُحَيِّهِ بها فيما جاءتْ به الأَخبارُ، أنهم كانوا يقولون: السَّامُ عليكَ[1]

وقوله جَلَّ ثناؤه: «وَيَقُولُونَ في أَنْفُسِهِم لَوْلا يُعذِّبُنا الله بما نَقُولُ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ويقولُ مُحَيُّوك بهذه التحيةِ من اليهود: هَلَّا يعاقِبُنا الله بما نقولُ لمحمدٍ ﷺ، فَيُعَجِّل عقوبتَهُ لنا على ذلك، يقول الله: حَسْب قائلي ذلك يامحمد جهنم، وكفاهم بها يَصْلَوْنَها يومَ القيامة، فبئس المصيرُ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ياأيها الذين صدَّقُوا الله ورسولَهُ «إذا تَناجَيْتُمْ» بينكم «فَلا تَتَناجَوْا بالإِثم والعُدْوَان وَمَعْصية الرَّسُول» وَلكنْ «تَناجَوْا بالبر» يعني: طاعة الله وما يُقَرِّبُكُمْ منه «والتَّقْوى» يقول: وباتقائه بأداء ماكلَّفكم من فرائضه واجتناب

(١) فكان رسول الله ﷺ يرد عليهم: «وعليكم»: ويوصي المسلمين بالرد عليهم كذلك، وتقديره: وعليكم ماتستحقونه من الذم، انظر صحيح مسلم (٢١٦٣) و (٢١٦٤) و (٢١٦٥) و (٢١٦٦).

معاصيه «وَاتَّقوا الله الَّذي إلَيْهِ تُحشَرونَ»، يقول: وخافُوا الله الذي اليه مصيرُكم، وعنده مجتمعكم في تضييع فرائضِه، والتقدُّمِ على معاصيهِ أنْ يعاقبكم عليه عندَ مصيركم إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنما المناجاة من الشيطان، ثم اختلف أهل العلمِ في النجوى التي أخبر الله أنها من الشيطان، أي ذلك هو، فقال بعضهم: عُنيَ بذلك مناجاةُ المنافقين بعضهم بعضاً بالإثمِ والعدوان وهو أولى الأقوال في ذلك بالصواب، وذلك أن الله جَلَّ ثَناؤُهُ تقدم بالنهي عنها بقوله: «إذَا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوا بالإثْم والعُدْوَان وَمَعْصِيَة الرَّسُول»، ثم عما في ذلك من المكروهِ على أهلِ الإيمان، وعن سببِ نهيه إياهم عنه، فقال: «إنَّما النَّجْوَى مِنَ الشَّيطان لِيَحْزُنَ الَّذينَ آمنوا» فبين بذلك إذا كان النهيُ عن رؤيةِ المرءِ في منامه كان كذلك، وكان عقيب نهيه عن النجوى بصفة أنه من صفةِ مانهى عنه.

وقوله: «وَلَيْس بِضارِّهم شَيْئاً إلَّا بإذْنِ الله» يقول تعالى ذِكْرُه: وليس التناجي بضار المؤمنين شيئاً إلا بإذْنِ الله، يعني بقضاء الله وقَدَره.

وقوله: «وَعَلى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ» يقول تعالى ذِكْرُه: وعلى الله فليتوكَّلْ في أمورهم أهلُ الإيمان به، ولا يحزنوا من تناجي المنافقينَ ومَنْ يَكِيدُهُمْ بذلك. وأنَّ تناجيهم غير ضارِّهم إذا حَفِظَهُمْ رَبُّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ياأيها الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ «إذا قيل لَكُم تَفَسَّحُوا في المِجالسِ» يعني بقوله: تفسَّحوا: تَوَسَّعُوا من قولهم: مكانٌ فسيحٌ إذا كان واسعاً.

وقوله: «فافْسَحُوا»، يقولُ: فوسعوا «يَفْسَحِ الله لَكُمْ»، يقولُ: يُوَسِّع الله منازلَكُمْ في الجنةِ. «وَإذا قيل انْشزُوا فانْشُزُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا قيل ارتفعوا، وإنما يُراد بذلك: وإذا قيل لكم قُومُوا الى قتالِ عدوٍ، أو صلاةٍ، أو عملِ خيرٍ، أو تَفرقُوا عن رسولِ الله ﷺ، فقوموا.

وقوله: «يَرْفَعِ الله الذِّين آمنوا منكم والذينَ أُوتُوا العِلْم دَرَجاتٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يرفع الله المؤمنين منكم أيها القومُ بطاعتهم رَبَّهم فيما أمَرَهُمْ به من التَّفَسُّحِ في المجلس إذا قيل لهم تَفَسَّحُوا، أو بنشوزِهم الى الخيراتِ إذا قيل لهم انشزوا إليها، ويرفع الله الذين أُوتُوا العلمَ من اهل الايمان على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم بفضلِ عِلْمِهم درجاتٍ، إذا عملوا بما أُمِرُوا به.

وقوله: «وَالله بِما تَعْمَلُون خَبِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله بأعمالكم أيها النـاسُ ذُو خبـرةٍ، لايخفى عليه المطيع منكم رَبَّهُ من العاصي، وهو مُجازٍ جميعكُمْ بعملِهِ المحسنَ بإحسانِهِ، والمسيء بالذي هو أهْلُهُ، أو يعفو.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ياأيها الذين صدقوا الله ورسوله، إذا ناجيتم رسول الله، فَقَـدِّمُـوا أمام نجواكم صدقةً تتصدَّقُونَ بها على أهل المَسْكَنةِ والحاجة

«ذَلكَ خَيْرٌ لَكُمْ»، يقولُ: وتقديمكُم الصدقةَ أمامَ نجواكَمْ رسول الله ﷺ، خيرٌ لكم عندَ الله «وأَطْهَرُ» لقلوبِكُمْ من المآثمِ.

وقوله: «فإنْ لَمْ تَجِدُوا» يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ لم تجدوا ماتتصدَّقُونَ به أمام مُنَاجَاتِكم رسولَ الله ﷺ «فإنَّ الله غَفُور رَحِيمٌ»، يقولُ: فإنَّ الله ذُو عفوٍ عن ذنوبكم إذا تبتم منهـا، رحيمٌ بكم أنْ يعاقبكم عليها بعد التوبةِ، وغيرُ مؤاخِذِكُمْ بمناجاتِكُمْ رسولَ الله ﷺ قبلَ أنْ تُقدِّمُوا بين يدي نجواكم إياه صدقة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَشَقَّ عليكم وخَشِيتُمْ أيها المؤمنون بأنْ تقدموا بين يدي نجواكم رسولَ الله ﷺ صدقات الفاقة، وأصل الإشفاق في كلامِ العرب: الخوف والحذر، ومعناه في هذا الموضع: أخشيتم بتقديم الصدقةِ الفاقة والفقرَ.

وقـولـه: «فـإذْ لَمْ تفعلُوا وتَـاب الله عَليْكُم»، يقـول تعـالى ذكـره: فإذْ لم تُقَـدِّمُوا بين يدي نجواكم صدقاتٍ، ورزقكم الله التوبة من ترككم ذلك، فأدُّوا فرائض الله التي أوجبهـا عليكم، ولم يَضَعها عنكم من الصلاة والزكاةِ، وأطيعوا الله ورسوله، فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه.

«والله خَبير بمـا تَعْمَلُونَ»، يقـول جَلَّ ثنـاؤه: والله ذُو خبـرةٍ وعلمٍ بأعمالكم، وهو مُحْصِيها عليكم ليجازيكم بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تَنْظُرْ بعين قلبكَ يامحمد، فترى الى القوم الذين تولَّوْا قوماً غَضِبَ الله عليهم. وهم المنافقونَ تولوا اليهود وناصحوهم.

وقوله: «ماهُم مِنْكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ماهؤلاء الذين تولَّوا هؤلاء القوم الذين غضبَ الله عليهم «منكم»، يعني: من أهل دينكم ومِلَّتكم، «ولا منهم»، ولاهُمْ من اليهود الذين غضبَ الله عليهم، وإنما وصفهم بذلك منكم جَلَّ ثناؤُهُ لأنهم منافقون إذا لقوا اليهود، قالوا: «إنَّا مَعَكُم إنمَّا نحنْ مُسْتَهزئونَ» [البقرة: ١٤]، «وإذا لَقُوا الَّذينَ آمنوا قَالُوا آمنا» [البقرة: ١٤].

وقوله: «وَيحلِفُونَ على الكَذِبِ وَهُم يَعْلَمُون» يقول تعالى ذِكْرُه: ويحلفون على الكذب، وذلك قولُهم لرسول الله ﷺ: نشهدُ إنك لرسولُ الله وهم كاذبون غير مصدِّقينَ به، ولا مؤمنين به، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «والله يَشْهَدُ إنَّ المُنافِقين لَكاذِبُونَ»، وقد ذُكر أنَّ هذه الآية نزلت في رجلٍ منهم عاتبهُ رسول الله ﷺ على امرٍ بَلَغَهُ عنه، فحلفَ كذباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٥ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أعَدَّ الله لهؤلاء المنافقينَ الذين تولَّوا اليهودَ عذاباً في الآخرة شديداً «إنَّهُمْ ساءَ ماكانُوا يَعْمَلُونَ» في الدنيا بِغِشِّهم المسلمينَ، ونُصْحِهم لأعدائِهم من اليهود.

وقوله: «اتَّخذُوا أيمانَهم جُنَّةً»، يقول جَلَّ ثناؤه: جعلوا حلفهم وأيمانهم

جُنَّةً يَسْتَجِنُّونَ بها من القتلِ ويدفعون بها عن أنفسِهم وأموالِهم وذَرارِيهم، وذلك أنهم إذا اطُّلِعَ منهم على النفاق، حَلَفُوا للمؤمنين بالله انهم لمنهم «فَصَدُّوا عَنْ سَبيلِ الله»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: فَصَدُّوا بأيمانِهم التي اتخذوها جُنَّةً المؤمنين عن سبيلِ الله فيهم، وذلك أنهم كَفَرَةٌ، وحكمُ الله وسبيلُه في أهلِ الكفر به من أهلِ الكتابِ القتل، أو أخذ الجزيةِ، وفي عَبَدَةِ الأَوثانِ القتل، فالمنافقون يَصُدُّونَ المؤمنينَ عن سبيلِ الله فيهم بأيمانهم إنهم مؤمنون، وإنهم منهم، فيحولونَ بذلك بينهم وبين قَتْلِهم، ويمتنعونَ به مما يمتنع منه أهلُ الايمان بالله.

وقوله: «فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ»، يقولُ: فلهم عذابٌ مُذِلٌّ لهم في النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لن تُغْني عن هؤلاء المنافقينَ يومَ القيامة أموالُهم، فيفتدوا بها من عذابِ الله المهين لهم ولا أولادهم، فينصرونهم ويَستنقذونَهُمْ من اللهِ إذا عاقبهم «أولَئِك أصحَابُ النَّار»، يقولُ: هؤلاء الذين تَوَلَّوا قوماً غضبَ الله عليهم، وهم المنافقونَ أصحابُ النار، يعني: أهلها الذين هم فيها خالدون، يقول: هم في النار ماكثونَ الى غيرِ نهاية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الذين ذكرهم هُمْ أصحابُ النار، يومَ يبعثُهم الله جميعاً، فيوم من صِلَةِ أصحاب النار، وعُني بقوله: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَميعاً» من

قبورِهم أحياءً كهيئاتِهم قبلَ مَماتِهم، فيحلفونَ له كما يحلفونَ لكم كاذبينَ مُبْطِلينَ فيها.

وقوله: «وَيحسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَيْءٍ» يقولُ: ويظنون انهم في أيمانهم وحلفهم باللهِ كاذبينَ على شيءٍ من الحقِّ، «ألا إِنَّهُمْ هُمُ الكـاذِبُـونَ» فيما يحلفون عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِم الشَّيْطانُ» غَلَبَ عليهم الشيطانُ «فأنْساهُمْ ذِكْرَ اللهِ أولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ»، يعني: جُنْدَهُ وأتباعَهُ «ألا إنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الخاسِرونَ»، يقول: ألا إنَّ جُنْدَ الشيطانِ وأتباعه هم الهالكونَ المغبونونَ في صَفْقَتِهِمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ٢١﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: إنَّ الذين يخالفونَ الله ورسوله في حدودِه، وفيما فَرَضَ عليهم من فرائِضه فيعادونه.

وقوله: «أولئك في الأذَلين» يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الذين يُحَادُّونَ الله ورسولَهُ في أهلِ الذلة، لأنَّ الغَلَبَةَ للهِ ورسوله.

وقوله: «كَتَبَ اللهُ لأغْلِبَنَّ أنا ورسُلي»، يقول: قَضىٰ الله وخَطَّ في أمِّ الكتابِ، لأَغلبنَّ أنا ورسلي مَن حادَّني وشاقَّني.

وقوله: «إنَّ الله قَوِيٌّ عَزيزٌ»، يقولُ: إنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ ذو قُوَّةٍ وقُدْرةٍ على كل مَنْ حادَّهُ ورسوله أنْ يُهْلِكَهُ، ذُو عزةٍ فلا يقدر أحدٌ أنْ ينتصرَ منه إذا هو أهلك وَلِيَّهُ، أو عاقبه، أو أصابه في نفسه بسوء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «لاتجدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله وَاليَوْمِ الآخر يُوادُّون مَنْ حادَّ الله ورَسُولَه» لاتجدُ يامحمدُ قوماً يصدقونَ الله، ويُقِرُّونَ باليومِ الآخِرِ يوادُّونَ مَنْ حادَّ الله ورسوله وشاقَّهما وخالفَ أمرَ الله ونهيه «وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ»، يقولُ: ولو كان الذين حادُّوا الله ورسولَهُ آباءهم، «أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوَانهُم أو عَشِيرتَهُمْ»، وإنما أخبرَ الله جل ثناؤه نبيه عليه الصلاةُ والسلام بهذه الآية «ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم» ليسوا من أهل الإيمان بالله ولا باليومِ الآخر، فلذلك تولَّوا الذينَ تولَّوْهم من اليهودِ.

وقوله: «أولَئِك كَتَبَ في قُلُوبِهمُ الإيمانَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: هؤلاء الذين لايوادُّونَ مَنْ حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم، أو أبناءهم، أو إخوانهم أو عشيرتهم، كتبَ الله في قلوبهم الايمان. وإنما عُنِي بذلك: قَضَى لقلوبهم الإيمان، ففي، بمعنى اللام، وأخبر تعالى ذِكْرُه أنه كتبَ في قلوبهم الايمانَ لهم، وذلك لمَّا كان الإيمانُ بالقلوبِ، وكان معلوماً بالخبرِ عن القلوبِ أنَّ المرادَ به أهلُها، اجتزىء بذكرها مِنْ ذِكْرِ أهلها.

وقولـه: «وأيَّدهُمْ بِرُوحٍ مِنْـهُ»، يقولُ: وقوَّاهُمْ ببرْهانٍ منه ونور وهدى «وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنهارُ»، يقولُ: ويدخلهم بساتين تجري من تحتِ أشجارها الانهار «خالِدِينَ فِيها»، يقولُ: ماكثينَ فيها ابداً «رَضِيَ الله عَنْهُمْ» بطاعتهم إياه في الدنيا «وَرَضُوا عَنْهُ» في الآخرةِ بإدخالهِ إياهم الجنة «أولئك حزْبُ الله»، يقول: أولئك الذين هذه صِفَتُهم جُنْدُ اللهِ وأولياؤه «ألا إنَّ حِزْبَ الله»، يقـولُ: ألا إنَّ جنـدَ الله وأولياءه «هُمُ المُفْلِحُونَ»، يقولُ: هم الباقون المُنْجَحُونَ بإدراكهم ماطلبوا، والتمسوا ببيعتهم في الدنيا وطاعتهم رَبَّهم.

سُورَةُ الحَشْرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾

يعني بقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «سَبَّحَ لِلَّهِ» صَلَّى للهِ، وسَجَدَ له «ما في السَّمَوَاتِ وَما في الأَرْضِ» مِن خَلْقِهِ «وَهُوَ العَزِيزُ الحكيمُ»، يقولُ: وهو العزيزُ في انتقامه ممن انتقم من خَلْقِه على معصيتِهم إياهُ، الحكيمُ في تدبيره إياهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه بقوله: «هُو الذي أخرج الذين كَفَروا من أهْلِ الكتابِ من دِيارِهِمْ لأَوَّلِ الحَشْرِ» الله الذي أخرجَ الذين جَحَدُوا نبوةَ محمدٍ ﷺ من أهلِ الكتاب، وهم يهود بني النضيرِ من ديارهم، وذلك خروجهم عن منازلهم ودورهم، حين صالحوا رسولَ الله ﷺ على أنْ يُؤمنهم على دمائِهم ونسائِهم وذراريهم، وعلى أنَّ لهم ما أقلَّت الإبلُ من أموالهم، ويُخْلُوا له دورهم، وسائر

أموالهم، فأجابهم رسولُ الله ﷺ الى ذلك، فخرجوا من ديارهم، فمنهم مَنْ خرج الى الشام، ومنهم مَنْ خرج الى خيبر، فذلك قولُ الله عَزَّ وجَلَّ: «هُوَ الذي أخْرَجَ الَّذينَ كَفَروا مِنْ أهْلِ الكتاب مِنْ دِيارِهِمْ لأوَّل الحَشْر».

وقـوله: «لأوَلِ الْحَشْرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لأوَّلِ الجمعِ في الدنيا، وذلك حشرهم الى أرضِ الشام.

وقـوله: «ماظَنَنْتُمْ أنْ يَخْرُجُوا» يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ من أصحاب رسولِ الله ﷺ: ماظننتم أن يخرجَ هؤلاء الذين أخرجهم الله من ديارهم من أهل الكتاب من مساكنهم ومنازلهم، «وَظَنُّوا أنَّهم مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ الله» وإنما ظَنَّ القومُ فيما ذكر ذلك أنَّ عبدالله بن أبيّ وجماعة من المنافقين بعثوا إليهم لما حَصَرَهم رسولُ الله ﷺ يأمرونَهُمْ بالثباتِ في حصونهم وَيعِدُونَهم النصرَ.

وقوله: «فأتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبوا» يقول تعالى ذِكْرُه: فأتاهم أمرُ الله من حيثُ لم يحتسبوا أنه يأتيهم، وذلك الأمرُ الذي أتاهم من اللهِ من حيث لم يحتسبوا، قَذَفَ في قلوبهم الرُّعْب بنزولِ رسولِ الله ﷺ بهم في أصحابهِ، يقول جَلَّ ثناؤه: «وقَذَفَ في قلوبهم الرعب».

وقوله: «يُخْرِبُونَ بُيوتَهُمْ بأيْدِيهم وأيْدِي المؤمنينَ» يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «يُخرِبُون بُيُوتَهُمْ» بني النضير من اليهود، وأنهم يخربون مساكنهم، وذلك أنهم كانوا ينظرون الى الخشبة فيما ذُكِرَ في منازلهم مما يَسْتَحْسِنُونَهُ، أو العمود أو الباب، فينزعونَ ذلك منها بأيديهم وأيدي المؤمنينَ.

وقوله: «فاعْتَبِروا يا أولي الأبْصَارِ» يقول تعالى ذِكْرُه: فاتَّعِظُوا يامعشرَ ذوي الأفهام بما أحلَّ الله بهؤلاءِ اليهودِ الذين قَذَفَ الله في قلوبهم الرعب، وهم في حصونهم من نقمته، واعلموا أن الله وليُّ مَنْ والاه، وناصرُ رسولِه على كلِّ مَنْ ناوأه، ومحِلٌّ من نقمته به نظيرَ الذي أَحَلَّ ببني النضير، وإنما عنى بالأبصارِ في

هذا الموضع أبصار القلوب، وذلك أنَّ الاعتبارَ بها يكون دونَ الإبصارِ بالعيون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولولا أنَّ الله قضى وكتبَ على هؤلاء اليهودِ من بني النضير في أمِّ الكتابِ الجلاءَ، وهو الانتقالُ من موضعٍ الى موضع، وبلدةٍ الى أخرى.

وقوله: «لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنيا» يقول تعالى ذِكْرُه: «ولوَلْا أنْ كَتَبَ الله عَلَيهم الجَلاءَ» من أرضهم وديارهم، لعذَّبَهُمْ في الدنيا بالقتلِ والسَّبْي، ولكنه رفعَ العذابَ عنهم في الدنيا بالقتلِ، وجعَل عذابهم في الدنيا الجلاء «وَلهمْ في الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ» مع ما حَلَّ بهم من الخزي في الدنيا بالجلاءِ عن أرضِهم ودُورهم.

وقوله: «ذلك بأنَّهُمْ شاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي فَعَلَ الله بهؤلاء اليهودِ مافعلَ بهم من إخراجِهم من ديارهم، وقَذَفَ الرعبَ في قلوبِهم من المؤمنين، وجعلَ لهم في الاخرة عذابَ النار بما فعلوا هم في الدنيا من مخالفتهم اللهَ ورسولَهُ في أمره ونهيه، وعصيانِهم رَبَّهم فيما أمرهم به من اتباع محمد ﷺ «ومن يُشاقّ الله فإنَّ اللهَ شَديدُ العقابِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يخالف الله في أمرهِ ونهيه، فإنَّ الله شديدُ العقاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ماقطعتم من ألوانِ النخلِ ، أو تركتموها قائمةً على أصولها.

وإنما أنزلت هذه الآيةُ فيما ذُكِرَ من أجلِ أن رسولَ الله ﷺ لما قطعَ نخلَ بني النضير وحرَّقها، قالت بنو النضير لرسولِ الله ﷺ: إنك كنتَ تنهى عن الفسادِ وتَعيبُه، فما بالُكَ تقطعُ نَخْلَنا وتُحرقها؟ فأنزلَ الله هذه الآيةَ، فأخبرهم أنَّ ماقطع من ذلك رسولُ الله ﷺ أو تركَ، فَعَنْ أمرِ الله فَعَلَ.

وقوله: «فَبِإِذْنِ اللهِ»، يقول: فبأمرِ اللهِ قطعتم ما قطعتم، وتركتم ماتركتم، وليغيظَ بذلك أعداءه، ولم يكن فساداً.

وقوله: «وَلِيُخْزِيَ الفاسقينَ»، وليذِلَّ الخارجينَ عن طاعةِ الله عَزَّ وجَلَّ، المخالفينَ أمرَهُ ونهيه، وهم يهودُ بني النضير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذي رَدَّهُ الله على رسولِه منهم، يعني من أموالِ بني النضير، يقال منه. فَاءَ الشيءُ على فلان: إذا رجعَ إليه، وأفأتُهُ أنا عليه: إذا رَدَدْتُه عليه.

«فَمَا أوجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا ركابٍ»، يقول: فما أوضعتم فيه من خيلٍ ولا في إبلٍ وهي الركابُ، وإنما وصفَ جَلَّ ثَناؤُهُ الذي أفاءه على رسولِهِ منهم بأنـه لم يُوجَفْ عليه بخيلٍ من أجلِ أن المسلمينَ لم يَلْقَوْا في ذلك حرباً، ولا كُلِّفُـوا فيه مَؤُونَـةً، وإنما كان القومُ معهم، وفي بلدهم، فلم يكن فيه إيجافُ خيلٍ ولا رِكابٍ.

وقوله: «وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ على مَنْ يَشاء» أعلمكَ أنه كما سلَّط محمداً ﷺ على بني النضير، يخبرُ بذلك جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنَّ ماأفاء الله عليه من أموالٍ لم يوجفِ المسلمونَ بالخيلِ والركاب، من الاعداء مما صالحوه عليه له خاصة يعمل فيه بما يرى: يقولُ: فمحمدٌ ﷺ إنما صار إليه أموالُ بني النضير بالصلح لاعنوةً، فتقع فيها القسمة «وَاللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، يقولُ: والله على كلِّ شيء أراده ذُو قدرةٍ لايعجزهُ شيءٌ، وبقدرته على مايشاءُ سلَّط نبيه محمداً ﷺ على ماسُلِّطَ عليه من أموالِ بني النضير، فحازَهُ عليهم.

القَولُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾

يعني بقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «ما أفاءَ الله على رَسُولِهِ مِن أَهْلِ القُرى» الذي رَدَّ الله عَزَّ وجَلَّ على رسوله من أموالِ مشركي القرى.

واختلف أهلُ العلمِ في الذي عنى بهذه الآية من الألوان، فقال بعضهم: عَنَى بذلك الجزيةَ والخراجَ.

وقال آخرون: عَنَى بذلك الغنيمة التي يُصيبها المسلمونَ من عدوِّهم من أهلِ الحربِ بالقتال عنوة.

وقال آخرون: عَنَى بذلك الغنيمة التي أوجفَ عليها المسلمونَ بالخيلِ والركابِ، وأُخِذَتْ بالغلبةِ، وقالوا: كانت الغنائم في بُدُوِّ الاسلامِ لهؤلاء الذين سَمَّاهم الله في هذه الايات دونَ المُرْجِفينَ عليها، ثم نسخ ذلك بالآية التي في سورة الانفال.

وقـال آخرون: عَنى بذلك: ماصالحَ عليه أهلُ الحرب المسلمينَ من أمـوالهم، وقـالـوا قولـه: «مـا أفـاءَ الله على رَسُـولـهِ مِن أهْلِ القُرَى فللّه وللرَّسُولِ»... الآيات، بيانُ قَسْمِ المالِ الذي ذَكَرَهُ الله في الآيةِ التي قبلَ هذه الايةِ، وذلك قوله: «ما أفاءَ الله على رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أوْ جَفْتُمْ عَلَيْه مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكاب» وهذا قولٌ كان يقولُه بعض المتفقهةِ من المتأخرين.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أنَّ هذه الآية حُكْمُهَا غيرُ حكمِ الآية التي قَبْلَها، وذلك أنَّ الاية التي قبلها مالٌ جعله الله عَزَّ وجَلَّ لرسولِه ﷺ خاصةً دونَ غيرِه، لم يجعلْ فيه لأحدٍ نصيباً.

وقوله: «ولذي القُرْبى» يقولُ: ولذي قرابةِ رسول الله ﷺ من بني هاشم وبني المطلب «واليتامى» وهم أهلُ الحاجةِ من أطفالِ المسلمينَ الذين لامال لهم، «والمسـاكين»، وهم الجـامعونَ فاقةَ وذُلَّ المسألة، «وابن السبيل» وهم المُنْقَطَعُ بهم من المسافرينَ في غيرِ معصيةِ الله عَزَّ وجَلَّ.

وقوله: «كَيْلا يَكُونَ دُولَةً بَينَ الأَغْنياء مِنْكُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وجعلنا ما أفاءَ الله على رسولهِ من أهلِ القرى لهذه الاصنافِ، كيلا يكونَ ذلك الفيءُ دولةً يتداوله الاغنياءُ منكم بينهم، يصرفُه هذا مرةً في حاجاتِ نفسه، وهذا مرّةً في أبوابِ البرِّ وسُبُلِ الخيرِ، فيجعلون ذلك حيث شاؤوا، ولكننا سَنَنَّا فيه سنةً لاتُغير ولاتُبدَّلُ.

وقوله: «وَمَا آتاكم الرَّسول فَخُذُوهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما أعطاكم رسولُ الله ﷺ مما أفاءَ الله عليه من أهلِ القرى فَخُذُوه «وَما نَهاكُم عَنْهُ» من الغلولِ وغيره من الامورِ «فانْتَهُوا» وكان بعضُ أهلِ العلم يقول نحو قولنا في ذلك غير أنه كان يُوَجِّهُ معنى قوله: «وما آتاكُمُ الرَّسُولَ فخُذُوهُ» الى ماآتاكم من الغنائم[1].

(١) وهذا وإنْ نزل في أمر الفيء، فهو عام في كل ما أمر به ﷺ، ونهى عنه، وللشوكاني في «فتح القدير» كلام جيد فيه.

وقوله: «واتقوا الله»، يقولُ: وخَافُوا الله، واحذروا عقابَهُ في خِلافِكم على رسولِه بالتقدُّمِ على مانهاكم عنه، ومعصيتِكُمْ إياه «إنَّ الله شَدِيد العِقابِ»، يقولُ: إنَّ الله شديدٌ عقابُه لمن عاقبه من أهلِ معصيتِهِ لرسولِه ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كيلا يكونَ ما أفاء الله على رسولِهِ دُولةً بين الاغنياء منكم، ولكن يكون «للفقراء المهاجرينَ الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم».

وقوله: «يبتغون فضلاً من الله» (أي: «رزقاً يأتيهم»، «ورضواناً»، يعني: رضى رَبِّهم حين خرجوا الى دارِ الهجرة)[1].

وقوله: «وَيَنْصرونَ الله وَرَسُولَهُ»، يقولُ: وينصرونَ دينَ الله الذي بعثَ به رسولَهُ محمداً ﷺ.

وقوله: «أولَئِك هُمُ الصَّادِقُونَ» يقولُ: هؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتَهُمْ من الفقراءِ المهاجرينَ هم الصادقونَ فيما يقولون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

---

(١) أضفنا مابين الحاصرتين من زاد المسير لابن الجوزي (٢١٢/٨) وكأنه سقط من تفسير الطبري شيء في هذا الموضع.

هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَالذِّين تَبـوَّؤُوا الدَّارَ والإِيمانَ» يقولُ: اتَّخذُوا المدينةَ مدينـةَ الـرسولِ ﷺ، فابْتَنوهَا منازِل، «وَالايمَانَ» باللهِ ورسولِه «مِن قَبْلِهِم»، يعني: من قبلِ المهاجرينَ، «يُحِبونَ مَنْ هاجَرَ إلَيْهِمْ»: يحبون مَنْ تركَ منزله، وانتقلَ إليهم من غيرِهم، وعني بذلك الأنصار يُحبونَ المهاجرينَ

وقوله: «وَلا يَجِدُونَ في صُدُورِهِمْ حاجةً مِمَّا أُوتُوا»، يقول جَلَّ ثناؤُه: ولايجدُ الذين تَبوَّءُوا الدَّارَ من قبلهم، وهم الأنصارُ في صدورهم حاجةً، يعني حَسَداً «مما أوتوا»، يعني: مما أُوتيَ المهاجرونَ من الفيء، وذلك لما ذُكِرَ لنا من أنَّ رسـولَ الله ﷺ قَسَمَ أمـوالَ بني النضير بين المهاجرينَ الأَوّلينَ دونَ الأنصار، إلا رجلين من الأنصارِ، أعطاهما لفقرهما، وإنما فُعِلَ ذلك لرسولِ الله ﷺ خاصة[1].

وقوله: «وَيُؤْثِرُونَ على أَنْفُسِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وهو يَصِفُ الأَنصارَ الـذين تبـوّؤوا الـدارَ والإيمـانَ من قبـل المهـاجـرين «وَيُؤْثـرُون على أَنْفُسِهِمْ»، يقولُ: ويُعْطُون المهاجرينَ أموالهم إيثاراً لهم بها على أنفسِهم «وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ»، يقولُ: ولو كان بهم حاجةٌ وفاقةٌ الى ما آثروا به من أموالهم على أنفسهم، والخَصاصة مصدر، وهي أيضاً اسم، وهو كلُّ ماتخللته ببصركَ كالكُوَّةِ والفُرْجَةِ في الحائط، تُجْمَعُ خَصاصاتٍ وخصاص.

وعن أبي هريرة، قال: «جاء رجلٌ الى النبي ﷺ ليضيفه، فلم يكن عنده مايُضيفه، فقال: أَلَا رجلٌ يضيفُ هذا رَحِمَهُ الله؟ فقام رجلٌ من الأَنصار يقال له أبو طلحة، فانطلقَ به الى رَحْلِه، فقال لامرأته: أكرمي ضيفَ رسولِ الله

---

(١) انظر سيرة ابن هشام: ١٩٤/٣.

ﷺ، نوِّمي الصِّبْيَةَ، وأطفئي المصباحَ، وأريه بأنكِ تأكُلينَ معه، واتركيه لضيفِ رسول الله ﷺ ففعلت، فنزلت «وَيُؤْثِرُونَ على أَنْفُسِهِم وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ»[1].

وقوله: «وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ وقاهُ الله شُحَّ نفسه «فـأولئـكَ هُمُ المُفْلِحُـونَ» المُخلَّدُونَ في الجنـة. والشُّحُّ في كلام العرب: البُخْلُ، ومَنْعُ الفضلِ من المال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين جاؤوا من بعد الذين تَبَوَّؤوا الدارَ والإيمان من قبل المهاجرين الأوّلينَ «يَقولُـونَ رَبَّنا اغْفِر لَنا ولإِخْوَانِنا الَّذين سَبَقُونا بالإيمَان» مِنَ الأَنْصَار. وعني بالذين جاؤوا من بَعْدِهم المهاجرونَ أنهم يستغفرونَ لإخوانِهم من الأَنصارِ.

وقوله: «وَلا تَجْعَلْ في قُلُوبِنا غِلًّا للَّذينَ آمَنُوا»، يعني: غمراً وضِغْناً، وقيل: عَنَى بالذين جاؤوا من بعدهم: الذين أسلموا من بعدِ الذين تَبَوَّؤوا الدارَ.

وقوله: «للَّذينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤوفٌ رَحيمٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: مخبراً عن قِيل الذين جاؤوا من بعدِ الذين تبوّؤوا الدارَ والايمانَ أنهم قالوا: لاتجعلْ في قلوبنا غِلًّا لأحدٍ من أهل الايمانِ بكَ ياربنا.

وقوله: «إِنَّكَ رَؤوفٌ رَحيمٌ»، يقول: إنك ذُو رأفةٍ بخلقك، وذُو رحمةٍ بمن تابَ واستغفرَ من ذنوبه.

---

(١) حديث أبي هريرة في الصحيحين بتفصيل أكثر: البخاري (٤٨٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤).

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تَنْظُرْ بعينِ قلبكَ يامحمدُ، فترى الى الـذين نافقوا وهم فيما ذُكِرَ عبدُالله بن أُبيّ بن سلول، ووديعة، ومالك ابنا نوفل وسُوَيد وداعس بَعَثوا الى بني النضير حين نزلَ بهم رسولُ الله ﷺ للحربِ أن اثْبُتوا وتَمَنَّعُوا، فإنّا لن نُسْلِمَكُمْ، وإنْ قُوتِلْتُمْ قاتلنا معكم، وإنْ خرجتم، خرجنا معكم فتربصوا لذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقَذَفَ اللهُ في قلوبهم الرعبَ، فسألوا رسولَ الله ﷺ أنْ يُجْليهم، ويكفَّ عن دمائِهم على أنَّ لهم ماحملتِ الإبلُ من اموالهم إلا الحَلْقَة[1].

وقوله: «يَقُولُون لإِخْوَانِهِمُ الَّذينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الكتابِ»، يعني: بني النضير.

وقوله: «لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنخْرُجَنَّ مَعَكُمْ»، يقولُ: لئن أُخرجتم من ديارِكم ومنازلكم، وأُجْليتم عنها لنخرجَنَّ معكم، فَنُجلي عن منازلنا وديارنا معكم.

وقـولـه: «وَلا نُطيعُ فِيكُمْ أحَـداً أبَـداً»، يقـولُ: ولا نطيع أحداً سألنا خِذْلانَكُمْ، وتَـرْكَ نُصْـرَتِكُمْ، ولكنـا نكونُ معكم «وَلَئِنْ قُوتِلْتُم لَنَنصرَنَّكمْ»، يقولُ: وإن قاتلكم محمدٌ ـ ﷺ ـ ومَنْ معه لَنَنْصُرَنَّكُمْ معشر النضيرِ عليهم.

وقوله: «وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ»، يقول: والله يشهدُ إنَّ هؤلاء المنافقين الذين وَعَدُوا بني النضير النصرةَ على محمدٍ ﷺ «لَكاذِبُون» في وَعْدِهم إياهم

---

(١) الحلقة: السلاح عامة، أو الدرع خاصة.

ماوَعَدُوهم من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لئن أُخرج بنو النضيرِ من ديارهم، فأُجْلَوْا عنها لايخرج معهم المنافقونَ الذين وَعَدُوهم الخروجَ من ديارهم، ولئن قاتلهم محمدٌ ﷺ لاينصرهم المنافقونَ الذين وعدوهم النصرَ، ولئن نَصَرَ المنافقونَ بني النضيرِ ليولُّنَّ الأَدبارَ منهزمينَ عن محمدٍ ﷺ وأصحابه هاربينَ منهم، قد خذلوهم «ثُم لايُنْصَرُونَ»، يقولُ: ثم لاينصرُ اللهُ بني النضير على محمدٍ ﷺ وأصحابه، بل يخذلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به من أصحابِ رسولِ الله ﷺ: لأَنْتُمْ أيها المؤمنـونَ أشـدُّ رهبةً في صدورِ اليهودِ من بني النضير من الله: يقولُ: هُمْ يَرْهَبُونَهم أشدَّ من رهبتهم من الله «ذَلك بأنَّهُمْ قَوْمٌ لايَفْقَهُونَ» يقول تعالى ذِكْرُه: هذه الرهبةُ التي لكم في صدورِ هؤلاء اليهودِ التي هي أشدُّ من رهبتهم من الله من أجلِ أنهم قومٌ لايفقهون قَدْرَ عظمةِ الله، فهم لذلك يستخفون بمعاصيه، ولايرهبون عقابه قَدْرَ رهبتِه منكم.

وقـولـه: «لايُقـاتِلُونَكمْ جَميعاً إلاّ في قُرىً مُحصَّنَة»، يقول جَلَّ ثناؤه: لايقاتلكم هؤلاء اليهود بني النضير مجتمعين إلا في قرى محصنة بالحصونِ، لايبرزونَ لكم بالبرازِ، «أو مِن وَرَاء جُدُرٍ» يقولُ: أو من خَلْفِ حيطان.

وقوله: «بأسهُم بينهم شديدٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: عداوةُ بعض هؤلاء الكفار من اليهـود بعضاً شديدٌ «تَحْسَبُهُم جَمِيعاً»، يعني: المنافقين وأهل الكتاب، يقـولُ: تَظُنُّهُمْ مُؤْتَلفين مجتمعةً كلمتهم، «وَقُلُوبُهمْ شَتَّى»، يقولُ: وقلوبهم مختلفة لمعاداةِ بعضهم بعضاً.

وقوله: «ذَلَك بأنَّهُمْ قَوْمٌ لايَعْقِلُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: هذا الذي وصفتُ لكم من أمر هؤلاء اليهود والمنافقين، وذلك تشتيت أهوائهم، ومعاداةُ بعضهم بعضاً من أجل أنهم قومٌ لايعقلون مافيه الحظ لهم مما فيه عليهم البخسُ والنقص.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًاۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَثل هؤلاء اليهود من بني النضير والمنافقين فيما الله صانعٌ بهم من إحلالِ عقوبتهِ بهم «كمَثَل الذِّينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» يقولُ: كَشبهِهِمْ

واختلف أهلُ التأويل في الذين عُنُوا بالذين من قَبْلِهم، فقال بعضهم: عُني بذلك بنو قينقاع.

وقال آخرون: عني بذلك مشركو قريش ببدر.

وأولى الاقوال بالصواب أنْ يقالَ إن الله عَزَّ وجَلَّ مَثل هؤلاء الكفار من

أهل الكتاب مما هو مُذِيقُهُمْ من نكالِهِ بالذين من قبلهم من مكذبي رسولِهِ ﷺ الذين أهلكهم بِسَخَطِهِ وأمرُ بني قينُقاع ووقعة بدر كانا قبل جلاء بني النَضير وكل أولئك قد ذاقوا وبالَ أمرهم ولم يخصص الله عَزَّ وجَلَّ منهم بعضاً في تمثيل هؤلاء بهم دونَ بعضٍ، وكُلٌّ ذائقٌ وبالَ أمرِهِ فَمَنْ قَرُبَتْ مُدَّتُهُ منهم قبلهم، فهم ممثلونَ بهم فيما عُنُوا به من المثلِ.

وقوله: «ذاقوا وَبالَ أمْرِهِمْ» يقولُ: نالهم عقابُ الله على كُفْرِهم به.

وقوله: «وَلهم عَذَاب أليم»، يقول: ولهم في الآخرة مع مانالهم في الدنيا من الخزي عذابٌ اليمٌ يعني: مُوجِعٌ.

وقـولـه: «كَمَثَلِ الشَّيطان إذ قالَ للإنْسانِ اكْفُرْ، فلَمّا كَفَرَ قال إنّي بَرِيَءٌ مِنْكَ إنّي أخافُ الله رَبَّ العَالمين»، يقول تعالى ذِكْرُه: مَثَلُ هؤلاء المنافقين الذين وَعَـدُوا اليهـود من النضيرِ النُّصْرَةَ، إنْ قُوتِلُوا، أو الخروج معهم إنْ أخرجوا، ومثل النضير في غرورهم إياهم بإخلافِهم الوعدَ، وإسلامِهِمْ إياهم عند شِدَّةِ حاجتِهم اليهم، وإلى نُصـرتِهم إياهم، كمثل الشَّيطان الذي غَرَّ إنْساناً، ووعدهُ على اتباعِهِ وكُفْرِهِ بالله، النصرة عند الحاجة اليه، فكفر بالله واتَّبَعَهُ وأطاعَهُ، فلما احتاج الى نُصْرَتِهِ أسْلَمَهُ وتبرأ منه، وقال له: «إني أخافُ الله ربَّ العالمين» في نُصرتك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فكان عُقبى أمر الشيطانِ والانسان الذي أطاعَهُ، فكفرَ باللهِ أنَّهُمَا خالدانِ في النار ماكثانِ فيها أبداً «وذلك جَزاءُ الظَّالمين»، يقولُ:

وذلك ثوابُ اليهود من النضيرِ والمنافقين الذين وعدوهم النصرةَ، وكل كافرٍ بالله ظالم لنفسهِ على كفرهِ بهِ أنهم في النارِ مُخَلَّدون.

وقولـه: «يا أيُّها الذين آمنوا اتقوا الله» يقول تعالى ذِكْرُه: ياأيها الذين صَدَّقُوا الله ووحَّدُوهُ، اتقوا الله بأداءِ فرائضهِ، واجتناب معاصيه.

وقوله: «وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ماقَدَّمَتْ لِغَدٍ»، يقولُ: ولينظُرْ احدكم ماقَدَّمَ ليومِ القيامةِ من الأَعمال، أَمِنَ الصالحاتِ التي تُنْجيه أم من السيئاتِ التي تُوبِقُهُ؟

وقوله: «وَاتَّقوا الله»، يقول: وخافوا الله بأداءِ فرائضه، واجتناب معاصيه «إنَّ الله خَبير بما تَعْمَلُونَ»، يقولُ: إنّ الله ذُو خبرةٍ وعلمٍ بأعمالكم خيرها وشَرِّها، لايَخْفَى عليه منها شيءٌ، وهو مجازيكم على جميعها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولاتكونوا كالذين تركوا أداءَ حَقِّ الله الذي أوجبه عليهم «فأنْساهُمْ أنفُسَهمْ» يقول: فأنساهم الله حظوظَ أنفسهم من الخيرات.

وقوله: «أولَئكَ هُمُ الفاسقون»، يقول جَلَّ ثناؤه: هؤلاء الذين نَسُوا الله، هم الفاسقونَ، يعني: الخارجون من طاعة الله الى معصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: لايعتدل أهلُ النار وأهل الجنة، أهل الجنة هم الفائزون، يعني أنهم المُدرِكون ماطلبوا وأرادوا، الناجـون مما حذروا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

وقوله: «لَوْ أَنْزَلْنا هَذا القُرآن عَلى جَبَلٍ لرأيْتَهُ خاشعاً مُتَصدّعاً مِن خَشْيَةِ الله»، يقول جَلَّ ثناؤه: لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ، وهو حَجَرٌ، لرأيته يا محمدُ «خاشِعاً»، يقولُ: متذللاً، «متصدّعاً من خشيةِ الله» على قَساوتِهِ، حذراً مِنْ أنْ لايؤدّي حَقَّ الله المُفْتَرَضَ عليهِ في تعظيمِ القرآن، وقد أنزل على ابن آدم وهو بحقِّه مُسْتَخِفٌّ، وعنه عَمَّا فيه من العِبَرِ والذِّكْرِ مُعْرِضٌ، كأنْ لم يسمعها، كأنَّ في أذنيه وَقْراً.

«وَتِلكَ الأَمْثال نَضْربُها للنَّاسِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وهذه الأشياء نُشَبِّهُهَا للناسِ، وذلك تعريفُه جَلَّ ثَناؤُهُ إياهم أنَّ الجبالَ أشد تعظيماً لحقِّه منهم مع قساوتها وصلابتها.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون»، يقولُ: يضربُ الله لهم هذه الأَمثالَ ليتفكَّروا فيها، فَيُنِيبُوا، وَينْقَادُوا للحق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذي يتصدعُ من خشيتهِ الجبلُ أيها الناسُ، هو المعبودُ الذي لاتنبغي العبادةُ والالوهية إلَّا له، عالمُ غيبِ السمواتِ والأرض، وشاهد مافيهما مما يُرَى ويُحَسُّ «هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ»، يقولُ: هو رحمنُ الدُّنيا والآخرة، رحيم بأهلِ الايمان به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هو المعبودُ الذي لاتصلحُ العبادةُ الا له، الملكُ الذي لاملكَ فوقَهُ، ولاشيءَ إلا دونَهُ، «القدّوس»، قيل: هو المُبَارَكُ.

وقوله: «السَّلام»، يقولُ: هو الذي يَسْلَمُ خَلْقُه من ظُلْمِه، وهو اسمٌ من أسمائه.

وقوله: «المؤمنُ» يعني بالمؤمن: الذي يُؤَمِّنُ خَلْقَه من ظُلْمه.

وقوله: «المُهَيْمِنُ» فقد بينتُ أولى الأقوال فيه بالصواب في سورة المائدة[1].

وقوله: «العَزيزُ»: الشديدُ في انتقامهِ ممن انتقم من أعدائهِ.

وقوله: «الجَبَّار»، يعني: المُصْلِحُ أمورَ خَلْقِه، المُصَرِّفُهُمْ فيما فيه صَلاحُهُمْ، وكان قتادة يقول: جَبَرَ خَلْقَهُ على مايشاء من أمره.

وقوله: «المُتَكَبِّرُ»، قيل: عُنِي به أنه تكبر عن كلِّ شَرٍّ.

«سُبْحانَ الله عَمَّا يُشْرِكُون»، يقولُ: تنزيهاً لله وتبرئةً له عن شِرْكِ المشركين به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

---

(١) انظر تفسير الاية ٤٨ من سورة المائدة.

الحشـر: ٢٤

يقول تعالى ذِكْرُه: هو المعبودُ الخالقُ، الذي لامعبودَ تَصْلُحُ له العبادةُ غيره، ولا خالق سِواهُ «البارىءُ» الذي برأ الخلق، فأوجدهم بقدرته، «المصوِّرُ» خَلْقَهُ كيف شاءَ، وكيفَ يشاء.

وقوله: «لَهُ الأَسْماء الحُسْنَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: لله الأَسماءُ الحسنى، وهي هذه الاسماءُ التي سَمَّى الله بها نفسه، التي ذكرها في هاتين الآيتين «يُسَبِّحُ لَهُ مافي السَّموَاتِ والأَرْضِ»، يقولُ: يسبحُ له جميع ما في السمواتِ والارض، ويسجدُ له طوعاً وكرهاً «وَهُو العَزِيزُ» يقولُ: وهو الشديدُ الانتقام من أعدائهِ «الْحَكِيم» في تدبيرِه خَلْقَهُ، وصَرْفِهم فيما فيه صَلاَحُهم.

سُورَةُ المُمْتَحَنَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به من أصحاب رسول الله ﷺ: «يا أيها الذين آمنوا لاتتَّخِذوا عَدُوِّي» من المشركينَ «وَعَدُوَّكُم أوْلِياء»، يعني: أنصاراً.

وقوله: «تُلْقُون إليهم بالمَوَدَّةِ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: تلقون اليهم مودَّتكم إياهم، ودخول الباء في قوله: «بالمَوَدَّةِ» وسقوطها سواء، نظير قول القائل: أريد بأن تذهب، وأريد أن تذهب سواء، وكقوله: «وَمَنْ يُرِدْ فِيه بإلحادٍ بظلمٍ» والمعنى: وَمَنْ يُرِدْ فيه الحاداً بظلم.

«وقد كَفَرُوا بما جاءكُم من الحقِّ»، يقولُ: وقد كفر هؤلاء المشركون الذين نهيتكم أنْ تَتَّخِذُوهم أولياء بما جاءكم من عند الله من الحق، وذلك كفرهم بالله ورسوله وكتابه الذي انزله على رسوله.

وقوله: «يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وإيَّاكُم أنْ تُؤمِنُوا بالله رَبِّكُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه:

يخرجون رسول الله ﷺ وإيَّاكُمْ، بمعنى: ويُخْرِجونَكُمْ أيضاً من دياركم وأرضكم، وذلك إخراج مشركي قريشٍ رسولَ الله ﷺ وأصحابه من مكة.

وقوله: «أنْ تُؤْمِنُوا بالله رَبِّكُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: يُخرجونَ الرسولَ وإياكم من ديارِكم، لأَنْ آمنتم بالله.

وقوله: «إنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً في سَبِيلي وابْتِغاءَ مَرْضَاتِي» من المُؤَخَّرِ الذي معناهُ التقديمُ، ووجهُ الكلام: ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوّي وعدوَّكُمْ أولياءَ تُلْقُونَ اليهم بالمودّةِ وقد كفروا بما جاءكم من الحق إنْ كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي، وابتغاء مرضاتي «يُخرجون الرسول وإياكم أنْ تُؤمنوا بالله رَبِّكم».

ويعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «إنْ كُنْتُمْ خرجتم جهاداً في سَبِيلي»: إنْ كنتم خرجتم من دياركم، فهاجرتم منها الى مهاجركم للجهادِ في طريقي الذي شرعتُه لكم، وديني الذي أمرتُكم به والتماس مَرْضاتي.

وقوله: «تُسِرونَ إلَيْهم بالمَوَدَّةِ» يقول تعالى ذِكْرُه: للمؤمنينَ من أصحاب رسول الله ﷺ: تُسِرُّونَ أيها المؤمنون بالمَوَدة الى المشركين بالله «وأنا أعْلَمُ بِمَا أخْفَيْتُمْ»، يقولُ: وأنا أعلم منكم بما أخفي بعضكم من بعض، فأسَرَّهُ منه «وما أعلَنْتُمْ»، يقولُ: وأعلم أيضاً منكم ماأعلنه بعضُكم لبعضٍ «وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواء السَّبيل»، يقول جَلَّ ثناؤُه: وَمَنْ يُسِرُّ منكم الى المشركين بالمودةِ أيها المؤمنون «فقد ضَلَّ» يقولُ. فقد جار عن قَصْدِ السبيلِ التي جعلها الله طريقاً الى الجنة ومحجةً إليها.

وذُكر أنَّ هذه الآيات من أوَّلِ هذه السورةِ نزلتْ في شأن حاطب بن أبي بَلتعة، وكان كتب الى قُريشٍ بمكة يُطْلِعُهم على أمرٍ كان رسولُ الله ﷺ قد أخفاه عنهم.

عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزُّبير بن العوام

والمِقْداد، فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[١]، فإنَّ بها ظعينةً معها كتابٌ، فخذوه منها، فانطلقنا تَعادَى[٢] بنا خيلُنا حتى انتهينا الى الرَّوضة، فوجدنا امرأةً، فقلنا: أخرجي الكتابَ، قالت: ليس معي كتابٌ، قلنا لَتُخْرِجِنَّ الكتابَ، أو لَنُلْقِيَنَّ الثيابَ، فأخرجتهُ من عِقاصها[٣]، وأخذنا الكتابَ، فانطلقنا به الى رسول الله ﷺ، فإذا فيه: مِنْ حاطب بن أبي بلتعة الى ناسٍ بمكة، يخبرهم ببعض أمرِ رسول الله ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: يا حاطِبُ ما هَذَا؟ قال: يارسول الله لاتَعْجَلْ عليَّ! كنتُ امرأً مُلْصَقاً في قريش[٤]، ولم يكن لي فيهم قرابةٌ، وكان مَنْ معكَ من المهاجرين لهم قراباتٌ، يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النَّسب أنْ أتَّخِذَ فيها يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلتُ ذلك كُفْراً ولا ارتـداداً عن ديني، ولا رضـا بالكُفرِ بعد الاسلام، فقال رسولُ الله ﷺ: قَدْ صَدَقَكُمْ، فقال عمر: يارسول الله دعني أضربْ عُنُقَ هذا المنافق، فقال: «إنَّه قَدْ شَهِـدَ بَدْراً، وَما يُدْريكَ لَعَلَّ الله قَدَ اطلَعَ على أهْلِ بَدْرٍ فقال: اعْمَلُوا ما شِئْتُم فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُم».

ونَزلت فيه: «يا أيها الذين آمنوا لاتَتَّخِذوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُم أولِياءَ»... إلى قوله: «حتّى تُؤْمِنوا بالله وَحْدَهُ»[٥].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ

---

(١) موضع بين مكة والمدينة، بقرب المدينة.

(٢) في المطبوع «تتعادى» وما أثبتناه من الصحيحين، وهو الصواب، وتعادى: تجري.

(٣) عقاصها: شعرها المضفور، جمع عقيصة.

(٤) إذ كان حليفاً لهم، ولم يكن من انفسهم.

(٥) الحديث في الصحيحين: البخاري ٣٠٠٧) و (٣٠٨١) و (٣٩٨٣) و (٤٢٧٤) و ٤٨٩٠) و (٦٢٥٩) و)٦٩٣٩)، ومسلم (٢٤٩٤).

إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ
أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣

يقول تعالى ذِكْرُه: إنْ يَثْقَفُكُمْ هؤلاء الذين تُسِرُّونَ أيها المؤمنونَ إليهم بالمودّةِ، يكونوا لكم حرباً وأعداء «وَيَبْسُطُوا إلَيْكُمْ أيْدِيَهُمْ» بالقتال «وألْسِنَتَهُمْ بالسوُّء».

وقوله: «وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ»، يقولُ: وتَمَنَّوا لكم أنْ تَكْفُروا بربِّكم، فتكونُوا على مِثْلِ الذي هم عليه.

وقوله: «لَنْ تَنْفَعَكُم أرْحامُكُم وَلا أوْلادُكُمْ يَوْمَ القيامَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لايدعونكم أرحامكم وقراباتكم وأولادكم الى الكفر بالله، واتخاذ اعدائه أولياءَ تُلْقُونَ إليهم بالمودةِ، فإنه لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم عند الله يومَ القيامة، فتدفع عنكم عذابَ الله يومئذٍ، إنْ أنتم عَصَيْتُمُوه في الدنيا، وكفرتم به.

وقوله: «يَفْصل بَيْنكم» يقول جَلَّ ثناؤه: يفصل رَبُّكم أيها المؤمنونَ بينكم يومَ القيامة بأنْ يُدْخِلَ أهلَ طاعتِه الجنة، وأهل معاصيه والكفر به النار.

وقوله: «والله بما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: والله بأعمالكم أيها النـاسُ ذُو علمٍ وبَصَرٍ، لايَخْفَى عليه منها شيءٌ، هو بجميعها مُحيط، وهو مُجازيكم بها إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشرّ، فاتقوا الله في أنفُسِكم واحْذَرُوه.

القَـوْلُ في تَأْويلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا

﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به من أصحاب رسولِ الله ﷺ, قد كانَ لكم أيها المؤمنونَ «أسوةٌ حسنةٌ» يقولُ: قدوة حسنةٌ في ابراهيم خليل الرحمن، تقتدونَ به، «والذين معه» من أنبياء الله.

وقوله: «إذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إنَّا بُرآءُ مِنكُمْ وَمِماً تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله»، يقول: حين قالوا لقومهم الذين كفروا بالله، وعبدوا الطاغوت: أيها القومُ إنَّا بُرَآءُ منكم، ومِنْ الذين تعبدون من دونِ الله من الالهة والانداد.

وقوله: «كَفرنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْننا وَبَيْنَكم العَدَاوَةُ وَالبَغْضاءُ أَبداً حتى تؤمِنوا باللهِ وَحْدَهُ»، يقول جَلَّ ثناؤه مخبراً عن قِيل أنبيائه لقومهم الكفرة: «كفرنا بكم»، أنْكَرْنَا ماكنتم عليه من الكفرِ باللهِ وجَحَدْنا عبادَتَكُمْ ما تعبدون من دون الله أنْ تكون حقاً، وظهرَ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً على كفركم بالله، وعبادتكم ماسواه، ولاصُلْحَ بيننا ولا هوادةَ، «حتى تؤمنوا بالله وحده» يقول: حتى تُصَدِّقُوا بالله وحده، فتوحِّدُوهُ، وتُفْرِدُوْهُ بالعبادة.

وقوله: «إلاّ قَوْلَ إبْراهِيم لأَبِيه لأَسْتَغْفِرنَّ لك، ومَا أمْلِكُ لكَ مِنَ الله من شَيْء»، يقول تعالى ذِكْرُه: قد كانت لكم أسوة حسنةٌ في إبراهيم والذين معه في هذه الأمور التي ذكرناها من مباينة الكفارِ ومعادَاتِهم، وترك موالاتهم الا في قول إبراهيم لأبيه «لأَستغفرنَّ لك» فإنه لاأسوةَ لكم فيه في ذلك، لأنَّ ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن مَوْعدةٍ وعَدَها إياه قبل أنْ يتبينَ له أنه عدوٌّ الله، «فلما تَبيَّنَ له أنه عدوٌّ لله تبرأ منه»، يقول تعالى ذِكْرُه: فكذلك أنتم أيها المؤمنونَ بالله، فتبرَّؤوا من أعداءِ الله من المشركينَ به ولا تتَّخِذُوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله

وَحْدَهُ ويتبرّؤُوا عن عبادةِ ما سواه وأظْهِرُوا لهم العداوةَ والبغضاء.

ويعني بقوله: «وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيءٍ»، يقولُ: وما أدفع عنك من الله من عقوبة، إنِ الله عَاقَبَكَ على كُفْرِكَ به، ولا أُغْنِي عنك منه شيئاً.

وقولـه: «رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلنا»، يقول جَلَّ ثناؤه: مخبراً عن قيل إبراهيم وأنبيائه صلواتُ الله عليهم: «رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا، وإلَيْكَ أَنَبْنا»، يعني: وإليك رَجَعْنا بالتوبةِ مما تَكْرَهُ الى ماتُحِبُّ وتَرْضَى «وَإلَيْكَ المَصِيرُ»، يقول: وإليك مصيرُنا ومَرْجِعُنَا يومَ تَبْعَثُنَا من قبورنا، وتحشرنا في القيامةِ الى موقفِ العَرْض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه مخبـراً عن قيل إبراهيم خليله والذين معه: ياربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا بك فجحدوا وحدانيتك، وعبدوا غيرَك، بأنْ تُسَلِّطهم علينا، فيروا أنهم على حقّ، وأنّا على باطلٍ، فتجعلنا بذلك فتنة لهم.

وقوله: «وَاغْفِر لَنا رَبَّنا»، يقولُ: واسْتُرْ علينا ذنوبنا بعفوكَ لنا عنها يارَبَّنا، «إنَّـكَ أنْتَ العَـزيزُ الحكيمُ»، يعني: الشـديد الانتقـام ممن انتقم منـه، «الحكيم»، يقولُ: الحكيمُ في تدبيرهِ خَلْقَهُ، وصرفهُ إياهم فيما فيه صلاحُهم.

وقولـه: «لَقَـدْ كان لَكُمْ فِيهِمْ أُسْـوَةٌ حَسَنَـةٌ»، يقـول تعـالى ذِكْرُه: لقد كان لكم أيهـا المؤمنـون قدوةٌ حسنةٌ في الذين ذكرهم إبراهيمُ والذين معه من الأنبياء صلواتُ الله عليهم والرُّسُلِ «لِمَنْ كانَ يَرْجُو الله وَاليَوْمَ الآخِرَ»، يقولُ: لمن كان منكم يرجو لقاء الله، وثوابَ الله، والنجاة في اليومِ الآخر.

وقوله: «وَمَنْ يَتَوَل فإنَّ الله هُو الغَنِي الحَمِيدُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وَمْن يتولَّ عما أمَرَهُ الله به ونَدَبَهُ إليه منكم ومن غيركم، فأعرضَ عنه وأدبر مُستكبراً، ووالى أعـداء الله، والقى اليهم بالمودَّةِ، فإنَّ الله هو الغني عن إيمانِهِ به، وطاعته إياه، وعن جميعِ خَلْقِه، الحميد عند أهلِ المعرفةِ بأياديه، وآلائِه عندهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: عسىٰ الله أيها المؤمنونَ أنْ يجعلَ بينكم وبين الذين عاديتم من أعدائي من مشركي قريش مودَّةً، ففعلَ الله ذلك بهم، بأنْ أسلمَ كثيرٌ منهم، فصاروا لهم أولياء وأحزاباً.

وقوله: «والله قَديرٌ» يقولُ: والله ذُو قدرةٍ على أنْ يجعلَ بينكم وبين الذين عاديتم من المشركين مودة «والله غَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقولُ: والله غفور لخطيئة مَنْ ألقى الى المشركين بالمودة إذا تابَ منها، رحيمٌ بهم أنْ يُعذِّبَهمْ بعد توبتِهم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «لاَيَنْهاكم الله عَن الَّذينَ لَمْ يُقاتِلوكُمْ في الدّينِ» من أهـلِ مكة «ولم يُخْرِجُوكُمْ مِن دِيارِكُمْ أنْ تبرُّوهُمْ، وتقْسِطُوا إلَيْهِمْ»، يقولُ: وتَعْدِلُوا فيهم بإحسانِكم إليهم، وبِرِّكُمْ بهم.

واختلف أهلُ التأويل في الذين عُنوا بهذه الآية، فقال بعضهم: عُني بها: الذين كانوا آمنوا بمكة ولم يهاجروا، فأذِنَ الله للمؤمنين ببرِّهم والإحسانِ إليهم.

وقال آخرون: عُنِي بها من غير أهلِ مكة مَنْ لم يهاجر.

وقال آخرون: بل عُنِي بها من مشركي مكة مَنْ لم يقاتل المؤمنين، ولم يخرجوهم من ديارهم، قال: ونسخَ الله ذلك بعدُ بالأمرِ بقتالهم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: عُنِي بذلك: لاينهاكُمُ الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، من جميعِ أصنافِ المللِ والأديانِ أن تَبَرُّوهم وتَصِلُوهُمْ، وتُقْسِطُوا إليهم، أنْ الله عَزَّ وجَلَّ عَمَّ بقوله: «الَّذِينَ لَمْ يُقاتلوكُمْ في الدين، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ» جميعَ مَنْ كان ذلك صِفَتُه، فلم يخصِّص بْه بعضاً دونَ بعضٍ، ولا معنى لقولِ مَنْ قال: ذلك منسوخٌ، لأنَّ برَّ المؤمنِ من أهلِ الحربِ ممن بينه وبينه قرابةُ نَسَبٍ، أو ممن لاقرابةَ بينه وبينه ولا نسب غير محرّم ولا منهيٌّ عنه اذا لم يكن في ذلك دلالة له، أو لأهلِ الحربِ على عورةٍ لأهلِ الاسلام، أو تقوية لهم بكُراعٍ أو سلاحٍ.

وقوله: «إنّ الله يحبُّ المُقْسِطين»، يقولُ: إنَّ الله يحبُّ المنصفينَ الذين يُنْصِفُونَ الناسَ، ويُعْطُونهم الحقَّ والعدلَ من أنفسهم، فيبرّون مَنْ برّهم، ويُحْسنون الى مَنْ أحسنَ إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّما يَنْهاكُمُ الله» أيها المؤمنون «عَن الذِّين قَاتَلُوكم

في الـدِّين» من كفـارِ أهـل مكـة «وأخـرَجُـوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ، وَظـاهَرُوا على إخْرَاجِكُمْ، أنْ تَوَلَّوْهُمْ»، يقولُ: وعاونوا مَنْ أخرجكم من دياركم على إخراجِكم أنْ تولـوهم، فتكونوا لهم أولياءَ ونُصَراءَ «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ»، يقولُ: ومَنْ يجعلهم منكم أو من غيركم أولياء «فأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»، يقولُ: فأولئكَ هم الذين تولوا غيرَ الذي يجوزُ لهم أنْ يَتولَّوهُمْ، ووضعوا ولايتهم في غيرِ موضعها، وخالفوا أمرَ الله في ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنين من أصحاب رسولِ الله ﷺ: «يا أيها الَّذين آمَنُوا إذَا جاءَكُمْ» النساءُ «المُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ» من دار الكفرِ الى دارِ الإسلام «فامْتَحِنُوهُن».

عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان المؤمنات إذا هاجرنَ الى رسولِ الله ﷺ يُمْتَحَنَّ بقولِ الله: «ياأيُّها النَّبِيُّ إذا جاءَكَ المُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ». . . إلى آخر الآية، قالت عائشةُ: فَمَنْ أقَرَّ بهذا من المؤمناتِ، فقد أقَرَّ بالمحبةِ، فكان رسولُ الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهنَّ قال لَهُنَّ: انطلقن فقد بايعتكُنَّ، ولا والله مامَسَّتْ يَدُ رسولِ الله ﷺ يدَ امرأةٍ قطّ، غير أنه بايعهنَّ بالكلام، قالت عائشة: والله ما أخذ رسول الله ﷺ على النساء قطّ، إلا بما أمره الله عَزَّ وجَلَّ، وكان يقول لَهُنَّ إذا أخذَ عليهن قد بايعتكُنَّ كلاماً[1].

(١) حديث صحيح: أخرجه من حديث الزهري، عن عروة، عن عائشة.

وقوله: «اللهُ أعْلَمُ بإيمانِهِنّ»، يقولُ: الله أعلمُ بإيمانِ مَنْ جاء من النساء مهاجراتٍ إليكم.

وقوله: «فإنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إلى الكُفَّارِ»، يقولُ: فإنْ أَقْرَرْنَ عند المحنةِ بما يصحُّ به عَقْدُ الإيمان لهنَّ، والدخول في الإسلام، فلا تَرُدُّهُنَّ عند ذلكَ الى الكفارِ، وإنما قيل ذلك للمؤمنين، لأنَّ العهدَ كان جرى بين رسولِ الله ﷺ وبين مشركي قريشٍ في صلح الحديبية أنْ يردَّ المسلمون الى المشركينَ مَنْ جاءهم مسلماً، فابطل ذلك الشرط في النساء إذا جئن مؤمنات مهاجرات فامتحن، فوجدهنَّ المسلمونَ مؤمناتٍ، وصَحَّ ذلك عندهم مما قد ذكرنا قَبْلُ، وأمروا أن لايردُّوهنَّ الى المشركين إذا علم أنهن مؤمنات، وقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ لهم: «فَإنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنات فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إلى الكُفَّارِ، لاهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ»، يقولُ: لا المؤمنات حِلٌّ للكفار ولا الكفار يحلون للمؤمنات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

وقوله: «وآتُوهُمْ ما أنْفَقُوا»، يقولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وأعطوا المشركين الذين جاءكم نساؤُهم مؤمناتٍ إذا علمتموهن مؤمناتٍ، فلم ترجعوهن إليهم ماأنفقوا في نكاحِهم إياهن من الصَّدَاقِ.

وقوله: «وَلا جُناح عَلَيْكُمْ أنْ تَنْكِحُوهُنَّ إذا آتَيْتُمُوهُنَّ أجُورَهُنَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولا حَرَجَ عليكم أيها المؤمنون ان تنكحوا هؤلاء المهاجراتِ اللاتي لَحِقْنَ بكم من دارِ الحربِ مفارقاتٍ لأزواجهنَّ، وإنْ كان لهن أزواج في دارِ

الحرب إذ علمتموهُنَّ مؤمناتٍ إذ أنتم أعطيتموهُنَّ أجورَهُنَّ، ويعني بالأجور: الصَّدُقات: وكان قتادة يقول: كُنَّ إذا فَرَرْنَ من المشركين الذين بينهم وبين نبيِّ الله ﷺ وأصحابهِ عهدٌ إلى أصحاب نبيِّ الله ﷺ فتزوَّجُوهُنَّ، بعثوا بمهورهنَّ الى أزواجِهِنَّ من المشركين الذين بينهم وبين أصحاب نبي الله ﷺ عَهْدٌ.

وقولـه: «وَلا تُمْسِكُوا بعصَمِ الكَوَافِر»، يقول جَلَّ ثناؤه: للمؤمنين به من أصحاب رسولِ الله ﷺ: لاتُمْسِكُوا أيها المؤمنون بحبال النساء الكوافر وأسبابهن، والكوافر: جمع كافرة، والعصم جمع عصمة، وهي ما اعتصم به من العقدِ والسبب وهذا نهيٌ من الله للمؤمنين عن الإقدام على نكاح النساء المشركاتِ من أهل الأوثان، وأمرٌ لهم بفراقهنَّ.

وقوله: «وَاسْألُوا ما أنْفَقْتُمْ وَليسألوا ما أنفقُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: لأزواج اللواتي لَحِقْنَ من المؤمنين من دار الإسلام بالمشركين الى مكة من كفار قريش: واسألوا أيها المؤمنون الذين ذهبتْ أزواجُهم فلحقن بالمشركينَ ماأنفقتم على أزواجكم اللواتي لحقن بهم من الصَّدَاقِ مَنْ تَزَوَّجَهُنَّ منهم، وليسألكم المشركون منهم الذين لحق بكم أزواجُهم مؤمناتٍ إذا تزوَّجْنَ فيكم مَنْ تزوَّجَها منكم ما أنفقوا عليهنَّ من الصداق.

وقوله: «ذَلِكُم حُكْم الله يَحْكُمُ بَيْنكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الحكم الذي حكمتُ بينكم من أمركم أيها المؤمنون بمسالة المشركين، ما أنفقتم على أزواجكم اللاتي لَحِقْنَ بهم وأمرهم بمسألتكم مثلَ ذلك في أزواجهنَّ اللاتي لحقن بكم، حكمُ الله بينكم فلا تعتدوه، فإنه الحق الذي لايسمعُ غيره، فانتهى المؤمنون من أصحاب رسول الله ﷺ فيما ذُكِرَ الى أمرِ الله وحُكْمِه، وامتنع المشركونَ منه وطلبوا الوفاء بالشروطِ التي كانوا شَارَطُوها بينهم في ذلك الصلح.

وقوله: «واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: واللهُ ذُو علمٍ بما يُصْلِحُ خَلْقَهُ وغير ذلك من الأمورِ، حكيمٌ في تدبيره إياهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

يقول جَلَّ ثناؤه للمؤمنين من أصحاب رسولِ الله ﷺ: «وَإِنْ فَاتَكُم» أيها المؤمنونَ «شيء مِن أزْوَاجِكم إلى الكُفار» فلحقَ بهم.

واختلفَ أهلُ التأويل في الكفار الذين عُنُوا بقوله: «إلى الكُفَّار» مَنْ هم؟ فقال بعضهم: هم الكفار الذين لم يكن بينهم وبين رسولِ الله ﷺ عهدٌ، قالوا: ومعنى الكلام: وإنْ فاتكم شيءٌ من أزواجكم، إلى مَنْ ليس بينكم وبينهم عهدٌ من الكفار.

وقال آخرون: بل هم كفارُ قريشٍ الذين كانوا أهلَ هدنةٍ.

وقوله: «فآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ ما أنْفَقُوا»، يقولُ: فأعطوا الذين ذَهَبَتْ أزواجُهم منكم الى الكفارِ مثلَ ماأنفقوا عليهن من الصَّدَاقِ.

واختلف أهل التأويل في المال الذي أُمِرَ أن يُعْطَى منه الذي ذهبت زوجتهُ الى المشركين، فقال بعضهم: أمِرُوا أن يُعطوهم صداقَ مَنْ لَحِقَ بهم من نساءِ المشركين.

وقال آخرون: بل أُمروا أنْ يعطوه من الغنيمة أو الفيء.

وأولى الاقوال في ذلك بالصواب أن يقالَ: أمر الله عَزَّ وجلّ في هذه الآية المؤمنين أنْ يعطوا مَنْ فَرَّتْ زوجتُه من المؤمنين الى أهلِ الكفرِ إذا هم كانت

لهم على أهل الكفر عُقْبى، إما بغنيمةٍ يُصيبُونَها منهم، أو بلحاقِ نساءِ بعضِهم بهم، مثل الذي انفقوا على الفارَّةِ منهم إليهم، ولم يخصص إيتاءهم ذلك من مالٍ دونَ مالٍ، فعليهم أنْ يُعطوهم ذلك من كلِّ الأموالِ التي ذكرناها.

وقوله: «وَاتَّقُوا اللهَ الذي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ»، يقولُ: وخافوا الله الذي انتم به مُصَدِّقُونَ أيها المؤمنون فاتقوهُ بأداءِ فرائضه، واجتناب معاصيه.

القَولُ فِي تأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «ياأيُّها النَّبيُّ إذا جاءَكَ المُؤْمِناتُ» بالله «يُبايِعْنَكَ على أنْ لايُشرِكْنَ بالله شيئاً، ولاَ يَسْرِقْنَ، وَلا يَزْنِينَ، وَلا يَقتُلْنَ أولادَهُنَّ وَلا يأْتِين بِبُهْتان يَفْتَرِينه بَينَ أَيْديهن وأرْجُلهِنَّ»، يقولُ: ولا يأتين بكذب يَكْذِبْنَهُ في مولودٍ يُوجَدُ بين أيديهنَّ وأرجلهِنَّ، وإنما معنى الكلام: ولا يُلْحِقْنَ بأزواجِهنَّ غيرَ أولادِهم.

وقوله: «وَلا يَعْصِينَك في مَعروفٍ»، يقولُ: ولايعصينكَ يامحمد في معروف من أمر الله عزَّ وجلَّ تأمرهُنَّ به، وذُكِرَ أَنَّ ذلك المعروفَ الذي شَرَطَ عليهن أنْ لايعصينَ رسولَ الله ﷺ فيه هو النياحة.

وقوله: «فبايِعْهُنَّ» يقول جَلَّ ثناؤه: إذ جاءكَ المؤمنات يُبَايِعْنَكَ على هذه الشروطِ، فبايعهن، «واستغفر لَهُنَّ الله»، يقولُ: سَلْ لهنَّ الله أنْ يصفحَ عن ذنوبهنَّ، ويسترها عليهنَّ بعفوهِ لهنَّ عنها، «إنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقولُ: إنَّ الله ذُو سترٍ على ذنوبِ مَنْ تابَ إليه من ذنوبهِ أنْ يُعَذِّبَهُ عليها بعد توبته منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به من أصحاب رسولِ الله ﷺ: «يا أيها الذين آمنوا لاتَتَولوا قوماً غَضِبَ الله عَلَيْهم» من اليهود «قَدْ يَئِسوا مِن الآخرة، كما يَئِس الكُفَّارُ مِنْ أصحابِ القُبُورِ».

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «قَدْ يَئِسوا مِن الآخرة كَما يَئِس الكفار مِنْ أصحاب القُبور». فقال بعضهم: معنى ذلك قد يئسَ هؤلاء القوم الذين غضب الله عليهم من اليهود من ثوابِ الله في الاخرة، وأنْ يُبعثوا، كما يئس الكفارُ الأَحياء من أمواتهم الذين هم في القبور أن يرجعوا اليهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: قد يَئِسُوا من الآخرةِ أنْ يرحمهم الله فيها، ويغفـر لهم، كما يئس الكفار الذين هم أصحاب قبورٍ قد ماتوا وصاروا الى القبورِ، من رحمةِ الله وعفوِه عنهم في الآخرة، لأنهم قد أيقنوا بعذاب الله لهم.

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قولُ مَنْ قال: قد يئسَ هؤلاء الذين غضب الله عليهم من اليهودِ من ثوابِ الله لهم في الآخرة، وكرامته لِكُفْرِهم وتكذِيبهم رسولَهُ محمداً ﷺ على علمٍ منهم بأنه لله نبيٌّ، كما يئس الكفارُ منهم الـذين مضوا قبلهم فهلكوا، فصاروا أصحابَ القبورِ، وهم على مِثْلِ الذي هؤلاءِ عليه من تكذِيبهم عيسى صلواتُ الله عليه وغيرِه من الرسلِ، من ثوابِ الله وكرامته إياهم.

وإنما قلنا: ذلك أَوْلى القولين بتأويل الآية، لأنَّ الأمواتَ قد يئسوا من رجوعِهم الى الدنيا، أو أن يُبْعثوا قبلَ قيامِ الساعة المؤمنون والكفار، فلا وَجْهَ لأنْ يخصَّ بذلك الخبر عن الكفارِ، وقد شركهم في الإياسِ مِنْ ذلك المؤمنونَ.

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: «سَبَّحَ للهِ مافي السَّمَوَاتِ» السبع «ومَا في الأَرْضِ» من الخَلْقِ، مُذْعِنينَ له الأُلوهةَ والربوبيةَ «وَهُوَ العَزِيزُ» في نقمته مِمَّنْ عَصَاهُ منهم، فكفرَ به، وخالفَ أمره «الحكِيمُ» في تدبيره إياهم.

وقوله: «يا أيها الذَّين آمنوا لِمَ تَقُولُونَ مالا تَفْعَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يأيها الذين آمنوا صَدَّقوا الله ورسولَهُ، لِمَ تقولونَ القولَ الذي لاتصدِّقُونَهُ بالعملِ، فأعمالُكم مخالفةٌ أقوالكم «كبُرَ مقتاً عندَ الله أن تقُولُوا مالاتَفْعَلُونَ»، يقول: عَظُمَ مقتاً عند رَبِّكم قولُكم مالاتفعلون.

واختلف أهلُ التأويل في السببِ الذي من أجله أنزلت هذه الآيةُ، فقال بعضُهم: أُنزلتْ توبيخاً من الله لقومٍ من المؤمنينَ، تَمَنَّوْا معرفةَ أفضلِ الأعمالِ، فعرَّفَهُم الله إياه، فلما عرفوا قصروا، فَعُوتِبُوا بهذه الآية.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآيةُ في توبيخِ قومٍ من أصحاب رسول الله ﷺ، كان أحدهم يفتخرُ بالفعلِ من أفعالِ الخيرِ التي لم يفعلها، فيقول: فعلت كذا وكذا، فَعَذَلهم الله على افتخارهم بما لم يفعلوا كذباً.

وقال آخرون: بل هذا توبيخٌ من الله لقومٍ من المنافقين، كانوا يَعِدُونَ المؤمنينَ النصرَ وهم كاذبون.

وأولى هذه الأَقوالِ بتأويلِ الآيةِ قولُ مَنْ قال: عَنَى بها الذين قالوا: لو عرفنا أحبَّ الأَعمال الى الله لعملنا به، ثم قَصَّرُوا في العملِ بعد ماعرفوا.

وإنما قلنا: هذا القول أَوْلى بها، لأنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ خاطب بها المؤمنينَ، فقال: «يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا» ولو كانت نزلت في المنافقين لم يُسَمَّوْا، ولم يُوصَفُوا بالإيمانِ، ولو كانوا وصفوا أنفسهم بفعلٍ مالم يكونوا فَعَلُوه، كانوا قد تَعَمَّدُوا قِيلَ الكذبِ، ولم يكن ذلك صفة القوم، ولكنهم عندي أَمَّلوا بقولهم: لوعلمنا أحبَّ الأَعمالِ الى الله عملناهُ أنهم لو علموا بذلك عملوه، فلما علموا ضَعُفَتْ قُوى قومٍ منهم، عن القيامِ بما أَمَّلُوا القيامَ به قبل العلمِ، وقويَ آخرون فقامُوا به، وكان لهم الفضلُ والشرفُ.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلـهِ تَعالَى: إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للقائلين: لو علمنا أحبَّ الأعمالِ الى الله لعملناه حتى نموت: «إنَّ الله» أيها القومُ «يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ في سَبِيلِهِ» كأنهم، يعني في طريقهِ ودينهِ الذي دَعَا إليه «صَفًّا»، يعني بذلك أنهم يقاتلون أعداءَ الله مُصْطَفِّينَ.

وقـولـه: «كأَنَّهمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ»، يقولُ: يقاتلون في سبيلِ الله صفاً مصطفاً، كأنهم في اصطفافهم هنالك حيطانٌ مبنيَّةٌ قد رُصَّ، فأُحْكِمَ وأُتْقِنَ، فلا يغادرُ منه شيئاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكُرْ يا محمدُ، «إذ قال مُوسَى» بن عمران «لِقَوْمِهِ ياقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ» حقاً «أَنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ».

وقوله: «فَلَما زَاغوا أزاغَ الله قُلُوبَهُمْ، يقول: فلما عَدَلُوا وجَارُوا عن قَصْدِ السبيلِ أزاغَ الله قلوبهم: يقول: امالَ الله قلوبَهُمْ عنه.

«والله لايهدي القَوْمَ الفاسِقِينَ»، يقولُ: والله لايوفق لإصابةِ الحقِّ القومَ الذين اختاروا الكفرَ على الإيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واذكُرْ أيضاً يامحمدُ «إِذْ قال عيسَى بنُ مَرْيَمَ» لقومِهِ من بني إسرائيل «يابَنِي إِسْرائيلَ إِنّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَينَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ»، التي أُنزلت على موسى «وَمُبَشِّراً» أُبَشِّرُكُمْ «بِرَسُولٍ يأتي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ».

«فَلَمَّا جاءَهُمْ بالبيناتِ» يقول: فلما جاءهم أحمدُ بالبيناتِ، وهي الدلالاتُ التي آتاهُ الله حججاً على نبوَّتِه، «قالُوا هَذا سِحْرٌ مُبِينٌ»، يقول: ماأتى به غير أنه ساحر[1].

---

(١) قد بيَّنَ المؤلف فيما سبق أن السحر والساحر واحد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ أشدُّ ظلماً وعدواناً ممن اختلقَ على الله الكذب، وهو قولُ قائلهم للنبيِّ ﷺ: هو ساحرٌ وما جاء به سحر، فكذلك افتراؤه على الله الكذبَ وهو يُدعى الى الإسلامِ يقولُ: إذا دُعي الى الدخولِ في الإسلام، قالَ على الله الكـذبَ، وافترى عليه الباطلَ «والله لايَهْدِي القوم الظَّالمين»، يقولُ: والله لايوفِّق القومَ الذين ظلموا أنفسَهُمْ بكفرِهم به لإصابة الحقِّ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يريد هؤلاء القائلونَ لمحمدٍ ﷺ: هذا ساحرٌ مبين «لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بأفْوَاهِهِمْ»، يقولُ: يريدون ليبطلوا الحقَّ الذي بعثَ الله به محمداً ﷺ «بأفواههم»، يعني: بقولِهم إنَّهُ ساحرٌ، وماجاء به سحر، «وَالله مُتِمُّ نُورِهِ»، يقـولُ: الله مُعْلِنُ الحقَّ، ومُـظْهِـرُ دِينَهُ، وناصرُ محمداً عليه الصلاة والسلام على مَنْ عاداه، فذلك إتمامُ نورِه، وعنى بالنور في هذا الموضع الاسلام.

وقوله: «وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُون» يقولُ: والله مُظْهِرُ دِينَهُ، وناصرُ رسولَهُ، ولو كَرِهَ الكافرون بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الله الذي أرسلَ رسولَهُ محمداً بالهدى ودينِ الحقِّ، يعني ببيان الحقِّ «ودينِ الحقِّ»، يعني: ويدينِ الله، وهو الإسلامُ.

وقوله: «لِيُظْهِرَهُ على الدّين كُلِّهِ»، يقولُ: ليظهر دينَهُ الحق الذي أرسل به رسوله على كلِّ دينٍ سواه، وذلك عند نزولِ عيسى بن مريم، وحين تصيرُ الملةُ واحدةً، فلا يكون دينٌ غير الإسلامِ[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «يا أيها الَّذِين آمنوا هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجارَةٍ تُنْجيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أليمٍ» موجعٍ، وذلك عذاب جهنم، ثم بَيَّنَ لنا جَلَّ ثَنَاؤُهُ ما تلك التجارة التي تُنْجينا من العذابِ الأليم، فقال: «تُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ» محمدٍ ﷺ.

فإنْ قال قائل: وكيف قيل: «تُؤْمِنون بالله وَرَسُولِهِ»، وقد قيل لهم: «يا أيها الَّذين آمنوا» بوصفهم بالايمانِ؟ فإنَّ الجوابَ في ذلك نظير جوابنا في قولِه: «ياأيُّها الَّذِين آمنوا» آمنوا بالله، وقد مضى البيانُ عن ذلك في موضعِهِ بما أغنى عن إعادته .

وقوله: «وتُجاهِدُونَ في سَبيل الله بأمْوَالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه:

---

(١) فسر المؤلف قول الله تعالى: ﴿ولو كره الكافرون﴾ في الآية السابقة، فكأنه لم ير مسوغاً لإعادة تفسير ﴿ولو كره المشركون﴾ هنا.

وتجاهدون في دين الله، وطريقهِ الذي شَرَعَهُ لكم بأموالِكم وأنفسكم « ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ»، يقـولُ: إيمانكم بالله ورسوله، وجهادكم في سبيلِ الله بأموالكم وأنفسكم «خَيْرٌ لَكُمْ» من تضييعِ ذلك والتفريط «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمونَ» مضارَّ الأَشياءِ ومنافعها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يستر عليكم ربُّكم ذنوبَكُمْ إذا أنتم فعلتم ذلك فيصفح عنكم ويعفو «وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحتِها الأَنهارُ»، يقول: ويُدخلكم بساتينَ تجري من تحتِ أشجارها الانهار «ومَساكِنَ طَيِّبَةً»، يقولُ: ويُدخِلكم أيضاً مساكنَ طيبة «فِي جَنَّات عَدْنٍ»، يعني: في بساتين إقامة، لاظعنَ عنها.

وقـولـه: «ذلـكَ الفَوْزُ العَظِيمُ»، يقولُ: ذلك النجاءُ العظيمُ من نكالِ الأَخرةِ وأهوالها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: هَلْ أَدُلُّكُمْ على تجارةٍ تُنجيكم من عذابٍ أليم، تؤمنون بالله ورسوله، يغفر لكم ذنوبكم، ويدخلكم جناتٍ تجري من تحتها الأَنهارُ، ولكم خلةٌ أخرى سوى ذلـك في الـدنيا تحبـونها: نصرٌ من الله لكم على أعدائِكم، وفتحٌ قريبٌ يُعَجِّلُه لكم.

«وَبَشِّرِ المُؤمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: وبَشِّرْ يامحمد المؤمنينَ بنصرِ الله إياهم على عدوِّهم، وفتحٍ عاجلٍ لهم.

وقوله: «يا أيُّها الذين آمنوا كُونوا أَنْصَارَ الله»، يعني ياأيها الذين صَدَّقُوا الله ورسـولَـهُ، كونوا أنصارَ الله، كما قال عيسى ابن مريمَ للحواريين: «مَنْ أنصاري الى الله»، يعني من أنصاري منكم الى نُصْرَةِ الله لي.

وقوله: «قالَ الحوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ»، يقولُ: قالوا: نحن أنصارُ الله على مابعثَ به أنبياءَهُ من الحقِّ.

وقوله: «فآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَني إسرائِيلَ وكفَرَتْ طائِفَةٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيل بعيسى، وكفرتْ طائفة منهم به.

وقوله: «فأَيَّدْنا الَّذِينَ آمنوا على عَدُوِّهِمْ»، يقولُ: فَقَوَّيْنَا الذين آمنوا من الـطائفتينِ من بني إسـرائيلَ على عدوِّهُمْ، الـذين كفـروا منهم بمحمدٍ ﷺ بتصديقه إياهم، أنَّ عيسى عبدُ الله ورسولهُ، وتكذيبه مَنْ قالَ هو إلهٌ، ومَنْ قال: هو ابنُ الله تعالى ذِكْرُه.

«فأصبحوا ظاهرين»، فأصبحت الطائفةُ المؤمنونَ ظاهرينَ على عدوِّهم الكافرينَ منهم.

سُورَةُ الجُمُعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يسبحُ للهِ كلُّ مافي السمواتِ السبع، وكلُّ مافي الأَرضين من خَلْقِه، ويعظمه طوعاً وكرهاً «المَلِكِ القُدُّوسِ» الذي له ملكُ الدنيا والآخرة وسلطانهما، النافذُ أمرهُ في السموات والارض ومافيهما، «القدّوس»: وهو الطاهر من كلِّ مايُضيفُ إليه المشركونَ به، ويَصِفُونَهُ به مما ليس من صفاتِهِ، المباركُ. «العَزيزُ» يعني: الشديد في انتقامه من أعدائه «الحْكَيمُ» في تدبيرِه خَلْقَهُ، وتصريفه إياهم فيما هو أعلمُ به من مصالحهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الله الذي بعثَ في الأميين رسولاً منهم. فقوله «هو» كناية من اسم الله، والأُميون: هم العربُ. وقد بينَّا فيما مضى المعنى الذي من أجله قيل للأميِّ أميٌّ[1].

(١) البقرة: ٧٨.

وقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «رَسُولاً مِنْهُمْ»، يعني: من الأميين، وإنما قال: «منهم» لأن محمداً ﷺ كان أُمِّيّاً، وظهرَ من العربِ.

وقوله: «يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ» يقول جَلَّ ثناؤه: يقرأ على هؤلاء الأميينَ آياتِ الله التي أنزلها عليه. «وَيُزَكِّيهِمْ»، يقولُ: ويطهرهم من دَنَسِ الكفر.

وقوله: «وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ»، يقولُ: ويعلمهم كتابَ الله، ومافيه من أمرِ الله ونهيه، وشرائعِ دينه. «والْحِكمَةَ» يعني بالحكمة: السُّنَنَ.

وقوله: «وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وقد كان هؤلاء الأُميونَ من قَبْلِ أنْ يبعثَ الله فيهم رسولاً منهم في جَوْرٍ عن قصدِ السبيل، وأخذٍ على غيرِ هُدىً «مبين» يقولُ: يبين لمن تأمله أنه ضلالٌ وجَوْرٌ عن الحقِّ وطريقِ الرشد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهو الذي بعث في الأُميينَ رسولاً منهم، وفي آخرينَ منهم لَمَّا يَلْحَقُوا بهم، فآخرون في موضعِ خفضٍ عطفاً على الأميين.

وقد اختلف في الذين عُنوا بقوله: «وآخَرِينَ مِنْهُمْ»، فقال بعضهم: عُنِي بذلك العجم.

وقال آخرون: إنما عُني بذلك جميعُ من دخَل في الاسلامِ من بعد النبيِّ ﷺ كائناً من كان الى يومِ القيامة.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصواب عندي قولُ من قال: عُني بذلك كلُّ

لاحقٍ لَحِقَ بالذين كانوا صَحِبُوا النبيَّ ﷺ في إسلامِهم من أيِّ الأَجناس، لأن الله عَزَّ وجَلَّ عَمَّ بقوله: «وآخَرين مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ»، كُلَّ لاحقٍ بهم من آخرين، ولم يخصص منهم نوعاً دونَ نوعٍ، فكل لاحقٍ بهم فهو من الآخرين الذين لم يكونوا في عِدَادِ الأوّلين الذين كان رسولُ الله ﷺ يَتْلُو عليهم آياتِ الله.

وقوله: «لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ»، يقولُ: لم يجيئوا بعد وسيجيئون.

وقوله: «وَهُوَ العزيزُ الحكيم»، يقولُ: والله العزيز في انتقامه ممن كَفَرَ به منهم، الحكيم في تدبيره خَلْقَهُ.

وقوله: «ذلكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي فعلَ تعالى ذِكْرُه من بعثتهِ في الاميينَ من العربِ، وفي آخرينَ رسولاً منهم يتلو عليهم آياتهِ، ويفعل سائرَ ما وصفَ، فضلُ الله، تَفَضَّلَ به على هؤلاء دونَ غيرهم. «يُؤْتِيه مَنْ يشاء»، يقول: يُؤْتِي فَضْلَهُ ذلك مَنْ يشاء من خَلْقِه، لايستحق الذمّ ممن حرمه الله إياه، لأنه لم يمنعه حقاً كانَ له قبله ولاظلمه في صرفهِ عنه الى غيره، ولكنه على مَنْ هُو له أهلٌ، فأودعه إياهُ، وجعله عنده.

«والله ذُو الفَضْلِ العَظيم»، يقولُ: والله ذُو الفضل على عباده، المحسنَ منهم والمسيءَ، والذين بعثَ فيهم الرسولَ منهم وغيرهم، العظيم الذي يقلُّ فَضْلُ كُلِّ ذي فضلٍ عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَثَلُ الذين أوتوا التوراةَ من اليهودِ والنصارى، فحملوا

العملَ بها «ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها» يقول: ثم لم يعملوا بما فيها، وكذَّبوا بمحمدٍ ﷺ، وقد أُمِرُوا بالايمانِ به فيها واتباعِه والتصديق به «كَمَثَلِ الحِمارِ يحمل أسفاراً»، يقولُ: كمثل الحمار يحملُ على ظهرِه كتباً من كُتُبِ العلم، لاينتفعُ بها، ولايعقلُ ما فيها، فكذلك الذين أوتُوا التوراةَ التي فيها بيانُ أمر محمدٍ ﷺ مَثَلُهم إذا لم ينتفعوا بما فيها، كمثلِ الحمارِ الذي يحملُ اسفاراً فيها علمٌ، فهو لايعقلها ولاينتفعُ بها.

وقـولـه: «بِئْس مَثَلُ القَوْمِ الَّذينَ كَذَّبُوا بآياتِ الله»، يقول: بئس هذا المَثَلُ، مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُوا بآياتِ الله، يعني: بأدلتِه وحججِه. «والله لَايَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله لايوفِّق القومَ الذين ظلموا أنفسهم، فكفروا بآياتِ رَبِّهم.

القَوْلُ فِي تأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٦﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يامحمدُ لليهود «ياأيُّها الَّذين هادوا إنْ زَعَمْتُمْ أنَّكُمْ أوْلِياءُ لله مِنْ دُونِ النَّاسِ» سواكم «فَتمنَّوا المَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صَادقِينَ» في قيلِكُمْ، إنكم أولياءُ لله من دونِ الناس، فإنَّ الله لايعذِّبُ أولياءَهُ، بل يكرمهم وينعمهم، وإنْ كنتم مُحِقِّينَ فيما تقولونَ فَتَمَنُّواَ الموتَ لتستريحوا من كَرْبِ الدنيا وهمومها وغمومها، وتصيروا الى روحِ الجِنانِ ونعيمها بالموت.

القَوْلُ فِي تأْويل قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٧﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «ولايَتَمنَّوْنَهُ أبَداً»، يقولُ: ولايتمنى

اليهودُ الموتَ أبداً «بما قَدَّمَتْ أيْديهِمْ»، يعني: بما اكتسبوا في هذه الدنيا من الآثام، واجترحوا من السيئاتِ. «واللهُ عَلِيمٌ بالظَّالِمينَ»، يقولُ: واللهُ ذُو علم بمن ظَلَمَ من خَلْقِهِ نَفْسَهُ، فأويقها بكفرِهِ باللهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «قُلْ» يامحمدُ لليهودِ «إنَّ المَوْتَ الذي تَفِرُّونَ مِنْهُ» فتكرهونه، وتأبون أنْ تتمنوه «فإنَّهُ مُلاقِيكُمْ» ونازلٌ بكم «ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عالمِ الغيْبِ والشَّهادةِ» ثم يردُّكُمْ رَبّكم من بعد مماتكم الى عالمِ الغيبِ والشهـادةِ، عالم غيب السمواتِ والارضِ، «والشهادة» يعني: وماشهد فظهر لرأي العين، ولم يغبْ عن أبصارِ الناظرين.

«فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول: فيخبركم حينئذ ما كنتم في الدنيا تعملون من الأعمال، سيئها وحَسَنها، لأنه محيطٌ بجميعها، ثم يجازيكم على ذلك المحسنَ بإحسانِهِ، والمسيء بما هو أهْلُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: للمؤمنين به من عبادِهِ: يا أيها الذين صَدَّقوا اللهَ ورسولَهُ «إذَا نُودِيَ للصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ» وذلك هو النداء، ينادي بالدعاء الى صلاة الجمعة عند قعود الامام على المنبر للخطبة، ومعنى الكلام: إذا

نُوديَ للصلاة من يوم الجمعة «فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ الله»، يقولُ: فامضوا الى ذِكْرِ الله، واعملوا له، وأصلُ السعي في هذا الموضع العمل.

وقوله: «وَذَرُوا البَيْعَ»، يقولُ: ودَعوا البيعَ والشراءَ اذا نُوديَ للصلاةِ عند الخطبة.

وقـوله: «ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُم إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»، يقولُ: سَعْيُكم إذا نُوديَ للصلاةِ من يوم الجمعة الى ذِكْرِ الله، وَتَرْكُ البيعِ خيرٌ لكم من البيعِ والشراءِ في ذلك الوقتِ، إنْ كنتم تعلمون مصالحَ أنفسِكم ومضارّها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا قُضيت صلاةُ الجمعة يومَ الجمعة، فانتشروا في الارض انْ شئتم، ذلك رخصةٌ من الله لكم في ذلك.

وقـولـه: «وَابْتَغُـوا مِنْ فَضْـلِ الله» ذُكِـرَ عن النبي ﷺ في تأويل ذلك ماحـدثني العبـاس ابن أبي طالب، قال حدثنا عليّ بن المعافى بن يعقوب الموصليّ. قال: حدثنا أبو عامر الصائغ من الموصل، عن أبي خلف، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ (في قوله: «فإذَا قُضيَتِ الصَّلاة فانتشروا في الأَرْض، وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله» قال: لَيْس لِطَلَبِ دُنْيا، وَلَكِنْ عِيادَةُ مَريضٍ، وَحُضُورُ جَنازَةٍ، وزِيارَةُ أَخٍ في الله)[1].

(١) لايصح، بل موضوع، أبو عامر الصائغ كان يضع الحديث (الميزان: ٤/الترجمة ١٠٣٤٨)، وأبو خلف الأعمر قال يحي بن معين: كذاب، وقال أبو حاتم: منكر الحديث (تهذيب الكمال: ٢٨٦/٣٣)، ولا ندر ي كيف اختار المؤلف هذا التفسير؟!

وقد يحتمل قوله: «وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ» أن يكون معنياً به: والتمسوا من فضل الله الذي بيده مفاتيحُ خزائِنه لدنياكم وآخرتكم(١).

وقوله: «وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ»، يقولُ: واذكروا الله بالحمد له، والشكر على ماأنعمَ به عليكم من التوفيق لأداء فرائضهِ، لِتُفْلِحُوا، فتدركوا طلباتكم عند رَبِّكم، وتَصِلُوا الى الخُلْدِ في جِنانه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا رأى المؤمنون عِيرَ تجارة أو لهواً «انْفَضُّوا إليها» يعني: أسرعوا الى التجارة «وَتَرَكُوك قائماً»، يقول للنبي ﷺ: وتركوك يامحمد قائماً على المنبر(٢).

وقوله: «قُلْ ماعِنْدَ الله خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ ومِنَ التِّجارَةِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهم يا محمدُ، الذي عِنْدَ الله من الثواب، لمن جلس مستمعاً خطبةَ رسولِ الله ﷺ وموعظته يومَ الجمعةِ إلى أنْ يفرغَ رسولُ الله ﷺ منها، خيرٌ له من اللهو ومن التجارة التي يَنْفَضُّونَ اليها. «وَاللهُ خَيْر الرازِقِين»، يقولُ: والله خيرُ رازقٍ، فإليه فارغبوا في طَلَبِ أرزاقكم، وإياهُ فاسألوا أنْ يُوسِّعَ عليكم من فضلهِ دونَ غيره.

---

(١) الصواب في ذلك: اباحة طلب الرزق بالتجارة بعد المنع منها بقوله تعالى: ﴿وذروا البيع﴾. انظر زاد المسير ٢٦٨/٨، وتفسير ابن كثير: ٣٦٧/٤ وغيرهما.

(٢) حديث جابر بن عبدالله الأنصاري في الصحيحين: «أقبلت عير يوم الجمعة ونحن مع النبي ﷺ، فثار الناس إلا اثنا عشر رجلاً، فأنزل الله: ﴿وإذا رأوا تجارةً أولهواً انفضوا إليها﴾: البخاري (٤٨٩٩)، ومسلم (٨٦٣).

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١﴾

يقولُ تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «إِذَا جاءَكَ المُنافِقونَ» يامحمد «قالُوا» بألسنتهم «نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ» قال المنافقون ذلك أو لم يقولوه «وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ المُنافقينَ لَكَاذِبُونَ»، يقولُ: والله يشهدُ أنّ المنافقينَ لكـاذبـونَ في إخبـارهم عن أنفسهم أنها تشهدُ إنك لرسولُ الله، وذلك أنها لاتعتقدُ ذلك ولا تؤمنُ به، فهم كاذبونَ في خبرهم عنها بذلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: اتخذ المنافقون أيمانَهُمْ جُنَّةً، وهي حلفهم.

وقوله: «جُنَّةً»: سترةً يَسْتَتِرونَ بها كما يستترُ المُسْتَجِنُّ بجنَّتِه في حربٍ وقتال، فيمنعون بها أنفسهم وذراريهم وأموالهم، ويدفعونَ بها عنها.

وقوله: «فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله»، يقولُ: فأعرضوا عن دين الله الذي بَعَث به نبيَّهُ ﷺ وشريعته التي شرعها لخَلْقِه «إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ»، يقولُ:

إن هؤلاء المنافقين الذين اتخذوا أيمانهم جُنَّةَ ساء ماكانوا يعملون في اتخاذهم أيمانَهُمْ جنَّةً، لكذبهم ونفاقهم، وغير ذلك من أمورهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: انهم ساء ماكانوا يعملونَ هؤلاء المنافقونَ الذين أتَّخذُوا أيمانهم جُنة من أجلِ أنهم صدَّقوا الله ورسوله، ثم كفروا بَشكِّهم في ذلك وتكذيبهم به،

وقوله: «فَطُبع عَلى قُلُوبِهِمْ»، يقولُ: فجعل الله على قلوبهم ختماً بالكفرِ عن الايمان.

وقوله: «فَهُمْ لايَفْقَهُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فهم لايفقهون صواباً من خطأ، وحقاً من باطلٍ لطبع الله على قلوبهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾

يقول جَلَّ ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإذا رأيتَ هؤلاء المنافقين يا محمدُ، تُعجبكَ أجسامهم لاستواءِ خَلْقِها وحُسْنِ صُورِها. «وإنْ يَقُولوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وإنْ يَتكلَّموا تسمعْ كلامَهم يشبهُ منطقُهم منطق الناس. «كأنَّهمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ»، يقولُ كأن هؤلاء المنافقين خُشُب مسندة لاخير عندهم ولا فقه لهم ولا علم، وإنما هم صورٌ بلا أحلامٍ، وأشباحٌ بلا عقول.

وقوله: «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: يحسبُ هؤلاء المنافقونَ من خُبْثِهِمْ وسوءِ ظنهم، وقِلَّةِ يَقينهم كلَّ صيحةٍ عليهم، لأنهم على وَجَلٍ أنْ يُنْزِل الله فيهم أمراً يهتكُ به أستارَهُمْ ويفضحهم، ويبيحُ للمؤمنين قَتْلَهُمْ وسبيَ ذراريهم، وأخذ أموالهم، فهم من خوفهم من ذلك كلما نزل بهم من الله وحي على رسولِه، ظنوا أنه نزلَ بهلاكِهم وعَطَبهم، يقول جَلَّ ثناؤه: لنبيه محمدٍ ﷺ: هم العدو يا محمدُ، فاحْذَرْهمْ، فإنَّ ألسنتهم إذا لقُوكم معكم وقلوبهم عليكم مع أعدائِكم، فهم عينٌ لاعدائكم عليكم.

وقوله: «قاتَلَهُمُ الله أنى يُؤفكُونَ»، يقولُ: أخزاهم الله الى أيّ وجهٍ يصرفون عن الحقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: تعالوا إلى رسولِ الله يستغفرْ لكم «لَوَّوْا رؤوسَهم»، يقولُ: حَرَّكوها وهَزُّوها استهزاءً برسولِ الله ﷺ وباستغفاره.

وقوله: «ورأيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ورأيتهم يُعْرضون عما دُعُوا إليه بوجوههم «وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ»، يقول: وهم مستكبرونَ عن المصيرِ الى رسولِ الله ﷺ ليستغفرَ لهم.

وإنما عُنِيَ بهذه الآياتِ كلها فيما ذُكِرَ، عبدُالله بن أُبّي ابن سَلُول، وذلك أنه قال لأصحابه: لاتنفقوا على مَنْ عندَ رسولِ الله حتى يَنْفَضُّوا، وقال: «لَئِنْ رَجَعْنا الى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْها الأَذَلَّ» [المنافقون: ٨] فسمع بذلك زيد ابن أرقم، فأخبرَ به رسولَ الله ﷺ، فدعاه رسولُ الله ﷺ، فسأله عما أخبرَ به عنه، فحلف أنه ماقاله، وقيل له: لو أتيتَ رسولَ الله ﷺ، فسألته أنْ يستغفر

لك، فجعل يلوي رأسه ويحركُه استهزاءً، ويعني بذلك أنه غير فاعلٍ ما أشاروا به عليه، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيه هذه السورةَ من أوّلها الى آخرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: سواء يا محمدُ على هؤلاء المنافقينَ الذين قِيلَ لهم تعالوا يستغفرْ لكم رسولُ الله «أستَغْفَرْتَ لَهُمْ» ذنوبَهُمْ «أمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُم لَنْ يَغْفِرَ الله لهمْ»: يقولُ: لن يصفحَ الله لهم عن ذنوبِهم، بل يعاقبهم عليها. «إنَّ اللهَ لَايهدِي القَوْمَ الفاسِقِين»، يقولُ: إن الله لايوفِّق للإيمانِ القومَ الكاذبينَ عليه، الكافرينَ به، الخارجينَ عن طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ» يعني: المنافقين الذين يقولون لأصحابهم «لاتُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ» من أصحابهِ المهاجرينَ «حتى يَنْفَضُّوا»، يقولُ: حتى يَتفرَّقُوا عنه.

وقـولـه: «وللهِ خَزائِنُ السَّمـوَاتِ والأرْضِ»، يقـولُ: ولله جميع مافي السمواتِ والأرض من شيءٍ وبيده مفاتيحُ خزائن ذلك، لايقدرُ أحدٌ أن يعطي أحـداً شيئاً إلا بمشيئته «ولَكِنَّ المُنافِقِينَ لايفْقَهُونَ» أنَّ ذلك كذلك، فلذلك يقولون: لاتنفقوا على مَنْ عندَ رسولِ الله ﷺ حتى ينفضُّوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقول هؤلاء المنافقونَ الذينَ وَصَفَ صفتهم قبل «لَئِنْ رَجَعْنـا الى المَـدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْها الأَذَلَّ» فيها، ويعني بالأعزّ: الاشَدَّ والأقـوى، قال الله جَلَّ ثَنـاؤُهُ: «وللهِ العِـزَّةُ» يعني: الشـدّة والقوّة «وَلِرَسُولِهِ وَللمُؤْمِنِينَ» بالله «وَلَكِنَّ المُنافِقِينَ لايَعْلَمُونَ» ذلك.

وذُكـر أنَّ سببَ قِيلِ ذلك عبدُالله بن أبيّ كان من أجلِ أنَّ رجلاً من المهاجرين كَسَعَ رجلاً من الأنصار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ياأيها الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ «لاتُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ»، يقولُ: لاتوجب لكم أموالكم «وَلا أَوْلادُكُمْ» اللَّهْوَ «عَنْ ذِكْرِ اللهِ» وهو من: ألهيته عن كذا وكذا، فَلَهَا هُوَ يَلْهُو لهواً.

وقوله: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذلكَ»، يقولُ: وَمَنْ يُلْهِه مالُهُ وأولادُهُ عن ذِكْرِ الله «فأولَئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ»، يقولُ: هم المغبونونَ حظوظَهُمْ من كرامةِ الله رحمتهِ تبارك وتعالى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ

﴿ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأنفقوا أيها المؤمنونَ بالله ورسولِه من الأموالِ التي رزقناكم مِنْ قبلِ أنْ يأتيَ أحدَكُمُ الموتُ فيقول إذا نزلَ به الموتُ: ياربِّ هلا أخَّرْتني فتمهلَ لي في الأَجل الى أجل قريب «فأصَّدَّقَ»، يقول: فأزكّيَ مالي «وأكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ»، يقولُ: وأعمل بطاعتكَ، وأؤدّيَ فرائضك.

وقوله: «وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إذا جاءَ أَجَلُها» يقولُ: لن يؤخر اللهُ في أجلِ أحدٍ فيمدَّ له فيه إذا حَضَرَ أجلُه، ولكن يَخْترمه «والله خَبيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»، يقولُ: والله ذُو خبرةٍ وعلمٍ بأعمالِ عبيدِهِ هو بجميعها محيطٌ، لايَخْفَى عليه شيٌّ، وهو مُجازِيهم بها، المحسنَ بإحسانِهِ، والمسيء بإساءته.

سُورَةُ التَّغَابُن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يسجدُ له مافي السمواتِ السبع ومافي الأرض من خَلْقِه ويُعَظِّمه.

وقوله: «لَهُ المُلْكُ» يقول تعالى ذِكْرُه: له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ وسلطانُه ماضٍ، قضاؤه في ذلك نافذٌ فيه أمرُهُ.

وقوله: «وَلَهُ الحَمْدُ»، يقولُ: وله حمدُ كلِّ مافيها من خَلْقٍ، لأنَّ جميعَ مَنْ في ذلك من الخَلْقِ لايعرفونَ الخيرَ إلا منه، وليس لهم رازقٌ سِواهُ فله حمدُ جميعِهم «وَهُو على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ»، يقولُ: وهو على كل شيءٍ ذُو قدرةٍ، يقولُ: يخلقُ مايشاء، ويُميتُ مَنْ يشاء، ويُغْني مَنْ أراد، ويُفْقِرُ مَنْ يشاء ويعزُّ من يشاء، ويذلُّ من يشاء، لايتعذَّرُ عليه شيءٌ أراده، لأنه ذُو القدرةِ التامةِ التي لايعجزه معها شَيْءٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الله «الَّذي خَلَقَكُمْ» أيها الناسُ، وهو من ذكر اسم الله «فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ»، يقولُ: فمنكم كافرٌ بخالقِهِ وأنه خَلَقَهُ، ومنكم مؤمنٌ: يقولُ: ومنكم مصدِّقٌ به مُوقِنٌ أنه خالقه أو بارئه «وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»، يقولُ: واللهُ الذي خلقكم بصيرٌ بأعمالكم عالم بها، لايَخْفَى عليه منها شيءٌ، وهو مُجازِيكم بها، فاتقوهُ أنْ تُخالفوه في أمرِه أو نهيه، فيسطوَ بكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: خَلَقَ السموات السبع والأرض بالعدلِ والإنصافِ، «وصَوَّركم»: يقولُ: ومثلكم فأحسن مثلكم: وقيل: إنه عُنِي بذلك تصويره آدمَ، وخَلْقَه إياه بيده.

وقوله: «وَإِلَيْهِ المَصِيرُ»، يقولُ: وإلى الله مرجعَ جميعِكم أيها الناسُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يعلمُ رَبُّكم أيها الناسُ مافي السمواتِ السبع والأرض من شيءٍ، لايَخْفَى عليه من ذلك خافيةٌ «وَيَعْلَمُ ماتُسِرُّون» أيها الناسُ بينَكم من قولٍ وعملٍ «وما تُعْلِنُون» من ذلك فَتُظْهِرُونَهُ «والله عَلِيمٌ بذَاتِ الصُّدورِ» يقول جَلَّ ثناؤه: والله ذُو عِلْمٍ بضمائرِ صدورِ عباده، وما تنطوي عليه نفوسُهم، الـذي هو أخْفَى من السِّر، لايعزبُ عنه شيءٌ من ذلك، يقول تعالى ذِكْرُه: لعبـاده: احذرُوا أن تُسِرُّوا غيرَ الذي تُعْلِنون أو تُضْمِرُوا في أنفسكم غير ما

تُبدونه، فإنَّ ربَّكم لايَخْفَى عليه من ذلك شيء، وهو مُحْصٍ جميعَهُ وحافظٌ عليكم كله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لمشركي قريش: ألم يأتِكُمْ أيها الناسُ خَبَرُ الذين كفروا من قبلكم، وذلك كقوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ إبراهيمَ وقومِ لوطٍ «فَذاقُوا وبَالَ أمْرِهِمْ» فَمَسَّهم عذابُ الله إياهم على كفرهم «وَلهمْ عَذابٌ أليمٌ» يقولُ: ولهم عذابٌ مؤلمٌ مُوجِعٌ يومَ القيامة في نارِ جهنم، مع الذي أذاقهم الله في الدنيا وبالَ كُفْرِهم.

وقوله: «ذلكَ بأنَّهُ كانَتْ تأتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بالبَيِّناتِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: هذا الذي نال الذين كفروا من قِبَلِ هؤلاء المشركينَ من وبالِ كفرهم، والذي أعَدَّ لهم رَبُّهم يومَ القيامة من العذاب، من أجلِ أنه كانت تأتيهم رُسُلهم بالبينات الذين أرسلهم إليهم رَبُّهم بالواضحاتِ من الأدلةِ والاعلامِ على حقيقةِ مايَدْعُونَهم إليه، فقالوا لهم: أبَشَرٌ يهدوننا، استكباراً منهم أنْ تكونَ رُسُلُ الله اليهم بشراً مثلهم واستكباراً عن اتباع الحقِّ من أجلِ أنَّ بشراً مثلهم دعاهم إليه، وجمع الخبر عن البشر، فقيل: «يَهْدُونَنا»، ولم يقل: يهدينا، لأنَّ البشر، وإنْ كان في لفظِ الواحدِ، فإنه بمعنى الجميع.

وقوله: «فَكَفَروا وَتوَلَّوْا» يقولُ: فكفروا بالله، وجحدوا رسالةَ رُسُلِه الذين بعثهم الله اليهم استكباراً «وتَولَّوا»، يقولُ: وأدبروا عن الحقِّ فلم يقبلوه، وأعرضوا عما دعاهم إليه رُسُلُهم «واستغْنَى اللهُ»، يقولُ: واستغنى الله عنهم،

وعن إيمانِهم بهِ وبرسلِهِ، ولم تكنْ به الى ذلك منهم حاجةٌ «وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ»، يقولُ: والله غنيٌّ عن جميعِ خلقِه، محمودٌ عند جميعِهم بجميلِ أياديه عندهم، وكريمِ فعالهِ فيهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: زَعَمَ الذين كفروا بالله أنْ لن يبعثهمُ اللهُ إليه من قبورِهم بعد مَمَاتِهم. وكان ابن عمر يقولُ: زعم كنية الكذب.

وقوله: «قُلْ بَلى وربِّي لَتُبْعَثُنَّ»، يقول لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهم يامحمدُ: بلى وربي لتبعثن من قبورِكم «ثُمَّ لَتُنبؤنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ» يقولُ: ثم لتخبرنَّ بأعمالِكم التي عملتُموهَا في الدنيا، «وَذلكَ على اللهِ يَسيرٌ» يقولُ: وبَعْثُكم من قبورِكم بعد مماتِكم على الله سهلٌ هَيِّنٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَصَدِّقُوا بالله ورسوله أيها المشركونَ المُكَذِّبُونَ بالبعث، وبإخبارِهِ إياكم أنكم مبعوثونَ من بعد مماتكم، وأنكم من بعد بلائِكم تنشرونَ من قبوركم، «والنور الذي أنزلنا»، يقولُ: وآمِنوا بالنورِ الذي أنزلنا، وهو هذا القرآنُ الذي أنزله اللهُ على نبيه محمدٍ ﷺ «واللهُ بما تَعْمَلُون خَبيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله بأعمالكم أيها الناسُ ذُو خبرةٍ محيطٌ بها، مُحْصٍ جميعَها، لايَخْفَى عليه منها شيءٌ، وهو مُجَازِيكم على جميعها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله بما تعملون خبيرٌ «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجَمْعِ» الخلائقَ للعرضِ «ذلكَ يَوْمُ التَّغابُنِ» يقول: الجمعُ يوم غَبْن أهل الجنة أهلَ النار.

وقوله: «وَمَنْ يُؤْمِنْ بالله وَيَعْمَلْ صَالِحاً» يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يصدِّقْ باللهِ ويعملْ بطاعتِهِ، وَينْتَهِ الى أمره ونهيهِ «يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ»، يقولُ: يَمْحُ عنه ذُنوبَهُ «وَيُدخلْهُ جنَّاتٍ تَجْرِي منْ تَحْتِها الأَنهارُ»، يقولُ: ويُدخله بساتينَ تجري من تحتِ أشجارها الأَنهارُ.

وقوله: «خالدينَ فيها أَبداً»، يقولُ: لابثينَ فيها أبداً، لايموتون، ولايخرجون منها.

وقوله: «ذلك الفَوْزُ العَظِيمُ»، يقول: خلودُهم في الجناتِ التي وصفنا النجاءُ العظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين جحدوا وحدانيةَ الله، وكَذَّبوا بأدلته وحججهِ وآيِ كتابهِ الذي أنزله على عبدِه محمدٍ ﷺ «أُولئك أصحابُ النَّارِ هُمْ فيها خالِدُونَ»، يقولُ: ماكثينَ فيها أبداً لايموتون فيها، ولايخرجون منها «وَبِئْسَ المَصِيرُ»، يقولُ: وبئس الشيء الذي يُصارُ إليه: جهنمُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لم يصب أحداً من الخَلْقِ مصيبة إلا بإذنِ الله، يقولُ: إلا بقضاءِ اللهِ وتقديره ذلكَ عليه «وَمَنْ يُؤْمِنْ باللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ»، يقولُ: ومَنْ يُصَدِّقْ باللهِ فيعلم أنه لا أحدَ تُصيبهُ مصيبةٌ الا بإذن الله بذلك «يَهْدِ قلبه»، يقول: يوفِّق الله قَلْبَهُ بالتسليمِ لأمرِهِ والرضا بقضائه.

وقوله: «والله بِكُلِّ شَيء عَليمٌ»، يقولُ: والله بكل شيءٍ ذُو علمٍ بما كان ويكونَ وماهو كائنٌ من قبلِ أنْ يكون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «وأطيعُوا الله» أيها الناسُ في أمرِهِ ونهيه «وأطيعوا الرَّسُولَ» ﷺ «فإن توليتم» فإنْ أدبرتم عن طاعةِ الله وطاعةِ رسولِه مستكبرينَ عنها، فلم تطيعوا اللهَ ولا رسولَهُ «فإنما» فليسَ «على رسولنا» محمدٍ إلاَّ «البلاغُ المبينُ» أنـه بلاغ إليكم لمـا أرسلتُـه به يقـول جَلَّ ثناؤه: فقد أعْذَرَ إليكم بالإبلاغِ والله وليُّ الانتقامِ ممن عَصَاهُ، وخالفَ أمره، وتولَّى عنه «الله لاإلَهَ إلا هو» يقول جَلَّ ثناؤه: معبودُكم أيها الناسُ معبودٌ واحدٌ لاتصلحُ العبادةُ لغيرِه ولا معبودَ لكم سواه.

«وعَلى الله فَلْيَتَوكَّل المؤمِنون» يقول تعالى ذِكْرُه: وعلى الله أيها الناسُ فليتوكل المُصَدِّقُون بوحدانيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ياأيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله «إن مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ» يصَدُّونكُمْ عن سبيل الله، ويُثَبِّطونَكُمْ عن طاعةِ الله «فاحْذَرُوهُمْ» أنْ تَقبَلُوا منهم ما يأمرونَكُمْ به من تركِ طاعة الله.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآية نزلتْ في قومٍ كانوا أرادوا الاسلامَ والهجرةَ، فثبَّطهم عن ذلك أزواجُهم وأولادُهم.

وقوله: «وإنْ تَعْفُوا وتَصْفَحُوا»، يقولُ: وإنْ تَعْفُوا أيها المؤمنونَ عما سَلَفَ منهم من صَدِّهم إياكم عن الإسلام والهجرةِ وتَصْفَحُوا لهم عن عقوبتكم إياهم على ذلك، وتغفروا لهم غيرَ ذلك من الذنوب «فإن الله غَفُورٌ رَحِيمٌ» لكم لِمَنْ تابَ من عبادِه، من ذنوبكم «رحيمٌ» بكم أنْ يعاقبكم عليها من بعد توبتكم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما أموالُكُمْ أيها الناسُ وأولادُكمْ إلا فتنةٌ، يعني: بلاءٌ في الدنيا.

وقوله: «والله عِنْدَهُ أجْرٌ عَظِيمٌ»، يقولُ: والله عنده ثوابٌ لكم عظيمٌ، إذا

أنتم خالفتم أولادَ كُمْ وأزواجَكم في طاعةِ الله رَبِّكم، وأطعتمُ الله عَزَّ وجَلَّ، وأدَّيْتُمْ حَقَّ الله في أموالِكم. والأجر العظيم الذي عندَ اللهِ الجنة.

وقولـه: «فـاتَّقُـوا الله ماٱسْتَطعْتُم»، يقول تعالى ذِكْرُه: واحْذَرُوا الله أيها المؤمنونَ وخَافُوا عقابَهُ، وتَجَنَّبُوا عذابَهُ بأداءِ فرائضه واجتنابِ معاصيه، والعمل بما يُقَرِّبُ إليه ماأطَقْتُمْ وبلَغهُ وُسْعُكُمْ.

وذُكِرَ أنَّ قولهُ «فاتَّقُوا الله ماٱسْتَطَعْتُمْ» نزل بعد قوله: «واتَّقُوا الله حَقَّ تُقاتِهِ» تخفيفاً عن المسلمين، وأنَّ قوله: « فاتَّقوا الله مااستَطَعْتُم» ناسخٌ قوله: « اتَّقوا الله حَقَّ تُقاتِهِ».

وقد تقدم بياننا عن معنى الناسخِ والمنسوخِ بما أغنى عن إعادتِهِ في هذا الموضع، وليس في قوله: «فاتَّقُوا الله مااستَطَعْتُمْ» دلالةٌ واضحةٌ على أنه لقوله: «اتَّقـوا الله حَقَّ تُقاتِهِ» ناسخٌ، إذْ كان محتملاً قوله: اتقوا الله حقَّ تُقاتِه فيما استطعتم، ولم يكنْ بأنه له ناسخٌ عن رسولِ الله ﷺ، فإذا كان ذلك كذلك، فالواجبُ استعمالها جميعاً على مايحتملانِ من وجوهِ الصحة.

وقوله: «واسَمعُوا وأطِيعُوا» يقولُ: واسمعوا لرسولِ الله ﷺ، وأطيعوهُ فيما أمرَكُمْ به ونهاكم عنه. «وأنْفِقُوا خَيْراً لأنْفُسِكُمْ»، يقولُ: وأنفقوا مالاً من أموالكم لأنفسِكم تَسْتَنْقِذُوهَا من عذابِ الله، والخيرُ في هذا الموضع المال.

وقـولـه: «وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يَقِه الله شُحَّ نفسِه، وذلك اتباع هواها فيما نهى الله عنه.

وقوله: «فأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ»، يقولُ: فهؤلاء الذين وُقُوا شُحَّ أنفسِهم، المُنجِحُونَ الذين أدركوا طَلِباتِهم عند ربِّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ

وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: وإنْ تُنْفِقُوا في سبيل الله، فَتُحْسِنُوا فيها النفقةَ، وتحتسبوا بإنفاقِكم الأَجرَ والثوابَ يُضَاعِفْ ذلك لكم ربُّكم، فيجعل لكم مكانَ الواحدِ سبعَ مئةِ ضِعْفٍ إلى أكثرَ من ذلك مما يشاءُ من التضعيفِ «يَغفرْ لكُم ذُنوبَكُم» فيصفح لكم عن عقوبتكم عليها مع تضعيفِهِ نفقتَكم التي تُنفقونَ في سبيله «وَاللهُ شَكُورٌ»، يقولُ: واللهُ ذُو شكرٍ لأهلِ الإنفاقِ في سبيلِهِ، بِحُسْنِ الجزاءِ لهم على ماأنفقوا في الدنيا في سبيله «حَليمٌ»، يقولُ: حليمٌ عن أهلِ معاصيه بترك معاجَلَتِهم بعقوبتِهِ «عالِمُ الغَيْب والشَّهادةِ» يقولُ: عالمُ ما لاتراهُ أعينُ عبـادِه ويَغِيبُ عن أبصـارِهم ومـايشاهدُونَهُ فيرونَهُ بأبصارِهم. «العَزِيزُ»، يعني: الشديدُ في انتقامِهِ ممَّنْ عَصَاهُ وخالفَ أمره ونهيهُ «الحكيمُ» في تدبيرِهِ خَلْقَهُ، وصَرْفه إياهم فيما يُصْلِحُهم.

سُورَةُ الطَّلَاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ياأيها النَّبِيُّ إذا طَلَّقْتُم النساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدتِهِنَّ»، يقولُ: إذا طلقتم نسائكم فَطَلِّقُوهن لِطُهْرِهِنَّ الذي يُحْصِينَهُ من عِدَّتِهِنَّ، طاهراً من غير جماعٍ، ولا تطلقوهنَّ بحيضِهِنَّ الذي لايَعْتَدِدْنَ به من قرئهِنَّ.

وقوله: «وأحصوا العِدَّةَ»، يقولُ: وأحصوا هذه العدَّةَ وأقراءها فاحفظوها.

وقوله: «واتقُوا الله رَبَّكُمْ لاتُخرجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهنَّ»، يقولُ: وخافوا الله أيها الناسُ رَبَّكُمْ فاحذروا معصيتَه أنْ تتعدوْا حَدَّهُ، لاتُخْرِجُوا مَنْ طلقتم من نسائِكم

لعدتهنَّ من بيوتهن التي كنتم اسكنتموهُنَّ فيها قبلَ الطلاق حتى تنقضي عدتهُنَّ.

وقوله: «وَلا يَخْرُجْنَ إلاَّ أنْ يأتِينَ بفاحِشةٍ مُبَيِّنَةٍ»، يقول جَلَّ ثناؤه: لاتخرجوهن إلا أنْ يأتين بفاحشةٍ مبينة إنها فاحشةٌ لمن عَايَنَها أو عَلِمَهَا.

واختلف أهلُ التأويلِ في معنى الفاحشة التي ذُكِرَتْ في هذا الموضع، والمعنى الذي من أجله أذِنَ الله بإخراجهنَّ في حال كونهنَّ في العدةِ من بيوتهنَّ، فقال بعضهم: الفاحشة التي ذكرها الله في هذا الموضع هو الزنى، والإخراج الذي أباح الله هو الإخراج لإقامة الحدِّ.

وقال آخرون: الفاحشة التي عناها الله في هذا الموضع: البَذاء على أحمائِها.

وقال آخرون: بل هي كُلُّ معصيةٍ لله.

وقال آخرون: بل ذلك نُشوزُها على زوجِها، فيطلقها على النشوزِ، فيكون لها التحوُّلُ حينئذٍ من بيتها.

وقال آخرون: الفاحشةُ المبينة التي ذَكَرَ الله عَزَّ وجَلَّ في هذا الموضع خروجُهَا من بيتها.

والصواب من القول في ذلك عندي قولُ من قال: عنى بالفاحشة في هذا الموضع: المعصية، وذلك أن الفاحشة هي كل أمرٍ قبيحٍ تَعَدَّى فيه حدّه، فالزنى من ذلك، والسرفُ والبَذَاءُ على الاحماء، وخروجها متحولةً عن منزلها الذي يلزمها أنْ تَعْتَدَّ فيه منه، فأيّ ذلك فعلتْ وهي في عدتها، فَلِزَوْجِهَا إخراجُها من بيتها ذلك، لإتيانها بالفاحشة التي ركبتها.

وقوله: «وَتِلْكَ حُدُودُ الله» يقول تعالى ذِكْرُه: وهذه الأمور التي بَيَّنْتُهَا لكم من الطلاقِ للعدَّةِ، وإحصاءِ العدةِ، والأمرِ باتقاءِ الله، وأنْ لاتخرجَ المطلقةُ من

بيتها، إلا أنْ تأتيَ بفاحشة مبينة ـ حدودُ الله التي حَدَّهَا لكم أيها الناسُ فلا تعتدوها. «ومَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يتجاوز حدود الله التي حَدَّها لخلقِه «فقد ظلم نفسه»، يقولُ: فقد أكْسَبَ نفسَهُ وزراً، فصارَ بذلك لها ظالماً، وعليها متعدِّياً.

وقوله: «لاتَـدْري لَعَلَّ الله يحْدِثُ بَعْدَ ذلك أمْراً»، يقول جَلَّ ثناؤُه: لاتدري مالذي يحدث؟ لعلَّ الله يحدثُ بعد طلاقِكم إياهُنَّ رجعةً.

وقوله: «فإذَا بَلَغْنَ أجَلَهُنَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا بلغ المطلقات اللواتي هُنَّ في عدةِ أجلهن وذلـك حين قُرْبِ انقضـاءِ عددهن «فـأمْسِكُوهُنَّ بمعْروفٍ»، يقولُ: فأمسكوهنّ برجعةٍ تراجعوهن، إنْ أردتم ذلك «بمعروف»، يقولُ: بما أمركَ الله به من الإمساكِ، وذلك باعطائها الحقوق التي أوجبها الله عليه لها من النفقة والكسوةِ والمسكنِ وحُسْنِ الصُّحْبةِ. «أو فارقوهنّ بمعروف»، أو اتركوهن حتى تنقضي عددهنَّ، فتبين منكم بمعروفٍ، يعني: بإيفائها مالَها من حَقٍ قبلَهُ من الصَّداق والمتعةِ على ما أوجبَ عليه لها.

وقـولـه: «وأشْهِـدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ» وأشهـدوا على الامسـاك إنْ أمسكتموهُنَّ، وذلك هو الرجعة ذَوَيْ عَدْلٍ منكم، وهما اللذان يُرْضَى دِينهما وأمانتهما.

وقوله: «وأقِيموا الشَّهادَةَ للهِ»، يقولُ: وأشْهِدُوا على الحقِّ إذا استشهدتم، وأدُّوها على صحةٍ إذا أنتم دُعِيتم إلى أدائها.

وقوله: «ذَلِكُم يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي أمرتُكم به، وعرَّفْتُكم من أمرِ الطلاقِ، والواجب لبعضِكم على بعضٍ عند الفِراقِ والامساكِ عظة منا لكم، نَعِظُ به مَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر، فيصدّق به.

وعنى بقوله: «مَنْ كانَ يؤمِنُ باللهِ» مَنْ كانت صفتُه الإيمان بالله.

وقوله: «وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ يَخَفِ اللهَ فيعملْ بما أمرَهُ به، ويجتنبْ مانهاهُ عنه، يجعلْ له من أمره مخرجاً، بأنْ يُعَرِّفَهُ بأنَّ ماقضى فلا بدَّ من أنْ يكون، وذلك أن المطلق إذ طلق، كما نَدَبَهُ الله إليه للعدةِ، ولم يراجعها في عدتها حتى انقضت ثم تتبعها نفسه، جعلَ الله له مخرجاً فيما تتبعها نفسه، بأنْ جعلَ له السبيلَ الى خِطْبَتها ونكاحَهَا، ولو طلقها ثلاثاً لم يَكُنْ له الى ذلك سبيلٌ.

وقوله: «وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَايحْتَسِبُ»، يقولُ: ويسبب له أسبابَ الرزق من حيثُ لايشعر، ولايعلم.

وقوله: «ومن يَتَوَكَّلْ على الله فَهُوَ حَسْبُهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وَمَنْ يَتَّقِ الله في أمورِه، ويُفَوِّضها إليه فهو كافِيه.

وقوله: «إنَّ الله بالغُ أمرِهِ» منقطعٌ عن قوله: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ»، ومعنى ذلك إنَّ الله بالغ أمره بكلِّ حالٍ توكلَ عليه العبدُ أو لَمْ يتوكلْ عليه.

وقوله: «قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً»، يقول تعالى ذكْرُه: قد جعلَ الله لكل شيءٍ من الطلاقِ والعدّة وغير ذلك حدّاً وأجلاً وقدراً يُنتهى إليه.

القَولُ في تأويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والنساءُ اللاتي قد ارتفع طمعهنَّ عن المحيضِ، فلا يرجونَ أن يَحِضْنَ من نسائكم إن ارتبتم.

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «إِنِ أرتَبْتُمْ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: إن ارتبتم بالدمِ الذي يظهر منها لكبرها، أَمِنَ الحيضِ هو، أمْ منَ الاستحاضةِ، فعِدَّتهن ثلاثة أشهر.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ان ارتبتم بحكمهنَّ فلم تدروا ما الحكمُ في عدتهنَّ، فإنَّ عدتهنَّ ثلاثة أشهر.

وقال آخرون: معنى ذلك إن ارتبتم مما يظهر منهنَّ من الدمِ، فلم تَدْرُوا أدَمَ حيضٍ، أمْ دم مستحاضةٍ من كِبَرٍ كان ذلك أو عِلَّةٍ؟

وأولى الأَقوال في ذلك بالصحة قولُ مَنْ قال: عُنِي بذلك: إن ارتبتم فلم تَدْرُوا ما الحكم فيهنَّ، وذلك أنَّ معنى ذلك لو كان كما قاله مَنُ قال: إن ارتبتم بدمائهنَّ فلم تدروا أدم حيضٍ، أو استحاضةٍ؟ لقيل: إنِ ارْتَبْتُنَّ لأنهن إذا أشكلَ الدمُ عليهنَّ فهنَّ المرتابات بدماءِ أنفسهن لاغيرهن، وفي قوله: «إن ارْتَبْتُمْ» وخطابهِ الرجالَ بذلك دونَ النساءِ الدليلُ الواضحُ على صحة ماقلنا من أنَّ معناه: إن ارتبتم أيها الرجال بالحكمِ فيهنَّ، وأخرى وهو أنه جَلَّ ثَنَاؤُهُ قال: «والَّلائي يَئسنَ مِنَ المَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إن ارْتَبْتُمْ» واليائسةُ من المَحِيضِ هي التي لاترجو محيضاً للكبر، ومحالٌ أن يقال: واللائي يئسن، ثم يقال: ارتبتم بيأسهنَّ، لأنَّ اليأسَ: هو انقطاعُ الرجاء، والمرتاب بيأسها مرجوٌّ لها، وغيرُ جائزٍ ارتفاعُ الرجاءِ ووجودُه في وقتٍ واحد فإذا كان الصوابُ من القول في ذلك ما قلنا، فبيِّنٌ أن تأويلَ الآية: واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم بالحكم فيهن، وفي عِدَدِهِنَّ، فلم تدروا ما هُنَّ فإن حكم عددهن إذا طلقن، وهن ممن دخل بهن أزواجهن، فعدتهن ثلاثة أشهر «وَاللائي لم يحضن يقولُ: وكذلك عدد اللائي لم يحضن من الجواري لصغرٍ إذا طلقهن أزواجهن بعد الدخول.

وقوله: «وأُولات الأحْمالِ أَجَلُهُنَّ أنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» في انقضاءِ عدتهنَّ أنْ يضعن حَمْلَهُنَّ، وذلك إجماعٌ من جميعِ أهلِ العلمِ في المطلقة الحامل، فأما في المتوفَّى عنها ففيها اختلافٌ بين أهل العلم.

فقال بعضهم: ذلك عامٌّ في المطلَّقاتِ والمتوفَّى عنهنّ.

وقال آخرون: ذلك خاصٌّ في المطلقاتِ، وأما المتوفَّى عنها فإنَّ عِدَّتَها آخر الأجلين.

والصوابُ من القول في ذلك أنه عامٌّ في المطلقات والمتوفَّي عنهنَّ، لأَنَّ الله جَلَّ وعَزَّ، عَمَّ بقولِه بذلك فقال: «وأُولاتُ الأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أنْ يَضَعْن حَمْلَهُنَّ»، ولم يخصصْ بذلك الخبر عن مطلقةٍ دونَ مُتَوفَّى عنها، بل عَمَّ الخبر به عن جميع أولات الأحمالِ، إنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ قوله: «وأُولاتُ الأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» في سياقِ الخبرِ عن أحكامِ المطَلقاتِ دونَ المتوفَّي عنهنّ، فهو بالخبرِ عن حكمِ المطلقة أَوْلى بالخبرِ عنهنّ، وعن المتوفَّي عنهنّ، فإنَّ الأَمَر بخلافِ ماظنَّ، وذلك أنَّ ذلك وإنْ كان في سياقِ الخبر عن أحكامِ المطلقاتِ، فإنه منقطعٌ عن الخبرِ عن احكام المطلقات، بل هو خبرٌ مبتدأ عن أحكام عددِ جميعِ أولاتِ الأحمال المطلقاتِ منهنَّ وغير المطلقات، ولا دلالةَ على أنـهُ مُرَادٌ به بعض الحواملِ دونَ بعضٍ من خبرٍ ولا عقلٍ، فهو على عمومِه لما بيَّنا.

وقوله: «وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَه مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً» يقول جَلَّ ثناؤه: وَمَنْ يَخَفِ الله فَرَهِبَهُ، فاجتنبَ معاصيه، وأدَّى فرائضَهُ، ولم يخالفْ إذنه في طلاقِ امرأته، فإنه يجعل الله له من طلاقهِ ذلك يُسْراً، وهو أنْ يُسَهِّلَ عليه إنْ أراد الرخصةَ لاتباع نفسه إياها الرجعةَ مادامتْ في عدتها وإنِ انقضتْ عدتها، ثم دَعَتْهُ نفسهُ إليها قَدرَ على خطبتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي بيَّنتُ لكم من حكمِ الطلاقِ والرجعةِ والعدّةِ، أمر الله الذي أمرَكُمْ به، أنزله إليكم أيها الناسُ، لتأتمروا له، وتعملوا به.

وقوله: «وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ»، يقولُ: وَمَنْ يَخفِ الله فَيَتَّقه باجتنابِ معاصيه، وأداءِ فرائضهِ، يَمْحُ الله عنه ذنوبَهُ وسيئات أعماله، «وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً»، يقول: ويُجْزِلْ له الثوابَ على عملهِ ذلك وتقواه، ومن إعظامِه له الأَجر عليه أنْ يُدْخِلَهُ جَنَّتَهُ، فيخلده فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَسْكِنُوا مطلقاتِ نسائكم من الموضع الذي سكنتم «من وُجْدِكُمْ»، يقولُ: من سَعَتِكُمْ التي تجدون، وإنما أمرَ الرجالَ أنْ يعطوهن مسكناً يَسْكُنَّهُ مما يجدودنه، حتى يقضينَ عِدَدهنَّ.

وقوله: «وَلا تُضارُّوهُنّ لِتُضيِّقوا عَلَيْهِنَّ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: ولا تضارُّوهُنَّ في المسكن الذي تسكنونهنَّ فيه، وأنتم تجدون سَعَةً من المنازلِ أنْ تطلبوا

التضييقَ عليهنَّ، فذلك قوله: «لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ»، يعني: لتضيقوا عليهنَّ في المسكن مع وجودكم السعة.

وقوله: «وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حتى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ كان نساؤكم المطلقات أُولاتِ حملٍ وكُنَّ بائناتٍ منكم، فأنفقوا عليهنَّ في عدتهنَّ منكم حتى يضعن حَمْلَهُنَّ.

وقال آخرون: عُنِي بقوله: «وَإِنْ كُنَّ أولاتِ حَمْل فأَنْفِقُوا عَلَيهن حتى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» كل مُطَلَّقةٍ، مَلَكَ زوجُها رجْعَتَهَا أو لم يملك.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أنْ لانفقةَ للمبتوتةِ إلا أنْ تكونَ حاملاً، لأنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ جعل النفقةَ بقوله: «وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ» للحواملِ دونَ غيرهنَّ من البائناتِ من أزواجهن ولو كان البوائن من الحوامل وغير الحوامل في الواجب لهنَّ من النفقةِ على ازواجهنَّ سواء، لم يكن لخصوصِ أولاتِ الأحمال بالذِّكرِ في هذا الموضع وجهٌ مفهوم، إذ هُنَّ وغيرهنّ في ذلك سواء وفي خصوصهن بالذكرِ دونَ غيرهنّ أدلّ الدليلِ على أنْ لانفقةَ لبائنٍ إلا أنْ تكون حاملاً.

وقوله: «فإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فآتُوهُنَّ أُجورهُنَّ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فإِنْ أرضعَ لكم نساؤكم البوائن منكم أولادهنَّ الأطفال منكم بأجرةٍ، فآتوهُن أجورَهُنَّ على رضاعهن إياهم.

وقوله: «وأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وليقبلْ بعضُكم أيها الناسُ من بعضٍ ما أمركم بعضُكم به بعضاً من معروف.

وقوله: «وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَستُرضِعُ لَهُ أُخْرى»، يقولُ: وإنْ تعاسَر الرجلُ والمرأة في رضاع ولدها منه، فامتنعتْ من رضاعه، فلا سبيلَ له عليها، وليس له إكراهها على إرضاعه، ولكنه يستأخر للصبيِّ مرضعةً غير أمِّهِ البائنة منه.

وقوله: «لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ من سَعَتِهِ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْه رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ الله»، يقـول تعـالى ذِكْرُه: لينفق الذي بانتْ منه امرأتُه إذا كان ذا سَعَةٍ من المالِ، وغِنىً من سعةِ مالِه وغِناهُ على امرأتِهِ البائنةِ في أجر رضاع ولده منها، وعلى ولده الصغير. «وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْه رِزْقُهُ»، يقولُ: ومَنْ ضُيِّقَ عليه رزقُه فلم يوسع عليه، فلينفقْ مما أعطاهُ الله على قَدْرِ مالِه، وما أعطى منه.

وقوله: «لايُكَلِّفُ الله نَفْساً إلَّا ما آتاها»، يقولُ: لايكلفُ الله أحداً من النفقةِ على مَنْ تلزمه نفقتُه بالقرابةِ والرَّحِمِ لا ما أعطاه، إنْ كان ذَا سعةٍ فمن سعته، وإنْ كان مقدوراً عليه رِزْقُه فمِمَّا رزَقَهُ الله على قدرِ طاقتهِ، لايُكلف الفقير نفقة الغنيِّ، ولا أحد من خلقِهِ الا فَرْضَهُ الذي أوجبه عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْله تَعَالَى: سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «سَيَجْعَل الله» لِلمُقِلِّ من المالِ المقدورِ عليه رِزْقُه «بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً»، يقول: من بعد شدةٍ رخاءً، ومن بعدِ ضيقٍ سَعَةً، ومن بعدِ فقرٍ غنىً.

وقوله: «وكأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَت عَنْ أمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكأيِّنْ من أهلِ قرية طغوا عن أمرِ رَبِّهم وخالفوهُ، وعن أمرِ رُسُلِ رَبِّهم، فتمادوا في طغيانهم وعُتُوِّهم، ولَجُّوا في كفرهم.

وقوله: «فَحاسَبْناها حِساباً شَديداً»، يقولُ: فحاسبناها على نِعْمَتِنا عندها وشكرِها حساباً شديداً، يقولُ: حساباً استقصينا فيه عليهم، لم نَعْفُ لهم فيه عن شيءٍ، ولم نتجاوزْ فيه عنهم.

وقوله: «وَعَذَّبْناها عَذَاباً نُكراً»، يقولُ: وعَذَّبناها عذاباً عظيماً منكراً، وذلك عذاب جهنم.

وقوله: «فَذَاقَتْ وبالَ أمْرِها»، يقولُ: فذاقتْ هذه القريةُ التي عَتَتْ عن أمرِ رَبِّها ورسله، عاقبةَ ماعملتْ وأتَتْ من معاصي الله والكفر به.

وقوله: «وكانَ عاقِبَةُ أمْرِها خُسْراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكان الذي أعقب أمرهم، وذلك كفرهم بالله وعصيانهم إياهُ «خسراً» يعني: غَبْناً، لأنهم باعوا نعيمَ الآخرةِ بخسيسٍ من الدنيا قليلٍ، وآثروا اتّباعَ أهوائِهم على اتباع أمر الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ

يقول تعالى ذِكْرُه: أعدَّ الله لهؤلاء القومِ الذين عَتَوْا عن أمر رَبِّهم ورسلهِ عذاباً شديداً، وذلك عذابُ النارِ الذي أعَدَّهُ لهم في القيامة «فاتَّقُوا الله ياأُولي الألبـاب»، يقـول تعـالى ذِكْرُه: فخافُوا الله، واحذروا سخطَهُ بأداءِ فرائضِهِ، واجتنابِ معاصيه ياأولى العقول.

وقوله: «وَالَّذين آمنوا»، يقولُ: الذين صَدَّقوا الله ورسله.

وقوله: «قَدْ أنْزَلَ الله إلَيْكُم ذِكْراً رَسُولاً»، اختلفَ أهلُ التأويل في المعنيِّ بالذِّكْرِ والرسولِ في هذا الموضع، فقال بعضُهم: الذِّكْرُ هو القرآنُ، والرسولُ محمدٌ ﷺ.

وقال آخرون: الذِّكْرُ: هو الرسولُ.

والصوابُ من القولِ في ذلك أنَّ الرسولَ ترجمةٌ عن الذكرِ، وذلك نصب لأنه مردودٌ عليه على البيان عنه والترجمة.

فتأويل الكلام إذن: قد أنزلَ اللهُ اليكم ياأولي الألبابِ ذكراً من الله لكم يُذَكِّرُكُمْ به، وينبهكم على حَظِّكم من الايمانِ بالله، والعملِ بطاعته، رسولاً يتلو عليكم آياتِ الله التي أنزلها عليه «مُبيِّنات»، يقولُ: مبينات لِمَنْ سمعها وتَدَبَّرَهَا أنها من عندِ الله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قد أنزل الله إليكم أيها الناسُ ذِكْراً رسولاً، يتلو عليكم آياتِ الله مبيناتٍ، كي يُخْرِجَ الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ «وَعَملُوا الصَّالِحاتِ»، يقولُ: وعملوا بما أمرهم الله به وأطاعوهُ «مِنَ الظُّلُماتِ الى النُّورِ»، يعني: من الكفرِ وهي الظلمات، «إلى النورِ»، يعني: الى الإيمان.

وقوله: «وَمَنْ يُؤْمِنْ بالله وَيَعْمَلْ صَالحاً»، يقولُ: ومَنْ يصدِّقْ بالله ويعملْ بطاعتـه «يُدْخِلْهُ جنَّاتٍ تَجْري من تَحْتِها الأَنهارُ» يقول: يُدخله بساتين تجري من تحتِ أشجارها الأنهار «خالِدين فيها أبَداً»، يقولُ: ماكثينَ مقيمينَ في البساتينِ التي تجري من تحتها الأَنهارُ أبداً، لايموتونَ، ولا يخرجون منها أبداً.

وقوله: «قَدْ أحْسَنَ الله لَهُ رِزقاً»، يقولُ: قد وَسَّعَ الله له في الجناتِ رزقاً، يعني بالرزق: ما رَزَقَهُ فيها من المطاعِمِ والمشارب، وسائر ما أَعَدَّ لأَوليائِه فيها، فَطَيَّبَهُ لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ

الطلاق: ١٢

﴿مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «الله الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَموات» لاما يعبدُهُ المشركونَ من الآلهةِ والأوثانِ التي لاتقدرُ على خَلْقِ شيءٍ.

وقوله: «وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ»، يقولُ: وخَلَقَ من الارضِ مثلهنَّ لما في كُلِّ واحدةٍ منهنَّ مثل ما في السمواتِ من الخَلْقِ.

وقوله: «يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يتنزَّلُ أمرُ الله بين السماء السابعة والأرض السابعة.

وقوله: «لِتَعْلَمُوا أنَّ الله على كُل شَيْءٍ قَديرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ينزل قضاءُ الله وأمره بين ذلك كي تعلموا أيها الناسُ كُنْهَ قُدْرَتِه وسلطانِه، وأنه لايتعذَّرُ عليه شيءٌ أرادَهُ، ولايمتنعُ عليه أمرٌ شاءه، ولكنه على مايشاءُ قدير «وأنَّ الله قَدْ أحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ علماً»، يقول جَلَّ ثناؤه: ولتعلموا أيها الناسُ ان الله بكل شيءٍ من خلقِه محيط عِلْماً، لايعزُبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في الارض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر يقول جَلَّ ثناؤه: فخافوا أيها الناسُ المخالفونَ أمرَ رَبِّكم عقوبتَهُ، فإنه لايمنعه من عقوبتِكم مانعٌ ، وهو على ذلك قادرٌ، ومحيطٌ أيضاً بأعمالِكم. فلا يَخْفَى عليه منها خَافٍ وهو مُحْصِيها عليكم ليجازيكم بها، يوم تُجْزَى كلُّ نفسٍ ما كسبتْ.

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: ياأيها النبيُّ المُحَرِّمُ على نفسهِ ما أحل اللهُ له، يبتغي بذلك مَرْضاةَ أزواجهِ، لِمَ تُحَرِّم على نفسكَ الحلال الذي أَحَلَّهُ الله لك، تلتمس بتحريمكَ ذلك مرضاةَ أزواجك.

واختلف أهلُ العلم في الحلالِ الذي كان جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَحَلَّهُ لرسولِه، فحرمَهُ على نفسهِ ابتغاءَ مرضاةِ أزواجه، فقال بعضهم: كان ذلك مارية مملوكته القبطية، حَرَّمها على نفسه بيمينٍ أنه لايقربها طلباً بذلك رِضاء حفصةَ بنت عمر زوجته، لأنها كانت غارتْ بأنْ خَلَا بها رسولُ الله ﷺ في يومها وفي حجرتها.

وقال آخرون: بل حَرَّمَ رسولُ الله ﷺ جاريته، فجعل اللهُ عَزَّ وجَلَّ تحريمه إياها بمنزلة اليمين، فأوجَبَ فيها من الكفارةِ مثلَ ماأوجبَ في اليمين إذا حَنثَ فيها صاحِبُها.

وقال آخرون: كان ذلك شراباً يشربُه، كان يعجبه ذلك.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: كان الذي حَرَّمَهُ النبيُّ ﷺ على نفسه شيئاً كان الله قد أَحَلَّهُ له، وجائزٌ أنْ يكون ذلك كان جاريته، وجائزٌ أنْ

يكون كان شراباً من الاشربة، وجائزٌ أنْ يكون كان غير ذلك، غير أنه أيّ ذلك كانَ فإنه كان تحريم شيءٍ كان له حلالاً، فعاتَبه الله على تحريمِهِ على نفسهِ ماكانَ له قد أحله، وبَيَّنَ له تَحِلَّةِ يمينِه في يمينٍ كان حلفَ بها مع تحريمهِ ماحَرَّمَ على نفسه.

فإن قال قائل: وما برهانُكَ على أنه ﷺ كان حلفَ مع تحريمهِ ماحرم، فقد علمت قول مَنْ قال لم يكن من النبيِّ ﷺ في ذلك غير التحريم، وأنَّ التحريمَ هو اليمين؟ قيل: البرهانُ على ذلك واضحٌ، وهو أنه لايُعْقَلُ في لغةٍ عربية ولا عجمية أنَّ قولَ القائل لجاريته، أو لطعامٍ أو شرابٍ، هذا عليَّ حرامٌ يمين، فإذا كان ذلك غير معقولٍ، فمعلومٌ أنَّ اليمينَ غير قول القائل للشيء الحلال له: هو عليَّ حرام: وإذا كان ذلك كذلك صَحَّ ماقلنا، وفَسَدَ ماخالفه. وبَعْدُ، فجائزٌ أنْ يكون تحريم النبيِّ ﷺ ماحَرَّمَ على نفسهِ من الحلالِ الذي كان الله تعالى ذِكْرُه، أحَلَّهُ له بيمين، فيكون قوله: «لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ الله»، معناه: لِمَ تحلف على الشيء الذي قد أحَلَّهُ الله أنْ لاتقربه، فتحرّمه على نفسكَ باليمين.

وإنما قلنا: إنَّ النبيَّ ﷺ حَرَّمَ ذلك، وحلفَ مع تحريمه، كما حدثني الحسن بن قزعة، قال: حدثنا مسلمةُ بن علقمة، عن داود بن أبي هند، عن الشعبيّ، عن مسروق، عن عائشة قالت: آلى رسولُ الله ﷺ وحَرَّمَ، فأُمِرَ في الإيلاء بكفارة، وقيل له في التحريم: «لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ الله لَكَ[(1)]».

وقوله: «والله غَفورٌ رَحِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله غفورٌ يامحمدُ لذنوبِ

---

(١) هذا حديث ضعيف. أخرجه الترمذي (١٢٢١) وقال: حديث مسلمة بن علقمة عن داود، رواه علي بن مسهر وغيره، عن داود، عن الشعبي: أن النبي ﷺ، مرسلاً. . .وهذا أصح من حديث مسلمة بن علقمة. وانظر الارواء للعلامة الألباني (٢٥٧٤).

التائبينَ من عبادِه من ذنوبهم، وقد غفرَ لك تحريمك على نفسِكَ ماأحَلَّهُ الله لكَ، رحيمٌ بعبادِه أنْ يعاقبهم على ماقد تابوا منه من الذنوب بعد التوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قد بَيَّنَ الله عَزَّ وجَلَّ لكم تحلَّةَ أيمانِكم، وحَدَّها لكم أيها الناسُ «وَاللهُ مَوْلاكُمْ»، يتولاَّكُمْ بنصرِه أيها المؤمنون «وَهُو العَلِيم» بمصالحكم «الحَكِيمُ» في تدبيرِه إياكم، وصَرْفِكم فيما هو أعلم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَإِذْ أَسرَّ النَّبيُّ» محمد ﷺ «إلى بَعْضِ أزْوَاجِهِ»، وهو في قول ابن عباس وقتادة وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن بن زيد والشعبي والضّحاك بن مزاحم: حفَصْةُ.

وقوله: «حَديثاً» والحديث الذي أَسَرَّ إليها في قولِ هؤلاءِ هو قولهُ لمن أسر إليه ذلكَ من أزواجه تحريمُ فتاته، أو ماحَرَّمَ على نفسِه مما كان الله جَلَّ ثَناؤُهُ قد أحَلَّهُ له، وحلفه على ذلك، وقوله: «لاتَذْكُري ذَلِكَ لأَحد»[1]

وقوله: «فلَمَا نَبَّأَتْ به»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلما أخبرتْ بالحديثِ الذي أسرَّ اليها رسولُ الله ﷺ صاحِبَتَها «وأظْهَرَهُ الله عَلَيْهِ»، يقولُ: وأظهر الله نبيه

---

(١) هي عائشة رضي الله عنها، كما سيأتي بيانه بعد.

محمداً ﷺ على أنها قد أنبأت بذلك صاحبتها.

وقوله: «عَرَّفَ بَعْضَهُ وأعْرَضَ عَنْ بَعْض»، يعني: عَرَّفَ النبي ﷺ حفصةَ بعضَ ذلك.

وقوله: «وأعْرَضَ عنْ بَعْض»، يقولُ: وترك أن يخبرها ببعضٍ.

وقوله: «فَلَمّا نَبَّأهَا بِهِ»، يقولُ: فلما خبر حفصةَ نبيُّ الله ﷺ بما أظهره الله عليه من إفشائها سِرَّ رسولِ الله ﷺ الى عائشة «قالت: مَنْ أنْبأكَ هَذَا؟»، يقولُ: قالت حفصة لرسولِ الله: من أنبأك هذا الخبرَ وأخبرك به «قال نَبَّأنيَ العَلِيمُ الخَبيرُ»، يقـول تعالى ذِكْرُه: قال محمد نبيُّ الله لحفصةَ: خَبَّرني به العليمُ بسرائرِ عبادِهِ، وضمائرِ قلوبِهم، الخبيرُ بأمورِهم، الذي لايَخْفَى عنه شيء.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنْ تَتُوبا الى الله أيتها المرأتان فقد مالَت قلوبُكما الى محبةِ ماكَرِهَهُ رسولُ الله ﷺ من اجتنابه جاريتَهُ، وتحريمها على نفسِه، أو تحريم ما كان له حلالاً مما حَرَّمُه على نفسِه بسببِ حفصة.

وقوله: «وإنْ تَظاهَرَا عَلَيْهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه للتي أسَرَّ اليها رسولُ الله ﷺ حديثَهُ، والتي أفشتْ إليها حديثَهُ، وهما عائشة وحفصة رضي الله عنهما.

وقوله: «فـإنَّ الله هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْـرِيلُ، وَصَـالِـحُ المُؤْمِنِينَ»، يقـولُ: فإنَّ الله هو وَلِيُّهُ وناصرهُ، «وصالح المؤمنين»، وخيارُ المؤمنين أيضاً مولاه وناصره.

وقوله: «وَالمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلك ظَهيرٌ»، يقولُ: والملائكةُ مع جبريلَ وصالح المؤمنينَ لرسولِ الله ﷺ أعوانٌ على مَنْ آذاه، وأرادَ مَسَاءَتَهُ. والظهيرُ في هذا الموضع بلفظ واحدٍ في معنى جمع ولو أخرج بلفظِ الجميع لقيل: والملائكةُ بعد ذلك ظُهَرَاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: عسى ربُّ محمدٍ إنْ طلقكنَّ يامعشر أزواجِ محمدٍ ﷺ أنْ يُبْدِلَهُ منكن أزواجاً خيراً منكن.

وقيل: إنَّ هذه الآية نزلتْ على رسولِ الله ﷺ تحذيراً من الله نساءه لما اجتمعن عليه في الغيرة.

وقـولـه: «مُسْلِمـاتٍ» يقولُ: خاضعاتٍ لله بالطاعة «مُؤْمِناتٍ»، يعني: مصدّقاتٍ بالله ورسوله.

وقوله: «قانِتاتٍ»، يقولُ: مطيعاتٍ لله.

وقوله: «تائباتٍ» يقولُ: راجعاتٍ الى مايحبه اللهُ منهن من طاعتِه عما يكرهه منهنَّ. «عابِداتٍ»، يقولُ: متذللاتٍ لله بطاعته.

وقوله: «سائحاتٍ»، يقولُ: صائماتٍ.

وقوله: «ثَيباتٍ» وهُنَّ اللواتي فد افْتُرِعْنَ وذهبتْ عذرتهنَّ «وأبكاراً» وهُنَّ اللواتي لم يُجَامَعْنَ، ولم يُفْتَرَعْنَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ

نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ «قُوا أَنْفُسَكُمْ» يقولُ: عَلِّمُوا بعضَكم بعضاً ما تَقُونَ به مَنْ تعلمونه النارَ، وتَدْفَعُونَها عنه إذا عمل به من طاعةِ الله، واعملوا بطاعة الله

وقوله: «وأَهْلِيكُم ناراً»، يقولُ: وعَلِّموا أهليكم من العملِ بطاعةِ الله ما يَقُونَ به أنفُسَهم من النارِ.

وقوله: «وقودُها النَّاس» يقولُ: حَطَبُهَا الذي يُوقَدُ على هذه النارِ بنو آدم وحجارة الكبريت.

وقوله: «عَلَيْها ملائِكة غِلاظٌ شِدَادٌ»، يقولُ: على هذهِ النارِ ملائكةٌ من ملائكة الله، غِلَاظٌ على أهلِ النار، شِدَادٌ عليهم «لايَعْصُونَ الله ماأَمَرَهُمْ»، يقولُ: لايخالفونَ الله في أمره الذي يأمرهم به «وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ»، يقولُ: وينتهون الى مايأمرهم به رَبُّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِه يومَ القيامة للذين جَحَدُوا وحدانيتَهُ في الدنيا «يا أَيُّها الَّذين كَفَروا» الله «لاتَعْتَذِروا اليَوْمَ إِنَّما تُجزَوْنَ ماكُنْتُمْ تَعْمَلُون»، يقولُ: يُقالُ لهم: إنما تُثَابُونَ اليومَ، وذلك يوم القيامة، وتعطونَ جزاء أعمالكم التي كنتم في الدنيا تعملون، فلا تطلبوا المعاذيرَ منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ٨

يقـول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله «تُوبُوا الى الله»، يقولُ: ارجعوا من ذنوبكم الى طاعةِ الله، وإلى مايُرضِيه عنكم «تَوْبَةً نَصُوحاً»، يقولُ: رجوعاً لاتعودون فيها أبداً.

وقوله: «عَسَى رَبُّكُم أنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ»، يقولُ: عسى ربكم أيها المؤمنون أنْ يمحو سيئاتِ أعمالكم التي سَلَفَتْ منكم «وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهـا الأنهارُ»، يقولُ: وأنْ يُدْخِلَكُم بساتينَ تجري من تحت أشجارها الانهار «يَوْمَ لايُخْزِي الله النَّبِيَّ»، محمداً ﷺ «والذينَ آمَنوا مَعَهُ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَينَ أيْدِيهم»، يقولُ: يسعى نورُهم أمامهم «وبأيمانِهِمْ»، يقولُ: وبأيمانِهم كتابُهم.

«يقولُونَ رَبَّنا أتْمِمْ لَنا نُورَنا، واغْفِرْلَنا»، يقول جَلَّ ثناؤُه: مخبراً عن قيل المؤمنينَ يوم القيامة: يقولون: رَبَّنا أتمم لنا نورَنَا، يسألون رَبَّهم أنْ يُبقي لهم نورَهُمْ، فلا يطفئه حتى يجوزوا الصراطَ، وذلـك حين يقـولُ المنـافقـونَ والمنافقاتُ للذين آمنوا «انْظُرُونا نَقْتَبِس مِنْ نُورِكُمْ» [الحديد: ١٣].

وقوله: «واغْفِرْلَنا»، يقولُ: واسْتُرْ علينا ذنوبَنا، ولا تَفْضَحنا بها بعقوبتكَ إيانـا عليهـا «إنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ»، يقولُ: إنك على إتمامِ نورنا لنا، وغفرانِ ذنوبنا، وغيرِ ذلك من الاشياء ذُو قدرةٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «ياأيها النَّبِيُّ جاهِد الكُفَّارَ» بالسيفِ «وَالمُنافِقينَ» بالوعيدِ واللسانِ.

«وَاغْلُظْ عليهمْ»، يقولُ: واشْدُدْ عليهم في ذاتِ الله «وَمأوَاهُمْ جهَنَّمُ»، يقولُ: ومُكْثُهم جهنمُ، ومصيرُهم الذي يصيرونَ إليه نارُ جهنمَ. «وَبِئْسَ المَصيرُ»، قال: وبِئْسَ الموضعُ الذي يصيرونَ إليه جهنمُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَثَّلَ اللهُ مثلاً للذين كفروا من الناسِ وسائرِ الخَلْقِ امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لوطٍ، كانتا تحتَ عَبْدَيْنِ من عبادنا، وهما نوح ولوط فخانَتَاهُما.

ذُكِرَ أنَّ خيانَةَ امرأةِ نوح زوجَها أنها كانت كافرة، وكانت تقولُ للناس: إنه مجنونٌ. وأنَّ خيانةَ امرأةِ لوطٍ، أنَّ لوطاً كان يُسِرُّ الضيفَ[1]، وتَدُلُّ عليه.

وقوله: «فَلم يُغْنِيَا عَنْهُما مَن الله شيئاً»، يقولُ: فلم يُغْنِ نوحٌ ولوطٌ عن امرأتَيْهِمَا من الله لَمَّا عَاقَبَهُمَا على خيانَتِهما أزواجَهما شيئاً، ولم يَنْفَعْهُمَا أنْ كانت أزواجُهما أنبياءَ.

(١) كانت امراة لوط إذا ضافَ لوطا أحدٌ أخبرتْ به أهل المدينة ممن يعملُ السوء. ويُسِرُّ: بمعنى يخفي.

وقوله: «وَقِيل ادخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلينَ»، قال الله لهما يوم القيامةِ: ادخلا أيتها المرأتان نارَ جهنمَ مع الداخلين فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وضربَ الله مثلاً للذين صَدَّقُوا الله ووحَّدُوه، امرأةَ فرعونَ التي آمنت بالله ووحَّدَتْهُ، وصدَّقَتْ رسولَهُ موسى، وهي تحت عدوٍّ من أعداءِ الله كافر، فلم يضرّها كُفْرُ زوجِهَا، إذْ كانت مؤمنة بالله، وكان من قضاءِ الله في خَلْقِه أنْ لاتزرَ وازرةٌ وزر أُخرى، وأنَّ لكل نفس ماكسبتْ، إذ قالتْ «رَبِّ ابْنِ لي عَنْدكَ بَيْتاً في الجْنَّةِ»، فاستجاب الله لها فبنى لها بيتاً في الجنة.

وقوله: «ونجِّني من فِرْعَوْنَ وَعملِهِ»، وتقول: وأنقذني من عذابِ فرعونَ، ومن أنْ أعملَ عَمَلَهُ، وذلك كفره بالله.

وقـولـه: «وَنجِّنِي مِنْ القَوْمِ الظَّالمين»، تقول: وأَخْلِصْني وأنقذني من عملِ القومِ الكافرينَ بك، ومن عذابهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَضَرَبَ الله مَثَلاً للَّذِينَ آمنوا»، مَرْيَمَ ابْنَة عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها، يقولُ: التي منعت جَيْبَ درعها جبريلَ عليه السلام، وكلّ

ماكان في الدرعِ من خَرْقٍ أو فَتْقٍ، فإنه يُسمى فَرْجاً، وكذلك كُلُّ صدعٍ وشقٍّ في حائطٍ، أو فرجِ سقفٍ فهو فَرْجٌ.

وقوله: «فَنَفَخْنا فِيه مِنْ رُوحِنا»، يقولُ: فنفخنا فيه في جيبِ درعها، وذلك فرجها، من رُوحِنَا من جبرئيلَ، وهو الروحُ.

«وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها»، يقولُ: آمنت بعيسى، وهو كلمةُ الله «وكتبِهِ»، يعني: التوراةَ والإنجيلَ. «وكانتْ مِنَ القانِتِينَ»، يقولُ: وكانت من القوم المُطيعينَ.

سُورَةُ المُلْكِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «تبارَكَ»: تَعَاظَمَ وتَعَالى «الَّذي بِيَدِهِ المُلْكُ» بيده مُلكُ الدنيا والآخرة وسُلطانُهما، نافذٌ فيهما أَمْرُهُ وقضاؤه. «وَهُوَ على كلّ شَيْء قَديرٌ»، يقولُ: وهو على مايشاءُ فِعْلَهُ ذُو قدرةٍ لايمنعهُ من فعله مانعٌ، ولايحولُ بينه وبينه عجزٌ.

وقوله: «الَّذي خَلَقَ المَوْتَ والْحَياةَ» فأماتَ مَنْ شاء وما شاء، وأحيا مَنْ أرادَ وما أرادَ الى أجلٍ معلومٍ «لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»، يقولُ: ليختبركُمْ فينظر أَيُّكُمْ له أيها الناسُ أطوع، وإلى طلبِ رضاهُ أسرع.

وقـوله: «وَهوَ العَزيزُ»، يقولُ: وهو القويُّ الشديدُ انتقامُه مِمَّنْ عَصَاهُ، وخالفَ أمره «الغَفُورُ» ذنوبَ مَنْ أنابَ اليه وتابَ من ذنوبه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن صفته:«الذِّي خَلَقَ سَبْعَ سَمواتٍ طباقاً» طبقاً فوقَ طبقٍ، بعضُهما فوق بعض.

وقوله: «ماتَرى في خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفاوُتٍ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ما تَرَى في خَلْقِ الرحمنِ الذي خلق لافي سماءٍ ولا في أرضٍ، ولا في غيرِ ذلك من تفاوتٍ، يعني: من اختلاف.

وقوله: «فارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ»، يقولُ: فَرُدَّ البصَر، هل تَرى فيه من صُدوع؟ وهي من قولِ الله «تَكـادُ السَّمـوات يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِن» [الشورى: ٥] بمعنى: يتشققن ويتصدعْنَ والفطور: مصدر فُطِر فُطُوراً.

وقوله: «ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْن»، يقول جَلَّ ثناؤه: ثم رُدَّ البصرَ ياابن آدم كَرَّتين، مرّةً بعدَ أُخرى، فانظر «هَلْ ترى مِنْ فُطورٍ» أو تفاوتٍ «يَنْقَلِبْ إلَيْكَ البَصَرُ خاسِئاً»، يقـول: يرجع إليك بَصَرُكَ صاغراً مُبْعَداً من قولهم للكلب اخسأ: إذا طَرَدُوه أي: ابعدْ صاغراً. «وَهوَ حَسيرٌ»، يقولُ: وهو مُعْيٍ كال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾**

يقـول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ زَيَّنا السَّماء الدُّنْيا بِمَصابِيحَ» وهي النجوم، وجعلها مصابيح لإضاءتها وكذلك الصبحُ إنما قيلَ له صبحٌ للضوءِ الذي يضيء للناس من النهار «وَجَعلناها رُجُوماً للشَّياطِين»، يقولُ: وجعلنا المصابيح التي زينّا بها السماء الدنيا رُجوماً للشياطين تُرْجَمُ بها.

وقوله: «وأعْتَدنا لَهُمْ عَذَابَ السَّعير»، يقول جَلَّ ثناؤه: وأعتدنا للشياطين في الآخرة عذابَ السعيرِ، تُسْعَرُ عليهم فتُسْجَر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلِلَّذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» الذي خَلَقَهم في الدنيا «عَذَابُ جَهَنَّمَ»، في الاخرة «وَبِئْسَ المَصير»، يقولُ: وبئس المصيرُ عذابُ جهنمَ.

وقوله: «إذَا أُلْقُوا فيها»، يعني إذا أُلقي الكافرون في جهنمَ «سَمِعُوا لها» يعني: لجهنمَ «شَهيقاً»، يعني بالشهيق: الصوت الذي يخرجُ من الجوفِ بشدّةٍ كصوتِ الحمار.

وقوله: «وَهي تَفُورُ» يقول: تَغْلي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «تكادُ» جهنم «تَميَّزُ»، يقولُ: تَتَفرَّقُ وتتقطَّعُ «مِنَ الغَيْظِ» على أهلِها.

وقوله: «كُلَّما أُلْقيَ فيها فَوْجٌ سألَهُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: كلما أُلقي في جهنمَ جماعةٌ سألهم «خزَنَتُها: أَلَمْ يأتكُمْ نَذيرٌ»، يقولُ: سأل الفوج خزَنَةَ جهنم، فقالوا لهم: ألم يأتكم في الدنيا نذير يُنْذِرُكم هذا العذاب الذي أنتم فيه؟ فأجابهم المساكين: «فقالوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذيرٌ»، ينذرنا هذا، «فَكَذَّبْنا» هُ «وَقُلْنا» له «مانَزَّلَ الله مِنْ شيءٍ إنْ أَنْتُمْ إلاّ في ضَلالٍ كَبيرٍ»، يقولُ: في ذهابٍ عن الحق بعيد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال الفوجُ الذي أُلقي في النار للخزنة «لَوْ كُنَّا» في الدنيا «نَسْمَعُ أَوْ نَعقِلُ» من النذر ماجاؤونا به من النصيحة، أو نعقل عنهم ماكانوا يَدْعُونَنَا إليه «ماكُنَّا» اليومَ «في أصحابِ السَّعير»، يعني: أهل النار.

وقولـه: «فـاعْترفُوا بِذَنْبِهم»، يقولُ: فأقرُّوا بذنبهم ووحَّدَ الذَّنْبَ، وقد أُضيفَ الى الجمعِ، لأنَّ فيه معنى فعل، فأدى الواحدُ عن الجمع، كما يقال: خَرَجَ عطاءُ الناس، وأُعطيةُ الناس. «فَسُحقاً لأصحاب السَّعيرِ»، يقولُ: فُبعداً لأهلِ النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين يخافون رَبَّهم بالغيب: يقولُ: وهُمْ لم يَرَوْهُ «لَهُمْ مَغْفِرةٌ»، يقولُ: لهم عفوٌ من الله عن ذنوبهم. «وأجْرٌ كَبيرٌ»، يقولُ: وثوابٌ من الله لهم على خشيتهم إياه بالغيب جزيلٌ.

وقوله: «وأسِرُّوا قَوْلَكُمْ أو اجْهَرُوا بِهِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وأَخْفُوا قولَكُمْ وكلامَكُمْ أيها الناسُ أو أعلنوه وأظْهِرُوه «إنَّهُ عَليمٌ بذَاتِ الصُّدور» يقولُ: إنه ذُو علم بضمائر الصدور التي لم يُتَكَلَّم بها، فكيف بما نطق به وتكلم به، أخفى ذلكَ أو أعْلَنَ، لأنَّ مَنْ لم تَخْفَ عليه ضمائر الصدورِ فغيرُها أحرى أنْ لايَخْفَى عليه.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٤ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ألا يَعْلَمُ» الربُّ جَلَّ ثناؤه «مَنْ خلَقَ» من خَلْقِهِ، يقولُ: كيف يَخْفى عليه خَلْقُه الذي خَلَقَ «وَهُوَ اللَّطِيفُ» بعبادِهِ «الخَبِيرُ» بهم وبأعمالهم.

وقوله: «هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: الله الذي جعلَ لكم الارض ذَلُولاً سهلاً، سَهَّلها لكم «فامْشوا في مَناكبها»، يقول: فامشوا في نواحيها وجوانبها.

وقوله: «وكُلُوا مِنْ رزْقِهِ» يقولُ: وكلوا من رزقِ الله الذي أخرجه لكم من مناكب الارضِ، «وإلَيْهِ النُّشورُ» يقول تعالى ذِكْرُه: وإلى اللهِ نَشْرُكُمْ من قبورِكم.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «أَأَمِنْتُمْ مَنْ في السَّماءِ» أيها الكافرون «أنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض فإذا هي تَمُورُ»، يقولُ: فإذا الارض تذهب بكم وتجيء وتضطرب «أمْ أمِنتُمْ مَنْ في السماء» وهو الله «أنْ يُرْسِل علَيْكُمْ حاصباً»، وهو الترابُ فيه الحَصْباءُ الصِّغارُ «فَستَعْلَمونَ كَيْفَ نَذِيرِ»، يقولُ: فستعلمون أيها الكَفَرَةُ كيف عاقبة نذيري لكم، إذ كذبتم به، ورَدَدْتُموه على رسولي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد كذَّبَ الذين من قبل هؤلاء المشركين من قريش من الأمم الخالية رُسُلَهُمْ، «فكيف كانَ نكيرِ»، يقولُ: فكيف كان نكيري تكذيبَهُمْ إياهم. «أوَ لمْ يَرَوا الى الطَّير فَوْقَهُمْ صافات»، يقولُ: أو لم يرَ هؤلاء المشركون الى الطير فوقهم صافات أجنحتَهُنّ «ويَقْبِضْنَ»، يقولُ: ويقبضن أجنحتهن أحياناً، وإنما عُني بذلك أنها تَصُفُّ أجنحتها أحياناً، وتقبضُ أحياناً.

وقوله: «ما يُمْسِكُهُنَّ إلا الرَّحمنُ»، يقولُ: مايمسك الطيرَ الصافاتِ فوقَكُمْ إلا الرحمنُ: يقولُ: فلهم بذلك مُذَكِّرٌ إنْ ذكروا، ومُعْتَبرٌ إنْ اعتبروا، يعلمون به أنَّ رَبَّهم واحدٌ لاشريك له «إنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ»، يقولُ: إنَّ الله بكل شيء ذو بصر وخبرة، لايدخل تدبيره خلل، ولا يرى في خلقه تفاوت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمشركينَ به من قريش: مَنْ هذا الذي هو جُنْدٌ لكم أيها الكافرون به، ينصركم من دونِ الرحمن إنْ أرادَ بكم سوءً، فيدفعُ عنكم ما أراد بكم من ذلك «إنِ الكافرونَ إلاَّ في غُرُور»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما الكافرون بالله إلا في غرورٍ من ظَنِّهم أنَّ آلهتهم تُقَرِّبُهم الى الله زُلْفى، وأنها تنفعُ أو تضرُّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل

لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَمْ مَنْ هذا الذي يُطْعِمُكم ويَسْقِيكم، ويأتي بأقواتِكم إنْ أمسكَ ربكم رزقه، الذي يرزقكم، عنكم.

وقوله: «بَلْ لَجُّوا في عُتُوٍّ ونُفُور»، يقولُ: بل تَمادوا في طغيانٍ ونُفُورٍ عن الحقِّ واستكبارٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «أفَمَنْ يَمْشي» أيها الناسُ «مُكِباً عَلى وَجْهِهِ» لايبصرُ ما بين يديه، وما عَنْ يمينهِ وشمالهِ «أهْدَى»: أشدُّ استقامةً على الطريق، وأهْدى له، «أمْ مَنْ يَمْشي سَوياً» مَشْيَ بني آدمَ على قَدَميهِ «على صِراطٍ مُسْتَقيمٍ»، يقولُ: على طريقٍ لا اعوجاجَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ يا محمدُ، للذين يكذِّبونَ بالبعثِ من المشركينَ: الله الـذي أنشـأكم فخلقَكُمْ، «وجَعَلَ لَكُم السَّمْعَ» تسمعونَ به، «والأَبصار» تُبْصِرُونَ بها «والأفئدَةَ» تَعْقِلُونَ بها «قَليلاً ماتَشْكُرُونَ»، يقولُ: قليلاً ماتشكرون رَبَّكم على هذه النِّعم التي أنعمها عليكم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٢٥﴾ ٢٤

يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ، الله «الذي ذَرأَكُمْ في الأرضِ»، يقولُ: الله الذي خلقكم في الأرضِ «وإلَيْهِ تُحْشَرُونَ»، يقولُ: وإلى الله تُحشرونَ، فَتُجمَعُونَ من قُبوركم لموقِف الحساب. «وَيَقُولُونَ مَتى هَذَا الوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين»، يقول جَلَّ ثناؤُه: ويقولُ: المشركون متى يكون ماتَعِدُنَا من الحشرِ الى الله إنْ كنتم صادقينَ في وَعْدِكم إيانا ماتَعِدُونَنَا.

القَوْلُ في تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢٦ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ، لهؤلاء المُسْتَعْجِلِيكَ بالعذابِ وقيامِ الساعة: إنما عِلْمُ الساعة، ومتى تقومُ القيامة عندَ الله لايعلمُ ذلك غيرهُ، «وإنَّما أنا نَذِير مُبين»، يقولُ: وما أنا إلا نذيرٌ لكم أنذركُم عذابَ الله على كُفْرِكم به «مُبينٌ»: قد أبانَ لكم إنذاره.

وقوله: «فَلَمَّا رأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذينَ كَفَرُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلما رأى هؤلاء المشركونَ عذابَ الله زلفةً: يقولُ: قريباً، وعايَنُوهُ، سِيئَتْ وجوهُ الذين كفروا: يقولُ: ساءَ الله بذلك وجوهَ الكافرينَ.

«وَقِيلَ هَذَا الذي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ»، يقولُ: وقال الله لهم: هذا العذابُ الذي كنتم به تُذَكِّرونَ رَبَّكم أنْ يُعَجِّلَهُ لكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا

﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» يا محمدُ، للمشركين من قومكَ «أرأيتمْ» أيها الناسُ «إنْ أهْلَكَنِي الله» فأماتني «وَمَنْ مَعي، أو رحِمَنا» فأخَّرَ في آجالنا «فَمَنْ يُجيرُ الكافِرينَ» بالله «مِنْ عَذَابٍ» مُوجعٍ مُؤْلمٍ، وذلك عذابُ النار. يقولُ: ليس يُنْجي الكفارَ من عذابِ الله موتُنا وحياتنا، فلا حاجةَ بكم الى أنْ تستعجلوا قيامَ الساعةِ، ونزولَ العذابِ، فإنَّ ذلك غير نافِعِكُمْ، بل ذلك بلاءٌ عليكم عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ، رَبُّنا «الرَّحْمَن آمَنَّا بِهِ»، يقولُ: صَدَّقْنَا به، «وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا»، يقولُ: وعليه اعتمدنا في أمورنا، وبه وَثِقْنَا فيها «فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فَي ضَلالٍ مُبِينٍ»، يقولُ: فستعلمونَ أيها المشركون بالله الذي هو في ذهابٍ عن الحق، والذي هو على غيرِ طريقٍ مستقيمٍ مِنَّا ومنكم إذا صِرْنَا إليه، وحُشِرْنَا جميعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» يا محمدُ، لهؤلاء المشركين «أرأيْتُمْ» أيها القوم العادلون بالله «إنْ أصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً»، يقولُ: غائراً لاتنالُه الدِّلاءُ «فَمَنْ يأتيكُمْ بمَاءٍ مَعِينٍ»، يقولُ: فمن يجيئكم بماءٍ مَعينٍ، يعني بالمعين: الذي تراهُ العيون ظاهراً.

سُورَةُ القَلَمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «نٓ» وقد ذكرنا القول فيما جانس ذلك من حروفِ الهجاء التي افتتحت بها أوائل السور، والقول في قوله نظير القول في ذلك[1].

وأما القلم: فهو القلمُ المعروفُ، غير أنَّ الذي أقسمَ به رَبُّنا من الأقلام: القلم الذي خَلَقَهُ الله تعالى ذِكْرُه، فأمَرَهُ فجرى بكتابة جميع ماهو كائن الى يوم القيامة[2].

وقوله: «وَما يَسْطُرُون»، يقولُ: والذي يخطُّونَ ويكتبونَ: وإذا وُجِّهَ التأويلُ الى هذا الوجهِ كان القَسَمُ بالخَلْقِ وأفعالهم. وقد يحتمل الكلامُ معنى آخر، وهو أنْ يكون معناه: وسَطْرهم مايسطرونَ، فتكونُ «ما» بمعنى المصدر.

---

(١) انظر اول تفسير سورة البقرة.

(٢) فَصَّل ابن كثير القول بأنه القلمُ الذي يكتبُ به الناس، كقوله تعالى ﴿اقرأ وربك الأكرم الذي عَلَّم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم﴾ فهو قسم منه تعالى وتنبيه لخلقه على ماأنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم، ولهذا قال: ﴿ومايسطرون﴾.

وإذا وُجِّه التأويلُ الى هذا الوجه، كان القسمُ بالكتابِ، كأنه قيل: نٓ والقلمِ والكتابِ.

وقـوله: «ماأنْتَ بنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُون»، يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: ما أنت بنعمةِ رَبِّك بمجنونٍ، مكذِّباً بذلك مشركي قريش الذين قالوا له: إنك مجنون.

وقوله: «وَإنَّ لكَ لأَجْراً غَيْر مَمْنُون»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ لك يامحمد لثواباً من الله عظيماً على صَبْرِكَ على أذى المشركين إياك غيرَ منقوصٍ ولا مقطوعٍ من قولهم: حبل مُنين[١]، إذا كان ضعيفاً، وقد ضَعُفَتْ مُنَّته: إذا ضَعُفَتْ قُوَّته.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: وإنك يا محمدُ، لعلى أدبٍ عظيمٍ، وذلك أدبُ القرآنِ الذي أدَّبَهُ الله به، وهو الإسلامُ وشرائعُه.

وقوله: «فَستُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بأيِّكُمُ المُفْتُون»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَسَترى يا محمدُ، ويرى مشركوُ قومك الذين يَدْعُونَك مجنوناً «بأيِّكُمُ المَفْتُونَ»، يقول: بأيكم الجنون.

وقوله: «إنَّ رَبَّك هُوَ أعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبيلِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ

---

(١) في المطبوع «منير» خطأ، وانظر معاني القرآن للفراء: ٣/١٧٣.

رَبَّكَ يا محمدُ، هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله، كضلالِ كفارِ قريشٍ عن دينِ الله، وطريقِ الهدى. «وَهُوَ أَعْلَمُ بالمُهْتَدينَ»، يقول: وهو أعلمُ بمن اهتدى، فاتَّبع الحقَّ وأقرَّ به، كما اهتديتَ أنت فاتبعتَ الحقَّ.

وهـذا من معـاريضِ الكلام، وإنما معنى الكلام: إنَّ رَبَّكَ هو أعلمُ يامحمد بك، وأنت المهتدي وبقومكَ من كفارِ قريشٍ وأنهم الضَّالُّونَ عن سبيل الحقِّ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «فَلا تُطِعْ» يا محمدُ، «المُكذِّبينَ» بآيات الله ورسـولِه «وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ»، يقولُ: ودَّ هؤلاء المشركون يا محمدُ، لو تلينُ لهم في دينك بإجابتكَ إياهم الى الرُّكُونِ الى آلهتهم، فَيلِينُونَ لكَ في عبادتِكَ إلَهَكَ، كما يقول جَلَّ ثناؤه: «وَلَوْلا أنْ ثَبَّتْناكَ لَقد كِدْتَ تَرْكَنُ إلـيهـم شيئـاً قليلاً، إذاً لأذَقْنـاك ضِعْـفَ الـحياةِ وضعـف الـمَمَـاتِ» [الاسراء: ٧٤ ـ ٧٥]. وإنما هو مأخوذ من الدُّهن، شَبَّهَ التليينَ في القولِ بتليين الدُّهن.

وقوله: «وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ»، ولا تطع يا محمدُ، كل ذي إكثارٍ للحلف بالباطِل «مَهين»، وهو الضعيف.

وقوله: «هَمَّازٍ»، يعني: مغتابٍ للناسِ يأكلُ لحومَهم.

وقوله: «مَشَّاءٍ بنَميمٍ»، يقولُ: مشاء بحديثِ الناسِ بعضهم في بعضٍ، ينقلُ حديثَ بعضهم الى بعضٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾

وقوله: «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ» يقول تعالى ذِكْرُه: بخيلٍ بالمالِ ضنين به عن الحقوق.

وقوله: «مُعْتَدٍ»، يقولُ: مُعْتَدٍ على الناس «أثيمٍ» ذي إثمٍ بربه.

وقوله: «عُتُلٍّ»، يقولُ: وهو عتل، والعتلُّ: الجافي الشديد في كفرِه، وكلُّ شديدٍ قوي، فالعربُ تسميه عُتُلاً.

وقوله: «زَنيم»، والزنيمُ في كلام العرب: المُلْصَقُ بالقومِ وليس منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾

يعني جَلَّ ثَناؤُهُ: ولا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهين «أنْ كانَ ذا مال وبنين» كأنه نَهاهُ أنْ يطيعهُ من أجلِ أنه ذُو مالٍ وبَنين.

وقوله: «إذَا تُتلى عَلَيه آياتنا قال أساطير الأَوَّلينَ»، يقولُ: إذ تُقرأ عليه آياتُ كتابِنَا، قال: هذا مما كتبه الأوَّلونَ استهزاءً به وإنكاراً منه أنْ يكون ذلك من عند الله.

وقوله: «سَنَسمهُ على الخُرْطُومِ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم، معناه: سنخطِمُهُ بالسيفِ. فنجعل ذلك علامةً باقيةً، وسِمَةً ثابتةً فيه ماعاشَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: سَنَشِينُه شيناً باقياً.

وقال آخرون: سِيمَا على أنفِهِ.

وأولى القولين بالصواب في تأويل ذلك عندي قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: سَنُبَيِّنُ أمرَهُ بياناً واضحاً حتى يعرفوهُ، فلا يَخْفَى عليهم، كما لاتخفى السمةُ على الخرطومِ. وقال قتادة: معنى ذلك: شَيْنٌ لايفارقُه آخر ماعليه، وقد يحتمل أيضاً أنْ يكون خَطْمٌ بالسيف، فجمع له مع بيانِ عيوبِه للناسِ الخطمَ بالسيف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إِنَّا بَلَوْناهُمْ»: اي بَلَوْنا مشركي قريش، يقولُ: امْتَحَنَّاهُمْ فاختبرناهم، «كَما بَلونا أصحَابَ الجَنَّةِ»، يقولُ: كما امتحنا أصحابَ البستانِ «إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ»، يقولُ: إِذْ حَلَفُوا ليصرمُنَّ ثمرَهَا إذا أصبحوا، «وَلا يَستَثنون»، ولا يقولونَ إنْ شاء الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَطَرَقَ جنةَ هؤلاءِ القومِ ليلاً طارقٌ من أمرِ الله وهم نائمونَ، ولايكون الطائفُ في كلام العرب إلا ليلاً، ولا يكون نهاراً، وقد يقولون: أطفت بها نهاراً.

وقوله: «فأصْبَحَتْ كالصَّرِيمِ»، اختلف أهلُ التأويل في الذي عُني بالصريم، فقال بعضهم: عُني به الليل الاسود.

وقال بعضهم: معنى ذلك فأصبحت جَنَّتُهم محترقةً سوداءَ كسوادِ الليلِ المظلمِ البهيم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فأصبحت كأرضٍ تُدْعى الصريم معروفة بهذا الاسم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فتنادى هؤلاء القوم وهم أصحاب الجنةِ، يقولُ: نادى بعضُهم بعضاً «مُصْبحين»، يقولُ: بعد أنْ أصبحوا «أن اغْدُوا على حَرثِكُمْ» وذلك الزرع «إنْ كُنْتُم صَارِمين»، يقولُ: إنْ كنتم حاصدي زرعكم «فانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتخافَتُونَ»، يقولُ: فمضوا الى حَرْثِهم وهم يتسارُّونَ بينهم «أنْ لايَدخُلَنَّها اليَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِين»، يقولُ: وهم يتسارُّونَ يقول بعضُهم لبعضٍ: لايدخلنَّ جَنَّتَكُم اليوم عليكم مسكين.

ومعنى قوله: «وَغَدَوْا على حَرْدٍ قادِرِينَ»، وغَدوا على أمرٍ قد قَصَدُوهُ واعتمدوه، واستسرُّوهُ بينهم، قادرينَ عليه في أنفسهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما صار هؤلاء القوم الى جَنَّتِهم، ورأوها محترقاً حَرْثُهَا، أنكروها وشَكُّوا فيها، هل هي جَنَّتُهم أم لا، فقال بعضُهم لأصحابهِ ظناً منه أنهم قد أغفلوا طريق جنتهم، وأنَّ التي رأوا غيرَها: إنا أيها القوم

لضالونَ طريقَ جَنَّتنا، فقال مَنْ علم أنها جنتهم، وأنهم لم يُخْطِئوا الطريقَ: بل نحنُ أيها القومُ محرومونَ، حُرِمْنا منفعةَ جنتنا بذهابِ حرثِها.

وقوله: «قال أوْسَطُهُمْ»، يعني: أعْدَلُهم.

وقوله: «ألَمْ أقُل لَكُمْ لَولا تُسَبِّحُونَ»، يقولُ: هَلاَّ تَسْتَثْنُون إذ قلتم «لَنَصْرِمُنَّها مُصْبِحينَ»، فتقولوا إنْ شاءَ اللهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال أصحاب الجنة «سُبْحانَ رَبِّنا إنَّا كُنَّا ظالِمِينَ»، في تركنا الاستثناء في قسمنا وعَزْمِنا على تركِ إطعام المساكين من ثمرِ جَنَّتِنا.

وقوله: «فأقْبَلَ بَعْضُهُم على بَعْضٍ يَتَلاومونَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فأقبل بعضُهم على بعضٍ يلومُ بعضهم بعضاً على تفريطهم فيما فَرَّطوا فيه من الاستثناء، وعزمهم على ماكانوا عليه من تركِ إطعامِ المساكين من جنتهم.

وقوله: «ياوَيْلنا إنَّا كُنَّا طاغِينَ»، يقولُ: قال أصحاب الجنة: ياوَيْلَنا إنَّا كنا مُبْعَدين: مخالفينَ أمرَ الله في تركنا الاستثناء والتسبيحَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قيل أصحاب الجنة «عَسَى رَبُّنا أنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها» بتوبتنا من خطأ فِعْلِنا الذي سَبَق منا خيراً من جَنَّتنا «إنَّا الى رَبِّنا

رَاغبونَ»، يقولُ: إنا الى ربنا راغبون في أنْ يُبْدِلَنَا من جنتنا إذْ هلكَت خيراً منها.

يقـول تعـالى ذِكْرُه: «كَذلكَ العَذَابُ»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: كَفِعْلِنَا بجنة أصحـاب الجنـة، إذ أصبحت كالصريم بالذي أرسلنا عليها من البلاء والآفة المفسـدةِ، فَعَلْنـا بِمَنْ خالفَ أمرَنَا وكفرَ برسلنا في عاجل الدنيا، «وَلعَذَاب الآخرة أكبر»، يعني: عقوبة الآخرة بمن عصى رَبَّه وكفر به أكبر يومَ القيامة من عقوبة الدنيا وعذابها.

وقوله: «لو كانُوا يَعْلَمُونَ»، يقولُ: لو كان هؤلاء المشركون يعلمونَ أنَّ عقـوبـةَ الله لأهلِ الشركِ به أكبر من عقوبتهِ لهم في الدنيا، لارتدعُوا وتابوا وأنابوا، ولكنهم بذلك جُهَّالٌ لايعلمون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّ للمتقِينَ» الذين اتقوا عقوبةَ الله بأداءِ فرائِضه، واجتناب معاصيه «عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعيمِ»، يعني: بساتين النعيم الدائم.

وقوله: «أفَنَجْعَلُ المُسْلِمِينَ كالمُجْرِمينَ»، يقولِ تعالى ذِكْرُه: أفنجعلُ أيها النـاسُ في كرامتي ونعمتي في الآخـرة الذين خَضَعُوا لي بالطاعة، وذَلُّوا لي بالعبودية، وَخَشعُوا لأمري ونهيي، كالمجرمين الذين اكتسبوا المآثم، ورَكِبُوا المعاصيَ، وخالفوا أمري ونهيي؟ كَلَّا ماالله بفاعلٍ ذلك.

وقوله: «مالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» أتجعلون المطيعَ لله من عبيدِهِ، والعاصي له منهم في كرامته سواء يقول جَلَّ ثناؤه: لاتُسَوُّوا بينهما فإنهما لايستويان عندَ الله، بل المطيعُ لَهُ الكرامةُ الدائمةُ والعاصي له الهوانُ الباقي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمشركين به من قريش: أَلَكُمْ أيها القوم بتسويتِكُمْ بين المسلمينَ والمجرمينَ في كرامةِ الله كتابٌ نزلَ من عند الله أتاكم به رسولُ من رُسُلهِ بأنَّ لكم ما تَخيَّرونَ، فأنتم تدرسون فيه ما تقولون.

وقوله: «إن لَكُمْ فِيه لَمَا تخيّرون»، يقول جَلَّ ثناؤه: إنَّ لكم في ذلك الـذي تَخَيَّرُونَ من الأمـورِ لأنفسكم، وهذا أمرٌ من الله، توبيخٌ لهؤلاء القوم وتقريعٌ لهم فيما كانوا يقولون من الباطلِ، ويتمنون من الأَمانيِّ الكاذبة.

وقوله: «أمْ لَكُمْ» فيه «أيمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ الى يَوْمِ القيامَةِ»، يقولُ: هل لكم أيمانٌ علينا تنتهي بكم الى يوم القيامةِ، بأنَّ لكم ماتحكمونَ أي: بأنَّ لكم حكمكم، ولكنَّ الالفَ كُسِرَتْ من «إن» لما دخل في الخبر اللام: أي هل لكم أيمانٌ علينا بأنَّ لكم حكمكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: سل يا محمدُ هؤلاء المشركين أيُّهم بأنَّ لهم علينا أيماناً بالغةً بحكمِهم الى يوم القيامةِ «زَعِيمٌ»، يعني: كفيلٌ به، والزعيمُ عند العرب: الضامنُ والمتكلم عن القوم.

وقوله: «أمْ لهم شُركاءُ فَلْيأتوا بِشركائِهم إنْ كانُوا صَادِقِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أَلهؤلاءِ القوم شركاء فيما يقولون وَيصفُونَ من الأمورِ التي يزعمونَ أنها لهم، فَلْيَأْتُوا بشركائِهم في ذلك إنْ كانوا فيما يَدَّعُونَ من الشركاءِ صادقينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: «يومَ يُكشف عَنْ ساقٍ» قال جماعةٌ من الصحابةِ والتابعينَ من أهلِ التأويل: يبدو عن أمرٍ شديد.

وقوله: «وَيُدعَوْنَ الى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطيعُونَ»، يقولُ: ويَدْعُوهم الكشف عن الساقِ الى السجودِ لله تعالى فلا يُطِيقُونَ ذلك.

وقوله: «خاشعةً أبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ»، يقولُ: تَغْشَاهُمْ ذِلَّةٌ من عذابِ الله «وَقَدْ كانوا يُدْعَوْنَ الى السُّجودِ وَهُم سالِمُونَ»، يقولُ: وقد كانوا في الدنيا يدعونهم الى السجود له، وهُمْ سالمون، لايمنعهم من ذلك مانعٌ، ولايحولُ بينه وبينهم حائلٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: كِلْ يا محمدُ، أمرَ هؤلاء المكذِّبينَ بالقرآن اليَّ، وهذا كقولِ القائلِ لآخرَ غيره يتوعَّدُ رجلًا: دَعْني وإياهُ، وخَلِّني وإياهُ، بمعنى: أنه من وراءِ مَسَاءتِهِ.

وقوله: «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لايَعْلَمُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: سَنَكِيدُهُمْ من حيثُ لايعلمونَ، وذلك بأنْ يُمَتِّعَهُمْ بمتاع الدنيا حتى يَظُنُّوا أنهم مُتِّعُوا به بخيرٍ لهم عندَ الله، فيتمادوا في طغيانهم، ثم يأخذهم بَغْتَةً وهم لايشعرون.

وقـولـه: «وأملي لَهُم إن كَيْدي مَتينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأُنْسِئُ في آجالهم ملاوةً من الزمان، وذلك برهة من الدهر على كُفْرِهم وتَمَرُّدِهم على اللهِ

لتتكامل حجج الله عليهم «إنَّ كَيْدي مَتين»، يقول: إنَّ كيدي بأهلِ الكفرِ قويٌّ شديد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: أتسألُ يا محمدُ، هؤلاء المشركين بالله على ما أتَيْتَهُمْ به من النصيحة، ودعوتهم إليه من الحقِّ، ثواباً وجزاءً «فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ»، يعني من غُرْمِ ذلك الأجرِ مُثْقَلُونَ، قد أثقلهم القيامُ بأدائِه، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك، وتَجَنَّبوا لِعظَمِ ماأصابهن من ثقلِ الغُرمِ الذي سألْتَهم على ذلك الدخول في الذي دَعَوْتَهُمْ إليه من الدين.

وقوله: «أمْ عِنْدَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يكْتُبُونَ»، يقولُ: أعندهم اللوحُ المحفوظُ الذي فيه نبأ ماهو كائن، فهم يكتبون منه ما فيه، ويجادلونك به، ويزعمون أنهم على كُفْرِهم بربِّهم أفضلُ منزلةً عند الله من أهلِ الايمان به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فاصبرْ يا محمدُ، لقضاء رَبِّكَ وحُكْمه فيكَ، وفي هؤلاء المشركين بما أتيتهم به من هذا القرآنِ وهذا الدين وامضِ لما أمَرَكَ به ربُّك، ولايثنيك عن تبليغ ما أُمِرْتَ بتبليغهِ تكذيبُهُمْ إياك وأذاهم لكَ.

وقوله: «وَلاتَكُنْ كَصاحِبِ الحوتِ» الذي حبسه في بطنه، وهو يونس بن مَتّى ﷺ فيعاقبكَ رَبُّكَ على تَرْكِكَ تبليغ ذلك، كما عاقبَهُ فحبسَهُ في بطنِهِ:

«إِذْ نادَى وَهوَ مَكْظُومٌ»، يقولُ: إذ نادى وهو مغمومٌ، قد أثقلَهُ الغَمُّ وكظمه.

وقوله: «لَوْلا أن تَداركَهُ نِعْمَة مِنْ رَبِّهِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: لولا أنْ تداركَ صاحبَ الحوتِ نعمةٌ من رَبِّه فَرَحِمَهُ بها، وتابَ عليه من مُغَاضَبَتِهِ رَبَّهُ «لَنُبِذَ بالعراءِ» وهو الفضاءُ من الأرضِ.

«وَهو مَذْمُومٌ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «وَهُوَ مَذْمُومٌ»، فقال بعضهم: معناه وهو مُلِيمٌ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك وهو مُذْنِبٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فاجتبى صاحب الحوتِ ربُّه، يعني: اصطفاهُ واختارَهُ لنبوَّته «فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالحِينَ»، يعني: من المرسَلِينَ العاملينَ بما أمرهم به رَبُّهم، المُنتهينَ عما نهاهن عنه.

وقوله: «وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَروا لَيُزْلِقُونَكَ بأبْصَارِهِمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وإنْ يكادُ الذين كفروا يا محمدُ، يَنْفُذونك بأبصارهم من شِدَّةِ عداوتِهم لكَ ويَزيلُونَكَ فَيَرْمُوا بكَ عند نَظَرهم إليك غيظاً عليكَ، وقد قيل: إنه عُنِيَ بذلك: وإنْ يكادُ الذين كفروا مما عَانُوكَ بأبصارِهم ليرمونَ بكَ يا محمدُ، ويصرعونَكَ كما تقولُ العرب: كادَ فلانٌ يصرَعُني بشدَّةِ نَظَرِهِ إليَّ، قالوا: وإنما كانتْ قريش عانـوا رسولَ الله ﷺ لِيُصيبُوه بالعينِ، فنظروا إليه لِيُعينُوه، وقالوا مارأينا رجلاً مثله، أو إنه لمجنون ، فقال الله لنبيهِ عند ذلكَ: وإنْ يكادُ الذين كفروا ليرمونَك بأبصارهم «لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ، وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ».

القلم: ٥٢

وقوله: «لَما سَمِعُوا الذِّكْرَ»، يقولُ: لما سمعوا كتابَ الله يُتْلَى «وَيَقُولُونَ إنَّـهُ لَمجنُـونٌ»، يقـول تعـالى ذِكْـرُه: يقولُ: هؤلاء المشركون الذين وَصَفَ صِفَتَهُمْ: إنَّ محمداً لمجنونٌ، وهذا الذي جائنا به من الهذيانِ الذي يَهْذي به في جُنـونِـه «وَمـا هُو إلاَّ ذِكْرٌ للعالَمِينَ» ومامحمدٌ إلا ذكرٌ ذَكر الله به، العَالَمَيْنِ الثَّقلَيْنِ، الجنَّ والإنسَ.

سُورَةُ الحَاقَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الساعة «الحاقَّةُ»، التي تَحِقُّ فيها الامور، ويجبُ فيها الجزاءُ على الاعمال «ماالحاقَّةُ»، يقولُ: أيّ شيء الساعة الحاقة.

وقوله: «وما أدْراكَ ما الحاقَّةُ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وأي شيءٍ أدراك وعَرَّفَك أي شيءٍ الحاقة.

وقوله: «كَذَّبَتْ ثَمُودُ وعادٌ بالقارِعَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كَذَّبَتْ ثمودُ قوم صالحٍ، وعاد قوم هودٍ بالساعةِ التي تقرع قلوب العبادِ فيها بهجومها عليهم، والقارعةُ أيضاً: اسمٌ من اسماء القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فأمَّا ثَمُودُ» قوم صالح، فأهلكهم الله بالطاغية.

واختلف في معنى الطاغية التي أهلك الله بها ثمود أهل التأويل، فقال بعضُهم: هي طغيانهم وكُفْرُهم باللهِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فأُهلكُوا بالصيحةِ التي قد جاوزتْ مقادير الصياح وطَغَتْ عليها.

وأولى القـولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: فأهلكوا بالصيحة الطاغية.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لأنَّ الله إنما أخبر عن ثمود بالمعنى الذي أهلكها به، كما أخبرَ عن عادٍ بالذي أهلكها به، فقال: «وأمَّا عادٌ فأُهْلِكُوا بريحٍ صَرصَرٍ عاتِيَةٍ»، ولو كان الخبرُ عن ثمودَ بالسبب الذي أهلكها من أجله، كان الخبرُ أيضاً عن عادٍ كذلك، إذْ كان ذلك في سياقٍ واحد، وفي إتباعه ذلك بخبره عن عادٍ بأنَّ هلاكَها كان بالريح الدليلُ الواضحُ على أنَّ إخباره عن ثمود إنما هو مابَيَّنْتُ.

وقوله: «وأمَّا عادٌ فأهْلكوا بِريحٍ صَرْصَر عاتِيةٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأما عادٌ قومُ هودٍ فأهلكهم الله بريحٍ صرصـر، وهي الشديدةُ العصوفِ مع شدةِ بَرْدِهَا. «عاتِيَةٍ»، يقولُ: عَتَتْ على خُزَّانِهَا في الهبوب، فتجاوزتْ في الشدة والعصوف مقدارها المعروفَ في الهبوبِ والبردِ.

وقـولـه: «سَخَّرَها عَلَيْهم سَبْعَ لَيالٍ وثَمانيةَ أيَّامٍ حُسُوماً»، يقول تعالى ذِكْرُه: سَخَّرَ تلك الرياح على عادٍ سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام حسوماً، فقال بعضهم: عُني بذلك: تِباعاً.

وقال آخرون: عني بقوله: «حُسُوماً» الريح، وأنها تحسم كُلَّ شيءٍ، فلا تُبْقِي من عادٍ أحداً، وجعلَ هذه الحسومَ من صفةِ الريح.

وأولى القـولين في ذلـك عنـدي بالصواب قولُ مَنْ قال: عُنِي بقوله:

«حُسوماً» متتابعةً، لإجماع الحُجَّةِ من أهل التأويل على ذلك، وكان بعضُ أهل العربية يقول: الحسوم: التباع، إذا تَتَابَعَ الشيءُ فلم ينقطع أوَّلُه عن آخرهِ قيل فيه حسومٌ، قال: وإنما أُخِذَ والله أعلمُ من حَسْمِ الدَّاءِ: إذا كُويَ صاحبه، لأنه لحم يُكْوى بالمكواة، ثم يتابعُ عليه.

وقوله: «فَتَرى القَوْمَ فِيها صَرْعَى»، يقولُ: فترى يا محمدُ، قومَ عادٍ في تلك السبع الليالي والثمانية الأيام الحسوم صَرْعَى قد هَلَكُوا «كأنَّهم أعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ»، يقولُ: كأنهم أصولُ نخلٍ قد خَوَتْ.

وقوله: «فَهَل تَرَى لَهُمْ مِنْ باقِية»، يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: فهل تَرَى يا محمدُ، لعادٍ قوم هودٍ مِنْ بقاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَجاءَ فِرْعَوْنُ»، مصرواختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «وَمَنْ قَبْلَهُ» فقرأته عامة قَرَأَة المدينةِ والكوفة ومكة خلَا الكسائيَّ: «وَمَن قَبْلَهُ» بفتحِ القافِ وسكون الباء، بمعنى: وجاء من قَبْل فرعونَ من الامم المكذبة بآيات الله كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمود وقومِ لوطٍ بالخطيئةِ، وقرأ ذلك عامةُ قرأةِ البصرة والكسائي «وَمَنْ قبله» بكسر القافِ وفتح الباء، بمعنى وجاء فرعون من أهل بلدهِ مصرَ من القبطِ.

والصـواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ.

وقوله: «وَالمُؤْتفِكاتُ بالخاطِئَةِ»، يقولُ: والقرى التي ائْتُفِكَتْ بأهلِها فصارَ عاليَها سافِلَهَا «بالخاطِئةِ»، يعني: بالخطيئة وكانت خَطيئتها: إتيانها الذُّكْرانَ في أدبارِهم.

وقوله: «فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فَعَصَى هؤلاءِ الذين ذَكَرَهُم الله، وهم فرعون ومَنْ قَبْلَهُ والمؤتفكاتُ رسولَ رَبِّهم.

وقوله: «فأخَذَهُمْ أخْذَةَ رَابية»، يقولُ: فأخذهم رَبُّهم بتكذيبهم رُسُلَهُ أخذةً، يعني: أخذةً زائدةً شديدةً ناميةً من قولهم: أربيت: إذا أخذَ أكثرَ مما أعطى من الرِّبا، يقال: أربيتَ فرَبا رِباكَ، والفضة والذهب قد رَبَوا.

وقوله: «إنَّا لمَّا طَغَى المَاء حَمَلْناكُمْ في الجارِيَةَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنا لما كَثُرَ الماءُ فتجاوزَ حَدَّهُ المعروف كان له، وذلك زمن الطوفان، حملناكم في السفينة التي تجري في الماء.

وقوله: «لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرةً»، يقولُ: لنجعل السفينة الجارية التي حَملناكُمْ فيها لكم تذكرةً، يعني: عبرة وموعظة تتعظونَ بها.

وقوله: «وَتَعِيها أُذُنٌ وَاعِيةٌ» يعني حافظة عقلت عن الله ماسمعت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فإذَا نفخ فِي الصُّور» إسرافيل «نَفْخَة وَاحِدَة» وهي: النفخة الأولى، «وحملت الارض والجبال فَدكَّتا دَكَّةً وَاحِدة»، يقولُ: فَزُلْزِلَتا زلزلة واحدة.

«فيومئذٍ وقعتِ الواقعةُ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فيومئذٍ وقعت الصيحة الساعةُ، وقامت القيامةُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧ يَوْمَئِذٖ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٞ ١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وانصدعت السماءُ «فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ»، يقولُ: مُنشقَّةٌ متصدِّعةٌ.

«والملكُ على أرجائها»، يقول تعالى ذِكْرُه: والمَلَكُ على أطرافِ السماء حين تَشَقَّقُ، وحافَّاتِها.

وقوله: «وَيحمل عرش رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثمانيةٌ»، اختلف أهلُ التأويل في الذي عنى بقوله: «ثَمانيةٌ»، فقال بعضُهم: عنى به ثمانيةَ صفوفٍ من الملائكة، لايعلمُ عِدَّتَهُنَّ إلا الله.

وقال آخرون: بل عنى به ثمانية أملاكٍ.

وقوله: «يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يومئذٍ أيها الناسُ تُعْرَضُونَ على رَبِّكم، وقِيلَ: تُعرضون ثلاث عرضات.

وقوله: «لَاتخْفَى مِنْكُمْ خافِيةٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: لاتَخفَى على الله منكم خافيةٌ، لأنه عالمٌ بجميعكم، محيطٌ بِكُلِّكُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأما مَنْ أُعطيَ كتابَ أعمالِه بيمينه، فيقول تعالى: «اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ».

وقوله: «إني ظَنَنْتُ أنّي مُلاقٍ حِسابِيهْ». يقولُ: اني علمتُ أنِّي ملاقٍ حسابيه إذا وردتُ يوم القيامةِ على ربي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فالذي وصفتُ أمرَهُ، وهو الذي أوتي كتابهُ بيمينهِ، في عِيشةٍ مَرْضِيةٍ، أو عيشةٍ فيها الرضا، فوصفت العيشة بالرضا وهي مرضية، لأنَّ ذلك مدح للعيشة، والعربُ تفعلُ ذلك في المدح والذمّ فتقول: هذا ليلٌ نائم، وسِرٌّ كاتم، وماءٌ دافقٌ، فيوجِّهُونَ الفعل إليه، وهو في الأصل مفعول لما يُرادُ من المدحِ أو الذمِّ، ومَنْ قال ذلك لم يجز له أنْ يقولَ للضاربِ مضروب، ولا للمضروبِ ضارب، لأنه لامدحَ فيه ولا ذمٌّ.

وقوله: «في جَنَّةٍ عاليةٍ»، يقولُ: في بستانٍ عالٍ رفيع، و«في» من قوله: «في جَنَّةٍ» من صِلَةِ عِيشة.

وقوله: «قُطوفُها دَانية»، يقولُ: مايُقْطَفُ من الجنةِ من ثمارها دانٍ قريب من قاطِفِه.

وذُكر أنَّ الذي يريدُ ثمرَهَا يتناولُه كيفَ شاءَ قائماً وقاعداً، لايمنعه منه بُعْدٌ، ولايحولُ بينه وبينه شوكٌ.

وقوله: «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بما أَسْلَفْتُمْ في الأَيَّام الخالِيَة»، يقولُ لهم رَبُّهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ: كلوا معشر مَنْ رَضِيتُ عنه، فأدخلته جنتي من ثمارها، وطيبِ

ما فيها من الأطعمةِ، واشربوا من أشْرِبَتها، «هَنيئاً لَكُمْ»، لاتتأذَّوْنَ بما تأكلونَ، ولا بِمَا تشربون، ولا تحتاجونَ من أكلِ ذلكَ الى غائطٍ ولا بولٍ. «بِمَا أسْلَفْتُمْ في الأيَّامِ الخاليَة»، يقولُ: كلوا واشربوا هنيئاً: جزاءً من الله لكم، وثواباً بما أسلفتمَ، أو على ماأسلفتم: أي على ماقَدَّمْتُم في دُنياكم لآخرتِكُمْ من العمل بطاعةِ الله «في الأيامِ الخالية»، يقولُ: في أيام الدنيا التي خَلَتْ فَمَضَتْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأما مَنْ أُعطي يومئذٍ كتابَ أعمالِه بشمالِه، فيقول: ياليتني لم أُعْطَ كتابيه، «وَلَمْ أدْرِ ماحِسابِيهْ»، يقول: ولم أدرِ أيّ شيءٍ حسابية.

وقوله: «ياليْتَها كانَتِ القاضِيَةَ»، يقولُ: ياليت الموتَة التي متُّها في الدنيا كانتْ هي الفراغ من كلِّ مابَعْدَهَا، ولم يكنْ بَعْدَها حياةٌ ولا بَعْثٌ، والقضاءُ: هو الفراغُ. وقيل: إنه تمنَّى الموتَ الذي يقضي عليه، فتخرج منه نفسه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيلِ الذي أُوتِيَ كتابَهُ بشماله: «ماأغْنَى عَنّي ماليَهْ»، يعني: أنه لم يدفَعَ عنه مالُهُ الذي كان يملكُه في الدنيا من عذابِ الله شيئاً. «هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ»، يقولُ: ذهبتْ عني حججي، وضَلَّتْ، فلا حُجَّةَ لي أحتجُّ بها.

وقوله: «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه لملائكته من خُزَّانِ جهنمَ: «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الجَحيمَ صَلُّوهُ»، يقولُ: ثم في نارِ جهنمَ أوْرِدُوه ليصلى فيها، «ثُمَّ في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فاسْلُكوهُ»، يقولُ: ثم اسلكوه في سلسلةٍ ذَرْعُهَا سبعونَ ذراعاً بذراع الله أعلمُ بِقَدْرِ طُولِها، وقيل: إنها تدخلُ في دُبُرِه، ثم تخرجُ من مَنْخِرَيْه.

وقوله: «إنَّهُ كانَ لايُؤْمِنُ باللهِ العَظِيم»، يقولُ: افعلوا ذلك به جزاءً له على كُفْرِه باللهِ في الدنيا، إنه كان لايُصَدِّقُ بوحدانيةِ الله العظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن هذا الشقيِّ الذي أوتي كتابَهُ بشمالِهِ: إنه كان في الدنيا لايحضُّ الناسَ على إطعامِ أهل المَسْكنةِ والحاجة.

وقوله: «فَلَيْس لَهُ اليوم هَاهُنا حَمِيمٌ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: «فليسَ له اليومَ»، وذلك يوم القيامة «هاهنا»، يعني: في الدارِ الآخرةِ «حميمٌ» يعني: قريبٌ يَدْفَعُ عنه، ويُغيثُه مِمَّا هو فيه من البلاءِ.

«ولا طَعامٌ إلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: ولا لَهُ طعامٌ كما كانَ لايحضُّ في الدنيا على طعامِ المسكين، إلا طعامٌ من غِسْلِين، ذلك مايسيلُ من صديدِ أهل النارِ.

وقوله: «لايأكلُهُ إلاَّ الخاطِئونَ»، يقولُ: لايأكلُ الطعامَ الذي من غِسْلينَ إلاَّ الخاطئونَ، وهم المذنبون الذين ذنوبهم كفر بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩﴾

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فلا»، ما الأمر كما تقولونَ معشر أهلِ التكذيب بكتابِ الله ورُسُلِه، أقسم بالاشياء لها التي تُبْصرُونَ منها، والتي لاتبصرونَ.

وقوله: «إنَّه لقوْلُ رَسُولٍ كَريمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذا القرآن لقولُ رسولٍ كريم، وهو محمدٌ ﷺ يَتْلُوه عليهم.

وقوله: «ومَا هُوَ بقوْل شاعرٍ قَليلاً ماتُؤْمِنُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ماهذا القرآن بقولِ شاعرٍ لأنَّ محمداً لايُحسن قيلَ الشعرِ، فَتقُولُوا هو شِعرٌ «قليلاً ماتُؤْمِنُونَ»، يقولُ: تصدّقون قليلاً به أنتم، وذلك خطابٌ من الله لمشركي قريش، «وَلا بقوْلِ كاهِن قليلاً ماتَذكَّرُونَ»، يقولُ: ولا هُوَ بقولِ كاهنٍ، لأنَّ محمداً ليس بكاهنٍ، فتقولوا: هو من سَجْعِ الكُهَّانِ «قليلاً ماتذكَّرُونَ»، يقولُ: تَتَّعِظُونَ به أنتم، قليلاً ماتعتبرونَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولكنه «تنزيلٌ من ربِّ العَالمينَ» نزلَ عليه «ولَوْ تقَوَّلَ عَلينا» محمدٌ «بَعْضَ الأقاويلِ» الباطلة، وتَكذَّبَ علينا «لأخذْنا مِنْهُ باليَمين»، يقولُ: لَأَخَذْنَا منه بالقوّةِ منَّا والقدرةِ، ثم لَقَطَعنا منه نِياطَ القلبِ وإنما يعني بذلك أنه كان يعاجِلُهُ بالعقوبةِ، ولا يُؤَخِّرُه بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ

﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠
وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فما منكم أيها الناسُ مِنْ أحدٍ عن محمدٍ لو تَقَوَّلَ علينا بعضَ الأقاويل، فأَخذنا منه باليمينِ، ثم لقطعنا منه الوتينَ، حاجزينَ يَحْجُزونَنَا عن عقوبتهِ، وما نفعلُه به.

وقوله: «وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ للمُتقينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ هذا القرآن لتذكرةٌ، يعني: عظةٌ يُتَذَكَّرُ به، ويُتَّعَظُ به للمتقينَ، وهم الذين يَتَّقونَ عقابَ الله بأداءِ فرائضه، واجتنابِ معاصيه.

وقوله: «وَإِنَّا لَنَعلَم أنَّ مِنكُمْ مُكَذِّبينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّا لنعلمُ أنَّ منكم مكذبين أيها الناسُ بهذا القرآنِ. «وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ على الكافِرينَ». يقول جَلَّ ثناؤُه: وإنَّ التكذيبَ به لحسرةٌ وندامةٌ على الكافرين بالقرآن يومَ القيامة.

«وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليَقين»، يقولُ: وإنه لَلْحَقُّ اليقينُ الذي لاشك فيه أنه من عندِ الله، لم يَتَقَوَّلْهُ محمدٌ ﷺ: «فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ»، بذكرِ رَبِّكَ وتسمية العظيم، الذي كل شيءٍ في عظمته صغيرٌ.

سُورَةُ المَعَارِج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾

قوله: «سألَ سائلٌ» بمعنى: سأل سائلٌ من الكفارِ عن عذاب الله، بِمَنْ هو واقعٌ.

وقوله: «بِعَذَاب وَاقعٍ للكافِرينَ»، يقولُ: سأل بعذابٍ للكافرين واجب لهم يومَ القيامةِ واقع بهم، ومعنى: «للكافِرينَ» على الكافرين.

وقوله: «لَيْس لَهُ دَافعٌ مِن الله ذِي المعارِج»، يقول تعالى ذِكْرُه: ليس للعذابِ الواقعِ على الكافرينَ من الله دافعٌ يَدْفَعُه عنهم.

وقوله: «ذِي المَعارِجِ»، يعني ذا العُلُوِّ والدرجات والفواضل والنعم.

وقوله: «تعْرُجُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إلَيْه في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسين أَلْفَ سَنة»، يقول تعالى ذِكْرُه: تصعد الملائكة والروح، وهو جبريلُ عليه السلام إليه، يعني الى الله جَلَّ وعَزَّ، والهاء في قوله: «إلَيْهِ» عائدةٌ على اسم الله «في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسينَ ألفَ سَنة»، يقولُ: كان مقدارُ صعودهم ذلك في يوم لغيرهم من الخلق خمسين الف سنة، وذلك أنها تصعد من منتهى أمرِه من

أسفلِ الأرضِ السابعةِ إلى منتهى أمرِه من فوق السمواتِ السبعِ.

وقـوله: «فاصْبر صَبْراً جميلاً» يقول تعالى ذِكْرُه: فاصبر صبراً جميلاً، يعني: صبراً لاجَزَعَ فيه، يقول له: اصبر على أذى هؤلاء المشركين لكَ، ولا يَثْنِيكَ ما تَلْقَى منهم من المكروهِ عن تبليغ ماأمركَ رَبُّكَ أن تُبلِّغهُمْ من الرسالة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إن هؤلاء المشركين يرونَ العذابَ الذي سألوا عنه، الواقع عليهم بعيداً وقوعُه، وإنما أخبرَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ انهم يرونَ ذلك بعيداً، لأنهم كانـوا لا يصـدقـون به، وينكـرون البعث بعـد الممـات، والثواب والعقاب، فقال انهم يرونه غير واقعٍ، ونحن نراه قريباً، لأنه كائن، وكل ماهو آتٍ قريب.

وقـولـه: «يَوْمَ تَكُـونُ السَّماء كالمُهْلِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يوم تكون السماءُ كالشيء المُذَابِ.

وقوله: «وَتَكُونُ الجِبال كالعهنِ»، يقولُ: وتكون الجبالُ كالصُّوفِ.

وقـولـه: «وَلا يَسـأَلُ حَمِيم حَمِيمـاً، يُبَصَّـرونَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولايسأل قريبٌ قريبهُ عن شأنِه لشغلهِ بشأنِ نفسهِ.

وقوله: «يُبَصَّرُونَهُمْ»، اختلف أهلُ التأويل في الذين عنوا بالهاء والميم في قولـه: «يُبَصَّـرُونهمْ»، فقـال بعضهم: عُني بذلـك الأقرباء أنهم يُعَرَّفُونَ أقرباءهم، ويعرّف كل إنسان قريبه، فذلك تَبصيرُ الله إياهم.

وقال آخرون: بل عُني بذلك المؤمنون أنهم يُبَصَّرُونَ الكفارَ.

وقال آخرون: بل عُني بذلك الكفار الذين كانوا أتباعاً لآخرين في الدنيا على الكفر، أنهم يعرفون المتبوعينَ في النار.

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، قول مَنْ قال: معنى ذلك: ولايسألُ حميم حميماً عن شأنِه، ولكنهم يبصرونهم فيعرفونهم، ثم يَفرُّ بعضُهم من بعضٍ، كما قال جَلَّ ثناؤه: «يومَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أخيهِ، وأمِّهِ وأبيهِ، وصَاحِبَتِهِ وبَنِيه، لِكُلِّ امرىء منهم يَوْمَئِذ شأنٌ يُغْنيهِ» [عبس: ٣٤-٣٧]

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات بالصواب، لأنَّ ذلك أشبهها بما دَلَّ عليه ظاهرُ التنزيل، وذلك أنَّ قوله: «يُبَصَّرُونَهُمْ» تلا قوله: «وَلا يَسألُ حَمِيم حميماً» فلأنْ تكونَ الهاءُ والميمُ من ذكرهم أشبه منها بأنْ تكون من ذِكْرِ غيرهم.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يَوَدُّ الكافرُ يومئذٍ ويتمنى أنه يفتدي من عذابِ الله إياه ذلكَ اليوم ببنيه «وصاحبتِهِ»، وهي زوجتِهِ، «وأخيه»، «وفصيلته». وهم عشيرته «التي تؤويه». يعني التي تضمـهُ الى رَحْلِه، وتنزلُ فيه امرأته، لقربة مابينها وبينه. «ويمن في الأرض جميعاً» من الخلق، «ثم ينجيه» ذلك من عذابِ الله إياهُ ذلك اليوم.

وبدأ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِذِكْرِ البنين، ثم الصاحبة، ثم الأخ، إعلاماً منه عبادَهُ أنَّ الكافرَ من عظيمِ ماينزلُ به يومئذ من البلاء يفتدي نفسَهُ لو وجد الى ذلك سبيلًا بأحب الناس إليه، كان في الدنيا، وأقربهم إليه نَسَباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كلا ليس ذلك كذلك، ليس يُنجيه من عذاب الله شيءٌ، ثم ابتدأ الخبر عما أعَدَّهُ له هنالك جَلَّ ثَنَاؤُهُ، فقال: «إنَّها لَظَى»، ولظى: اسمٌ من أسماء جهنم، ولذلك لم يجز.

وقوله: «نَزَّاعَةً للشَّوى»، يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن لظَى: إنها تنزعُ جلدةَ الرأس وأطراف البدنِ، والشوى: جمع شواةٍ وهي من جوارح الإنسانِ مالم يكن مقتلاً، يقال: رَمَى فأشوى: إذا لم يُصِبْ مقتلاً.

وقوله: «تَدْعُو مَنْ أدْبَرَ وَتَوَلَّى»، يقولُ: تدعو لظَىَ الى نفسِها من أدبر في الدنيا عن طاعةِ الله، وتولى عن الايمان بكتابهِ ورسلهِ.

وقوله: «وَجَمَعَ فأوعى»، يقولُ: وجمعَ مالاً فجعله في وعاءٍ، ومَنَعَ حقَّ الله منه، فلم يُزَكِّ ولم يُنْفِقْ فيما أو جبَ الله عليه إنفاقه فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «إنَّ الإنْسانَ» الكافرَ «خُلِقَ هَلُوعاً»، والهَلَعُ: شِدَّةُ الجَزَعِ مع شدةِ الحرصِ والضَّجَر.

وقوله: «إذَا مَسَّه الشَّر جَزُوعاً»، يقولُ: إذا قَلَّ مالهُ ونَالهُ الفقرُ والعدمُ فهو جَزُوعٌ من ذلكَ لاصبرَ له عليه، «وإذَا مَسَّه الخَيْرُ مَنُوعاً»، يقولُ: وإذا كَثُر مالُه،

ونال الغنى فهو مَنُوعٌ لما في يده، بخيلٌ به، لاينفقه في طاعةِ الله، ولا يؤدِّي حق الله منه.

وقوله: «إلَّا المُصَلِّين الذينَ هُمْ على صَلاتِهِمْ دائمون»، يقولُ: إلَّا الذين يطيعـون الله بأداءِ ماافتـرض عليهم من الصلاة وهم على أداء ذلك مقيمون لايضيعون منها شيئاً فإن أولئك غير داخلين في عِدادِ مَنْ خُلِقَ هَلُوعاً، وهو مع ذلك بربِّهِ كافرٌ لايصلي لله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۝٢٤ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝٢٦ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإلا الذين في أموالهم حق مؤقتٌ، وهو الزكاةُ للسائِل الذي يسأله من مالِه، والمحروم الذي قد حُرِمَ الغِنَى، فهو فقيرٌ لايسألُ.

وقوله: «وَالَّذينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ»، يقولُ: وإلا الذين يُقِرُّونَ بالبعثِ يومَ البعثِ والمجازاة.

وقوله: «وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُشْفِقُونَ»، يقولُ: والذين هم في الدنيا من عذابِ ربِّهم وَجِلُونَ أنْ يُعَذِّبَهُمْ في الآخرةِ، فهم من خشيةِ ذلك لايضيعونَ لهُ فرضاً، ولا يَتَعَدَّوْنَ له حدّاً.

وقوله: «إنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غيرُ مأمونٍ»، أنْ ينالَ مَنْ عَصَاهُ وخالفَ أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ»، يعني أقبالهم حافظون عن كلِّ ماحرَّمَ الله عليهم وَضْعَها فيه «إلَّا» أنهم غير مَلُومينَ في تَرْكِ حِفْظِهَا «على أزْوَاجِهِم أوْ مامَلَكَتْ أيمانُهُمْ» من إمائهم، وقيل: «لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ إلّا على أزْوَاجِهِمْ»، ولم يتقدم ذلك جحد لدلالة قولِه «فإنَّهُمْ غير مَلُومِينَ» على أنَّ في الكلام معنى جحد، وذلك كقولِ القائل: اعملْ مابَدَا لكَ إلا على ارتكاب المعصية، فإنك معاقَبٌ عليه، ومعناه: اعملْ مابَدَا لك إلا أنك معاقَبٌ على ارتكابِ المعصية.

وقوله: «فَمَنِ ابتغَى وَراء ذَلكَ فأولَئك هُمُ العادونَ» فمن التمس لفرجِه منكحاً سوى زوجته، أو مَلْكَ يمينِه، ففاعِلُو ذلك هم العادُونَ، الذين عَدَوْا ما أحلَّ الله لهم الى ماحرَّمَ عليهم فهم المَلُومُونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٣٢ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ٣٣ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٣٤ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والا الذين هم لأماناتِ الله التي ائتمنَهُمْ عليها من فرائضه وأماناتِ عباده التي ائتمنوا عليها، وعهودِه التي أخذها عليهم بطاعتهِ فيما امرهم به ونهاهم وعهودِ عباده التي أعطاهم على ماعقدهُ لهم على نفسه راعون يرقُبونَ ذلك، ويَحْفَظُونَه فلا يضيعونه، ولكنهم يُؤدونَها ويتعاهدونها على ماألزمهم الله وأوجب عليهم حفظها «وَالذينَ هُمْ بِشهاداتِهِمْ قائمون»، يقولُ: والذين لايكتمـون ماسْتُشْهِدُوا عليه، ولكنهم يقومون بأدائها، حيث يَلْزَمُهُمْ أداؤها غير مُغَيَّرةٍ ولا مبدَّلةٍ «وَالذِينَ هُمْ عَلى صَلاتهم يُحافظون»، يقول: والذين هم على مواقيت صلاتِهم التي فرضها الله عليهم وحدودها التي أوجَبَها عليهم يحافظون، ولا يُضيعون لها ميقاتاً ولاحداً.

وقوله: «أولَئِكَ في جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ»، يقولُ عزَّ وجَلَّ: هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال في بساتين مُكْرَمُونَ يكرمهم الله بكرامته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فما شأنُ الذين كفروا بالله قبلك يا محمدُ، مهْطِعينَ، وقد بيَّنا معنى الإهطاع، وما قال أهل التأويل فيه فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع[1]

وقوله: «عَنِ اليَمينِ وعَنِ الشِّمال عِزين»، يقولُ: عن يمينكَ يا محمدُ، وعن شمالك متفرِّقينَ حلقاً ومجالسَ جماعة جماعةً، مُعْرِضينَ عنك وعن كتاب الله.

وقوله: «أيَطْمَعُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نعيمٍ»، يقولُ: أيطمعُ كلُّ امرىءٍ من هؤلاء الذين كفروا قبلكَ مهطعينَ أنْ يُدخله الله جنةَ نعيم: أي: بساتين نعيمٍ ينعمُ فيها.

وقوله: «كَلَّا إنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ»، يقولُ عزَّ وجَلَّ: ليسَ الأمرُ كما يطمعُ فيه هؤلاء الكفار من أنْ يدخل كلُّ امرىءٍ منهم جنةَ نعيم.

وقوله: «إنَّا خَلقناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ»، يقول جَلَّ وعَزَّ: إنَّا خلقناهم من مَنيٍّ قذرٍ، وإنما يستوجبُ دخولَ الجنة مَنْ يَسْتَوجِبُه منهم بالطاعةِ، لا بأنه مخلوق، فكيف يطمعون في دخولِ الجنةِ وهم عُصَاةٌ كَفَرَة.

---

(١) ابراهيم: ٤٣، والقمر: ٨، ومعناه: مسرعين بنظرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلا أقسمُ بربِّ مشارقِ الأرض ومغاربها «إِنَّا لَقادِرُونَ على أَنْ نُبَدِّلَ خيراً مِنْهُمْ»، يقولُ: إنا لقادرون على أَنْ نُهْلِكَهُمْ، ونأتي بخيرٍ منهم من الخَلْقِ يطيعـونني ولايعصـونني «وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما يفوتنا منهم أحدٌ بأمرٍ نُريدُه منه، فيُعْجِزنا هَرباً.

وقـوله: «فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا»، يقولُ لنبيه محمدٍ ﷺ: فَذَرْ هؤلاء المشركينَ المُهْطِعينَ عن اليمين وعن الشمالِ عِزين، يَخوضُوا في باطلهم، ويلعبوا في هذه الدنيا «حتى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ»، يقولُ: حتى يُلاقُوا عذابَ يومِ القيامةِ الذي يُوعَدُونَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾

وقـوله: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ» بيانٌ وتوجيهٌ عن اليومِ الأولِ الذي في قوله: «يَوْمَهُمُ الذي يوعَدُونَ»، وتأويلُ الكلام: حتى يُلاقُوا يومَهُمُ الذي يُوعَدُونَهُ يومَ يَخْرجُونَ مِن الأجداثِ وهي القبورُ: واحِدُهَا جَدَثٌ «سِراعاً كأنَّهم الى نُصُبٍ يُوفِضونَ».

وقـولـه: «إلى نُصُبٍ يُوفِضونَ» يقولُ: كأنهم الى عَلَمٍ قد نُصِبَ لهم يَسْتَبِقُونَ، وأجمعت قرأةُ الأمصار على فتح النونِ من قولهِ «نَصْبٍ»، غير الحسنِ البصري، فإنه ذُكِرَ عنه أنه كان يَضُمُّها مع الصادِ، وكأن مَنْ فتحَها يوجه النصبَ

الى أنه مصدرٌ من قول القائل: نصبت الشيء أنصبه نصباً، وكان تأويله عندهم كأنهم الى صَنَمٍ منصوبٍ يُسرعون سعياً، وأما مَنْ ضَمَّها مع الصادِ فإنه يُوجِّهُه الى إنه واحدُ الأنصاب، وهي آلهتهم التي كانوا يعبدونها.

وأما قوله «يُوفِضُونَ» فإن الإيفاضَ: هو الإسراع.

وقوله: «خاشعة أبْصَارُهُمْ»، يقولُ: خاضعة أبصارهم للذي هم فيه من الخزي والهوان «تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ»، يقولُ: تَغْشَاهم ذلةٌ. «ذَلك اليَوْمُ الذِي كانوا يُوعـدُونَ»، يقولُ عَزَّ وجَلَّ: هذا اليوم الذي وصفتُ صِفَتَهُ، وهو يومُ القيامةِ الذي كان مشركو قريش يوعدونَ في الدنيا أنهم لاقوهُ في الآخرةِ، وكانوا يُكذِبُونَ به.

سُورَةُ نُوحٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً» وهو نوحُ بن لَمَكَ «الى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْل أَنْ يأتِيَهُمْ عَذابٌ أليمٌ»، يقولُ: أرسلناهُ اليهم بأنْ أنذرْ قومكَ، مِنْ قبْلِ أنْ يأتيهم عذابٌ أليم، وذلك العذابُ الأليم هو الطوفانُ الذي غرَّقَهُمُ اللهُ به.

وقوله: «قالَ ياقَوْمِ إنّي لَكُمْ نَذيرٌ مُبينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال نوح لقومِه: ياقوم إني لكم نذيرٌ مبين، أنذركم عذابَ الله فاحذَرُوهُ أنْ ينزل بكم على كُفْرِكم به «مبين»، يقولُ: قد أبنتُ لكم إنذاري إياكم.

وقوله: «أَنِ اعْبُدوا الله واتَقُوه وأَطِيعُونِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيل نوحٍ لقومه: «إني لَكُمْ نَذيرٌ مُبينٌ» بأن اعبدوا الله، يقولُ: إني لكم نذيرٌ أنذركم، وآمركم بعبادة الله «وَاتَّقُوهُ»، يقولُ: واتقوا عقابَهُ بالإيمانِ به، والعمل بطاعتهِ. «وأطيعُونِ»، يقولُ: وانتهوا الى ماآمركم به، واقبلوا نصيحتي لكم.

وقوله: «يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ»، يقولُ: يغفر لكم ذنوبكم.

فإن قال قائل: أوَ ليست «من» دالة على البعض؟ قيل: إنَّ لها معنيين وموضعين، فأما احدُ الموضعين فهو الموضع الذي لايصلحُ فيه غيرها، وإذا كان ذلك كذلك لم تدلّ الا على البعض، وذلك كقولك: اشتريتُ من مماليكك فلا يصلحُ في هذا الموضع غيرها، ومعناها: البعض، اشتريت بعضَ مماليكك ومن مماليكك مملوكاً، والموضع الآخر: هو الذي يصلح فيه مكانها «عن»، فإذا، صلحت مكانها «عن» دَلَّتْ على الجميع، وذلك كقولك: وجع بطني من طعامٍ طَعِمتُه، فإنَّ معنى ذلك: أوجعَ بطني طعام طعمته، وتصلح مكان «من» عن، وذلك أنك تضع موضعها «عن» فيصلح الكلام فتقول: وجع بطني عن طعامٍ طعمته، ومِنْ طعامٍ طعمته، فكذلك قوله: «يَغْفِر لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ» إنما هو: ويصفح لكم، ويعفو لكم عنها، وقد يحتمل أنْ يكون معناها يغفر لكم من ذنوبِكم ماقد وعدكم العقوبة عليه، فأما مالم يَعِدكُم العقوبة عليه فقد تقدّم عفوه لكم عنها.

وقوله: «وَيُؤَخِّرْكُمْ الى أَجلٍ مُسَمًّى»، يقولُ: ويؤخِّرْ في آجالِكم فلا يهلككم بالعذابِ، لابغرَقٍ ولاغيره، «إلى أجلٍ مسمىً»، يقولُ: إلى حين كتب أنه يُبْقِيكم إليه، إنْ أنتم أطعتُموه وعبدتُموهُ، في أمِّ الكتاب.

وقوله: «إنَّ أَجَلَ اللهِ إذا جاءَ لايُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إن أجلَ الله الذي قد كتبه على خَلْقِه في أم الكتابِ إذا جاء عنده لايُؤَخَّرُ عن ميقاته، فينظر بعده، «لو كنتم تعلمون». يقول: لو علمتم أنَّ ذلك كذلك، لأنبْتُم إلى طاعةِ رَبِّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ

﴿ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال نوحٌ لما بَلَّغَ قومَهُ رسالةَ ربِّه، وأنذرهم ما أمَرهُ به أنْ يُنْذِرَهُمُوه فعَصَوْهُ. ورَدُّوا عليه ماأتاهم من عندِه «رَبِّ إني دَعَوْتُ قَوْمي لَيْلاً ونهاراً» إلى توحيدكَ وعبادتك، وحَذَّرْتُهم بأسَكَ وسطوتك، «فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إلاَّ فِراراً»، يقولُ: فلم يزدهم دعائي إياهم إلى ما دَعَوْتُهم إليه من الحقِّ الذي أرسَلْتَني به لهم «إلاَّ فِراراً»، يقولُ: إلا إدباراً عنه وهَرَباً منه وإعراضاً عنه.

وقوله: «وإنّي كُلما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعَلُوا أصابِعَهُمْ في آذانِهِمْ»، يقولُ جَلَّ وعَزَّ: وإني كلما دعوتهم الى الإقرارِ بوحدانيتك، والعملِ بطاعتكَ، والبراءةِ من عبادةِ كُلِّ ماسواكَ، لتغفرَ لهم إذا هُمْ فعلوا ذلك جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا دعائي إياهم الى ذلك «واسْتَغشَوا ثِيابهمْ»، يقول وتَغَشَّوا في ثيابهم، وتَغَطَّوْا بها لئلا يسمعوا دعائي.

وقوله: «وأصَرُّوا» يقولُ: وثَبَتُوا على ماهُمْ عليه من الكفرِ وأقامُوا عليه.

وقولـه: «واسْتَكبـروا اسْتِكباراً»، يقولُ: وتَكَبَّروا فتعاظَمُوا عن الإذعانِ للحقِّ، وقبولِ مادعوتهم اليه من النصيحة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾

يقولُ: «ثُمَّ إنّي دَعَوْتُهُم» الى ماأمَرْتَني أنْ أدعوهم إليه «جِهاراً» ظاهراً في غيرِ خفاءٍ

وقولـه: «ثُمَّ إنِّي أعْلَنْتُ لَهُمْ وأسْـرَرْتُ لَهُمْ إسْرَاراً»، يقولُ: صرخت لهم: وصحتُ بالذي أمرتني به من الإنذارِ، وأسررتُ لهم ذلك فيما بيني وبينهم في خفاء.

وقوله: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِروا رَبَّكم إنَّهُ كانَ غَفاراً»، يقولُ: فقلتُ لهم: سَلُوا رَبَّكم غُفْرانَ ذنوبكم، وتوبوا إليه من كفركم، وعبادةِ ماسواه من الآلهة ووَحِّدُوه، وأَخْلِصُوا له العبادةَ، يغفرْ لكم إنه كان غفاراً لذنوبِ مَنْ أناب إليه، وتابَ إليه من ذنوبه.

وقــولـه: «يُرْسـلِ السَّمـاءَ عَليكم مِدْرَاراً»، يقـولُ: يَسْقِيكُمْ رَبُّكم إنْ تبتم ووحَّدتُموه وأخلصتم له العبادةَ الغيثَ، فيرسل به السماءَ عليكم مدراراً متتابعاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾

وقوله: «ويُمْدِدْكُمْ بأمْوالٍ وبَنِينَ»، يقولُ: ويُعْطِكُمْ مع ذلك رَبُّكم أموالاً وبنينَ، فيُكَثِّرها عندكم ويزيد فيما عندكم منها «ويجعَلْ لَكُمْ جنَّاتٍ»، يقولُ: يرزقُكم بساتينَ «وَيجْعَلْ لَكُمْ أنهاراً»، تَسْقُونَ منها جنَّاتكم ومزارعَكُمْ، و قال ذلك لهم نوحٌ، لأنهم كانوا فيما ذُكِرَ قومٌ يحبونَ الأموال والأولاد.

وقوله: «مالَكُم لاتَرْجُونَ للهِ وَقاراً» مالكم لاتَرَوْنَ للهِ عَظَمَةً.

وقوله: «وَقَد خَلَقَكُمْ أطْوَاراً»، يقولُ: وقد خلقكم حالاً بعد حالٍ، طوراً نُطْفةً، وطوراً عَلَقَةً وطوراً مُضْغَةً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ

نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيلِ نوحٍ صلواتُ الله وسلامه عليه، لقومِه المشـركينَ بربهم، محتجاً عليهم بحججِ الله في وحدانيته: «أَلَمْ تَرَوْا» أيها القومُ فتعتَبِرُوا «كَيْفَ خَلَقَ الله سَبْعَ سَمٰوات طباقاً»، بعضها فوقَ بعضٍ، والطباقُ: مصدرٌ من قولهم: طابقت مطابقة وطباقاً، وإنما عنى بذلك كيف خلق الله سبعَ سمواتٍ، سماءً فوقَ سماءٍ مطابقةٍ.

وقـولـه: «وَجَعَلَ القَمَر فِيهِنَّ نُوراً»، يقولُ: وجعلَ القمرَ في السمواتِ السبعِ نوراً، «وَجَعَلَ الشَّمْسَ»، فيهنَّ «سِراجاً».

«والله أَنْبَتَكُم مِنَ الأَرْض نباتاً»، يقولُ: والله أنشأكم من ترابِ الأرض، فخلقكم منه إنشاءً «ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها»، يقولُ: ثم يعيدكم في الارضِ كما كنتم تراباً فيصيركم كما كنتم من قبلِ أنْ يخلقكم «وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً»، يقولُ ويخرجكم منها إذا شاء أحياءً كما كنتم بشراً من قبلِ أنْ يُعيدَكُمْ فيها، فيصيركم تراباً إخراجاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ نوحٍ لقومِه، مُذَكِّرَهُمْ نِعَمَ رَبِّه: «وَالله جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ بِساطاً»، تستقرُّون عليها وتمتهدونها.

وقـوله: «لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً»، يقولُ: لتسلكوا منها طرقاً صِعاباً متفرقةً، والفِجاجُ: جمع فَجٍّ، وهو الطريقُ.

وقـولـه: «قـال نُوحٌ رَبِّ إنَّهُمْ عَصَـوني»، فخالفوا أمري، وردُّوا عليّ مادَعَوْتُهم إليه من الهدى والرشاد «واتَّبعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إلا خَساراً»، يقولُ: واتبعوا في معصيتِهم إيَّايَ مَنْ دعاهم الى ذلك، ممن كَثُرَ مالهُ وولدهُ، فلم تَزِدْهُ كثرةُ مالِهِ وولدِهِ إلا خساراً، بُعداً من الله، وذهاباً عن مَحَجَّةِ الطريق.

وقوله: «وَمَكَرُوا مَكراً كُبَّاراً»، يقولُ: ومكروا مكراً عظيماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: عن إخبار نوحٍ، عن قومِهِ: «وقالوا لاتَذَرُنَّ آلهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وُدّاً وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعوقَ وَنَسْراً»، كان هؤلاء نفراً من بني آدم فيما ذُكِرَ عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها. وقيل: هذه اسماء اصنامِ قومِ نوحٍ.

وقوله: «وَقَدْ أضَلُّوا كَثِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيلِ نوحٍ: وقد ضَلَّ بعبادةِ هذه الأصنام التي أحْدِثَتْ على صُورِ هؤلاء النفرِ المسمين في هذا الموضع كثيرٌ من الناسِ فنُسِبَ الضَّلالُ إذ ضَلَّ بها عابِدُوها الى أنها المُضِلَّةُ.

وقوله: «وَلا تَزِدِ الظالمينَ إلا ضَلالاً»، يقولُ: ولا تَزِدِ الظالمين أنفسهم بكفرِهم بآياتِنا الا ضلالاً: إلا طبعاً على قلبه. حتى لايهتدي للحقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾

يعني تعـالى ذِكْرُه: بقوله: «مِمَّا خَطِيئاتِهم»، مِنْ خطيئاتِهم «أغرقوا»،

والعربُ تجعلُ «ما» صلة فيما نُويَ به مذهب الجزاء، كما يقال: أينما تَكُنْ أَكُنْ، وحيثما تَجْلِس أَجْلِس، ومعنى الكلام: من خطيئاتهم أُغْرِقُوا.

وقوله: «فأُدْخلوا ناراً» جهنم «فَلَم يَجدوا لَهُمْ مِنْ دُونِ الله أَنْصاراً»، تقتص لهم مِمَّن فعلَ ذلك بهم، ولا تحولُ بينهم وبين مافُعِلَ بهم.

وقوله: «وَقال نُوحٌ رَبِّ لاتَذَرْ على الأَرْضِ مِنَ الكافِرينَ دَيَّاراً»، ويعني بالدَّيارِ مَنْ يدورُ في الأرضِ، فيذهبُ ويجيءُ فيها وهو فَيعال مـن الدوران ديواراً، اجتمعت الياء والـواو، فسبقت الياءُ الواو وهي ساكنة، وأُدغمت الواو فيها، وصيرتا ياء مشددة، كما قيل: الحيّ القيام من قمت، وإنما هو قيوام. والعربُ تقول: ما بها ديارٌ ولا عريبٌ، ولا دويٌّ، ولاصافرٌ، ولا نافخُ ضِرْمةٍ، يعني بذلك كله: مابها أحدٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيل نوحٍ في دعائه اياه على قومه: إنك يارَبِّ إنْ تَذَرِ الكافرينَ أحياءً على الارضِ، ولم تُهْلِكهم بعذاب من عندكَ «يُضِلُّوا عِبادَكَ» الـذين قد آمنوا بكَ، فيصدُّوهُمْ عن سبيلكَ، «وَلا يَلِدُوا إلاَّ فاجراً» في دِينكَ «كفَّاراً» لنعمتكَ.

وذُكِرَ أنَّ قِيلَ نوحٍ هذا القولِ ودعاءَهُ هذا الدعاءَ، كان بعد أنْ أوحى إليه رَبُّه «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ».

وقـولـه: «رَبِّ اغفِر لي وَلِوالِدَيَّ» يقولُ: ربِّ اعْفُ عني، واستر عليَّ

ذُنـوبي وعلى والديَّ «ولِمَنْ دَخَلَ بَيتِيَ مُؤْمِناً»، يقولُ: ولمن دخل مسجدي ومصلايَ مُصَلِّياً مؤمناً، يقولُ: مصدقاً بواجبِ فَرْضِكَ عليه.

وقـوله: «ولِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِناتِ»، يقـول: ولـلمصدقيـنَ بـتوحيدكَ والمصدّقاتِ.

وقـولـه: «وَلاتَزِدِ الظَالِمين إلَّا تَباراً»، يقولُ: ولا تزدِ الظالمينَ أنفسهم بكفرِهم إلا خساراً.

سُورَةُ الجِنّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ، أوحى الله إليَّ «أَنَّهُ استْمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنّ»، هذا القرآن «فقالوا» لقومهم لما سمعوهُ «إنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدي الى الرُّشْدِ»، يقولُ: يدلُّ على الحق وسبيلِ الصواب «فآمَنَّا بِهِ»، يقولُ: فصدَّقْناهُ «وَلَن نُشْرِكَ برَبِّنا أحداً» من خَلْقِه.

وقوله: «وأنّه تعالى جَدُّ ربِّنا»، معناه: تَعالتْ عَظَمةُ رَبِّنا وقُدْرَتُه وسلطانُه.

وإنما قلنا ذلك لأن للجدّ في كلامِ العرب معنيين: أحدهما الجَدُّ الذي هو أبو الأبِ، أو أبو الأمِ، وذلك غيرُ جائزٍ أنْ يُوصَفَ به هؤلاء النفر الذين وصفهم الله بهذه الصفةِ، وذلك أنهم قد قالوا: «فآمنا به ولن نشركَ بربنا أحداً» ومن وصف الله بأنَّ له ولداً أو جداً وهو أبو أبٍ أو أبو أمٍ، فلا شكَّ أنه من المشركين، والمعنى الآخر: الجَدُّ الذي بمعنى الحظّ، يقال: فلان ذو جَدٍ في هذا الامر: إذا كان له حظٌّ فيه، وهو الذي يقال له بالفارسية البَخْت، وهذا المعنى الذي قصده هؤلاء النفرُ من الجنّ بقيلِهم «وأنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنا»، إنْ شاء الله. وإنما عنَوا أنَّ حَظْوَتَهُ من المُلْكِ والسلطان والقدرة والعظمة عاليةٌ، فلا يكون

له صاحبةٌ ولا ولدٌ، لأنَّ الصاحبةَ إنما تكونُ للضعيفِ العاجزِ الذي تضطرهُ الشهوةُ الباعثةُ إلى اتخاذها، وأنَّ الولدَ إنما يكون عن شهوةٍ أزعجته الى الوقاعِ الذي يحدثُ منه الولدُ، فقال النفرُ من الجنِّ، عَلاَ مُلْكُ رَبِّنا وسُلطانُه وقدرته وعظمته أنْ يكونَ ضعيفاً ضَعْفَ خَلْقِهِ الذين تَضْطرُّهُم الشهوةُ الى اتخاذِ صاحبةٍ، أو وقاعِ شيء يكون منه ولدٌ.

وقد بَيَّنَ عن صحةِ ماقلنا في ذلك إخبارُ الله عنهم أنهم إنما نَزَّهُوا الله عَن اتخاذ الصاحبةِ والولدِ بقوله: «وأنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا ما اتَّخذَ صَاحِبَةً ولا وَلَداً»، يقال منه: رجل جَدِّيٌّ وجديدٌ ومجدودٌ: أي ذُو حظٍ فيما هو فيه.

وقوله: «ما اتَّخذَ صَاحِبَةً»، يعني: زوجةً «وَلا وَلَداً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾

يقولُ عَزَّ وجَلَّ مخبراً عن قِيلِ النفرِ من الجنِّ الذين استمعوا القرآن «أنه كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنا»، وهو إبليس، وأما الشَّطَط في القول، فإنه ماكان تَعَدِّياً[1].

وقوله: «وأنَّا ظَنَنَّا أنْ لَنْ تَقولَ الإنْسُ والجنُّ على الله كَذِباً»، يقولُ: قالوا: وأنا حَسِبْنا أنْ لن تَقول بنو آدم والجن على الله كذباً من القولِ، والظنُّ هاهنا بمعنى الشكّ، وإنما أنكر هؤلاء النفر من الجنّ أنْ تكون علمتْ أنَّ أحداً يجترئُ على الكذب على الله لما سمعت القرآن، لأنهم قبل أنْ يسمعوهُ وقبل

(١) فيدخل فيه الجور والكذب، وهو وصفه ـ تعالى ـ بالشريك والولد (انظر: زاد المسير: ٨/٣٧٨).

أنْ يعلموا تكذيبَ الله الزاعمينَ أن لله صاحبةً وولداً، وغير ذلك من معاني الكفر كانوا يحسبونَ أنَّ ابليسَ صادقٌ فيما يدعو بني آدم إليه من صنوفِ الكفر، فلما سمعوا القرآن أيقنوا انه كان كاذباً في كُلّ ذلك، فلذلك قالوا: «وأنَّهُ كانَ يَقولُ سَفيهنا على الله شَطَطاً»، فسمعوه سفيهاً.

وقوله: «وأنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الإِنْس يَعُوذُونَ برجالٍ مِن الجنِّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً غن قِيل هؤلاء النفر: وأنه كانَ رجالٌ من الإنسِ يستجيرونَ برجالٍ من الجنِّ في أسفارهم إذا نزلوا منازلهم.

وقوله: «فَزَادوهم رَهَقاً»، معناه: فزادَ الإِنسَ الجنُّ بفعْلِهم ذلك إثماً، وذلك زادوهم به استحلالاً لمحارم الله، والرَّهَقُ في كلام العرب: الإِثمُ وغِشيانُ المحارم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيل هؤلاء النفرِ من الجنِّ «وأنَّهُم ظَنُّوا كما ظَنَنْتُمْ أنْ لَنْ يَبْعَثَ الله أحَداً»، يعني: أن الرجالَ من الجنِّ ظنوا كما ظَنَّ الرجالُ من الانسِ أنْ لن يبعثَ الله أحداً رسولاً الى خلقه، يدعوهم إلى توحيده.

وقوله: «وأنَّا لَمَسْنا السَّماء»، يقولُ عَزَّ وجَلَّ مخبراً عن قيلِ هؤلاء النفر: وأنَّا طلبنا السماءَ وأردناها، «فَوَجَدْناها مُلِئَتْ»، يقولُ: فوجدناها مُلِئَتْ «حَرَساً شَديداً»، يعني: حَفَظَةً «وشُهُباً»، وهي جمع شهابٍ، وهي النجومُ التي كانت تُرْجَمُ بها الشياطينُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

يقـولُ عَزَّ وجَلَّ: وإنَّا كنا معشر الجنِّ نقعدُ من السماءِ مقاعد لنسمعَ مايحدثُ، ومايكونُ فيها، «فَمَن يَستمع الآن»، فيها مِنَّا «يَجد لَهُ شِهاباً رَصَداً»، يعني: شهابَ نارٍ قد رُصِدَ له به.

وقوله: «وأنَّا لانَدْرِي أشرٌ أريدَ بِمَن في الأرْض أمْ أرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً»، يقولُ عَزَّ وجَلَّ مخبراً عن قِيل هؤلاء النفر من الجنِّ: وأنا لاندري أعذاباً أراد الله أنْ يُنْزِلَهُ بأهلِ الأرض، بمنعهِ إيانا السمعَ من السماءِ ورجمهِ مَن استمع منا فيها بالشُّهب «أمْ أراد بِهِم رَبُّهُمْ رَشَداً»، يقول: أمْ أرادَ بهم ربهم الهدى بأن يبعث منهم رسولاً مرشداً يرشدهم الى الحقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: مخبـراً عن قيلهم «وأنَّـا مِنَّـا الصَّـالحون»، وهم المسلمون العاملون بطاعةِ الله «ومنا دُون ذلك»، يقولُ: ومنا دونَ الصالحينَ «كنـا طرائقَ قدداً»، يقـول: وأنا كنا أهواءً مختلفةً، وفِرَقاً شتَّى، منا المؤمنُ والكافر، والطرائق: جمع طريقة، وهي طريقةُ الرجل ومذهبه، والقدد: جمع قدّة وهي الضروبُ والأجناسُ المختلفة.

وقوله: «وأنَّا ظَنَنَّا أنْ لَنْ نُعْجِزَ الله في الأرْضِ»، يقول: و أنَّا علمنا أنْ لن نُعجزَ الله في الارضِ إن أراد بنا سوءً «ولَنْ نُعْجزَهُ هَرَباً»، إن طلبنا فنفوتَهُ، وإنما وصفوا الله بالقدرةِ عليهم حيث كانوا «وأنَّا لَمَّا سَمِعْنا الهُدى آمنَّا بِهِ»، يقولُ: قالوا: وأنا لما سمعنا القرآن الذي يهدي الى الطريقِ المستقيمِ «آمنا به»، يقولُ: صَدَّقْنا به، وأقْرَرْنَا أنه حَقٌّ من عندِ الله فمن يؤمن بربه «فَلا يَخافُ بخْساً وَلا رَهَقاً»، يقولُ: فَمَنْ يصدقْ بربه «فلا يخافُ بخساً» يقولُ: لايخافُ أنْ ينقص من حسناتِه، فلا يُجازى عليها، «ولا رَهقاً» ولا إثما يحمل عليه من سيئات غيره، أو سيئة يعملها.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قيل النفر من الجنّ «وأنَّا مِنَّا المُسلِمُون»، الذين قد خَضَعُوا لله بالطاعةِ «وَمِنَّا القاسِطُونَ» وهم الجائرونَ عن الاسلامِ وقَصْدِ السبيل.

وقوله: «فَمَنْ أسْلَمَ فأولَئِكَ تَحرَّوا رَشَداً»، يقولُ: فمن أسلم وخَضَعَ لله بالطاعةِ، فأولئكَ تَعَمَّدوا وتَرَجَّوْا رَشداً في دينهم. «وأما القاسطونَ»، يقولُ: الجائرونَ عن الاسلامِ «فكانُوا لجهَنَّم حَطباً»، تُوقَدُ بهم.

القَـوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: وأن لو استقام هؤلاء القاسطون عن طريقة الحقِّ والاستقامة «لأسْقَيْناهم ماءً غدَقاً»، يقولُ: لوسَّعْنا عليهم في الرزقِ، وبسطناهم

في الدنيا «لنفتنهم فيه» يقولُ: لنَخْتَبِرَهُمْ فيه.

وقوله: «وَمَن يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّه يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً»، يقولُ عَزَّ وجَلَّ: ومَنْ يُعرِضْ عن ذِكْرِ رَبِّه الذي ذكره به، وهو هذا القرآن، ومعناه: ومَنْ يُعْرِضْ عن استماعِ القرآن واستعمالِه، «يسلكه الله عذاباً صعداً»، يقولُ: يسلكه الله عذاباً شديداً شاقاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ أوحيَ إليَّ أنه استمع نفرٌ من الجنِّ» «وَأَنَّ المسَاجِدَ لله فَلا تَدْعوا»، أيها الناسُ «مَعَ الله أحداً» ولا تُشْرِكُوا به فيها شيئاً، ولكن أفْرِدُوا له التوحيدَ، وأخْلِصُوا له العبادةَ.

وقوله: «وأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْد الله يَدْعُوهُ كادوا يكونُونَ عَلَيه لِبَداً»، يقولُ: وأنه لما قام محمدٌ رسولُ الله ﷺ يدعو الله يقولُ: «لا إلـه إلا الله» «كادوا يَكُونُون عَلَيْه لِبَداً»، يقولُ: كادوا يكونونَ على محمدٍ جماعاتٍ بعضُها فوقَ بعضٍ، واحِدُها: لبدة.

وذلك خبرُ من الله عن أنَّ رسولَهُ محمداً ﷺ لما قام يَدْعُوه كادتِ العربُ تكونُ عليه جميعاً في إطفاءِ نورِ الله.

وإنما قلنا ذلك لأن قوله: «وأنَّه لَمَّا قام عَبْدُالله يَدْعُوهُ»، عقيبَ قولِه: «وأنَّ المَساجِدَ لله» وذلك من خبر الله فكذلك قولهُ: «وأنه لَمَّا قامَ عَبْدالله يَدْعُوهُ»، وأخرى أنه تعالى ذِكْرُه أتبع ذلك قوله: «فَلا تَدْعُوا مَعَ الله أَحَداً»، فمعلومٌ أنَّ الذي يتبعُ ذلك الخبرَ عما لقي المأمورُ بأنْ لايدعو مع اللهِ أحداً في ذلك، لا الخبر عن كثرةِ إجابةِ المدعوينَ وسرعتِهم الى الإجابة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٠ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢﴾

اختلفت القَـرَأَةُ في قراءةِ قولـه «قُل إنَّما أدْعُو رَبي»، فقرأته عامة قَرأةِ المدينةِ والبصرةِ وبعضُ الكوفيين على وجهِ الخبر «قَال» بالألف، ومَنْ قرأ ذلك كذلك، جعله خبراً من الله عن نبيه محمدٍ ﷺ أنه قال: فيكون معنى الكلام: وأنه لما قام عبدُ الله يدعوه تَلَبَّدُو عليه، قال لهم: إنما أدعُو ربي، ولا أشركُ به أحداً، وقرأ ذلك بعض المدنيين وعامة قَرأة الكوفة على وجهِ الأمر من الله عَزَّ وجَلَّ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ، للناسِ الذين كادوا يكونون عليك لِبَداً: إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً.

والصـوابُ من القـولِ في ذلـك أنهما قراءتانِ معروفتان، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ.

وقوله: «قُل إني لاأمْلِكُ لَكُم ضَرّاً وَلارَشَداً»، يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يامحمدُ، لمشركي العربِ الذين رَدُّوا عليك ماجِئْتَهُمْ به من النصيحةِ: إني لاأملك لكم ضرّاً في دينكم ولا في دنياكم ولا رشداً أرشدكم، لأن الذي يملكُ ذلكَ، الله الذي له مُلْكُ كلِّ شيء.

وقـولـه: «قل إنّي لَنْ يُجيرني مِن الله أحَدٌ»، من خَلْقهِ إنْ أراد بي أمراً، ولا ينصرني منه ناصرٌ.

وقوله: «ولن أجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلتَحَداً» يقولُ: ولن أجدَ من دونِ الله ملجأً ألجأ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لمشركي العرب: إني لاأملكُ لكم ضرّاً ولا رشداً «إلاَّ بَلاغاً مِنَ الله وَرِسالاتِهِ»، يقولُ: إلاَّ أنْ أبلغكم من الله ماأمـرني بتبليغكم إياه. وإلا رسالاته التي أرسلني بها إليكم، فأما الرشدُ والخذلانُ فَبِيدِ الله، هو مالكُه دونَ سائرِ خَلْقِه يهدي مَنْ يشاء ويخذل مَنْ أراد.

وقوله: «وَمن يَعْصِ الله وَرَسولَهُ فإنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّم»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يعص الله فيما أمره ونهاه، ويكذِّب به ورسوله، فجحدَ رسالاته، فإنَّ له نارَ جهنم يصلاها «خالِدِينَ فيها أبَداً»، يقولُ: ماكثين فيها أبداً الى غير نهايةٍ.

وقوله: «حتى إذا رأوا مايُوعَدُون»، يقول تعالى ذِكْرُه: إذا عَايَنُوا ما يَعِدُهم رَبُّهم من العذاب وقيام الساعة «فَسيَعْلَمونَ مَنْ أضْعَفُ ناصِراً وأقَلُّ عَدداً» أجُنْدَ الله الذي أشركوا به، أمْ هؤلاء المشركون به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ: قُلْ يا محمدُ، لهؤلاء المشركين بالله من قومكَ: ماأدري أقريبٌ مايعدُكُم رَبُّكم من العذابِ وقيام الساعة «أمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أمداً»، يعني: غايةً معلومةً تطولُ مدتها.

وقوله: «عالم الغَيْب فَلا يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أحَداً إلّا مَنِ ارتَضَى مِنْ رَسُولٍ»، يعني: بعالم الغيب: عالم ماغَاب عن أبصارِ خَلْقهِ، فلم يروه فلا يُظْهِر على غيبه أحداً، فيعلمه، أو يُرِيَهُ إياهُ إلا مَنِ ارتضى من رسولٍ، فإنه يُظْهِرُه على ماشاء من ذلك.

وقوله: «فإنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بين يَدَيْهِ ومنْ خَلْفِهِ رَصداً»، يقولُ: فإنه يرسلُ من أمامِهِ ومنْ خَلْفِه حَرَساً وحَفَظَةً يحفظونه.

وقوله: «لِيَعلْمَ أنْ قَدْ أبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهم»، اختلف أهلُ التأويل في الذي عُني بقوله: «لِيعلمَ»، فقال بعضهم: عُني بذلك رسولُ الله ﷺ، وقالوا: معنى الكلام: ليعلَم رسولُ الله ﷺ أنْ ابلغتِ الرُّسُلُ قَبْلَهُ عن رَبِّها.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ليعلمَ المشركونَ أنّ الرسلَ قد بَلَّغُوا رسالاتِ ربهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ليعلم محمدٌ أنْ قد بلغتِ الملائكةُ رسالاتِ ربهم.

وأولى هذه الاقوالِ عندنا بالصواب، قولُ مَنْ قال: ليعلمَ الرسولُ أنَّ الرسلَ قَبْلَهُ قد أبلغوا رسالاتِ رَبِّهم، وذلك أن قوله: «لِيَعْلَمَ» من سبب قوله: «فإنّه يَسْلُكُ مِنْ بين يَدَيْه وَمِن خَلفه رَصَداً» وذلك خبرٌ عن الرسولِ، فمعلومٌ بذلك أنَّ قوله: ليعلم من سببِهِ إذْ كان ذلك خبراً عنه.

وقوله: «وأحاطَ بِمَا لَدَيْهم» يقولُ: وعلم بكلِّ ماعندهم «وأحصى كُلَّ شَيء عَدَداً»، يقولُ: عَلم عَدَدَ الأشياء كلها، فلم يَخْفَ عليه منها شيء.

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾

يعني بقوله: «يا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ» هو الملتفُّ بثيابِهِ. وإنما عنى بذلك نبيَّ الله ﷺ.

واختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي وَصَفَ اللهُ به نبيه ﷺ في هذه الآيةِ من التزمُّلِ، فقال بعضهم: وصفه بأنه مُتزملٌ في ثيابه، متأهبٌ للصلاةِ. وذلك قول قتادة.

وقال آخرون: وصفه بأنه متزمِّلٌ النبوّةَ والرسالةَ. وذلك قول عكرمة.

والذي هو أَوْلى القولين بتأويلِ ذلك، ما قاله قتادة، لأنه قد عقبه بقوله: «قُم اللَّيْلَ» فكان ذلك بياناً عن أنَّ وصفه بالتزمُّلِ بالثيابِ للصلاةِ، وأنَّ ذلك هو أظهر مَعْنَيَيْهِ.

وقوله: «قُمِ اللَّيْلَ إلاَّ قَلِيلاً»، يقول لنبيه ﷺ: «قم الليل» يا محمدُ كُلَّهُ «إلا قليلاً» منه «نِصْفَهُ»، يقول: قُمْ نصفَ الليلِ «أو انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً، أوْ زِدْ عَلَيْهِ»، يقول: أو زِدْ عليه، خَيَّرَهُ اللهُ تعالى ذِكْرُه حين فَرَضَ عليه قيامَ الليلِ

بين هذه المنازلِ أيَّ ذلك شاءَ فعلَ، فكان رسولُ الله ﷺ وأصحابه فيما ذُكِرَ يقومون الليلَ، نحو قيامِهم في شهرِ رمضانَ فيما ذُكِرَ حتى خفف ذلك عنهم.

وقوله: «وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرْتِيلاً»، يقول جلّ وعزّ: وبَيِّنِ القرآنَ إذا قرأته تَبْييناً، وتَرَسَّلْ فيه ترسُّلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل قوله: «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْك قَوْلاً ثَقِيلاً»، فقال بعضهم: عُني به: إنَّا سنلقي عليكَ قولاً ثقيلاً العملُ به.

وقال آخرون: بل عنى بذلك أن القولَ عَيْنَهُ ثقيلٌ مَحْمَلُه.

وأوْلى الأقوالِ بالصوابِ في ذلك أنْ يقالَ: إنَّ الله وصفه بأنه قولٌ ثقيلٌ، فهو كما وصفه به ثقيلٌ مَحْمَلُهُ ثقيلُ العملُ بحدودهِ وفرائضه.

وقوله: «إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً»، يعني جلّ وعزّ بقوله: إنَّ ناشئةَ الليلِ: إنَّ ساعات الليل، وكلّ ساعةٍ من ساعاتِ الليل ناشئة من الليل.

ويعني بقوله: «هِيَ أَشَدُّ وطْئاً» ناشئة الليل أشدُّ ثباتاً من النهارِ وأثبتُ في القلبِ، وذلك أنَّ العملَ بالليل أثبتُ منه بالنهار. وحُكي عن العربِ وطئنا الليلَ وطأً: إذا ساروُا فيه.

وقوله: «وأَقْوَمُ قِيلاً»، يقول: وأصوبُ قراءة.

قوله: «إنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّ لكَ يا محمدُ في النهار فراغاً طويلاً تَتَّسِعُ به، وتتقلَّبُ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَاذْكُرْ» يا محمدُ «اسْمَ رَبِّكَ» فادْعُهُ به «وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً»، يقول: وانقطعْ إليه انقطاعاً لحوائجكَ وعبادتكَ دونَ سائرِ الأشياءِ غيره، وهو من قولهم: تبتلتُ هذا الأمرَ: ومنه قِيلَ لأمِّ عيسى بن مريم البَتُول، لانقطاعِها إلى اللهِ، ويقال للعابدِ المنقطعِ عن الدنيا وأسبابِها إلى عبادةِ الله: قد تَبَتَّلَ؛ ومنه الخبرُ الذي رُوي عن النبيِّ ﷺ «أنه نهى عن التبتُّل»[1].

وقوله: «رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ»، يعني: رَبُّ المشرقِ والمغربِ وما بينهما من العالم.

وقوله: «لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ»، يقول: لا ينبغي أن يُعبدَ إلهٌ سوى الله الذي هو ربُّ المشرقِ والمغربِ.

وقوله: «فاتَّخِذْهُ وَكِيلاً» فيما يأمركَ وفَوِّضْ إليه أسبابَكَ.

وقوله: «وَاصْبِرْ على ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: اصبرْ يا محمدُ على ما يقولُ المشركونَ من قومكَ لكَ، وعلى أذاهم، واهجرهم في الله هجراً جميلاً. والهجرُ الجميلُ: هو الهجرُ في ذاتِ الله، كما قال عزّ وجلّ: «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فأَعْرِضْ عَنْهُمْ حتى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ» [الأنعام: ٦٨]. . . الآية، وقيل: إن ذلك نُسخ.

(١) أي الانقطاع عن النساء وترك النكاح انقطاعاً إلى عبادة الله. وهو حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: «رَدَّ رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاخْتَصَيْنَا»، وهو في الصحيحين: البخاري (٥٠٧٣) و(٥٠٧٤)، ومسلم (١٤٠٢). .

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَذَرْنِي وَالمُكَذِّبِينَ»، فَدَعْني يا محمدُ والمكذِّبينَ بآياتي «أُولي النَّعْمَةِ»، يعني: أهل التنعم في الدنيا «وَمَهِّلْهُمْ قليلاً»، يقول: وأَخِّرْهُمْ بالعذابِ الذي بسطته لهم قليلاً حتى يبلغ الكتابُ أجله.

وقوله: «إنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وجَحِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ عندنا لهؤلاء المكذِّبينَ بآياتنا أنكالاً، يعني: قيوداً، واحدها: نِكْل.

وقوله: «وَجَحِيماً»، يقول: وناراً تسعر «وَطَعاماً ذَا غُصَّةٍ»، يقول: وطعاماً يَغَصُّ به آكِلُه، فلا هو نازلٌ عن حَلْقِه، ولا هو خارجٌ منه.

وقوله: «وَعَذَاباً أَليماً»، يقول: وعذاباً مؤلماً موجِعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ لدينا ـ لهؤلاء المشركينَ من قريشٍ الذين يؤذونك يا محمدُ، العقوباتِ التي وَصَفَها في يوم تَرْجُفُ الأرضُ والجبالُ؛ ورُجْفانُ ذلك: اضطرابُهُ بِمَنْ عليه، وذلك يوم القيامة.

وقوله: «وكانَتِ الجبالُ كَثِيباً مَهِيلاً»، يقول: وكانت الجبالُ رملاً سائلاً متناثراً. والمَهِيلُ: مفعول من قولِ القائلِ: هِلْتُ الرملَ فأنا أهيلُه، وذلك إذا حُرِّكَ أسفلُه، فانهالَ عليه من أعلاه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «إنا أَرْسَلْنا إلَيْكُمْ» أيها الناسُ «رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ» بإجابةِ مَنْ أجاب منكم دعوتي، وامتناع مَن امتنع منكم من الإجابةِ، يوم تلقوني في القيامة «كَما أَرْسَلْنا إلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً»، يقول: مِثْلَ إرسالنا مِنْ قَبْلِكُمْ إلى فرعون مصرَ رسولاً بدعائهِ إلى الحقِّ، «فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ» الذي أرسلناه إليه «فأَخَذْناهُ أخْذاً وَبِيلاً»، يقول: فأخذناه أخذاً شديداً، فأهلكناهُ ومَنْ معه جميعاً، وهو من قولهم: «كَلأٌ مُسْتَوْبِلٌ، إذا كان لا يُسْتَمْرَأُ»، وكذلك الطعام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمشركينَ به: فكيف تَخافُونَ أيها الناسُ يوماً يجعلُ الولدانَ شِيباً إنْ كفرتم باللهِ، ولم تصدِّقوا به.

وقوله: «يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدانَ شِيباً»، يعني يومَ القيامة، وإنما تَشِيبُ الولدانُ من شِدَّةِ هَوْلِهِ وكَرْبه.

وقوله: «السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: السماءُ مُثْقَلَةٌ بذلك اليومِ متصدِّعةٌ متشققة.

وقوله: «كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: كان ما وَعَدَ اللهُ من أمرٍ أنْ يفعله مفعولاً، لأنه لا يخلف وعده، وما وَعَدَ أنْ يفعله، تكوينه يومَ تكونُ الولدانُ فيه شيباً يقول: فاحذروا ذلك اليوم أيها الناسُ، فإنه كائنٌ لا محالة.

القَوْلُ فِي تأْويلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقولِه: إنَّ هذه الآياتِ التي ذكر فيها أمر القيامةِ وأهوالها، وما هو فاعلٌ فيها بأهلِ الكفر «تذكرةٌ»، يقول: عبرةٌ وعِظةٌ لمن اعتبر بها واتَّعظ «فَمَنْ شاءَ اتَّخذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلًا»، يقول: فمن شاء من الخلْقِ اتَّخذ إلى رَبِّه طريقاً بالإيمانِ به، والعمل بطاعته.

وقوله: «إنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أنكَ تَقُومُ أدْنى مِنْ ثُلُثَي اللَّيْل»، يقول لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّ ربك يا محمدُ يعلمُ أنكَ تقومُ أقرب من ثلثي الليل مصلياً، ونصفه وثلثه.

وقوله: «وطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ»، يعني: من أصحابِ رسولِ الله ﷺ الذين كانوا مؤمنينَ بالله حين فَرَضَ عليهم قيامَ الليل.

وقوله: «واللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ والنهارَ» بالساعاتِ والأوقاتِ.

وقوله: «عَلِمَ أنْ لَنْ تُحْصُوهُ»، يقول: عَلِمَ رَبُّكم أيها القومُ الذين فرض عليهم قيام الليل أنْ لن تُطِيقُوا قيامَهُ «فَتابَ عَلَيْكُمْ» إذْ عجزتم وضعفتم عنه، ورجعَ بكم إلى التخفيفِ عنكم.

«فَاقْرَءُوا ما تَيَسَّرَ مِنَ القُرْآنِ»، يقول: فاقرءوا من الليلِ ما تَيَسَّرَ لكم من القرآنِ في صلاتكم وهذا تخفيفٌ من الله عزّ وجلّ عن عبادِه فَرْضَهُ الذي كان فرض عليهم بقوله: «قُمِ اللَّيْلَ إلاَّ قَلِيلاً، نِصْفَهُ أو انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً».

وقولـه: «عَلِمَ أنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: علم رَبُّكم أيها المؤمنونَ أنْ سيكونُ منكم أهلُ مرضٍ قد أضعفَهُ المرضُ عن قيامِ الليل، «وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأرْضِ» في سَفَرٍ «يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ» في تجارةٍ قد سافروا لطلبِ المعاشِ فأعجزهم، فأضعفهم أيضاً عن قيامِ الليلِ «وآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ»، يقول: وآخرون أيضاً منكم يجاهدونَ العدوَّ فيقاتلونهم في نُصرةِ دين الله، فَرَحِمَكُم اللهُ فخفَّفَ عنكم، ووضعَ عنكم فَرْضَ قيامِ الليل «فاقْرَؤُوا ماتَيَسَّرَ مِنْهُ»، يقول: فاقرؤُوا الآن إذْ خَفَّفَ ذلك عنكم من الليلِ في صلاتكم ماتيسَّر من القرآنِ. والهاء في قوله: «منه» من ذِكْرِ القرآن.

يقـول: وأقيمـوا المفروضةَ وهي الصلواتُ الخمسُ في اليومِ والليلة. «وآتُوا الزَّكاةَ»، يقول: وأعطوا الزكاةَ المفروضةَ في أموالِكم أهلَها.

قولـه: «ومَـا تُقَدِّمُوا لأنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وأعْظَمَ أجْراً»، يقول: وما تُقَدِّمُوا أيها المؤمنونَ لأنفسِكم في دارِ الدنيا من صدقةٍ أو نفقةٍ تنفقونها في سبيل الله، أو غير ذلك من نفقةٍ في وجوهِ الخير، أو عملٍ بطاعةِ الله من صلاةٍ أو صيامٍ أو حجٍّ، أو غير ذلك من أعمالِ الخير في طلب ماعندَ الله، تَجِدُوهُ عند الله يومَ القيامة في مَعادِكم، هو خيراً لكم مما قدَّمتم في الدنيا، وأعظم منه ثواباً: أي ثوابهُ أعظمُ من ذلك الذي قَدَّمْتُموه لو لَمْ تكونوا قدَّمتموه «وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وسَلُوا اللهَ غفرانَ ذنوبكم يصفحْ لكم عنها. «إن اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقول: إنَّ اللهَ ذُو مغفرة لذنوبِ مَنْ تابَ من عبادِه من ذنوبِه، وذُو رحمةٍ أنْ يعاقبهم عليها من بعدِ توبتهم منها.

سُورَةُ المُدَّثِّر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾

يقول جلّ ثناؤه: «يا أيُّها المُدَّثِّر»: يا أيها المُتَدَثِّر بثيابهِ عند نومهِ.

وذُكِرَ أنَّ نبيَّ الله ﷺ قيل له ذلك، وهو متدثرٌ بقطيفةٍ.

وقوله: «قُمْ فأنْذِر»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُمْ من نومك فأنذر عذابَ الله قومكَ الذين أشركوا باللهِ، وعبدوا غيره.

وقوله: «وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وربَّكَ يا محمدُ فعَظِّمْ بعبادتهِ، والرغبةِ إليه في حاجاتك دونَ غيرِه من الآلهةِ والأنداد.

وقوله: «وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ»، يعني: اغسلها بالماء وطَهِّرْهَا من النجاسةِ، وذلك أظهر معانيه. وقال ابن عباس وعكرمة وابن زكريا: جسمك فطَهِّرْ من الذنوبِ، وهو قول عليه أكثرُ السلف، والله أعلمُ بمراده[1].

وقوله: «والرُّجْزَ فاهجُرْ»، معناه: والأوثانَ فاهجر عبادتَها، واتركْ خِدْمَتَها.

---

(١) هذا هو اختيار المؤلف من بين عدة أقوال، وقد عبرنا عنه بعبارة المؤلف مع شيء من إعادة الترتيب.

وقوله: «ولا تَمْنُنْ تَسْتكثر»، يعني: ولا تمنن على رَبّك من أنْ تستكثرَ عملك الصالح.

وإنما قلت ذلك، لأنَّ ذلك في سياقِ آياتٍ تَقَدَّمَ فيهنَّ أمرُ الله نبيَّهُ ﷺ بالجدِّ في الدعاءِ إليه، والصبرِ على ما يَلْقَى من الأذى فيه، فهذه بأنْ تكونَ من أنواعِ تلكَ، أشبهُ منها بأنْ تكونَ من غيرها.

وقوله: «وَلِرَبِّكَ فاصْبِرْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولربِّكَ فاصبرْ على مالَقِيتَ فيهِ من المكروهِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢﴾

يعني[1] جلّ ثناؤه بقوله: «فَإِذَا نُقِر في الناقور»[2]: فإذا نُفِخَ في الصُّورِ «فذلك يومئذٍ يومٌ عسير»، يعني: شديدٌ، ثم بَيَّنَ اللهُ على مَنْ يقع، فقال: «على الكافرينَ غير يسير»، يقول: غير هَيِّنٍ.

وقوله: «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: كِلْ يا محمدُ أمرَ الذي خَلَقْتُه في بطنِ أمهِ وحيداً، لا شيءَ له من مالٍ ولا ولدٍ إليَّ.

وذُكر أنه عُنِي بذلك: الوليد بن المغيرة المخزومي.

---

(١) وقـع في تفسير الآيات ٨ ـ ١٢ اضـطراب وتـداخـل سببـه سقط في المخـطوطـة والمطبوعات استدركناه من الآثار التي ساقها المؤلف للتدليل على صحة اختياره.

(٢) في الأصل: «يعني جل ثناؤه بقوله: فإذا نقر بالناقور»، ولا شك بسقوط ما أثبتناه.

وقوله: «وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً»، اختلف أهلُ التأويل في هذا المالِ الذي ذكره الله، وأخبر أنه جَعَلَهُ للوحيدِ ما هُوَ، وما مَبْلَغُه؟

والصواب من القولِ في ذلك أن يقال كما قال الله: «وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً» وهو الكثيرُ الممدودُ عَدَدُه أو مساحتُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ۝١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلتُ له بنينَ شهوداً، ذُكِرَ أنهم كانوا عشرة.

وقوله: «وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وبسطتُ له في العيش بسطاً.

وقوله: «ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم يأملُ ويرجو أَنْ أَزِيدَهُ من المالِ والولدِ على ما أعطيتهُ «كَلَّا» يقول: ليس ذلك كما يأملُ ويرجو من أَنْ أزيدَهُ مالاً وولداً، وتمهيداً في الدنيا «إِنَّهُ كانَ لآياتِنا عَنِيداً»، يقول: إنَّ هذا الذي خلقته وحيداً كان لآياتنا، وهي حِجَجُ الله على خَلْقِه من الكتب والرسل عنيداً، يعني: معانداً للحقِّ مُجَانِباً له، كالبعيرِ العَنُود.

وقوله: «سأُرْهِقُهُ صَعُوداً»، يقول تعالى ذِكْرُه: سَأُكَلِّفُه مشقةً من العذابِ لا راحةَ له منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ۝٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ۝٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذا الذي خلقتُه وحيداً، فَكَّر فيما أنزلَ الله على عبدِه محمدٍ ﷺ من القرآنِ، وقَدَّرَ فيما يقولُ فيه «فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ»، يقول: ثم لُعِنَ كيف قَدَّرَ النازلَ فيه «ثُمَّ نَظَرَ»، يقول: ثم رَوَّى[1] في ذلك «ثُمَّ عَبَس»، يقول: ثم قبضَ ما بين عينيه «وبَسَرَ» يقول: كَلَحَ وَجْهُه.

وقـولـه: «ثُمَّ أَدْبَـرَ وَاسْتَكْبَرَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم وَلَّى عن الإيمانِ والتصديقِ بما أنزلَ الله من كتابهِ، واستكبرَ عن الإقرارِ بالحقِّ «فقال إنْ هَذَا إلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ»، قال: يأثرهُ عن غَيْرِه.

وقوله: «إنْ هَذَا إلاَّ قَوْلُ البَشَرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ الوحيدِ في القرآن «إنْ هَذَا إلاَّ قَوْلُ البَشَرِ» ماهذا الذي يتلوهُ محمدٌ إلا قولُ البشر، يقول: ماهو إلا كلامُ ابنِ آدم، وما هو بكلامِ الله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

يعني تعـالى ذِكْرُه بقوله: «سأُصْلِيهِ سَقَرَ» سأُورِدُه باباً من أبوابِ جهنمَ اسمهُ سقر، ولم يُجَرَّ سقر لأنه اسمٌ من أسماءِ جهنمَ «وما أدْراكَ ما سَقَرُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأيُّ شيءٍ أدراكَ يا محمدُ أيَّ شيء سقر. ثم بَيَّنَ الله تعالى ذِكْرُه

---

(١) رَوَّى: أي تفكَّرَ في الأمر.

ما سقر، فقال: هي نارٌ «لا تُبْقي» مَنْ فيها حَيّاً «وَلا تَذَرُ» مَنْ فيها ميتاً، ولكنها تحرقهم كُلَّمَا جدّد خلقهم.

وقوله: «لَوَّاحَةٌ للبَشَر»، يعني جلّ ثناؤه: مُغَيِّرَةٌ لبشرِ أهلها، واللوَّاحةُ من نَعْتِ سقر.

وقوله: «عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: على سقر تسعة عشر من الخَزَنة.

وقوله: «ومَا جَعَلْنا أصحَابَ النَّارِ إلاَّ مَلائِكَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما جعلنا خَزَنَةَ النارِ إلا ملائكةً يقول لأبي جهل في قولِهِ لقريشٍ: أما يستطيعُ كلُّ عشرةٍ منكم أنْ تغلبَ منها واحداً؟ فَمَنْ ذا يغلبُ خَزَنَةَ النارِ وهم الملائكة.

وقوله: «ومَا جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إلاَّ فِتْنَةً للَّذِينَ كَفَرُوا»، يقول: وما جعلنا عِدَّةَ هؤلاء الخزنةِ إلا فتنة للذين كفروا بالله من مُشركي قريش.

وإنما جعل الله الخبرَ عن عِدَّةِ خَزَنَةِ جهنمَ فتنةً للذين كفروا، لتكذيبهم بذلك، وقول بعضِهم لأصحابِهِ: أنا أَكْفِيكُمُوهُمْ.

وقوله: «لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ليستيقنَ أهلُ التوراةِ والإنجيلِ حقيقةَ ما في كتبهم من الخبرِ عن عِدَّةِ خزنةِ جهنمَ، إذْ وافق ذلك ما أنزلَ الله في كتابه على محمدٍ ﷺ.

وقوله: «وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إيمَاناً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وليزدادَ الذين آمنوا بالله تصديقاً إلى تصديقهم باللهِ وبرسولهِ بتصديقِهم بعدَّةِ خَزَنَةِ جهنمَ.

وقوله: «وَلا يرتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ وَالمؤْمِنُونَ»، يقول: ولا يشكَّ أهلُ التوراةِ والإنجيلِ في حقيقةِ ذلك والمؤمنون باللهِ من أمةِ محمدٍ ﷺ.

وقوله: «وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ والكافِرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه:

وليقولَ الذين في قلوبهم مَرَضُ النفاقِ، والكافرون بالله من مشركي قريش «ماذَا أَرادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً»، يقول: حتى يُخَوِّفَنا[1] بهؤلاء التسعة عشرة.

وقوله: «كَذلكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ ويَهْدِي مَنْ يَشاءُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كما أَضلَّ اللهُ هؤلاء المنافقينَ والمشركينَ القائلينَ في خبرِ الله عن عدَّةِ خَزَنَةِ جهنمَ: أيّ شيءٍ أرادَ اللهُ بهذا الخبرِ من المثلِ حتى يُخَوِّفَنا بذكْرِ عِدَّتِهم، ويهتدي به المؤمنونَ، فازدادوا بتصديقِهم إلى إيمانهم إيماناً «كَذلكَ يُضِل اللهُ مَنْ يَشاءُ مِنْ خَلْقِه» فيخذله عن إصابةِ الحقِّ «ويَهْدِي مَنْ يَشاءُ» منهم، فيوفِّقهُ لإصابةِ الصوابِ «ومَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ» مِنْ كَثْرَتِهم «إلَّا هُوَ»، يعني: اللهَ.

وقـوله: «ومَا هِيَ إلَّا ذكرى لِلْبَشرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما النار التي وصفتها إلا تذكرة ذَكَّرَ بها البشرَ، وهم بنو آدم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «كَلَّا» ليس القولُ كما يقولُ مَنْ زعم أنه يكفي أصحابَه المشركينَ خزنةَ جهنمَ حتى يُجْهِضَهم عنها، ثم أقسم رَبُّنَا تعالى فقال: «والقَمرِ واللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ»، يقول: والليلِ إذ وَلَّى ذاهباً.

وقوله: «والصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والصبحِ إذا أضاء.

«إنها لَإِحْدَى الكُبَرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ جهنمَ لإحدى الكبر، يعني: الأمور العظام.

(١) في المطبوع: «يخوننا»، وما أثبتناه هو الصواب، وسيأتي.

وقوله: «نَذِيراً لِلْبَشَرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ النار لإحدى الكبر، نذيراً لبني آدمَ.

وقوله: «لمنْ شاءَ مِنْكُمْ أنْ يَتَقَدَّمَ أوْ يَتأَخَّرَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: نذيراً للبشرِ لمنْ شاء منكم أيها الناسُ أن يتقدَّمَ في طاعةِ اللهِ، أو يتأخَّرَ في معصيةِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كلُّ نفسٍ مأمورة منهية بما عملتْ من معصيةِ اللهِ في الدنيا، رهينة في جهنم «إلَّا أصحابَ اليَمِينِ» فإنهم غير مُرْتَهَنِينَ، ولكنهم «فِي جَنَّاتٍ يَتساءَلُونَ، عن المُجرمين».

وقوله: «فِي جَنَّاتٍ يَتساءَلُونَ عَن المُجْرِمِينَ ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ»، يقول: أصحابُ اليمين في بساتينَ يَتساءلونَ عن المجرمينَ الذين سُلِكُوا في سقر، أيّ شيءٍ سلككم في سقر؟ «قالُوا لَمْ نَك مِنَ المُصَلينَ»، يقول: قال المجرمون لهم: لم نَكُ في الدنيا من المُصَلِّينَ لله «ولَمْ نَكُ نُطْعِمُ المِسْكِينَ» بُخْلاً بما خوَّلهم اللهُ، ومنعاً له من حقه.

«وكُنَّـا نَخُوضُ مَعَ الخائِضِينَ»، يقول: وكنا نخوضُ في الباطلِ وفيما يكرهه اللهُ مع مَنْ يخوضُ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾

وقوله: «وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قالوا: وكنا نكذِّبُ بيومِ المجازاةِ والثوابِ والعذابِ، ولا نصدِّقُ بثوابٍ ولا عقابٍ ولا حسابٍ «حتى أتانا اليَقِينُ»، يقول: قالوا: حتى أتانا الموتُ الموقَنُ به «فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ»، يقول: فما يشفعُ لهم الذين شفعهم الله في أهلِ الذنوبِ من أهلِ التوحيدِ، فتنفعهم شفاعَتُهم، وفي هذه الآية دلالةٌ واضحةٌ على أنَّ الله تعالى ذِكْرُه مُشَفِّعٌ بعضَ خَلْقِه في بعض.

وقوله: «فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ»، يقول: فما لهؤلاءِ المشركينَ عن تذكرةِ اللهِ إياهم بهذا القرآنِ مُعْرِضِينَ، لا يستمعونَ لها فَيَتَّعِظُوا ويعتبروا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فما لهؤلاء المشركينَ باللهِ عن التذكرةِ مُعْرِضينَ، مُوَلِّينَ عنها توليةَ الحُمُرِ المستنفرة «فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ».

وقوله: «فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ»، اختلف أهلُ التأويلِ في معنى القسورة، فقال بعضهم: هم الرُّمَاةُ.

وقال آخرون: هم القناص.

وقال آخرون: هم جماعةُ الرجال.

وقال آخرون: هي أصواتُ الرجال.

وقال آخرون: بل هو الأسد.

وقوله: «بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مَنَشَّرَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما بهؤلاءِ المشركينَ في إعراضهم عن هذا القرآنِ أنهم لا يعلمونَ أنه

من عندِ الله، ولكنَّ كلَّ رجلٍ منهم يريدُ أنْ يُؤتَى كتاباً من السماءِ ينزل عليه.

وقوله: «كَلَّا بَلْ لا يَخافُونَ الآخِرَةَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما الأمرُ كما يزعمونَ من أنهم لو أُوتُوا صحفاً مُنَشَّرة صَدَّقُوا، «بل لا يخافونَ الآخرةَ»، يقول: لكنهم لا يخافونَ عقابَ الله، ولا يُصَدِّقُونَ بالبعثِ والثوابِ والعقاب فذلك الذي دعاهم إلى الإعراضِ عن تذكرةِ الله، وهَوَّنَ عليهم تركَ الاستماعِ لوحيهِ وتنزيلهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾

يعني جلَّ ثناؤه بقوله: «كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ» ليس الأمرُ كما يقولُ هؤلاء المشركونَ في هذا القرآنِ من أنه سحرٌ يُؤثَر، وأنه قولُ البشر، ولكنه تذكرةٌ من الله لخلقِه، ذَكَّرهم به.

وقوله: «فَمَن شاءَ ذَكَرَه»، يقول تعالى ذِكْرُه: فمن شاء من عبادِ الله الذين ذَكَّرَهُمُ اللهُ بهذا القرآنِ ذَكَرَهُ، فاتَّعَظَ فاستعملَ مافيه من أمرِ اللهِ ونهيهِ «ومَا يَذْكُرُونَ إلَّا أنْ يَشاءَ اللهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما يذكرونَ هذا القرآنَ فَيَتَّعِظُونَ به، ويستعملونَ مافيه، إلا أنْ يشاءَ اللهُ أنْ يذكروه، لأنه لا أحدَ يقدرُ على شيءٍ إلا بأنْ يشاءَ الله يُقَدِّرُهُ عليه، ويعطيه القُدْرَةَ عليه.

وقوله: «هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وأَهْلُ المَغْفِرَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: اللهُ أهلٌ أنْ يَتَّقِي عبادُه عقابَهُ على معصيتهم إياه، فيجتنبوا معاصيه، ويُسارعوا إلى طاعتِه، «وأهلُ المغفرةِ»، يقول: هو أهل أنْ يغفرَ ذنوبهم إذا هم فعلوا ذلك، ولا يعاقبهم عليها مع توبتهم منها.

سُورَةُ القِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝٤﴾

وإنما قلنا ذلك، لأنَّ المعروفَ من كلامِ الناسِ في محاوراتهم إذا قال أحدهم: لا والله، لا فعلت كذا، أنه يقصد بلا ردَّ الكلام، وبقوله: والله، ابتداء يمين، وكذلك قولهم: لا أقسم بالله لا فعلت كذا؛ فإذا كان المعروف من معنى ذلك ما وصفنا، فالواجبُ أنْ يكون سائر ما جاء من نظائره جارياً مجراه، ما لم يخرجْ شيءٌ من ذلك عن المعروفِ بما يجبُ التسليم له، وبعد: فإنَّ الجميعَ من الحُجَّة مُجْمِعُونَ على أنَّ قولَهُ: «لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيامَةِ» قَسَمٌ، فكذلك قوله: «وَلا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ» إلا أنْ تأتي حجةٌ تدلُّ على أنَّ أحدهما قَسَمٌ، والآخر خبر.

فتأويلُ الكلام إذاً: لا ما الأمرُ كما تقولونَ أيها الناسُ من أنَّ اللهَ لا يبعثُ عباده بعدَ مماتهم أحياء، أقسم بيوم القيامة، وكانت جماعةٌ تقول: قيامةُ كُلِّ نفسٍ مَوْتُها.

وقوله: «وَلا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ»، اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ قوله: «اللَّوَّامَةِ»، فقال بعضهم: معناه: التي تلومُ على الخيرِ والشرِّ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنها تلومُ على ما فاتَ وتندم.

وقال آخرون: بل اللوّامة: الفاجرةُ.

وقال آخرون: بل هي المذمومةُ.

وهـذه الأقـوال التي ذكرناها عَمَّنْ ذكرناها عنه وإنِ اختلفتْ بها ألفاظُ قائليها، فمتقاربات المعاني، وأشبه القول في ذلك بظاهرِ التنزيلِ أنها تلومُ صاحبها على الخيرِ والشرِّ، وتندم على ما فات.

وقوله: «أيَحْسَبُ الإنْسانُ أنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أيظنُّ ابنُ آدم أنْ لن نقدرَ على جمعِ عظامهِ بعد تَفَرُّقِهَا، بَلَى قادرينَ على أعظم من ذلـك، أنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ، وهي أصابع يديه ورجليه، فنجعلها شيئاً واحداً كخفِّ البعير، أو حافرِ الحمار، فكانَ لا يأخذُ ما يأكلُ إلا بِفِيهِ كسائرِ البهائمِ، ولكنه فَرَّقَ أصابعَ يديه يأخذ بها، ويتناول ويقبض إذا شاء ويبسط، فحسن خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما يجهل ابن آدم أنَّ رَبَّهُ قادرٌ على أنْ يجمعَ عظامَهُ، ولكنه يريدُ أنْ يمضي أمامه قُدُماً في معاصي الله، لا يثنيه عنها شيءٌ، ولا يتوبُ منها أبداً، ويُسَوِّفُ التوبةَ.

قوله: «يَسألُ أيَّانَ يَوْمُ القيامَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يسألُ ابنُ آدم السائر دائباً في معصيةِ الله قُدُماً: متى يوم القيامة، تسويفاً منه للتوبة، فبين الله له ذلك فقال: «فإذَا بَرِقَ البَصَرُ، وخَسَفَ القَمَرُ، وجُمِعَ الشَّمْسُ والقَمَرُ»... الآية.

وقوله: «فإذا بَرِق البَصَر»، معناه: فإذا فزع فَشُقَّ وفُتِحَ من هَوْلِ القيامةِ وفَزَعِ الموتِ.

وقوله: «وَخَسَفَ القَمَرُ»، يقول: ذهبَ ضوءُ القمر.

وقوله: «وجُمِعَ الشَّمْسُ والقَمَرُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجمع بين الشمسِ والقمرِ في ذهابِ الضوء، فلا ضوءَ لواحدٍ منهما.

وقوله: «يَقُولُ الإنْسانُ يَوْمَئِذٍ أيْنَ المَفَرُّ»، معناه: يقول الإنسانُ يوم يعاينُ أهوالَ يومِ القيامة: أين المَفَرُّ من هولِ هذا الذي قد نزل، ولا فِرارَ.

«كَلَّا لا وَزَرَ»، يقول جلّ ثناؤه: ليس هناك فرارٌ ينفعُ صاحبه، لأنه لا ينجيه فِرارهُ، ولا شيء يلجأ إليه من حصنٍ ولا جبلٍ ولا معقلٍ، من أمرِ الله الذي قد حضر، وهو الوزر.

وقوله: «إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إلى رَبِّكَ أيها الإنسانُ يومئذٍ الاستقرارُ، وهو الذي يُقِرُّ جميعَ خَلْقِه مَقَرَّهُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يُخْبَر الإنسانُ يومئذٍ، يعني يومَ يَجْمَع الشمسَ والقمر فيكوَّران بما قَدَّم وأخَّر.

وقوله: «بما قَدَّمَ وأخَّر»، خبرٌ من الله أنَّ الإنسانَ يُنَبَّأُ بكلِّ ماقَدَّمَ أمامه مما عَمِلَ من خيرٍ أو شرٍّ في حياته، وأخَّرَ بعده من سنة حسنةٍ أو سيئةٍ مما قدَّمَ وأخَّر، كذلك ماقدّم من عمل عَمِلَهُ من خيرٍ أو شرّ، وأخّر بعده من عملٍ كان عليه فضيَّعه، فلم يعمله مما قَدَّمَ وأخَّر، ولم يخصص الله من ذلك بعضاً دون بعضٍ، فكلّ ذلك مما ينبأ به الإنسانُ يوم القيامة.

وقوله: «بَل الإنْسانُ على نَفْسِه بَصِيرةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بَلْ للإنسان على نفسِه من نفسه رُقَبَاءُ يَرْقُبُونَهُ بعمله، ويشهدون عليه به.

وقوله: «وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ»، اختلف أهلُ الرواية في معنى ذلك، فقال بعضُهم: معناه: بل للإنسانِ على نفسِه شهودٌ من نفسِه، ولو اعتذر بالقولِ مما قد أتى من المآثم، وركب من المعاصي، وجادل بالباطل.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: بل للإنسانِ على نفسِه من نفسِه بصيرة ولو تَجَرَّدَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولو أرخى الستورَ وأغلقَ الأبوابَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك «وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ» لم تُقْبَلْ.

وأَوْلى الأقوال في ذلك عندنا بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معناه: ولو اعتذر لأنَّ ذلك أشبه المعاني بظاهرِ التنزيل، وذلك أنَّ الله جلّ ثناؤه أخبر عن الإنسانِ أنَّ عليه شاهداً من نفسِه بقوله: «بَلِ الإنْسانُ على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ» فكان الذي هو أَوْلى أنْ يتبعَ ذلك، ولو جادلَ عنها بالباطل، واعتذرَ بغيرِ الحقِّ، فشهادةُ نفسِه عليه به أحقُّ وأولى من اعتذارِه بالباطل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: لا تُحَرِّكْ يا محمدُ بالقرآنِ لسانكَ لتعجلَ به.

واختلف أهلُ التأويل في السببِ الذي من أجله قيل له: «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ»، فقال بعضُهم: قِيلَ له ذلك، لأنه كان إذا نزلَ عليه منه

شيءٌ عجل به، يريد حفظه من حبه إياه، فقيل له: لا تَعْجَلْ به فإنَّا سَنحفظُه عليك.

وقال آخرون: بل السببُ الذي من أجله قِيلَ له ذلك، أنه كان يُكثر تلاوةَ القرآنِ مخافةَ نِسْيانهِ، فقيلَ له: «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ» إنَّ علينا أنْ نَجْمَعَهُ لكَ، ونُقْرِئكَهُ فلا تَنْسى.

وأشبه القولين بما دلَّ عليه بظاهر التنزيل، القولُ الأولُ وذلك أنَّ قوله: «إنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وقُرآنَهُ» يُنْبِىءُ أنه إنما نهى عن تحريكِ اللسانِ به متعجلاً فيه قبلَ جمعه، ومعلومٌ أن دراسته للتذكرِ إنما كانت تكونُ من النبيِّ ﷺ من بعدِ جمعِ اللهِ له ما يدرس من ذلك.

وقوله: «إنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرآنَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ علينا جمعَ هذا القرآنِ في صدرك يا محمدُ حتى نثبته فيه «وقُرآنَهُ»، يقول: وقرآنه حتى تقرأه بعد أنْ جمعناهُ في صدرك.

وقوله: «فإذا قَرأناهُ فاتَّبِعْ قُرآنه»، يعني: فإذا تُلِيَ عليكَ فاعملْ به من الأمرِ والنهي، واتبع ما أُمرتَ به فيه، لأنه قيل له: «إنَّ علينا جمعه» في صدرك «وقرآنه» ودَلَّلْنَا على أنَّ معنى قوله: «وقُرآنَهُ»: وقراءته، فقد بَيَّنَ ذلك عن معنى قوله: «فإذَا قَرأناهُ فاتَّبِعْ قُرآنَهُ. ثُمَّ إنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم إنَّ علينا بيان مافيه من حلالهِ وحرامهِ، وأحكامه لك مفصلة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ٢١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ٢٤ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لعبادِه المخاطبينَ بهذا القرآنِ المُؤْثِرينَ زينةَ الحياةِ الدنيا على الآخرة: ليس الأمرُ كما تقولونَ أيها الناسُ من أنكم لا تُبْعَثُونَ بعد

مماتِكم، ولا تجازون بأعمالِكم، لكنَّ الذي دعاكم إلى قِيلِ ذلك محبتكم الـدنيا العـاجلة، وإيثاركم شهواتها على آجلِ الآخرةِ ونعيمها، فأنتم تؤمنون بالعاجلةِ، وتكذِّبُونَ بالآجلة.

وقوله: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجوهٌ يومئذٍ، يعني: يوم القيامة «ناضرة»، يقول: حسنةٌ جميلةٌ من النعيم؛ يقال من ذلك: نَضرَ وجهُ فلانٍ: إذا حَسُنَ من النعمةِ، ونَضرَ الله وجهه: إذا حسَّنه كذلك.

«إلى رَبها ناظِرَة»، اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: أنها تنظر إلى ربها.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنها تنتظرُ الثوابَ من ربِّها.

وأولى القولين في ذلك عندنا بالصوابِ القولُ الأول، من أنَّ معنى ذلك تنظرُ إلى خالقها، وبذلك جاء الأثرُ عن رسولِ الله ﷺ[1].

وقـوله: «وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ووجوهٌ يومئذٍ متغيرةُ الألوانِ، مسودَّةٌ كالحةٌ، يقال: بسرت وجهه أبسره بسراً: إذا فعلت ذلك، وبسر وجهه فهو باسر بَيِّنُ البسور.

وقوله: «تَظُنُّ أنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تعلم أنه يفعل بها داهية، والفاقرةُ: الداهية.

---

(١) رؤية المؤمنين لله عز وجـل في الدار الآخرة ثابتة في عدد من الأحاديث الصحاح المتـواتـرة، منها حديث أبي سعيد الخدري في الصحيحين: البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)، وأبي هريرة في الصحيحين: البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢)، وحـديث جرير بن عبدالله البجلي عنـد البخاري (٧٤٣٤) و(٧٤٣٥) و(٧٤٣٦)، وحديث أبي موسى الأشعري عند مسلم (١٨٠)، وحديث صهيب عند مسلم أيضاً (١٨١) وغيرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٖ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ليس الأمرُ كما يظنُّ هؤلاء المشركون من أنهم لا يُعاقَبُونَ على شِرْكِهم ومعصيتهم رَبَّهُمْ، بل إذا بلغت نفسُ أحدِهم التراقيَ عند مماتهِ وحشرجَ بها.

«وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ»، يقول تعالى ذكره: وقال أهله: مَنْ ذا يَرْقِيه ليشفيه مما قد نَزَلَ به، وطلبوا له الأطباءَ والمُدَاوِينَ، فلم يُغْنُوا عنه من أمرِ الله الذي قد نزل به شيئاً.

وقوله: «وَظَنَّ أنَّه الفِرَاقُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأيقن الذي قد نزلَ ذلك به أنه فراقُ الدنيا والأهلِ والمالِ والولد.

وقوله: «وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: والتفَّت شدّةُ أمرِ الدنيا بشدَّةِ أمرِ الآخرة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: التفَّت ساقا الميتِ إذا لُفَّتا في الكَفَن.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: التفافُ ساقي الميتِ عند الموتِ.

وقال آخرون: عُنِيَ بذلك يُبْسُهُمَا عند الموتِ.

وقال آخرون: معنى ذلك: والتفَّ أمرٌ بأمرٍ.

وقال آخرون: بل عنى بذلك: والتفَّ بلاءٌ ببلاء.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصحة عندي قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: والتفَّت ساقُ الدنيا بساقِ الآخرة، وذلك شدَّةُ كَرْبِ الموتِ بشدّةِ هولِ المطلع، والذي يدلُّ على أن ذلك تأويله، قوله: «إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ» والعربُ تقولُ لكلِّ

أمرٍ اشتدَّ: قد شمَّرَ عن ساقِه، وكشفَ عن ساقِه.

وقوله: «إلى ربِّـكَ يَوْمَئِذٍ المَساقُ»، يقول: إلى ربِّكَ يا محمدُ، يومَ التفافِ الساقِ بالساقِ، مَساقُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلم يُصَدِّقْ بكتابِ الله، ولم يصلِّ له صلاةً، ولكنه كذَّبَ بكتابِ الله، وتولى فأدبرَ عن طاعةِ الله.

وقوله: «ثُمَّ ذَهَبَ إلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم مضى إلى أهله منصرفاً إليهم، يتبختر في مشيته.

وقيل: إنَّ هذه الآية نزلت في أبى جهل.

وقوله: «أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى. ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى» هذا وعيدٌ من الله على وعيدٍ لأبي جهل[1].

وقوله: «أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً»، يقول تعالى ذِكْرُه: أيظنُّ هذا الإنسانُ الكافرُ بالله أنْ يترك هملاً، أنْ لا يُؤْمَرَ ولا يُنْهى، ولا يتعبَّد بعبادة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

---

(١) قال الزجاج: معناه: وَلِيَكَ المكروهُ يا أبا جهل، والعرب تقول: أولى لفلان، إذا دعت عليه بالمكروه (معاني القرآن: ٥/٢٥٤).

القيامة: ٤٠

يقول تعالى ذِكْرُه: ألم يَكُ هذا المُنْكِرُ قُدرةَ اللهِ على إحيائهِ من بعد مماتهِ، وإيجادِه من بعد فنائه «نُطْفَةً»، يعني: ماءً قليلاً في صُلْبِ الرجل من منيٍّ.

وقوله: «ثُمَّ كانَ عَلَقَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم كان دماً من بعدِ ما كان نطفةً، ثم علقةً، ثم سَوَّاهُ بشراً سوياً، ناطقاً سميعاً بصيراً، «فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: فجعلَ من هذا الإنسانِ بعد ما سوَّاهُ خَلْقاً سوياً أولاداً له، ذكوراً وإناثاً «أَلَيْسَ ذلكَ بقادِرٍ على أنْ يُحْيِيَ المَوْتَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: أليس الذي فعلَ ذلكَ فخلقَ هذا الإنسانَ من نطفةٍ، ثم علقةٍ حتى صَيَّرَهُ إنسـاناً سوياً، له أولادٌ ذكورٌ وإناثٌ، بقادرٍ على أن يُحيي الموتى من مماتهم، فيوجدهم كما كانوا من قبل مماتهم. يقول: معلومٌ أنَّ الذي قَدِر على خَلْقِ الإنسانِ من نطفةٍ من منيٍّ يُمْنَى، حتى صَيَّره بشراً سوياً، لا يُعجزه إحياءُ ميتٍ من بعد مماته، وكان رسولُ الله ﷺ إذا قرأ ذلك قال: بلى.

سُورَةُ الإِنسَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «هَلْ أتى عَلى الإِنْسانِ» قَدْ أتى على الإِنسان، و«هل» في هذا الموضع خبرٌ لا جَحْدٌ، وذلك كقولِ القائلِ لآخرَ يُقرِّرُه: هل أكرمتكَ؟ وقد أكرمه؛ أو هل زُرْتكَ؟ وقد زاره، وقد تكون جحداً في غيرِ هذا الموضع، وذلك كقولِ القائلِ لآخرَ: هل يفعلُ مِثْلَ هذا أحدٌ؟ بمعنى: أنه لا يفعلُ ذلك أحدٌ. والإِنسان الذي قال جلّ ثناؤه في هذا الموضع «هَل أَتى عَلى الإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ»: هو آدمُ ﷺ.

وقوله: «حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ»، اختلف أهلُ التأويلِ في قدر هذا الحين الذي ذكره الله في هذا الموضع، فقال بعضُهم: هو أربعون سنة؛ وقالوا: مَكثتْ طينةُ آدم مصوَّرةً لا تُنْفَخُ فيها الرُّوحُ أربعينَ عاماً، فذلك قَدْرُ الحِين الذي ذكره الله في هذا الموضع؛ قالوا: ولذلك قيل: «هَلْ أَتى عَلى الإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً» لأنه أتى عليه وهو جسمٌ مُصَوَّرٌ لم تُنْفَخْ فيه الروحُ أربعون عاماً، فكان شيئاً، غير أنه لم يكن شيئاً مذكوراً؛ قالوا: ومعنى قوله: «لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً»: لم يكن شيئاً له نَباهةٌ ولا رِفعةٌ، ولا شرفٌ، إنما كان طِيناً لازباً

وحماً مسنوناً.

وقال آخرون: لاحَدَّ للحِينِ في هذا الموضع، وقد يدخل هذا القول من أنَّ الله أخبرَ أنه أتى على الإنسانِ حينٌ من الدهر، وغير مفهوم في الكلام أن يقال: أتى على الإنسانِ حينٌ قبلَ أنْ يُوجَدَ، وقبل أنْ يكونَ شيئاً، وإذا أُريد ذلك قيل: أتى حين قبل أنْ يُخلق، ولم يقل: أتى عليه. وأما الدهر في هذا الموضع، فلا حَدَّ له يوقف عليه.

وقوله: «إنَّا خَلَقْنا الإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيه»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّا خلقنا ذُرِّيَةَ آدم من نطفةٍ، يعني: من ماءِ الرجلِ وماءِ المرأةِ، والنطفة: كلُّ ماءٍ قليلٍ في وعاءٍ كانَ ذلكَ ركية أو قربةً، أو غير ذلك.

وقوله: «أَمْشاجٍ»، يعني: أخلاط، واحدها: مشج ومشيج، وهي نطفةُ الرجلِ ونطفةُ المرأة.

وقوله: «نَبْتَلِيه» نختبره.

وقوله: «فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: فجعلناه ذَا سَمْعٍ يسمعُ به، وذا بصرٍ يُبْصِرُ به، إنعاماً من الله على عبادِه بذلك، ورأفةً منه لهم، وحجة له عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «إنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ» إنا بَيَّنَّا له طريقَ الجنة، وعرّفناه سبيلَهُ، إنْ شكرَ، أو كفرَ. وإذا وُجِّه الكلامُ إلى هذا المعنى، كانت إمَّا وإمَّا في معنى الجزاء. وقد يجوز أن تكون إما وإما بمعنى واحد، كما قال: «إمَّا يُعَذِّبُهُم، وَإمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ» فيكون قوله: «إما شاكِراً وَإمَّا كَفُوراً» حالاً من الهاءِ

التي في هَدَيْنَاهُ، فيكون معنى الكلام إذا وُجِّه ذلك إلى هذا التأويل: إنا هديناه السبيلَ، إما شقياً وإما سعيداً.

وقوله: «إنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّا أعتدنا لمن كفرَ نِعْمَتَنَا وخالفَ أمرنا سلاسلَ يُسْتَوْثَق بها منهم شَدّاً في الجحيم «وأغْلالاً»، يقول: وتُشَدُّ بالأغلالِ فيها أيديهم إلى أعناقهم.

وقوله: «وَسَعيراً»، يقول: وناراً تُسْعر عليهم فَتَتَوَقَّدُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾

يقول تعالى ذكره: إنَّ الذين برّوا بطاعتهم رَبَّهم في أداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه، يشربونَ من كأسٍ، وهو كُلُّ إناءٍ كان فيه شرابٌ «كانَ مِزَاجُها»، يقول: كان مزاجُ ما فيها من الشرابِ «كافُوراً»، يعني: في طِيْبِ رائحتها كالكافور.

وقوله: «عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كان مزاجُ الكأسِ التي يشربُ بها هؤلاء الأبرار كالكافورِ في طيبِ رائحتهِ من عينٍ يشربُ بها عبادُ الله الذين يدخلهم الجنة.

وقوله: «يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: يفجرون تلك العينَ التي يشربونَ بها كيفَ شاؤوا وحيثُ شاؤوا من منازِلهم وقصورِهم تفجيراً، ويعني بالتفجيرِ: الإسالةَ والإجراءَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ

﴿مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الأبرارَ الذين يشربونَ من كأسٍ كان مزاجها كافوراً، بَرُّوا بوفائهم للهِ بالنذورِ التي كانوا ينذرونها في طاعة الله.

وقوله: «ويَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويخافونَ عِقابَ الله بتركهم الوفاءَ بما نَذَرُوا لله من بِرٍّ في يومٍ كان شرُّه مستطيراً، ممتدّاً طويلاً فاشياً.

وقوله: «وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ على حُبِّه مِسْكيناً»، يقول تعالى ذكره: كان هؤلاء الأبرار يطعمونَ الطعامَ على حُبِّهم إياهُ، وشهوتِهم له.

وقوله: «مِسْكيناً» يعني جلّ ثناؤه بقوله مسكيناً: ذوي الحاجةِ الذين قد أذَلَّتْهم الحاجةُ، «وَيَتِيماً»: وهو الطفلُ الذي قد مات أبوهُ ولا شيءَ له «وأسِيراً»، وهو الحربيُّ من أهلِ دارِ الحربِ يُؤخذ قهراً بالغَلَبةِ؛ أو من أهل القبلةِ يُؤخذ فيُحبس بحقٍّ، فأثنى اللهُ على هؤلاء الأبرارِ بإطعامهم هؤلاء تَقَرُّباً بذلك إلى اللهِ وطلب رضاه، ورحمةً منهم لهم.

وقوله: «إنمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يقولون: إنما نُطْعِمكم إذا هُمْ أطعموهم لوجهِ الله، يعنونَ طَلَبَ رِضَا الله، والقُربة إليه «لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً»، يقولون للذين يطعمونهم ذلكَ الطعام: لا نريدُ منكم أيها الناسُ على إطعامِنَاكُمْ ثواباً ولا شُكوراً.

وفي قوله: «وَلا شُكُوراً» وجهان من المعنى: أحدهما: أنْ يكونَ جمعَ الشكرِ، كما الفُلوسُ جمع فَلس، والكفور جمع كُفْر. والآخر: أنْ يكون مصدراً واحداً في معنى جمع، كما يقال: قعد قعوداً، وخرج خروجاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَاهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم أنهم يقولون لمن أطعموه من أهلِ الفاقةِ والحاجة: ما نطعمكم طعاماً نطلبُ منكم عِوَضاً على إطعامِنَاكُمْ جزاءً ولا شكوراً، ولكنَّا نُطعمكم رجاءً منا أنْ يؤمننا رَبُّنَا من عقوبتهِ في يوم شديدٍ هَوْلُه، عظيمٍ أمرهُ، تعبسُ فيه الوجوهُ من شدّةِ مكارِههِ، ويطولُ بلاءُ أهله، ويشتدُّ. والقمطرير: هو الشديدُ.

وقوله: «فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذلكَ اليَوْمِ، وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً»، يقول جلّ ثناؤه: فدفعَ اللهُ عنهم ما كانوا في الدنيا يحذرونَ من شرِّ اليومِ العبوسِ القمطريرِ بما كانوا في الدنيا يعملونَ مما يرضى عنهم رَبُّهم، ولقَّاهم نضرة في وجوههم، وسروراً في قلوبهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣﴾

يقول تعالى ذكره: وأثابهم اللهُ بما صبروا في الدنيا على طاعته، والعمل بمايُرْضِيه عنهم جَنَّةً وحريراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا»، وقَرُبت منهم ظلالُ أشجارها.

وقوله: «وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً»، يقول: وذُلِّلَ لهم اجتناءُ ثمرِ شجرِها، كيف شاؤوا قعوداً وقياماً ومُتَّكِئينَ.

وقوله: «وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وأكْوَابٍ كانَتْ قَوارِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويُطافُ على هؤلاءِ الأبرارِ بآنيةٍ من الأواني التي يشربون فيها شرابهم، هي من فضة كانت قواريرَ، فجعلها فِضةً، وهي في صفاءِ القوارير، فلها بياضُ الفِضَّةِ وصفاءُ الزجاجِ.

وقوله: «وأكْوَابٍ»، يقول: ويُطافُ مع الأواني بِجِرارٍ ضِخامٍ فيها الشرابُ، وكلُّ جرَّةٍ ضخمةٍ لا عروةَ لها فهي كوب.

وقوله: «كانَتْ قَوارِيرَ»، يقول: كانت هذه الأواني والأكواب قواريرَ، فَحَوَّلها الله فضة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قَوارِيرَ» في صفاءِ الصفاءِ من فضةِ الفضةِ من البياضِ.

وقوله: «قَدَّرُوها تَقْدِيراً»، يقول: قَدَّرُوا تلك الآنيةَ التي يُطافُ عليهم بها تقديراً على قَدْرِ رِيِّهِمْ لا تَزِيدُ ولا تنقصُ عن ذلك.

وقوله: «وَيُسْقَوْنَ فِيها كأساً كانَ مِزَاجُها زَنْجَبِيلاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويُسْقَى هؤلاء القوم الأبرار في الجنة كأساً، وهي كلُّ إناءٍ كان فيه شرابٌ، فإذا كان فارغاً من الخمر لم يُقَلْ له كأسٌ، وإنما يُقالُ له إناء، كما يقال للطبقِ الذي تُهْدَى فيه الهديةُ المِهْدَى مقصوراً مادامت عليه الهديةُ فإذا فَرغَ مما عليه كان طبقاً أو خِوَاناً، ولم يكن مِهْدًى. «كانَ مِزَاجُها زَنْجَبِيلا»، يقول: كان مزاجُ

شرابِ الكأسِ التي يُسقونَ منها زنجبيلاً.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: يُمْزَجُ لهم شرابهم بالزنجبيلِ.

وقال بعضهم: الزنجبيلُ: اسم للعينِ التي منها مزاجُ شرابِ الأبرار.

وقوله: «عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: عيناً في الجنة تسمى سلسبيلاً، وهي صفةٌ للعين، وصفت بالسلاسة في الحَلْقِ، وفي حال الجري، وانقيادها لأهلِ الجنة يُصَرِّفُونَها حيث شاؤوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذكره: ويطوفُ على هؤلاء الأبرارِ ولدانٌ، وهم الوُصَفاءُ، مُخَلَّدونَ.

اختلف أهل التأويل في معنى: «مُخَلَّدُونَ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: أنهم لا يموتون.

وقال آخرون: عنى بذلك «وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ»: مُسَوَّرُونَ.

وقال آخرون: بل عنى به أنهم مُقَرَّطُونَ. وقيل: عنى به أنهم دائمٌ شبابُهم، لا يتغيرونَ عن تلك السنِّ.

وذُكِرَ عن العربِ أنها تقولُ للرجل إذا كبر وثبت سوادُ شعره: إنه لَمُخَلَّدٌ؛ وكذلك إذا كبر وثبتت أضراسُه وأسنانُه قيل: إنه لمخلد، يُرادُ به أنه ثابتُ الحال، وهذا تصحيحٌ لمن قال: إنَّ معناه: لا يموتونَ، لأنهم إذا ثبتوا على حالٍ واحدة فلم يتغيروا بهرمٍ ولا شيبٍ ولا موتٍ، فهم مخلَّدون.

وقوله: «إِذَا رأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُم لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إذا رأيتَ يا محمدُ هؤلاء الولدانِ مجتمعينَ أو مفترقينَ، تَحسبهم في حُسْنِهم، ونقاءِ بياضِ وجوههم، وكثرتهم، لؤلؤاً مُبَدَّداً، أو مجتَمِعاً مصبوباً.

وقوله: «إِذَا رأَيْتَ ثَمَّ رأَيْتَ نَعِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإذا نظرتَ ببصرِكَ يا محمدُ، ورميتَ بطرفك فيما أعطيتُ هؤلاء الأبرارِ في الجنة من الكرامة. وعنى بقوله: «ثَمَّ» الجنة «رأَيْتَ نَعِيماً»، وذلك أنَّ أدناهم منزلة مَنْ ينظر في مُلكه فيما قيل في مسيرةِ ألفي عام، يُرى أقصاه، كما يرى أدناه.

وقوله: «مُلْكاً كَبِيراً»، يقول: ورأيتَ مع النعيمِ الذي ترى لهم ثَمَّ مُلْكاً كبيراً. وقيل: إنَّ ذلك المُلْكَ الكبيرَ: تسليمُ الملائكةِ عليهم، واستئذانُهم عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: عَلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَوْقَهم، يعني: فوقَ هؤلاءِ الأبرارِ ثيابُ سُنْدُسٍ. وكان بعضُ أهلِ التأويلِ يتأوَّلُ قوله: «عالِيَهُمْ» فوقَ حِجَالهم المثبتة عليهم «ثِيابُ سُنْدُسٍ» وليس ذلك بالقولِ المدفوعِ، لأن ذلك إذا كان فوقَ حجالٍ هُمْ فيها، فقد عَلَاهم فهو عَالِيهم.

وقوله: «ثِيابُ سُنْدُسٍ»، يعني: ثيابُ ديباجٍ رقيقٍ حَسَنٍ، والسندسُ: هو مارَقَّ من الديباجِ. والإستبرق: هو ما غَلُظَ من الديباج.

وقوله: «وَحُلُّوا أساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ»، يقول: وحَلَّاهُمْ رَبُّهم أساورَ، وهي جمعُ أسورةٍ من فضة.

وقوله: «وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وسقى هؤلاء الأبرارَ رَبُّهُم شراباً طهوراً، ومِنْ طُهْرِه أنه لا يصيرُ بولاً نجساً، ولكنه يصيرُ رَشْحاً من أبدانِهم كرشحِ المسك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهؤلاء الأبرارِ حينئذٍ: إنَّ هذا الذي أعطيناكم من الكرامةِ كان لكم ثواباً على ما كنتم في الدنيا تعملونَ من الصالحاتِ «وكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً»، يقول: كان عملكم فيها مشكوراً، حَمدكُمْ عليه رَبُّكم، ورَضِيَهُ لكم، فأثابكم بما أثابكم به من الكرامةِ عليه.

وقوله: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ القُرآنَ تَنْزِيلاً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنا نحنُ نزّلنا عليكَ يا محمدُ هذا القرآنَ تنزيلاً، ابتلاءً منا واختباراً «فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ»، يقول: اصبر لما امتحنكَ به رَبُّكَ من فرائضِه، وتبليغِ رسالاتِه، والقيامِ بما ألزمك القيامَ به في تنزيلهِ الذي أوحاهُ إليكَ.

«وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أو كَفُوراً»، يقول: ولا تُطِعْ في معصيةِ الله من مشركي قومكَ آثماً يريدُ بركوبهِ معاصيه، «أو كفوراً»، يعني: جَحُوداً لنعمهِ عنده، وآلائهِ قِبلَهُ، فهو يكفرُ به، ويعبدُ غيره.

وقيل: إنَّ الذي عُنِيَ بهذا القول أبو جهل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾

وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ
وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴿٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَاذْكُرْ» يا محمدُ «اسْمَ رَبِّكَ» فادْعُهُ به بُكْرَةً في صلاةِ الصبح، وعَشِيّاً في صلاةِ الظهرِ والعصرِ «وَمِنَ اللَّيْلِ فاسْجُدْ لَهُ»، يقول: ومن الليلِ فاسجُدْ له في صلاتكَ، فَسَبِّحْهُ ليلاً طويلاً، يعني: أكثر الليل، كما قال جلّ ثناؤه: «قُمِ اللَّيْلَ إلاَّ قَلِيلاً، نِصْفَهُ أوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً، أو زِدْ عَلَيْهِ».

وقوله: «إنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ العاجِلَةَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هؤلاء المشركينَ باللهِ يحبونَ العاجلة، يعني: الدنيا، يقول: يحبونَ البقاءَ فيها وتُعْجِبُهم زينَتُها «ويذرونَ وراءهُمْ يوماً ثَقِيلاً»، يقول: ويَدَعُونَ خلفَ ظُهورهم العملَ للآخرة، وما لهم فيه النجاةُ من عذابِ الله يومئذٍ، وقد تأوّله بعضُهم بمعنى: ويَذَرُونَ أمامهم يوماً ثقيلاً، وليس ذلك قولاً مدفوعاً، غير أنَّ الذي قلناه أشبه بمعنى الكلمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «نحن خلقنا» هؤلاء المشركينَ بالله المخالفينَ أمْرَهُ ونهيه «وشَدَدْنَا أسْرَهُمْ»: وشَدَدْنا خَلْقَهُمْ، من قولهم: قد أُسِرَ هذا الرجل فأُحْسِنَ أسرهُ، بمعنى: قد خُلِقَ فأُحْسِنَ خَلْقه.

وقوله: «وَإذَا شِئْنا بَدَّلْنا أمْثالَهُمْ تبْديلاً»، يقول: وإذا نحنُ شئنا أهلكنا هؤلاءِ وجِئْنا بآخرينَ سِواهم من جِنسهم أمثالهم من الخَلْق، مخالفينَ لهم في العملِ.

وقوله: «فَمَنْ شاءَ اتَّخذَ إلى رَبِّهِ سَبيلاً»، يقول: فَمَنْ شاء أيها الناسُ اتَّخذَ إلى رِضا رَبِّه بالعملِ بطاعتِه، والانتهاءِ إلى أمرِهِ ونهيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ۝٣١﴾

يقول تعالى ذكره: «ومَا تَشاؤُونَ» اتخاذَ السبيلِ إلى رَبِّكم أيها الناسُ «إلَّا أنْ يَشاءَ اللهُ» ذلك لكم لأنَّ الأمرَ إليه لا إليكم.

وقوله: «إنَّ اللهَ كانَ عَليماً حَكيماً» فلن يَعْدُوَ منكم أحدٌ ما سَبَقَ له في عِلْمِه بتدبيركم.

وقوله: «يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ»، يقول: يدخل رَبُّكم مَنْ يشاء منكم في رحمته، فيتوب عليه حتى يموتَ تائباً من ضلالته، فيغفرُ له ذنوبه، ويُدخله جنته. «والظَّالِمِينَ أعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أليماً»، يقول: الذين ظلموا أنفسهم، فماتوا على شِرْكِهم، أعَدَّ لهم في الآخرةِ عذاباً مؤلماً موجعاً، وهو عذابُ جهنم.

سُورَةُ المُرْسَلَات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في معنى قول الله: «وَالمُرْسَلاتِ عُرْفاً» فقال بعضهم: معنى ذلك: والرياحِ المرسلاتِ يتبعُ بعضُها بعضاً، قالوا: والمرسَلات: هي الرياح.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: والملائكة التي تُرسَلُ بالعرف.

وقال بعضهم: عُني بقوله: «عُرْفاً»: متتابعاً كعرف الفرس، كما قالت العرب: الناسُ إلى فلانٍ عرفٌ واحدٌ، إذا توَجَّهُوا إليه فأكثروا.

والصواب من القولِ في ذلك عندنا أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أقسم بالمرسلاتِ عرفاً، وقد تُرْسَلُ عُرْفاً الملائكةُ، وترسل كذلك الرياحُ، ولا دلالةَ تدلُّ على أنَّ المعنيَّ بذلك أحد الحِزْبين دونَ الآخر، وقد عَمَّ جلّ ثناؤه بإقسامهِ بكلِّ ما كانت صِفَتُه ما وصَفَ، فكلُّ مَنْ كان صفته كذلك، فداخلٌ في قسمه ذلك مَلَكاً أو ريحاً أو رسولاً من بني آدم مرسلاً.

وقوله: «فالعاصِفاتِ عَصْفاً»، يقول جلّ ذكره: فالرياحُ العاصفات عصفاً،

يعني: الشديداتُ الهبوبِ السريعاتُ المَمَرِّ.

وقـوله: «والنَّاشِرَاتِ نَشْراً» اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: عُني بالناشرات نَشْراً: الريح.

وقال آخرون: هي المطر.

وقال آخرون: بل هي الملائكةُ التي تنشُر الكتب.

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أقسمَ بالنـاشـراتِ نَشْـراً، ولم يَخْصُص شيئـاً من ذلـك دون شيء، فالـريح تنشرُ السحابَ، والمطر ينشر الأرضَ، والملائكة تنشر الكتبَ، ولا دلالةَ من وجهٍ يجبُ التسليمُ له على أنَّ المراد من ذلك بعضٌ دون بعض، فذلك على كُلِّ ما كان ناشراً.

وقوله: «فالْفارِقاتِ فَرْقاً»، اختلف أهلُ التأويل في معناه، فقال بعضهم: عُنِي بذلك: الملائكة التي تفرق بين الحقِّ والباطل.

وقال آخرون: بل عُنِي بذلك القرآن.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: أقسم رَبُّنا جلّ ثناؤه بالفارقاتِ، وهي الفـاصـلات بين الحقِّ والباطل، ولم يخصص بذلك منهنَّ بعضاً دون بعض، فذلك قَسَم بكلِّ فارقةٍ بين الحقِّ والباطل، مَلَكاً كان أو قرآناً، أو غير ذلك.

وقوله: «فالمُلْقِياتِ ذِكْراً»، يقول: فالمبلِّغاتِ وحيَ الله رُسُلَهُ، وهي الملائكة.

وقوله: «عُذْراً أوْ نُذْراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: فالملقياتِ ذِكراً إلى الرسل إعذاراً من اللهِ إلى خَلْقِه، وإنذاراً منه لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ٧ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ
٨ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ٩ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ١٠ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ
١٢ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ١٣ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والمرسلات عرفاً، إنَّ الذي تُوعَدُونَ أيها الناسُ من الأمورِ لواقع، وهو كائنٌ لا محالة، يعني بذلك يوم القيامة، وما ذَكَرَ اللهُ أنه أعَدَّ لخلقِه يومئذٍ من الثوابِ والعذاب.

وقوله: «فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ»، يقول: فإذا النجومُ ذهب ضياؤها، فلم يكن لها نورٌ ولا ضوء، «وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ»، يقول: وإذا السماءُ شُقِّقَتْ وصُدِّعَتْ، «وَإِذَا الجِبَالُ نُسِفَتْ»، يقول: وإذا الجبالُ نُسفتْ من أصلها، فكانت هباءً منبثاً، «وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا الرسلُ أُجِّلَتْ للاجتماعِ لوقتها يوم القيامة.

وقوله: «لأيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه مُعَجِّباً عبادَهُ من هولِ ذلك اليوم وشدَّتهِ لأيِّ يومٍ أُجِّلتِ الرسلُ ووُقِّتَتْ، ما أعظمه وأهوله؛ ثم بَيَّنَ ذلك: وأيّ يوم هو؟ فقال: أُجِّلَتْ «لِيَوْمِ الفَصْلِ»، يقول: ليومٍ يفصلُ اللهُ فيه بين خَلْقِه القضاء، فيأخذ للمظلومِ من الظالمِ، ويجزي المحسنَ بإحسانِهِ، والمسيء بإساءته.

وقوله: «وَمَا أَدْرَاكَ ما يَوْمُ الفَصْلِ»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، وأيّ شيء أدراكَ يا محمدُ ما يومُ الفصلِ، مُعَظِّماً بذلك أمرَهُ، وشدّةَ هولِهِ.

وقوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: الوادي الذي يسيلُ في جهنم من صديدِ أهلها للمكذّبينَ بيومِ الفصل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: ألم نهلك الأممَ الماضِينَ الـذين كَذَّبُوا رسلي، وجحدوا آياتي من قومِ نوحٍ وعادٍ وثمود، ثم نُتْبِعهم الآخرينَ بعدهم، ممن سلكَ سبيلَهم في الكفرِ بي وبرُسُلي[1]، كقومِ إبراهيمَ وقومِ لوط، وأصحابِ مَدْيَنَ، فنهلكهم كما أهلكنا الأوّلينَ قبْلَهم، «كَذَلك نَفْعَلُ بالمُجْرِمِينَ»، يقول: كما أهلكنا هؤلاء بكفرهم بي، وتكذيبهم برسلي، كذلك سنتي في أمثالهم من الأممِ الكـافـرة، فنهلك المجـرمينَ بإجـرامهم إذا طغـوا وبغـوا «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبينَ» بأخبارِ الله التي ذكرناها في هذه الآية، الجاحدينَ قُدْرَتَهُ على ما يشاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ» أيها الناسُ «مِنْ ماءٍ مَّهِينٍ»، يعني: من نطفةٍ ضعيفة.

وقوله: «فَجَعَلْناهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ»، يقول: فجعلنا الماءَ المَهِينَ في رحمٍ استقرَّ فيها فَتَمكَّنَ.

وقوله: «إلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ»، يقول: إلى وقتٍ معلومٍ لخروجهِ من الرحمِ عند الله.

---

(١) في المطبوع: «وبرسولي» وليس بشيء.

وعني بقوله: «فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ»: فملكنا فَنِعْمَ المالكون.

وقوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، يقول جلّ ثناؤه: ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين بأنَّ الله خلقهم من ماءٍ مهين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾
وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُنبِّهاً عبادَهُ على نِعَمِه عليهم: «أَلَمْ نَجْعَل» أيها الناسُ «الأَرْضَ» لكم «كِفاتاً»، يقول: وعاءً، تقول: هذا كِفْتُ هذا وكفيتهُ، إذا كان وعاءَهُ، وإنما معنى الكلام: ألم نجعلِ الأرضَ كِفاتَ أحيائِكم وأمواتِكم، تَكْفِتُ أحياءَكم في المساكنِ والمنازلِ، فَتَضُمُّهم فيها وتجمعهم، وأمواتَكم في بطونها في القبور، فَيُدْفَنونَ فيها.

وجائزٌ أنْ يكونَ عُني بقوله: «كِفاتاً أَحْياءً وأَمْواتاً» تَكْفِتُ أذاهم في حالِ حياتهم، وجِيفَهُمْ بعد مماتِهم.

وقوله: «وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلنا في الأرضِ جبالاً ثابتاتٍ فيها، باذخات شاهقات.

وقوله: «وأَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً»، يقول: وأسقيناكم ماءً عذباً.

وقوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، يقول: ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبينَ بهذه النعم التي أنعمتها عليكم من خلقي الكافرينَ بها.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِــهِ تَعَــالَى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾
ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ

﴿كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء المكذّبينَ بهذه النِّعم والحججِ التي احتجَّ بها عليهم يومَ القيامة: «انْطَلِقُوا إلى ما كُنْتُمْ بِهِ» في الدنيا «تُكَذِّبُونَ» من عذابِ الله لأهلِ الكفرِ به «انْطَلِقُوا إلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ» يعني تعالى ذكره: إلى ظلٍّ دخانٍ ذي ثلاثِ شعب «لا ظَلِيلٍ»، وذلك أنه يرتفع من وقودها الدخانُ فيما ذُكر، فإذا تصاعدَ تفرَّقَ شعباً ثلاثاً، فذلك قوله: «ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ».

وقوله: «لا ظَلِيلٍ»، يقول: لا هو يُظِلُّهم من حَرِّهَا «وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ» ولا يُكِنُّهم من لهبها.

وقوله: «إنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كالقَصْرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ جهنم ترمي بشررٍ كالقصرِ، وهو واحدُ القصور، ومعنى الكلام: كعِظَمِ القصر.

وقوله: «جِمالاتٌ صُفْرٌ» معنى ذلك: كأنَّ الشررَ الذي ترمي به جهنمُ كالقصر جِمالاتٌ سُودٌ: أي أَيْنُقٌ سود؛ والصفر في هذا الموضع، بمعنى السود قالوا: وإنما قيل لها: صُفْرٌ وهِي سودٌ، لأنَّ ألوانَ الإبلِ سودٌ تضربُ إلى الصفرةِ، ولذلك قيل لها صُفْر، كما سميت الظباء أدماً، لما يعلوها في بياضها من الظلمة، والجمالات: جمع جمال، نظير رجال ورجالات.

وقوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويلٌ يومَ القيامةِ للمكذِّبينَ هذا الوعيدَ الذي تَوَعَّدَ الله به المكذِّبينَ من عباده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء المكذِّبينَ بثواب الله وعقابه: «هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ» أهل التكذيب بثواب الله وعقابه «وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ» مما اجترموا في الدنيا من الذنوب.

فإنْ قال قائل: وكيف قيل: «هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ» وقد علمتَ بخبرِ الله عنهم أنهم يقولون: «رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها» [المؤمنون: ١٠٧] وأنهم يقولون: «رَبَّنا أَمَتَّنا اثْنَتَينِ وأَحْيَيْتَنا اثْنَتَين» [غافر: ١١] في نظائرِ ذلك مما أخبرَ الله ورسولُه عنهم أنهم يقولونه. قيل: إنَّ ذلك في بعضِ الأحوالِ دونَ بعض. وقوله: «هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ» يخبرُ عنهم أنهم لا ينطقون في بعضِ أحوالِ ذلك اليوم، لا أنهم لا ينطقونَ ذلك اليوم كله.

فإن قال: فهل من بُرهانٍ يعلم به حقيقة ذلك؟

قيل: نعم، وذلك إضافة يوم إلى قوله: «لا يَنْطِقُونَ» والعربُ لا تُضيف اليومَ إلى فَعَلَ يفعلُ، إلا إذا أرادت الساعةَ من اليومِ والوقتَ منه، وذلك كقولهم: آتيكَ يومَ يقدُم فلانٌ، وأتيتُكَ يومَ زاركَ أخوكَ، فمعلوم أنَّ معنى ذلك: أتيتكَ ساعةَ زاركَ، أو آتيك ساعةَ يقدُمُ، وأنه لم يكن إتيانُه إياه اليومَ كُلَّهُ، لأن ذلك لو كان أخذ اليوم كله لم يضف اليوم إلى فعل ويفعل، ولكن فعل ذلك إذ كان اليوم بمعنى إذْ وإذا اللتين يطلبان الأفعالَ دونَ الأسماء.

وقوله: «فَيَعْتَذِرُونَ» رفعاً عطفاً على قوله: «وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ» وإنما اختيرَ ذلك على النصبِ وقبله جحد، لأنه رأسُ آيةٍ قُرِنَ بينه وبين سائرِ رؤوسِ الآيات التي قبلها، ولو كان جاء نصباً كان جائزاً، كما قال: لا يُقْضَى عليهم فيموتوا، وكلُّ ذلك جائزٌ فيه، أعني الرفعَ والنصبَ، كما قيل: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ» [البقرة: ٢٤٥] رفعاً ونصباً.

وقوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبينَ

بخبرِ اللهِ عن هؤلاء القوم، وما هو فاعلٌ بهم يومَ القيامة.

وقوله: «هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ جَمَعْناكُمْ والأوَّلِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء المكذِّبينَ بالبعثِ يومَ يبعثون: هذا يومُ الفصلِ الذي يَفْصل اللهُ فيه بالحقِّ بين عباده «جَمَعْناكُمْ والأوَّلِينَ»، يقول: جمعناكم فيه لموعدكم الذي كنا نَعِدُكُم في الدنيا الجمعَ فيه بينكم وبين سائر مَنْ كان قبلَكم من الأممِ الهالكة. فقد وفَّينا لكم بذلك «فإنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ»، يقول: والله مُنْجِزٌ لكم ما وَعَدَكُمْ في الدنيا من العقابِ على تكذيبكم إياه بأنكم مبعوثونَ لهذا اليومِ إنْ كانت لكم حيلةٌ تحتالونها في التخلصِ من عقابهِ اليومَ فاحتالوا.

وقوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، يقول: ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين بهذا الخبر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالىٰ ذِكْرُه: إنَّ الذين اتقوا عقابَ الله بأداءِ فرائضِه في الدنيا، واجتنابِ معاصيه «فِي ظِلالٍ» ظليلةٍ، وكِنٍّ كَنين، لا يُصيبهم أذى حَرٍّ ولا قَرٍّ، إذْ كان الكافرون بالله في ظلٍّ ذي ثلاثِ شعب، لا ظليل ولا يغني من اللهب «وعُيُونٍ» أنهارٍ تجري خلالَ أشجارِ جنَّاتِهم «وفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ» يأكلونَ منها كلما اشتهوا لا يخافونَ ضرَّهَا، ولا عاقبةَ مَكْرُوهِهَا.

وقوله: «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهم: كُلُوا أيها القوم من هذه الفواكه، واشربوا من هذه العيونِ كلما اشتهيتم «هنيئاً»، يقول: لا تكديرَ عليكم، ولا تنغيصَ فيما تأكلونَهُ وتشربونَ منه، ولكنه لكم دائمٌ، لا يزولُ، ومريءٌ لا يُورِثُكُمْ أذىً في أبدانكم.

وقوله: «بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول جلّ ثناؤه: يقالُ لهم: هذا جزاء بما كنتم في الدنيا تعملونَ من طاعةِ الله، وتجتهدونَ فيما يُقرِّبُكم منه.

وقوله: «إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»، يقول: إنَّا كما جزينا هؤلاء المتقينَ بما وصفنا من الجزاءِ على طاعتهم إيانا في الدنيا، كذلك نجزي ونثيبُ أهلَ الإحسانِ في طاعتهم إيانا، وعبادتهم لنا في الدنيا على إحسانهم لا نُضِيعُ في الآخرة أَجْرَهُمْ.

وقوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، يقول: ويلٌ للذين يكذِّبُونَ خبرَ الله عما أخبرهم به من تكريمهِ هؤلاءِ المتقينَ بما أكرمهم به يومَ القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى ذكره تهدّداً ووعيداً منه للمكذِّبينَ بالبعثِ: كُلُوا في بقيةِ آجالكم، وتمتعوا ببقيةِ أعماركم «إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ» مَسْنُونٌ بكم سُنَّةَ مَنْ قَبْلَكُمْ من مجرمي الأممِ الخاليةِ التي مُتِّعَتْ بأعمارها إلى بلوغِ كتبها آجالَها، ثم انتقم اللهُ منها بكفرها، وتكذيبها رُسُلَها.

وقوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويلٌ يومئذٍ للمكذبين الذين كذَّبُوا خبرَ الله الذي أخبرهم به عما هو فاعلٌ بهم في هذه الآية.

وقوله: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ»، يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء المجرمينَ المكذّبين بوعيدِ الله أهل التكذيبِ به: اركعوا، لا يركعونَ.

واختلف أهلُ التأويلِ في الحينِ الذي يقال لهم فيه، فقال بعضهم:

يُقال ذلك في الآخرةِ حين يُدْعون إلى السجودِ فلا يستطيعون.

وقال آخرون: بل قيل ذلك لهم في الدنيا.

وقيل: عُنِي بالركوعِ في هذا الموضع الصلاة.

وأَوْلى الأقوال في ذلك أن يقال: إنَّ ذلك خبر من الله تعالى ذِكْرُه عن هؤلاء القوم المجرمين أنهم كانوا له مخالفينَ في أمرِه ونهيه، لا يأتمرونَ بأمرِه، ولا ينتهون عما نهاهم عنه.

وقوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، يقول: ويلٌ للذين كذَّبُوا رُسُلَ الله، فَرَدُّوا عليهم ما بَلَّغُوا من أمرِ الله إياهم، ونهيه لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فبأيِّ حديثٍ بعد هذا القرآنِ، أي أنتم أيها القومُ كذَّبتم به مع وضُوحِ بُرْهانِه، وصحةِ دلائلِه، أنه حقٌّ من عند الله «تؤمنون»، يقول: تُصَدِّقُون.

وإنما أعلمهم تعالى ذِكْرُه أنهم إنْ لم يصدّقوا بهذه الأخبارِ التي أخبرهم بها في هذا القرآن مع صحةِ حججه على حقيقتِه لم يمكنهم الإقرارُ بحقيقةِ شيءٍ من الأخبار التي لم يشاهدوا المخبرَ عنه، ولم يعاينوه، وإنهم إن صدّقوا بشيءٍ مما غابَ عنهم لدليلٍ قامَ عليه لَزِمَهُم مِثْلُ ذلك في أخبارِ هذا القرآن، والله أعلم.

سُورَةُ النَّبَإِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: عن أي شيءٍ يتساءلُ هؤلاء المشركونَ باللهِ ورسولِه من قريشٍ يا محمدُ، وقيل ذلك له ﷺ، وذلك أنَّ قريشاً جعلت فيما ذُكر عنها تختصمُ وتتجادلُ في الذي دعاهم إليه رسولُ الله ﷺ من الإقرارِ بنبوّتهِ، والتصديقِ بما جاء به من عند الله، والإيمان بالبعثِ، فقال الله لنبيه: فيمَ يتساءلُ هؤلاء القوم ويختصمون، و«في» و«عن» في هذا الموضع بمعنىً واحد.

ثم أخبر الله نبيه ﷺ عن الذي يتساءلونه، فقال: يتساءلونَ «عن النبأ العظيم»، يعني: عن الخبرِ العظيم.

وقوله: «الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: الذي صاروا هم فيه مختلفونَ فريقين: فريق به مصدِّق، وفريق به مكذِّب، يقول تعالى ذِكْرُه: فَتساؤُلُهُمْ بينهم في النبأ الذي هذه صِفَتُه.

وقوله: «كَلَّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما الأمرُ كما يزعمُ هؤلاءِ المشركونَ الذين ينكرون بعثَ اللهِ إياهم أحياء بعدَ مماتِهم، وتوعدهم جل ثناؤه على هذا القول منهم فقال: «سَيَعْلَمُونَ»، يقول: سيعلمُ هؤلاء الكفارُ المُنْكِرُونَ وعيدَ الله أعداءه، ما الله فاعلٌ بهم يومَ القيامة، ثم أكَّدَ الوعيدَ بتكريرٍ آخر، فقال: ما

الأمرُ كما يزعمونَ من أنَّ الله غير مُحْيِيهم بعد مماتِهم، ولا معاقبهم على كفرهم به، سيعلمون أنَّ القولَ غير ما قالوا إذا لقوا الله، وأفْضَوْا إلى ما قَدَّمُوا من سيئ أعمالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُعَدِّداً على هؤلاء المشركين نِعَمه وأياديه عندهم، وإحسانَهُ إليهم، وكفرانَهم ما أَنعم به عليهم، ومُتَوَعِّدَهُمْ بما أعَدَّ لهم عند ورودِهم عليه من صنوفِ عقابِهِ، وأليمِ عذابه، فقال لهم: «أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ» لكم «مِهاداً» تَمْتَهِدُونَها وتفترشونها.

«والجِبالَ أوْتاداً»، يقول: والجبالَ للأرضِ أوتاداً أنْ تميدَ بكم «وَخَلَقْناكم أزْواجاً» ذُكْراناً وإناثاً، وطوالاً وقصاراً، أو ذوي دمامةٍ وجمال، مثل قوله: «الَّذين ظَلَمَوا وأزْواجَهُم»، يعني به: صَيَّرْناهُمْ «وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً»، يقول: وجعلنا نومَكم لكم راحةً ودَعةً، تهدؤون به وتسكنون، كأنكم أمواتٌ لا تشعرون، وأنتم أحياء لم تفارقكم الأرواح، والسبتُ والسباتُ: هو السكونُ، ولذلك سُمِّيَ السبتُ سبتاً، لأنه يومُ راحةٍ ودَعَةٍ «وَجَعَلْنا اللَّيْلَ لِباساً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلنا الليلَ لكم غشاء يتغشَّاكم سوادُه، وتُغَطِّيكم ظُلْمَتُه، كما يغطي الثوبُ لابسَهُ لتسكنوا فيه عن التصرُّفِ لما كنتم تتصرَّفُونَ له نهاراً.

وقوله: «وَجَعَلْنا النَّهارَ مَعاشاً»، يقول: وجعلنا النهارَ لكم ضياءً لتنتشروا فيه لمعاشكم، وتتصرَّفُوا فيه لمصالحِ دنياكم، وابتغاء فضلِ اللهِ فيه، وجعلَ جلَّ ثناؤه النهارَ إذ كان سبباً لتصرّفِ عبادِه لِطَلَبِ المعاشِ فيه معاشاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه «وبَنَيْنا فَوْقَكُمْ»: وسقفنا فوقكم، فجعلَ السقفَ بناءً، إذ كانت العربُ تسمي سُقوفَ البيتِ، وهي سمـاؤُها بناءً، وكانت السماءُ للأرضِ سقفاً، فخاطبهم بلسانهم إذْ كان التنزيلُ بلسانهم، وقال: «سَبْعاً شِدَاداً» إذ كانت وثاقاً مُحْكَمةَ الخَلْقِ، لا صدوعَ فيهنَّ ولا فطورَ، ولا يبليهنَّ مَرُّ الليالي والأيام.

وقوله: «وَجَعَلْنا سِرَاجاً وَهَّاجاً»، يقول تعالى ذكره: وجعلنا سراجاً، يعني بالسراج: الشمس. وقوله: «وَهَّاجاً»، يعني: وَقَّاداً مضيئاً.

وقـولـه: «وأنْـزَلْـنـا مِنَ المُعْصِرَاتِ»، اختلف أهلُ التأويلِ في المعنيِّ بالمُعْصِراتِ، فقال بعضهم: عُنِي بها الرياح التي تعصر في هبوبها.

وقال آخرون: بل هي السحابُ التي تَتَحَلَّبُ بالمطرِ ولَمَّا تُمْطِرْ كالمرأةِ المُعْصِرِ التي قد دَنَا أوانُ حَيْضِها ولم تحضْ.

وقال آخرون: بل هي السماء.

وأَوْلى الأقـوال في ذلك بالصوابِ أن يقال: إنَّ الله أخبر أنه أنزلَ من المعصراتِ، وهي التي قد تَحَلَّبَتْ بالماءِ من السحابِ ماءً.

وإنما قلنا ذلك أَوْلى بالصواب، لأنَّ القول في ذلك على أحدِ الأقوالِ الثلاثةِ التي ذكرت، والرياح لا ماءَ فيها، فينزل منها، وإنما ينزل بها، وكان يصحُّ أنْ تكونَ الرياح لو كانت القراءة (وَأَنْزَلْنا بالمُعْصِرَاتِ) فلما كانت القراءة «مِنَ المُعْصِرَاتِ» علم أن المعنيِّ بذلك ما وصفتُ.

فإنْ ظنَّ ظانٌّ أن الباء قد تعقب في مثل هذا الموضع من قيل ذلك، وإن كان كذلك، فالأغلبُ من معنى «من» غير ذلك، والتأويلُ على الأغلب من معنى الكلام. فإن قال: فإنَّ السماءَ قد يجوز أنْ تكون مراداً بها. قيل: إنَّ ذلك وإنْ كان كذلك، فإنَّ الأغلبَ من نزولِ الغيثِ من السحابِ دونَ غيرِه.

وأما قوله: «ماءً ثَجّاجاً»، يقول: ماءً مُنْصَبّاً يتبعُ بعضُه بعضاً كثجِّ دماءِ البدنِ، وذلك سفكها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ١٦ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لنخرجَ بالماءِ الذي ننزله من المعصراتِ إلى الأرضِ حَبّاً، والحَبُّ كُلُّ ماتضمنه كمامُ الزرعِ التي تحصد، وهي جمع حبة، كما الشعيرُ جمعُ شعيرة، وكما التمر جمع تمرة: وأما النباتُ فهو الكلأ الذي يُرْعَى من الحشيشِ والزروع.

وقوله: «وَجَنَّاتٍ أَلْفافاً»، يقول: ولنخرج بذلك الغيثِ جناتٍ، وهي البساتينُ، وقال: «وجنات»، والمعنى: وثمرَ جناتٍ، فترك ذِكْرَ الثمرِ استغناءً بدلالةِ الكلامُ عليه من ذِكْرِه.

وقوله: «أَلْفافاً»، يعني: مُلْتَفَّةً مجتمعةً.

وقوله: «إنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ يومَ يفصلُ اللهُ فيه بين خَلْقِه، فيأخذ فيه من بعضِهم لبعضٍ، كان ميقاتاً لما أنفذَ اللهُ لهؤلاء المكذِّبينَ بالبعثِ، ولضُرَبائِهم من الخَلْقِ.

وقوله: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ» تَرْجَم بيوم يُنْفَخُ عن يومِ الفصلِ، فكأنه

قيل: يومُ الفصلِ كان أجلاً لما وعدنا هؤلاءِ القوم، يومَ يُنْفَخُ في الصور. وقد بيَّنتُ معنى الصُّور فيما مضى قبل، وهو قَرْنٌ يُنْفَخ فيه عندنا.

وإنما قيل: «فتأْتُونَ أفْواجاً» لأنَّ كُلَّ أمةٍ أرسلَ اللهُ إليها رسولاً تأتي مع الذي أُرسِلَ إليها كما قال: «يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُناسٍ بإمامِهِمْ» [الإسراء: ٧١].

وقولـه: «وَفُتِحَتِ السَّمـاءُ فَكانت أبْوَاباً». يقول تعالى ذِكْرُه: وشُقِّقَتِ السماءُ فَصُدِّعَتْ، فكانت طُرقاً، وكانت من قبل شداداً لا فطورَ فيها ولا صُدوعَ.

وقوله: «وَسُيِّرَتِ الجِبالُ فَكانَتْ سَراباً»، يقول: ونُسفت الجبالُ فاجْتُثَّتْ من أصولها، فَصُيِّرَتْ هباءً منبثاً، لعينِ الناظرِ، كالسرابِ الذي يظنُّ مَنْ يراه من بُعْدٍ ماء، وهو في الحقيقة هباء.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: إنَّ جهنمَ كانت ذاتَ رَصْدٍ لأهلها الذين كانوا يكذِّبون في الدنيا بها وبالمعادِ إلى اللهِ في الآخرة، ولغيرهم من المصدِّقينَ بها، ومعنى الكلام: إنَّ جهنم كانت ذاتَ ارتقابٍ ترقبُ مَنْ يجتازها وترصُدهم.

وقوله: «للطَّاغِينَ مآباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ جهنمَ للذين طَغَوْا في الدنيا فتجاوزوا حدودَ اللهِ استكباراً على رَبِّهم كانت منزلاً ومرجعاً يرجعون إليه، ومصيراً يصيرونَ إليه يسكنونه.

وقوله: «لابِثِينَ فِيها أحْقاباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إن هؤلاء الطاغينَ في الدنيا لابثونَ في جهنمَ، فماكثونَ فيها أحقاباً.

وقوله: «لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَلا شَرَاباً»، يقول: لا يطعمون فيها «بَرْداً» يبرد حَرَّ السعيرِ عنهم إلا الغسَّاق، «ولا شراباً» يُرَوِّيهم من شدَّةِ العطشِ الذي بهم إلا الحميم.

وقوله: «إلَّا حَمِيماً وغَسَّاقاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً قد أُغْلِيَ حتىّ انتهى حَرُّهُ، فهو كالمُهْلِ يَشْوِي الوجوهَ، ولا بردَ إلا غسَّاقاً.

والغساقُ عندي: هو الفَعَّالُ، من قولهم: غَسَقَتْ عينُ فلان: إذا سالت دُموعها، وغَسَق الجرحُ: إذا سالَ صَديدهُ، ومنه قول الله: «وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إذَا وَقَبَ»، يعني بالغاسق: الليل إذا لَبِسَ الأشياء وغطَّاها، وإنما أُريدَ بذلك هجومه على الأشياء هجومَ السيلِ السائلِ، فإذا كان الغسَّاقُ هو ما وصفتُ من الشيءِ السائل، فالواجبُ أن يُقال: الذي وَعَدَ اللهُ هؤلاء القوم، وأخبرَ أنهم يذوقونه في الآخرةِ من الشرابِ هو السائلُ من الزمهريرِ في جهنم الجامع مع شِدَّةِ بردهِ النَّتَنَ.

وقوله: «وكَذَّبُوا بآياتنا كذَّاباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكَذَّبَ هؤلاء الكفارُ بحُججنا وأدلتنا تكذيباً.

وقوله: «وكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْناه كِتاباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكلَّ شيءٍ أحصيناهُ فكتبناه كتاباً، كَتَبْنا عَدَدَهُ ومبلغَهُ وقَدْرَهُ، فلا يَعْزُبُ عنَّا علمُ شيءٍ منه.

فإن قال قائل: فإنك قد قلتَ: إنَّ الغَساق: هو الزمهريرُ، والزمهريرُ: هو غايةُ البردِ، فكيف يكونُ الزمهريرُ سائلاً؟ قيل: إنَّ البرد الذي لا يُستطاعُ ولا يُطاقُ يكونُ في صفةِ السائلِ من أجسادِ القوم من القيحِ والصديدِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ

حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟
فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا العقابُ الذي عُوقِبَ به هؤلاء الكفارُ في الآخرةِ فعلَه بهم رَبُّهم جزاء، يعني: ثواباً لهم على أفعالِهم وأقوالِهم الرديئةِ التي كانوا يعملونها في الدنيا، وهو مصدرٌ من قولِ القائل: وافقَ هذا العقابُ هذا العملَ وِفاقاً.

وقوله: «إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هؤلاء الكفار كانوا في الدنيا لا يخافونَ محاسبةَ اللهِ إياهم في الآخرةِ على نعمه عليهم، وإحسانِه إليهم، وسوءِ شُكْرِهم له على ذلك.

وقوله: « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ الَّا عَذاباً»، يقول جلَّ ثناؤه: يُقالُ لهؤلاء الكفار في جهنم إذا شربوا الحميمَ والغَسَّاقَ: ذُوقُوا أيها القومُ من عذابِ الله الذي كنتم به في الدنيا تكذِّبون، فلن نَزِيدكم إلا عذاباً على العذابِ الذي أنتم فيه، لا تخفيفاً منه ولا ترفُّهاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾
وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾

يقول: إنَّ للمتقينَ مَنْجًى من النارِ إلى الجنةِ، ومخلصاً منها لهم إليها، وظفراً بما طلبوا.

وقوله: «حَدَائِقَ» والحدائق: ترجمةٌ وبيانٌ عن المَفَازِ، وجازَ أن يترجم بها عنه، لأنَّ المفازَ مصدرٌ من قولِ القائل: فَازَ فلانٌ بهذا الشيء: إذا طلبه فظفر به، فكأنه قيل: إنَّ للمتقينَ ظَفَراً بما طلبوا من حدائقَ وأعنابٍ؛ والحدائقُ:

جمعُ حديقة، وهي البساتينُ من النخلِ والأعنابِ والأشجارِ المُحَوَّطِ عليها الحيطانَ المُحْدِقة بها، لأحداقِ الحيطانِ بها تُسمى الحديقةُ حديقة، فإنْ لم تكن الحيطانُ بها مُحْدِقَةً لم يُقَلْ لها حديقة، وإحداقُها بها: اشتمالُهَا عليها.

وقوله: «وأعْناباً»، يعني: وكرومَ أعنابٍ، واستغنى بذكرِ الأعنابِ عن ذِكْرِ الكروم.

وقوله: «وَكَوَاعِبَ أتْرَاباً»، يقول: ونواهدَ في سنٍّ واحدة.

وقوله: «وكأْساً دِهاقاً»، يقول: وكأساً ملأى متتابعة على شاربيها بكثرةٍ وامتلاءٍ، وأصلُه من الدَّهْق: وهو متابعةُ الضغطِ على الإنسانِ بشدّةٍ وعنفٍ، وكذلك الكأسُ الدِّهاقُ: متابعتها على شاربيها بكثرةٍ وامتلاء.

وقوله: «لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذَّاباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا يسمعونَ في الجنة «لغواً»، يعني: باطلاً من القولِ، «ولا كِذَّاباً»، يقول: ولا مكاذبةً، أي: لا يكذبُ بعضُهم بعضاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾

يعني بقوله جلّ ثناؤه: «جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً» أعطى الله هؤلاء المتقين ما وصفَ في هذه الآيات ثواباً من رَبِّكَ بأعمالهم على طاعَتِهم إياهُ في الدنيا.

وقوله: «عَطاءً»، يقول: تَفَضُّلاً من اللهِ عليهم بذلك الجزاءِ، وذلك أنه جزاهم بالواحدِ عشراً في بعضٍ، وفي بعضٍ بالواحدِ سبعَ مِئَة، فهذه الزيادةُ وإنْ كانت جزاء، فعطاء من الله.

وقوله: «حِساباً»، يقول: محاسبة لهم بأعمالهم لله في الدنيا.

وقوله: «رَبِّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما الرَّحْمَنِ»، يقول جلّ ثناؤه: جزاءً من رَبِّك ربِّ السمواتِ السبع والأرض وما بينهما من الخلق.

واختلف القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامةُ قَرَأَةِ المدينة «رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما الرَّحْمَنُ» بالرفع في كِلَيْهِمَا. وقرأ ذلك بعضُ أهلِ البصرة وبعض الكوفيين «رَبِّ» خفضاً «والرَّحْمَنُ» رفعاً ولكلٍّ ذلك عندنا وجهٌ صحيحٌ، فبـأيٍّ ذلك قرأ القارئُ فمصيبٌ، غير أنَّ الخفض في الربِّ لقربه من قوله: «جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ»: أعجب إليَّ، وأما «الرَّحْمَنُ» بالرفع فإنه أحسنُ لبعدِه من ذلك.

وقوله: «الرَّحْمَن لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: الرحمن لا يقدرُ أحدٌ من خَلْقِه خطابَهُ يومَ القيامة، إلا مَنْ أذِنَ له منهم وقالَ صواباً.

وقوله: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ»، اختلف أهلُ العلمِ في معنى الروح في هذا الموضع فقال بعضُهم: هو مَلَكٌ من أعظمِ الملائكةِ خَلْقاً.

وقال آخرون: هو جبريل عليه السلام.

وقال آخرون: خَلْقٌ من خَلْقِ الله في صورةِ بني آدم.

وقال آخرون: هم بنو آدم.

وقال آخرون: قيل: ذلك أرواح بني آدم.

وقال آخرون: هو القرآن.

وقوله: «لا يَتَكَلَّمُونَ إلاَّ مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ»، قيل: إنهم يُؤْذَنُ لهم في الكلام حين يُؤْمَرُ بأهلِ النارِ إلى النارِ، وبأهلِ الجنةِ إلى الجنة.

وقال آخرون: «إلاَّ مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحمنُ» بالتوحيدِ «وَقَالَ صَوَاباً» في الدنيا، فوحَّدَ الله.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ عن خَلْقِه أنهم لا يتكلمونَ يوم يقوم الروحُ والملائكةُ صَفاً، إلا مَنْ أَذِنَ له منهم في الكلام الرحمنُ، وقال صواباً، فالواجبُ أنْ يقالَ كما أخبر إذ لم يخبرنا في كتابه، ولا على لسانِ رسوله، أنه عَنَى بذلك نوعاً من أنواعِ الصوابِ، والظاهر محتمل جميعه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ذلكَ الْيَوْمُ»، يعني: يوم القيامة، وهو يوم يقومُ الروحُ والملائكةُ صفاً. «الْحَقّ»، يقول: إنه حقٌّ كائنٌ لا شكَّ فيه.

وقوله: «فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إلى رَبِّهِ مآباً»، يقول: فَمَنْ شاء من عبادِه اتخذ بالتصديقِ بهذا اليومِ الحقِّ، والاستعدادِ له، والعمل بما فيه النجاةُ له من أهوالِهِ «مآباً»، يعني: مرجعاً.

وقوله: «إنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذابا قَرِيباً»، يقول: إنا حَذَّرْناكُمْ أيها الناسُ عذاباً قد دَنَا منكم وقَرُبَ، وذلك «يَوْمَ يَنْظُرُ المَرْءُ» المؤمنُ «ماقَدَّمَتْ يَدَاهُ» من خيرٍ اكتسبَهُ في الدنيا، أو شرّ سَلَفَهُ، فيرجو ثوابَ اللهِ على صالح أعماله، ويخاف عقابه على سَيِّئها.

وقوله: «وَيَقُولُ الكافِرُ يا لَيْتَني كُنْتُ تُراباً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويقول الكافرُ يومئذٍ تمنياً لما يَلْقَى من عذابِ الله الذي أعدَّهُ لأصحابهِ الكافرينَ به، يا ليتني كنتُ تراباً كالبهائمِ التي جُعِلت تراباً.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾

أقسم رَبُّنا جلّ جلاله بالنازعات، واختلف أهلُ التأويل فيها، وما هيَ، و ما تنزعُ؟ فقال بعضهم: هم الملائكةُ التي تنزعُ نفوسَ بني آدم، والمنزوع نفوس الآدميين.

وقال آخرون: بل هو الموتُ ينزعُ النفوسَ.

وقال آخرون: هي النجومُ تنزع من أُفقٍ إلى أفق.

وقال آخرون: هي القسيُّ تنزع بالسهم.

وقال آخرون: هي النفس حين تُنزَع.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أقسمَ بالنازعاتِ غَرْقاً، ولم يخصص نازعةً دونَ نازعة، فكلُّ نازعةٍ غَرْقاً، فداخلةٌ في قَسَمِه، ملكاً كان أو موتاً، أو نجماً، أو قوساً، أو غير ذلك. والمعنى: والنازعات إغراقاً كما يغرق النازع في القوس.

وقوله: «والنَّاشِطاتِ نَشْطاً»، اختلف أهلُ التأويل أيضاً فيهنّ، وما هُنَّ، وما الذي ينشط، فقال بعضهم: هم الملائكة، تَنْشطُ نفسَ المؤمن فتقبضهُا، كما ينشط العقالُ من البعير إذا حُلَّ عنه[1].

وقال آخرون: «النَّاشِطاتِ نَشْطاً» هو الموتُ يَنْشط نفسَ الإنسان.

وقال آخرون: هي النجوم تنشطُ من أفقٍ إلى أفق.

وقال آخرون: هي الأوهاق[2].

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أن يقال: إنَّ الله جلّ ثناؤهُ أقسمَ بالناشطاتِ نشطاً، وهي التي تنشطُ من موضعٍ إلى موضع، فتذهب إليه، ولم يخصص الله بذلك شيئاً دونَ شيءٍ، بل عَمَّ القَسَمَ بجميعِ الناشطاتِ والملائكةِ تَنشطُ من موضعٍ إلى موضع، وكذلك الموت، وكذلك النجوم والأوهاق وبقر الوحش أيضاً تَنْشط، والهموم تنشط صاحبها. فكلُّ ناشطٍ فداخلٌ فيما أقسمَ به إلا أنْ تقومَ حجةٌ يجبُ التسليمُ لها بأنَّ المعنيِّ بالقسم من ذلك بعضُ دونَ بعضٍ.

وقوله: «والسَّابِحاتِ سَبْحاً»، يقول تعالى ذكره: واللواتي تَسبحُ سبحاً.

واختلف أهلُ التأويل في التي أقسمَ بها جلَّ ثناؤه من السابحاتِ، فقال بعضهم: هي الموتُ تسبحُ في نفسِ ابن آدم.

وقال آخرون: هي النجوم تَسْبح في فَلَكها.

وقال آخرون: هي السفن.

---

(١) هو قول الفراء في معاني القرآن: ٣/ ٢٣٠

(٢) الأوهاق: جمعُ وَهْق، وهي الحبل يُرمى فيه أُنشوطة، فتؤخذ فيه الدابة والإنسان، كما في القاموس المحيط.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أن يقال: إنَّ الله جلّ ثناؤه أقسمَ بالسابحاتِ سبحاً من خَلْقِه، ولم يخصص من ذلك بعضاً دونَ بعضٍ، فذلك كل سابح لِمَا وَصَفْنَا قَبْلُ في النازعات.

وقوله: «فالسَّابِقاتِ سَبْقاً»، اختلف أهلُ التأويل فيها، فقال بعضهم: هي الملائكة.

وقال آخرون: بل هي الخيلُ السابقةُ.

وقال آخرون: بل هي النجوم يسبقُ بعضُها بعضاً في السير.

والقول عندنا في هذه مثل القولِ في سائرِ الأحرفِ الماضية.

وقوله: «فالمُدَبِّراتِ أمْراً»، يقول: فالملائكةُ المدبرة ما أمرت به من أمرِ الله.

وقوله: «يَوْمَ تَرْجُفُ الرّاجِفَةُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يوم ترجفُ الأرضُ والجبالُ للنفخةِ الأولى «تَتْبَعُها الرَّادِفَةُ» تتبعها أُخرى بعدَها، وهي النفخة الثانية التي ردفت الأولى لبعثِ يوم القيامة.

وقوله: «قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قلوبُ خَلْقٍ من خَلْقِه يومئذٍ، خائفةٌ من عظيمِ الهولِ النازل.

وقوله: «أَبْصارُها خاشِعَةٌ»، يقول: أبصارُ أصحابها ذليلةٌ مما قد عَلاَهَا من الكآبةِ والحزنِ من الخوفِ والرُّعْبِ الذي قد نزلَ بهم من عظيمِ هولِ ذلك اليوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾
أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾

النازعات: ١٤

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقول هؤلاء المكذِّبُونَ بالبعثِ من مشركي قريش إذا قيل لهم: إنكم مبعوثونَ من بعدِ الموتِ: أَئِنَّا لمردودونَ إلى حالنا الأولى قبلَ المماتِ، فراجعونَ أحياء كما كنا قبل هلاكنا، وقبل مماتنا.

وقوله: «أئِذَا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً»، اختلفت القَرَأة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأة المدينة والحجاز والبصرة «نَخِرَةً» بمعنى: بالية. وقرأ ذلك عامةُ قَرَأة الكوفة «ناخِرَةً» بألف، بمعنى أنها مجوّفة تنخَر الرياحُ في جوفها إذا مرّت بها. وكان بعضُ أهلِ العلم بكلامِ العربِ من الكوفيينَ يقول: الناخرةُ والنخرة سواء في المعنى، بمنزلة الطامعِ والطَّمِع، والباخل والبَخِل[1]. وأفصح اللغتين عندنا وأشهرهما عندنا «نَخِرَةً»، بغير ألف، بمعنى: بالية، غير أنَّ رؤوسَ الآي قبلها وبعدها جاءت بالألف، فأعجب إليّ لذلك أن تُلْحَقَ ناخرة بها ليتفقَ هو وسائر رؤوس الآيات، لولا ذلك كان أعجب القراءتين إليَّ حذف الألف منها.

قالوا: «تِلكَ إذًا كَرَّةٌ خاسِرَةٌ»، يقول جلّ ثناؤه عن قيلِ هؤلاء المكذّبينَ بالبعث، قالوا: تلك يعنون تلك الرجعة أحياء بعد الممات، إذاً يعنون الآن كرَّةً، يعنون: رجعةً خاسرةً، يعنون: غابنةً.

وقوله: «فإنَّمَا هيَ زَجْرةٌ وَاحِدَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإنما هي صيحةٌ واحدة، ونَفخة تنفخ في الصور، وذلك هو الزجرة.

وقوله: «فإذَا هُمْ بالسَّاهِرَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا هؤلاء المكذّبونَ بالبعثِ المتعجبونَ من إحياءِ اللهِ إياهم من بعد مماتِهم، تكذيباً منهم بذلك

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٣/٢٢١ ـ ٢٢٢

بالساهرةِ، يعني: بظهرِ الأرض، والعربُ تسمي الفلاةَ ووجهَ الأرضِ ساهرة، وأراهم سموا ذلك بها، لأنَّ فيه نوم الحيوانِ وسهرها، فَوُصِفَ بصفةِ ما فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: هل أتاكَ يا محمدُ حديثُ موسى بنِ عمرانَ، وهل سمعتَ خَبَرَهُ حين ناجاهُ رَبُّه بالوادِ المقدّس، يعني بالمقدّس: المُطَهَّرِ المُبَارَكِ، و«طُوى» اسم الوادي.

وقوله: «اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: نادى موسى رَبُّـهُ: أن اذهبْ إلى فِرعـونَ، فحذفت «أن» إذْ كان النداء قولاً، فكأنه قِيلَ لموسى قال ربه: اذهبْ إلى فرعونَ.

وقوله: «إنَّهُ طَغَى»، يقول: عَتَا وتجاوزَ حَدَّهُ في العدوان، والتكبرِ على رَبِّه.

وقوله: «فَقُلْ هَلْ لَكَ إلى أنْ تَزَكَّى»، يقول: فقل له: هل لكَ إلى أنْ تتطهَّرَ من دَنَسِ الكفرِ، وتؤمِنَ بربِّكَ؟.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه موسى: قُلْ لفرعونَ: هَلْ لكَ إلى أنْ أُرشدكَ إلى ما يُرْضِي رَبَّكَ، وذلك الدين القيم «فتخشى»، يقول: فتخشى عقابه بأداءِ ما

أَلزمكَ من فرائضِه، واجتنابِ ما نهاكَ عنه من معاصيه.

وقوله: «فأَرَاهُ الآيَةَ الكُبْرَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأرى موسى فرعونَ الآيةَ الكبرى، يعني الدلالةَ الكبرى، على أنه لله رسولٌ أرسلَهُ إليه، فكانت تلك الآيةُ يدَ موسى إذْ أخرجَها بيضاءَ للناظرينَ، وعَصَاهُ إذ تَحوَّلَتْ ثعباناً مبيناً.

وقوله: «فَكَذَّبَ وَعَصَى»، يقول: فكذَّبَ فرعونُ موسى فيما أتاهُ من الآياتِ المعجزةِ، وعصاه فيما أمرَهُ به من طاعتِه رَبَّهُ، وخَشيته إياه.

وقوله: «ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى»، يقول: ثم وَلَّى مُعْرِضاً عما دعاه إليه موسى من طاعته ربه، وخشيته وتوحيده «يسعى»، يقول: يعمل في معصيةِ الله، وفيما يُسْخِطُه عليه.

وقوله: «فَحَشَرَ فَنادَى»، يقول: فجمعَ قومَهُ وأتباعه، فنادى فيهم «فقالَ» لهم: «أنا رَبُّكُمُ الأعْلَى» الذي كلُّ ربٍّ دوني، وكَذب الأحمق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فأَخَذَهُ اللَّهُ» فعاقبه الله «نَكالَ الآخِرَةِ والأُولى»، يقول: عقوبة الآخرة من كَلِمَتَيْهِ، وهي قوله: «أنا رَبُّكُمُ الأعْلَى» والأولى قوله: «ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرِي».

وقوله: «والأَرْضَ بَعْدَ ذلكَ دَحاها» واختلف أهلُ التأويلِ في معنى قوله: «بَعْدَ ذلكَ»، فقال بعضهم: دحيت الأرضُ من بعد خَلْقِ السماء.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: والأرضَ مع ذلك دحاها، وقالوا: الأرضُ خُلقت ودُحيتْ قبل السماء، وذلك أنَّ الله قال: «هُوَ الَّذي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي

الأرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَموَاتٍ»، قالوا: فأخبرَ اللهُ أنه سَوَّى السمواتِ بعد أنْ خلقَ ما في الأرض جميعاً، قالوا فإذا كانَ ذلك كذلك، فلا وجهَ لقولِه: «والأرْضَ بَعْدَ ذلكَ دَحاها» إلا ماذكرنا من أنه مع ذلك دَحاها قالوا: وذلك كقولِ الله عزّ وجلّ: «عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلكَ زَنِيمٍ» [القلم: ١٣] بمعنى: مع ذلك زنيم، وكما يقال للرجل. أنت أحمق، وأنتَ بعد هذا لئيمُ الحَسَب، بمعنى: مع هذا، وكما قال جلّ ثناؤه: «وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ» [الأنبياء: ١٠٥]: أي من قبل الذكر.

وقـوله: «إنَّ فِي ذلكَ لَعِبْرَةً لمنْ يَخْشَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في العقـوبـةِ التي عاقبَ اللهُ بها فرعونَ في عاجلِ الدنيا، وفي أخذه إياه نكالَ الآخرةِ والأولى، عِظَةً ومعتبراً لمن يخافُ الله ويخشى عقابه.

وقوله: «أأنْتُمْ أشَدُّ خَلْقاً أمِ السَّماءُ بَناها»، يقول تعالى ذِكْرُه للمكذِّبينَ بالبعثِ من قريشٍ، القائلينَ «أئِذَا كُنّا عِظاماً نَخِرَة، قالُوا تِلكَ إذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ» أأنتم أيها الناسُ أشدُّ خَلْقاً، أم السماء بناها رَبُّكم، فإنَّ مَنْ بنى السماء فرفعها سقفاً، هَيِّنٌ عليه خَلْقُكم وخَلْقُ أمثالِكم، وإحياؤكم بعد مماتِكم وليس خلقكمْ بعـد ممـاتكم بأشـدَّ من خَلْقِ السمـاء، وعنى بقـوله: «بنَاها» رفعها فجعلها للأرضِ سقفاً.

وقوله: «رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَسَوَّى السماءَ، فلا شيءَ أرفـع من شيء، ولا شيء أخفض من شيء، ولكن جميعهـا مستـوي الارتفاع والامتداد.

القَوْلُ فِي تأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾

وقوله: «وأَغْطَشَ لَيْلَها»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأظلمَ ليلَ السماءِ فأضاف الليلَ إلى السماءِ، لأنَّ الليلَ غروبُ الشمسِ، وغروبها وطلوعها فيها، فأُضيفَ إليها لمَّا كان فيها، كما قيل نجوم الليل، إذ كان فيه الطلوع والغروب.

وقوله: «وأَخْرَجَ ضُحاها»، يقول: وأخرج ضياءها، يعني: أبرزَ نهارَها فأظهره ونَوَّرَ ضُحَاها.

والقولُ الذي ذكرناه من أنَّ الله تعالى خَلقَ الأرضَ، وقَدَّرَ فيها أقواتَها، ولم يَدْحُهَا، ثم استوى إلى السماء فسوَّاهُنَّ سبعَ سمواتٍ، ثم دَحَا الأرضَ بعد ذلـك، فأخرج منها ماءها ومرعاها، وأرسى جبالها، أشبه بما دلَّ عليه ظاهرُ التنزيلِ، لأنه جلّ ثناؤه قال: «والأَرْضَ بَعْدَ ذلكَ دَحاها» والمعروف من معنى «بَعْدَ» أنه خلاف معنى «قَبْل» وليس في دُحُوِّ اللهِ الأرضَ بعد تسويتهِ السمواتِ السبع، وإغطاشِه ليلها؛ وإخراجهِ ضُحَاها، ما يوجبُ أنْ تكونَ الأرضُ خُلقت بعد خلقِ السموات لأن الدحوّ إنما هو البسطُ في كلامِ العرب والمَدُّ، يقال منه: دَحَا يَدْحُو دَحْواً، ودَحَيْتُ أدْحِي دَحْياً، لغتان.

وقوله: «أَخْرَجَ مِنْها ماءَها»، يقول: فَجَّرَ فيها الأنهارَ «وَمَرْعاها»، يقول: أنبت نباتَها.

وقوله: «والجِبالَ أرْساها»، يقول: والجبالَ أثبتها فيها، وفي الكلام متروكٌ استغنيَ بدلالـةِ الكـلامِ عليه من ذكره، وهو فيها، وذلك أن معنى الكلام: والجبالَ أرساها فيها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلـِهِ تَعَالَى: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «مَتاعاً لَكُمْ ولأنعامكُمْ» أنه خلقَ هذه الأشياء،

وأخرجَ من الأرضِ ماءها ومرعاها منفعةً لنا ومتاعاً إلى حين.

وقوله: «فإذَا جاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا جاءت التي تطم على كلِّ هائلةٍ من الأمور، فتغمرُ ما سِواهَا بعظيمِ هَوْلها، وقيل: إنها اسمٌ من أسماء يوم القيامة.

وقوله: «يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنْسانُ ما سَعَى»، يقول: إذا جاءت الطامةُ يومَ يتذكَّرُ الإنسانُ ما عَمِلَ في الدنيا من خيرٍ وشرّ، وذلك سعيُه. «وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ»، يقول: وأُظْهِرت الجحيم، وهي نارُ الله لمن يراها، يقول: لأبصارِ الناظرين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأما مَنْ عَتَا على رَبِّه، وعصاه واستكبرَ عن عبادته.

وقوله: «وآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا»، يقول: وآثرَ متاعَ الحياةِ الدنيا على كرامةِ الآخرة، وما أعدَّ اللهُ فيها لأوليائهِ، فعمل للدنيا، وسعى لها، وتركَ العملَ للآخرةِ «فإنَّ الجَحِيمَ هيَ المأْوَى»، يقول: فإنَّ نار الله التي اسمها الجحيم، هي منزلهُ ومأواهُ، ومصيرهُ الذي يصيرُ إليه يوم القيامة.

وقوله: «وأمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى»، يقول: وأما مَنْ خافَ مسألةَ الله إياه عند وقوفهِ يومَ القيامةِ بين يديه، فاتقاهُ بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه، «ونهى النفسَ عن الهوى»، يقول: ونهى نفسَهُ عن هواها فيما يكرههُ الله، ولا يرضاهُ منها، فَزجَرَهَا عن ذلك، وخالفَ هَواها إلى ما أمرهُ به رَبُّه «فإنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى»، يقول: فإنَّ الجنةَ هي مأواهُ ومنزلهُ يومَ القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يسألك يا محمدُ هؤلاء المكذِّبونَ بالبعثِ عن الساعةِ التي تبعث فيها الموتى من قبورهم «أيَّانَ مُرْسَاها»، متى قِيامُهَا وظُهورها. وكان الفَرَّاءُ يقول[1]: إنْ قال القائل: إنما الإرساءُ للسفينةِ، والجبال الراسية وما أشبههنّ، فكيف وَصَفَ الساعةَ بالإرساءِ؟ قلتُ: هي بمنزلة السفينةِ إذا كانت جاريةً فَرَسَتْ، ورُسُوُّهَا: قيامُهَا؛ قال: وليس قيامها كقيامِ القائم، إنما هي كقولك: قد قام العدلُ، وقام الحقُّ: أي ظهرَ وثبتَ.

يقول الله لنبيه: «فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها»، يقول: في أيِّ شيء أنتَ من ذِكْرِ الساعةِ والبحثِ عن شأنها. وذُكر أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يُكثر ذِكْرَ الساعة، حتى نزلت هذه الآية[2].

وقوله: «إلى رَبِّكَ مُنْتَهاها»، يقول: إلى رَبِّكَ منتهى علمها، أي: إليه ينتهي علمُ الساعةِ، لا يعلم وقتَ قيامها غيره.

---

(١) معاني القرآن: ٣/٢٣٤.

(٢) حديث عائشة رضي الله عنها، رواه المؤلف مرفوعاً عن يعقوب بن إبراهيم، عن سفيان ابن عُيينة، عن الزهري، عن عروة، عنها (٣٠/٤٩)، وهكذا أخرجه البزار في مسنده (٢٢٧٩)، والحاكم: ٢/٥١٣، ورجاله رجال الصحيح، ولكن قال ابن أبي حاتم في العلل (١٦٩٣): «قال أبو زرعة: الصحيح مرسل بلا عائشة». قلنا: الصحيح أن سفيان رواه مرة مرفوعاً، ورواه مرة مرسلاً. وأخرج المؤلف (٣٠/٤٩) والنسائي في التفسير (٦٦٥) بسند حسن، هذا من حديث طارق بن شهاب، وليست له صحبة، لكن له رؤية كما في تهذيب الكمال: ١٣/٣٤١ ـ ٣٤٣.

وقوله: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها»، يقول تعالى ذِكْرُه لمحمد: إنما أنتَ رسولٌ مبعوثٌ بإنذارِ الساعةِ مَنْ يخافُ عقابَ الله فيها على إجرامه، ولم تُكَلَّفْ عِلْمَ وقتِ قيامها، يقول: فَدَعْ ما لم تُكَلَّفْ عِلْمَهُ واعملْ بما أُمرتَ به من إنذارِ من أُمرت بإنذارِه.

وقوله: «كأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها»، يقول جلّ ثناؤه: كأن هؤلاء المكذّبين بالساعةِ، يومَ يرونَ أنَّ الساعةَ قد قامت من عظيمِ هولها، لم يلبثوا في الدنيا إلا عشيةَ يومٍ، أو ضُحَا تلك العَشِيَّة، والعربُ تقول: آتيكَ العشيةَ أو غَداتَها، وآتيكَ الغداةَ أو عشيتها، فيجعلون معنى الغداة بمعنى أوّل النهار، والعشية: آخر النهار، فكذلك قوله: «إلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها» إنما معناهُ إلَّا آخرَ يومٍ أو أوّله.

سُورَةُ عَبَسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «عَبَسَ»: قَبض وجهه تكرُّهاً، «وَتَوَلَّى»، يقول: وأعرضَ «أنْ جاءَهُ الأعْمَى»، يقول: لأَنْ جاءه الأعمى.

وذُكر أنَّ الأعمى الذي ذكره الله في هذه الآية، هو ابنُ أمِّ مكتوم، عُوتِبَ النبيُّ ﷺ بسببه[1].

وقوله: «ومَا يدْرِيكَ لَعَلهُ يَزَّكَّى»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وما يُدْرِيكَ يا محمدُ لعلَّ هذا الأعمى الذي عَبَستَ في وجهه يَزَّكَّى: يقول: يتطهَّرْ من ذنوبه.

وقوله: «أَوْ يَذَّكَرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى»، يقول: أو يتذكر فتنفعه الذكرى، يعني: يعتبر فينفعهُ الاعتبارُ والاتعاظ.

---

(١) هو عمرو بن زائدة، ويقال: عمرو بن قيس بن زائدة القرشي العامري، وهو ابن خال خديجة أم المؤمنين (انظر طبقات ابن سعد: ٤/٢٠٥، وتهذيب الكمال: ٢٢/٢٦ ـ ٢٩).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: أما مَنِ استغنى بمالهِ فأنتَ له تتعرَّضُ رجاء أنِ يُسْلِمَ.

«وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى»، يقول: وأي شيء عليكَ أنْ لا يتطهَّرَ من كفرهِ فيُسلم؟

«وأمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى»، يقول: وأما هذا الأعمى الذي جاءك سعياً، وهو يخشى اللهَ ويتَّقِيه «فأنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى»، يقول: فأنت عنه تُعْرِضُ، وتشاغلُ عنه بغيرِه وتغافل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾

يقول تعالى ذكره: «كَلَّا» ما الأمرُ كما تفعلُ يا محمدُ من أنْ تعبسَ في وجه مَنْ جاءَكَ يسعى وهو يخشى، وتتصدَّى لمن استغنى «إنَّها تَذْكِرَة»، يقول: إنَّ هذه العِظةَ وهذه السورة «تذكرة»، يقول: عظة وعبرة «فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ»، يقول: «فمن شاء» من عبادِ الله «ذكره»»، يقول: ذكرَ تنزيلَ اللهِ ووحيه والهاء في قوله: «إنَّها» للسورة، وفي قوله: «ذَكَرَهُ» للتنزيلِ والوحي «في صحف»، يقول: إنها تذكرة «في صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ، مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ»، يعني: في اللوح المحفوظ، وهو المرفوعُ المطهَّرُ عند الله.

وقوله: «بِأيْدِي سَفَرَةٍ»، يقول: الصحف المكرّمة بأيدي سفرة، جمع سافر.

واختلف أهلُ التأويل فيهم ما هم؟ فقال بعضهم: هم كَتَبة.

وقال آخرون: هم القرّاء.

وقال آخرون: هم الملائكة.

وأولى الأقوال في ذلك بالصوابِ قولُ من قال: هم الملائكةُ الذين يَسْفِرونَ بين اللهِ ورُسُلِهِ بالوحي. وسفيرُ القوم: الذي يسعى بينهم بالصُّلْحِ، يقال: سفرتَ بين القوم: إذا أصلحتَ بينهم.

وإذا وُجِّه التأويلُ إلى ما قلنا، احتمل الوجه الذي قاله القائلون هم الكَتَبة، والذي قاله القائلون هم القرّاء، لأنَّ الملائكةَ هي التي تقرأ الكتبَ، وتَسْفِرُ بين اللهِ وبين رُسُلِهِ.

وقوله: «كِرَام بَرَرَةٍ» والبرَرَة: جمع بَارّ، كما الكَفَرَةُ جمعُ كافرٍ، والسَحَرَةُ جمع ساحر.

وقوله: «قُتِلَ الإنْسانُ ما أكْفَرَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لُعِنَ الإنسانُ الكافر ما أكفره.

وفي قوله: «أكْفَرَهُ» وجهان. أحدهما: التعجبُ من كفرِهِ مع إحسانِ اللهِ إليه، وأياديه عنده. والآخر: ما الذي أكْفَرَهُ، أي: أيُّ شيءٍ أكفرهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: من أيِّ شيءٍ خُلِقَ الإنسانُ الكافرُ رَبَّهُ: حتى يتكبَّرَ ويتعظَّم عن طاعةِ ربه، والإقرارِ بتوحيدِه؟ ثم بَيَّنَ جلّ ثناؤه الذي منه خَلَقَهُ، فقال: «مِنْ نُطْفَة خَلَقَهُ فقدَّرَهُ» أحوالاً نطفةً تارةً، ثم عَلَقةً أخرى، ثم مُضغةً،

إلى أنْ أتَتْ عليه أحواله وهو في رحم أمه «ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ»، يقول: ثم يَسَّرهُ للسبيلِ، يعني: للطريق.

واختلف أهلُ التأويل في السبيلِ الذي يسَّره لها، فقال بعضهم: هو خروجهُ من بطنِ أمه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: طريقُ الحقِّ والباطلِ، بيَّناهُ له وأعلمناه، وسَهَّلْنَا له العملَ به.

وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب قولُ من قال: ثم الطريق، وهو الخروجُ من بطنِ أمه يسَّره.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب، لأنه أشبههما بظاهرِ الآية، وذلك أنَّ الخبرَ من الله قَبْلَها وبعدها عن صفتهِ خَلْقَهُ وتدبيرِه جِسْمَهُ، وتصريفه إياهُ في الأحوالِ، فالأوْلى أن يكون أوسط ذلك نظير ما قبله وما بعده.

وقوله: «ثُمَّ أماتَهُ فأقْبَرَهُ»، يقول: ثم قَبَض رُوحَهُ، فأماته بعد ذلك: يعني بقوله: «أقْبَرَهُ»، صَيَّرَهُ ذا قبرٍ، والقابرُ: هو الدافنُ الميتَ بيدِه، والمقبر: هو الله، الذي أمرَ عباده أنْ يقبروه بعد وفاتِه، فصيَّرَهُ ذا قبرٍ. والعربُ تقول فيما ذُكر لي: بترت ذنب البعيرِ، والله أبتره؛ وعضبت قَرنَ الثورِ، والله أعضبه؛ وطردت عني فلاناً، والله أطرده، صَيَّرَهُ طريداً[1].

وقوله: «ثُمَّ إذَا شاءَ أنْشَرَهُ»، يقول: ثم إذا شاء الله أنشره بعد مماتِه وأحياهُ، يقال: أنشرَ الله الميتَ بمعنى: أحياه.

وقوله: «كَلَّا لَمَا يَقْضِ ما أمَرَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كلا ليس الأمرُ كما يقولُ هذا الإنسانُ الكافرُ من أنه قد أدَّى حقَّ الله عليه، في نفسِه ومالِه، لما يقضِ ما أمره، لم يُؤدِّ ما فرضَ عليه من الفرائضِ ربُّه.

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٣/٢٣٧.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلينظر هذا الإنسانُ الكافرُ المُنكِرُ توحيدَ الله إلى طعامه كيفَ دبَّره.

وقوله: «أنَّا صَبَبْنا الماءَ صَبًّا»، يقول: أنَّا أنزلنا الغيثَ من السماء إنزالاً، وصَبَبْنَاهُ عليها صباً، «ثُمَّ شَقَقْنا الأرْضَ شَقًّا»، يقول: ثم فتقنا الأرضَ فَصدَّعْناها بالنباتِ «فأنْبَتْنا فِيها حَبًّا»، يعني: حبَّ الزرع، وهو كلُّ ما أخرجته الأرضُ من الحبوبِ كالحنطةِ والشعيرِ، وغير ذلك «وَعِنَباً»، يقول: وكرم عنب «وَقَضْباً»، يعني بالقضب: الرطبة، وأهلُ مكة يسمون القَتَّ القَضْبَ.

وقوله: «وَزَيْتُوناً» وهو الزيتونُ الذي منه الزيت «ونَخْلاً وَحَدائِقَ غُلْباً»، وقد بيَّنا أن الحديقةَ البستانُ المحوَّطُ عليه.

وقوله: «غُلْباً»، يعني: غِلاظاً. ويعني بقوله: «غُلْباً» أشجاراً في بساتين غلاظ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ٣٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ٤٢﴾

يقول تعالى ذكره: وفاكهة ما يأكله الناس من ثمار الأشجار، والأبّ: ما تأكله البهائم من العشب والنبات.

وقوله: «مَتاعاً لَكُمْ»، يقول: أنبتنا هذه الأشياءَ التي يأكلها بَنُو آدمَ متاعاً لكم أيها الناسُ، ومنفعةً تتمتعونَ بها، وتنتفعونَ، والتي يأكلها الأنعامُ لأنعامِكم، وأصلُ الأنعام الإبلُ، ثم تُستعملُ في كلِّ راعية.

وقوله: «فَإِذَا جاءَت الصَّاخَّةُ» ذُكر أنها اسمٌ من أسماءِ القيامةِ، وأحسبها مأخوذة من قولهم: صاخَ فلانٌ لصوتِ فلان: إذا استمعَ له، إلا أنَّ هذا يقال منه: هو مُصِيخٌ له، ولعلَّ الصوتَ هو الصاخّ، فإنْ يكن ذلك كذلك، فينبغي أنْ يكون قِيلَ ذلك لنفخةِ الصور.

وقوله: «يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أخِيهِ»، يقول: فإذا جاءت الصاخةُ في هذا اليوم الذي يَفِرُّ فيه المرءُ من أخيه. ويعني بقوله: «يفرُّ من أخيه»، يفرُّ عن أخيه، «وأُمِّهِ وأبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ»، يعني: زوجته التي كانت زوجته في الدنيا، «وَبَنِيهِ» حَذَراً من مطالبتهم إياهُ بما بينه وبينهم من التَّبعاتِ والمظالم.

«لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ»، يعني: من الرجلِ وأخيهِ وأمهِ وأبيهِ، وسائر مَنْ ذُكِرَ في هذه الآية «يَوْمَئِذٍ»، يعني: يومَ القيامةِ إذا جاءت الصاخَّةُ يوم القيامة «شَأْنٌ يُغْنِيهِ»، يقول: أمرٌ يُغنيه، ويُشغلُه عن شأنِ غيره.

وقولـه: «وُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجوهٌ يومئذٍ مشرقةٌ مضيئة، وهي وجوه المؤمنينَ الذين قد رضي الله عنهم، يقال: أسفرَ وجهُ فلان: إذا حَسُنَ، ومنه أسفرَ الصبحُ: إذا أضاء، وكلُّ مضيءٍ فهو مُسْفِرٌ.

«ضَـاحِكَـةٌ»، يقـول: ضاحكةٌ من السرورِ بما أعطاها الله من النعيمِ والكرامةِ «مُسْتَبْشِرَةٌ» لما ترجو من الزيادة.

وقوله: «وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبرَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ووجوهٌ هي وجوهُ الكفارِ يومئذٍ عليها غبرة. ذُكِرَ أنَّ البهائمَ التي يُصَيِّرُهَا الله تراباً يومئذٍ بعد القضاء بينها، يحوِّلُ ذلك الترابَ غَبَرة في وجوهِ أهل الكفر «تَرْهَقُها قَترَةٌ»، يقول: يغشى تلك الوجوه قَتَرةٌ، وهي الغَبَرة.

وقوله: «أُوْلَئِكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءالذين هذه صِفَتُهم يومَ القيامة هم الكَفَرَةُ بالله، كانوا في الدنيا الفجرة في دينهم، لا يبالون ما أُتوا به من معاصي الله، وركبوا من محارمه، فجزاهم الله بسوءِ أعمالهِم ما أخبرَ به عبادَهُ.

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ قولـه: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: إذا الشمسُ ذهبَ ضَوْءُها.

وقال آخرون: معنى ذلك: رُمِيَ بها.

والصواب من القول في ذلك عندنا أنْ يقال: «كُوِّرَتْ» كما قال الله جل ثناؤه؛ والتكويرُ في كلام العرب: جمعُ بعضِ الشيءِ إلى بعضٍ، وذلك كتكويرِ العمامةِ، وهو لفها على الرأس، وكتكويرِ الكارة، وهي جمع الثيابِ بعضِها إلى بعضٍ، ولفها، وكذلك قوله: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» إنما معناه: جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرُمِيَ بها، وإذا فعل ذلك بها ذهبَ ضوءها، فعلى التأويلِ الذي تأوَّلْنَاهُ وبيَّناهُ لكلا القولين اللَّذين ذكرتُ عن أهلِ التأويل وجهٌ صحيح، وذلك أنها إذا كُوِّرت ورُمِيَ بها ذهب ضوءها.

وقوله: «وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ»، يقول: وإذا النجومُ تناثرتْ من السماء فتساقطت.

وقوله: «وَإِذَا الجِبالُ سُيِّرَتْ»، يقول: وإذا الجبال سَيَّرَهَا اللهُ، فكانت سراباً، وهباءً مُنْبَثاً.

وقوله: «وَإِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ» والعشار: جمع عشراء، وهي التي قد أتى عليها عشرةُ أشهرٍ من حملها يقول تعالى ذكره: وإذا هذه الحواملُ التي يَتَنافسُ أهلها فيها أُهْمِلَتْ فتركت من شدّةِ الهولِ النازلِ بهم فكيف بغيرها؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «وَإِذَا الوُحُوشُ حُشِرَتْ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: ماتت.

وقال آخرون: معنى ذلك: وإذا الوحوش اختلطت.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: جُمعت.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: معنى حُشِرَتْ: جُمِعَتْ، فأُميتتْ لأنَّ المعروف في كلام العرب من معنى الحشر: الجمع؛ ومنه قول الله: «والطَّيْرَ مَحْشُورَةً» يعني: مجموعة، وقوله: «فَحَشَرَ فَنَادَى». وإنما يُحملُ تأويلُ القرآنِ على الأغلبِ الظاهرِ من تأويله، لا على الأنكرِ المجهولِ.

وقوله: «وَإِذَا البِحارُ سُجِّرَتْ»، يعني: مُلئت حتى فاضت، فانفجرت وسالت كما وصفها الله في الموضع الآخر، فقال: «وإذا البحارُ فُجِّرت»، والعربُ تقول للنهرِ أو للركيِّ المملوء ماءً: مسجور.

وقوله: «وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ»، معناه: أُلحِقَ كُلُّ إنسانٍ بشكله، وقُرِنَ

بين الضُّرَباءِ والأمثال.

وقوله: «وَإِذَا المَوْؤودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ»، يعني: سُئلت الموؤودة بأيِّ ذنبٍ قُتلت وقد يتوجه معنى ذلك إلى أن يكون: وإذا الموؤودةُ سُئِلَتْ قَتَلَتَهَا ووائِدُهَا، بأيِّ ذنبٍ قتلوها؟ ثم رَدَّ ذلك إلى ما لم يسمّ فاعله، فقيل: بأيِّ ذنبٍ قُتِلَتْ. والموؤودةُ: المدفونةُ حية.

وقوله: «وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ»، يقول تعالى ذكره: وإذا صحفُ أعمالِ العبادِ نُشِرَتْ لهم بعد أن كانت مطويةً على ما فيها مكتوبٌ من الحسناتِ والسيئات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا السماءُ نُزِعَتْ وجُذِبَتْ ثم طُويتْ.

وقوله: «وَإِذَا الجَحِيمُ سُعِّرَتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا الجحيمُ أُوقدَ عليها فأُحْمِيَتْ.

وقوله: «وَإِذَا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا الجنةُ قُرِّبَتْ وأُدْنِيَتْ.

وقوله: «عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: علمتْ نفسٌ عند ذلك ما أُحْضِرَتْ من خيرٍ، فتصير به إلى الجنة، أو شرّ فتصيرُ به إلى النار، يقول: يتبين له عند ذلك ما كان جاهلاً به، وما الذي كان فيه صلاحُه من غيره.

وقوله: «فَلا أُقْسِمُ بالخُنَّسِ. الجَوَارِ الكُنَّس»، اختلف أهلُ التأويل في

الخُنَّس الجوارِ الكنَّسِ فقال بعضهم: هي النجوم الدراريّ الخمسة تخنِسُ في مجراها فترجعُ وتكنسُ، فتسترُ في بيوتها كما تكنس الظِّباءُ في المغار، والنجومُ الخمسة: بَهْرام، وزُحَل، وعُطارد، والزُّهَرَة، والمُشْتَرِي.

وقال آخرون: هي بقر الوحشِ التي تكنسُ في كناسها.

وقال آخرون: هي الظباء.

وأولى الأقوال في ذلك بالصوابِ أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أقسمَ بأشياء تخنسُ أحياناً: أي تَغيبُ، وتجري أحياناً وتكنسُ أخرى، وكُنُوسُها: أنْ تأوي في مكانسها، والمكانِسُ عند العرب، هي المواضعُ التي تأوي إليها بقرُ الوحشِ والظباءِ، واحدها مَكْنِسٌ وكِناس.

فالكِناسُ في كلامِ العربِ ما وصفتُ، وغير مُنْكَرٍ أنْ يُستعارَ ذلك في المواضع التي تكونُ بها النجومُ من السماء، فإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن في الآيةِ دلالةٌ على أنَّ المرادَ بذلك النجوم دون البقر، ولا البقر دون الظباء، فالصوابُ أنْ يُعَمَّ بذلك كلُّ ما كانتْ صفته الخنوسُ أحياناً والجري أخرى، والكنوس بآناتٍ على ما وصفَ جلّ ثناؤه من صفتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠﴾

أقسم رَبُّنَا جلَّ ثناؤه بالليلِ إذا عسعسَ، يقول: وأقسم بالليلِ إذا عسعس.

واختلف أهلُ التأويل في قوله: «وَاللَّيْلِ إذَا عَسْعَسَ»، فقال بعضهم: عُنِيَ بقوله: «إِذَا عَسْعَس»: إذا أدبر.

وقال آخرون: عُني بقوله: «إِذَا عَسْعَسَ»: إذا أقبلَ بظلامِهِ.

وأولى التأويلين في ذلك بالصوابِ عندي قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: إذا أدبـرَ، وذلك لقوله: «وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ» فدلَّ بذلك على أنَّ القسمَ بالليلِ مدبراً، وبالنهار مقبلاً، والعربُ تقول: عسعس الليل، وسَعْسَع الليل: إذا أدبر، ولم يبقَ منه إلا اليسير.

وقوله: «وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ»، يقول: وضوء النهار إذا أقبلَ وتَبَيَّنَ.

وقـولـه: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذا القرآنَ لتنزيلُ رسولٍ كريمٍ، يعني: جبريل، نَزَّله على محمدِ بنِ عبدالله.

وقوله: «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ذي قوّةٍ، يعني: جبـرائيل على ما كُلِّفَ من أمرٍ غير عاجز «عند ذي العرش مكين»، يقول: هو مكينٌ عند ربِّ العرشِ العظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «مُطاعٍ ثَمَّ» يعني: جبريل ﷺ، مطاع في السماء تطيعُه الملائكةُ «أمينٍ»، يقول: أمين عندَ اللهِ على وحيِهِ ورسالتِهِ وغيرِ ذلك مما ائتمنه عليه.

وقوله: «وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما صاحِبُكم أيها النـاسُ محمـد بمجنونٍ فيتكلم عن جنة، ويهذي هَذيانَ المجانين «بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ» [الصافات: ٣٧].

وقـولـه: «وَلَقَـدْ رآهُ بالأُفُقِ المُبِينِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد رآهُ أي: محمدٌ، جبريلَ ﷺ في صورته بالناحية التي تبين الأشياء، فتُرى من قِبَلها، وذلك من ناحيةِ مطلعِ الشمسِ من قِبَلِ المشرق.

وقوله: «ومَا هُوَ عَلى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ»، يعني: وما محمدٌ على ما عَلَّمه اللهُ من وحيهِ وتنزيلهِ ببخيلٍ بتعليمِكُمُوه أيها الناسُ، بل هو حريصٌ على أن تؤمنوا به وتتعلَّموه.

وقوله: «ومَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما هذا القرآنُ بقولِ شيطانٍ ملعونٍ مطرودٍ، ولكنه كلامُ اللهِ ووحيُه.

وقوله: «فأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأين تذهبونَ عن هذا القرآنِ وتعدلونَ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنْ هذا القرآنُ، وقوله: «هُوَ» من ذِكْرِ القرآن «إلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالمِينَ»، يقول: إلا تذكرةٌ وعِظَةٌ للعالمين من الجنِّ والإنسِ «لمنْ شاءَ مِنْكُمْ أنْ يَسْتَقِيمَ» فجعل ذلك تعالى ذِكْرُه: ذِكْراً لمن شاءَ من العالمين أنْ يستقيمَ، ولم يجعله ذِكْراً لجميعِهم، فاللامُ في قوله: «لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ» إبدالٌ من اللام في «للعالمين»، وكأنَّ معنى الكلام: إنْ هُوَ إلا ذِكْرٌ لمن شاء منكم أنْ يستقيمَ على سبيلِ الحقِّ فيتبعه. ويؤمن به.

وقوله: «ومَا تَشاءُونَ إلَّا أنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّ العَالمِينَ»، يقول تعالى ذكره: وما تشاؤونَ أيها الناسُ الاستقامةَ على الحقِّ، إلا أنْ يشاءَ اللهُ ذلك.

سُورَةُ الانفِطَار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾

يقول تعالى ذكره: «إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ»: انشقَّت، وإذا كواكبها انتثرتْ منها فَتساقطَتْ، «وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ»، يقول: فَجَّرَ الله بعضَها في بعضٍ، فملأ جميعَها.

وقوله: «وَإِذَا الْقُبُورُ بُعثِرَتْ»، يقول: وإذا القبور أُثيرتْ فاستخرج مَنْ فيها من الموتى أحياء، يقال: بعثَرَ فلانٌ حوضَ فلانٍ: إذا جعلَ أسفلَهُ أعلاهُ.

وقوله: «عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وأَخَّرَتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: علمتْ كلُّ نفسٍ ما قدَّمَتْ لذلك اليوم من عملٍ صالح ينفعه، وأخرت وراءه من شيءٍ سنَّه فعمل به.

وإنما اخترنا القول الذي ذكرناه، لأن كلَّ ما عمل العبدُ من خيرٍ أو شرٍّ فهو مما قدّمه، وأن ما ضيَّع من حقِ الله عليه وفَرَّطَ فيه فلم يعمله، فهو مما قد قدَّمَ من شرٍّ وليس ذلك مما أخَّر من العمل، لأنَّ العمل هو ما عمله، فأما ما لم يعمله فإنما هو سيئة قدّمها، فلذلك قلنا: ما أخَّرَ: هو ما سَنَّهُ من سنةٍ حسنةٍ وسيئة، مما إذا عَمِلَ به العاملُ، كان له مثل أجرِ العاملِ بها أو وِزْره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذكره: يا أيها الإنسانُ الكافرُ، أيّ شيءٍ غَرَّكَ بربك الكريم، غرَّ الإنسانَ به عدوُّه المسلَّطُ عليه.

وقوله: «الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ»، يقول: الذي خلقكَ أيها الإنسانُ فسوَّى خلْقَكَ «فعَدَلكَ».

واختلفت القَرَأة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأة المدينة ومكة والشام والبصرة «فَعَدَّلكَ» بتشديد الدال. وقرأ ذلك عامة قَرَأةِ الكوفة بتخفيفها. وكأن مَنْ قرأ ذلك بالتشديد وجَّه معنى الكلام إلى أنه جعلك معتدلاً مُعَدَّل الخَلْق مُقَوَّماً، وكأن الذين قرؤوه بالتخفيف وجَّهوا معنى الكلام إلى: صَرَفَكَ، وأمالَكَ إلى أيِّ صورةٍ شاءَ، إما إلى صورةٍ حسنةٍ، وإما إلى صورة قبيحة، أو إلى صورة بعض قراباته.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان في قرأةِ الأمصار صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيبٌ، غير أنَّ أعجبهما إليَّ أنْ أقرأ به قراءةَ مَنْ قَرَأ ذلك بالتشديد؛ لأن دخول «في» للتعديل أحسن في العربية من دخولها للعدل، ألا ترى أنك تقول: عَدَّلْتُكَ في كذا، وصرفتك إليه، ولا تكاد تقول: عَدَلتك إلى كذا وصرفتك فيه، فلذلك اخترتُ التشديد[1].

---

(١) وهو قول واختيار الفراء في معاني القرآن: ٣/٢٤٤.

وقوله[١]: «في أيِّ صورة ما شاء رَكَّبَك»، يقول: في أي صورةٍ اقتضتها مشيئتُه من الصور المختلفة شكلك، إما إلى صورةٍ حسنةٍ، وإما إلى صورة قبيحة، أو إلى صورة بعض قراباتك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ليس الأمرُ أيها الكافرونَ كما تقولون من أنكم على الحقِّ في عبادتكم غيرَ اللهِ، ولكنكم تكذِّبونَ بالثوابِ والعقابِ، والجزاءِ والحساب.

وقـولـه: «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحَـافِـظِينَ»، يقـول: وإنَّ عليكم رُقَباءَ حافظينَ يحفظونَ أعمالكم، ويُحْصونها عليكم «كِراماً كاتِبينَ»، يقول: كراماً على الله كاتبينَ يكتبونَ أعمالَكم.

وقوله: «يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ»، يقول: يعلمُ هؤلاءِ الحافظونَ ما تفعلونَ من خيرٍ أو شرٍّ، يُحصونَ ذلك عليكم.

وقـولـه: «إنَّ الأَبْرارَ لَفِي نَعِيم»، يقول جَلَّ ثناؤه: إن الذين بَرُّوا بأداءِ فرائضِ الله، واجتنابِ معاصيه لفي نعيمِ الجنانِ ينعمون فيها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝١٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾

---

(١) سقط تفسير هذه الآية وبقيت أقوال المفسرين، فأفدنا منها في استخلاص ما قال، وأفدنا من زاد المسير: ٤٨/٩، وتفسير النسفي: ٣٣٨/٤.

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَإِنَّ الفُجَّارَ» الذين كفروا بربِّهم «لَفِي جَحِيمٍ».

وقوله: «يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ»، يقول جلّ ثناؤه: يَصْلَى هؤلاء الفجار الجحيمَ يومَ القيامة، يومَ يُدانُ العبادُ بالأعمالِ، فيُجازَوْنَ بها.

وقوله: «ومَا هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ»، يقول تعالى ذكره: وما هؤلاء الفجار من الجحيمِ بخارجينَ أبداً فغائبينَ عنها، ولكنهم فيها مُخَلَّدُونَ ماكثونَ، وكذلك الأبرارُ في النعيم، وذلك نحو قوله: «ومَا هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ» [الحجر: ٤٨].

وقوله: «ومَا أَدْرَاكَ ما يَوْمُ الدِّينِ»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وما أدراكَ يا محمدُ، أيّ: وما أشعركَ ما يومُ الدين: يقول: أيُّ شيء يوم الحسابِ والمجازاةِ، مُعَظِّماً شأنه جلّ ذكره بِقِيله ذلك.

وقوله: «ثُمَّ ما أَدْرَاكَ ما يَوْمُ الدِّينِ»، يقول: ثم أيّ شيءٍ أشعركَ يوم المجازاة والحساب يا محمدُ تعظيماً لأمره، ثم فسَّر جلّ ثناؤه بعض شأنِه فقال: «يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً»، يقول: ذلك اليوم، «يومَ لا تملك نفسٌ»، يقول: يومَ لا تُغني نفسٌ عن نفسٍ شيئاً، فتدفع عنها بليَّةً نزلتْ بها، ولا تنفعها بنافعةٍ، وقد كانت في الدنيا تحميها، وتدفع عنها مَنْ بَغَاها سوء، فبطل ذلك يومئذٍ، لأنَّ الأمرَ صار للهِ الذي لا يغلبهُ غالبٌ، ولا يقهره قاهر، واضمحلَّتْ هنالك الممالكُ، وذهبت الرياساتُ، وحصل الملكُ للملكِ الجبار، وذلك قوله: «وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ للهِ»، يقول: والأمرُ كله يومئذٍ، يعني: الدينُ للهِ دونَ سائرِ خَلْقِه، ليس لأحدٍ من خَلْقِه معه يومئذٍ أمرٌ ولا نهي.

واختلفت القَـرَأة في قراءة قولـه: «يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ» فقرأته عامة قَرَأة الحجاز والكوفة بنصب «يَوْمَ» إذ كانتْ إضافته غير محضة. وقرأه بعض قَرَأة البصرة بضم «يَوْمُ» ورفعه ردّاً على اليومِ الأوّل، والرفعُ فيه أفصحُ في كلام العرب، وذلك أن اليوم مضاف إلى يفعل، والعربُ إذا أضافت اليوم إلى تَفْعَلُ

أو يفعل أو أفعل، رفعوه فقالوا: هذا يومُ أفعلُ كذا، وإذا أضافته إلى فعلٍ ماضٍ نصبوه[١].

(١) هذا هو رأي الكسائي، ساقه الفراء في معاني القرآن: ٣/٢٤٥، وبالرفع قرأ ابن أبي إسحاق وعيسى وابن جندب وابن كثير وأبو عمرو (البحر المحيط: ٨/٤٣٧)، وانظر مزيد آراء في وجه رفعها عند الزجاج في معاني القرآن: ٥/٢٩٦).

سُورَةُ المُطَفِّفِين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى
ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم
مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذكره: الوادي الذي يسيلُ من صديدِ أهلِ جهنم في أسفلها للذين يُطَفِّفونَ، يعني: للذين يُنْقِصُونَ النـاسَ، ويبخسـونهم حقـوقَهُمْ في مكاييلهم إذا كالوهم، أو موازينهم إذا وزنوا لهم عن الواجب لهم من الوفاء، وأصلُ ذلك من الشيءِ الطفيفِ، وهو القليلُ النَّزْر، والمُطَفِّفُ: المُقَلِّلُ حَقَّ صاحبِ الحقِّ عَمَّا له من الوفاءِ والتمامِ في كيلٍ أو وزنٍ.

وقـولـه: «الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا على النَّاسِ يَسْتَوفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: الذين إذا اكتالوا من الناسِ ما لهم قِبَلَهُمْ من حقٍّ يستوفون لأنفسهم فيكتالونه منهم وافياً.

وقوله: «وَإِذَا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ»، يقول: وإذا هم كالوا للناسِ أو وَزَنُوا لهم. ومن لغةِ أهـلِ الحجـازِ أنْ يقولوا: وزَنْتُكَ حَقَّكَ، وكِلْتُكَ طعامك، بمعنى: وزنتُ لكَ وكِلْتُ لك.

وقوله: «يُخْسِرُونَ»، يقول: ينقصونهم.

وقوله: «ألا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ألا يظنُّ هؤلاء المطففونَ الناسَ في مكاييلهم وموازينهم أنهم مبعوثونَ من قبورِهم بعد مماتِهم ليوم عظيمٍ شأنهُ، هائلٍ أمرُه، فظيعٍ هَوْلُه.

وقوله: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ»، فيوم يقومُ: تفسيرٌ عن اليومِ الأوّلِ المخفوضِ، ولكنه لما لم يعد عليه اللام ردَّ إلى مبعوثون، فكأنه قال: ألا يظنُّ أولئك أنهم مبعوثونَ يومَ يقومُ الناسُ. وقد يجوز نصبه وهو بمعنى الخفض، لأنها إضافة غير محضة، ولو خفض ردّاً على اليومِ الأوّلِ لم يكن لحناً، ولو رفع جاز[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١﴾

يقول تعالى ذكره: «كلا»، أي: ليس الأمرُ كما يظنُّ هؤلاء الكفار أنهم غير مبعوثينَ ولا معذَّبينَ، إنَّ كتابَهُم الذي كتب فيه أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا «لَفِي سِجينٍ»، وهي الأرضُ السابعةُ السفلى وهو «فعيل» من السجن، كما قيل: رجلٌ سِكِّيرٌ من السكر، وفِسِّيق من الفسق.

وقوله: «ومَا أَدْرَاكَ ما سِجِّينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وأيّ شيءٍ أدراكَ يا محمدُ، أيّ شيءٍ ذلك الكتاب، ثم بَيَّنَ ذلك تعالى ذِكْرُه، فقال:

---

(١) هذا كلام الفراء في معاني القرآن: ٣/٢٤٦، ولكن قال الزجاج بعد أن ذكر جواز الرفع: ولا يجوز القراءة إلا بما قرأ القراء «يومَ يقوم الناس» ـ بالنصب ـ لأن القراءة سنة، ولا يجوز أن تُخالف بما يجوز في العربية (معاني القرآن: ٥/٢٩٨).

«هُوَ كِتابٌ مَرْقُومٌ»، وعَنَى بالمرقوم: المكتوب.

وقوله: «وَيْلٌ يومئِذٍ لِلْمُكذِّبينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويل يومئذٍ للمكذّبين بهذه الآياتِ، «الذين يكذِّبُونَ بيومِ الدين»، يقول: الذين يكذِّبُونَ بيومِ الحسابِ والمجازاةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما يُكذِّبُ بيومِ الدين «إلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ» اعتدى على الله في قولِه، فخالفَ أمره «أثيمٍ» بربِّه.

«إذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آياتُنا»، يقول تعالى ذِكْرُه: إذا قُرِىء عليه حُجَجُنَا وأدلتنا التي بيَّنَّاها في كتابنا الذي أنزلناه إلى محمدٍ ﷺ «قالَ أساطِيرُ الأوَّلِينَ»، يقول: قال: هذا ما سطَّرهُ الأوَّلونَ فكتبوهُ من الأحاديثِ والأخبار.

وقوله: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلى قُلُوبِهِم»، يقول تعالى ذكره مكذِّباً لهم في قِيلِهم ذلك: «كلا»، ما ذلكَ كذلكَ، ولكنه «رانَ على قلوبهم»، يقول: غَلَبَ على قلوبهم وغَمَرها وأحاطتْ بها الذنوبُ فَغطَّتها، يقال منه: رانتِ الخمرُ على عقلِه، فهي تَرِينُ عليه رَيْناً، وذلك إذا سَكِرَ، فغلبتْ على عقلِه[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

---

(١) لم يفسر قوله تعالى: «ما كانوا يكسبون» لأنها متضمنة بهذا التفسير، كأنه يريد: «غلب على قلوبهم وغمرها وأحاطت بها الذنوب، التي كسبوها من معاصيهم فغطتها». ولعله اكتفى بذلك لما ساقه من الآثار بَعْدُ.

يقول تعالى ذِكْرُه: ما الأمرُ كما يقول هؤلاء المكذِّبونَ بيومِ الدين، من أنَّ لهم عند الله زُلْفةً، إنهم يومئذٍ عن رَبِّهم لمحجوبونَ، فلا يرونه، ولا يرون شيئاً من كرامته يصلُ إليهم.

وقد اختلف أهلُ التأويلِ في معنى قوله: «إِنَّهُم عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: إنهم محجوبونَ عن كرامته.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنهم محجوبونَ عن رؤيةِ ربِّهم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أنْ يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ عن هؤلاء القومِ أنهم عن رؤيتهِ محجوبونَ. ويُحتمل أنْ يكونَ مراداً به الحجابُ عن كرامتهِ، وأنْ يكون مراداً به الحجاب عن ذلك كُلِّه، ولا دلالةَ في الآيةِ تدلُّ على أنه مرادٌ بذلك الحجاب عن معنىً منه دونَ معنى، ولا خبرَ به عن رسولِ الله ﷺ قامتْ حُجَّتُه. فالصوابُ أن يقال: هم محجوبونَ عن رؤيتهِ، وعن كرامتهِ، إذْ كان الخبرُ عاماً، لا دلالة على خصوصه.

وقوله: «إِنَّهُمْ لَصَالُو الجَحِيمِ»، يقول تعالى ذكره: ثم إنهم لَوارِدُو الجحيم، فَمَشْوِيُّونَ فيها، ثم يقال: «هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ»، يقول جلّ ثناؤه: ثم يقال لهؤلاء المكذِّبينَ بيومِ الدين: هذا العذابُ الذي أنتم فيه اليومَ، هو العذابُ الذي كنتم في الدنيا تُخْبَرُونَ أنكم ذائِقوهُ، فتكذِّبُونَ به، وتُنْكِرُونَهُ، فذوقوهُ الآنَ، فقد صَلَيْتُمْ به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «كلَّا إنَّ كِتابَ الأبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ»، والأبرار: جمع بَرّ، وهم الذين بَرُّوا الله بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ محارمه.

وقوله: «لَفِي عِلِّيِّينَ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى عليين، والصوابُ أنْ يقالَ في ذلك، كما قال جلّ ثناؤه: إنَّ كتابَ أعمالِ الأبرارِ لفي ارتفاعٍ إلى حَدٍّ قد عَلِمَ اللهُ جلّ وعزَّ مُنْتَهاهُ، ولا عِلْمَ عندنا بغايته، غير أنَّ ذلك لا يَقصرُ عن السماءِ السابعةِ، لإجماعِ الحجةِ من أهلِ التأويلِ على ذلك.

وقوله: «تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تعرفُ في الأبرارِ الذين وصف الله صِفَتهم نضرةَ النعيم، يعني حُسْنَهُ وبريقه وتَلألُؤَهُ.

وقوله: «يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ»، يقول: يُسقى هؤلاء الأبرار من خمرٍ صِرْفٍ لا غِشَّ فيها.

وقوله: «وَمَا أَدْرَاكَ ما عِلِّيُّونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، مُعَجِّبَهُ من عليين، وأيّ شيء أشعرَكَ يا محمدُ ما عِلِّيُّونَ.

وقوله: «كِتابٌ مَرْقُومٌ»، يقول جلّ ثناؤه: إنَّ كتابَ الأبرارِ لفي عليين، «كتابٌ مرقوم»، أي: مكتوبٌ بأمانٍ من الله إياهُ من النارِ يومَ القيامة، والفوز بالجنة.

وقوله: «يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ»، يقول: يشهدُ ذلك الكتابَ المكتوبَ بأمانِ اللهِ للبَرِّ من عبادِه من النارِ، وفوزِه بالجنة، المُقَرَّبُونَ من ملائكتِه من كلِّ سماءٍ من السمواتِ السبعِ.

وقوله: «إنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الأبرارَ الذين بَرُّوا باتقاءِ اللهِ وأداءِ فرائضِه، لفي نعيمٍ دائمٍ، لا يزولُ يومَ القيامةِ، وذلك نعيمُهم في الجِنان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ

﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «عَلى الأرَائِكِ يَنْظُرُونَ» على السُّرُرِ في الحِجال من اللؤلؤِ والياقوتِ ينظرونَ إلى ما أعطاهمُ الله من الكرامةِ والنعيمِ، والحَبْرةِ في الجنان.

وأما قوله: «مختوم ختامُهُ مسكٌ»، فمعناه: آخرهُ وعاقبتُه مسكٌ، أي: هي طيبةُ الريحِ، إنَّ ريحَها في آخرِ شربهم يختمُ لها بريحِ المسكِ.

وإنما قلنا ذلك لأنه لا وجه للختمِ في كلامِ العربِ إلا الطبع والفراغ، كقولهم: ختمَ فلانٌ القرآنَ: إذا أتى على آخرهِ، فإذا كان لا وجه للطبعِ على شرابِ أهلِ الجنة يُفْهَمُ إذْ كان شرابهم جارياً جريَ الماء في الأنهار، ولم يكن مُعتَّقاً في الدِّنَانِ فَيُطَيَّن عليها وتختم، تَعَيَّنَ أنَّ الصحيحَ من ذلك الوجه الآخر وهو العاقبة والمشروب آخراً، وهو الذي ختم به الشراب.

وقوله: «وفِي ذَلكَ فَلْيَتَنافَسِ المُتَنافِسُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وفي هذا النعيم الذي وصف جلَّ ثناؤه أنه أعطى هؤلاءِ الأبرار في القيامةِ، فليتنافسِ المتنافسونَ. والتنافسُ: أن يَنفِسَ الرجلُ على الرجلِ بالشيء يكونُ له، ويتمنى أنْ يكونَ له دونه، وهو مأخوذٌ من الشيءِ النفيسِ، وهو الذي تحرصُ عليه نفوسُ الناس، وتطلبه وتشتهيه، وكأنَّ[1] معناه في ذلك: فَلْيَجِدَّ الناسُ فيه، وإليهِ فَلْيَسْتَبِقُوا في طَلَبِهِ، ولْتَحْرِصْ عليه نفوسُهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾

---

(١) كتبها الناشر: «وكان» فما أصاب، وكان قد كررها قبل هذه مراراً ولم نشر إليها.

يقول تعالى ذِكْرُه: ومزاجُ هذا الرحيق من تسنيم؛ والتسنيمُ: التفعيلُ من قول القائل: سنَّمتهمُ العينَ تَسْنيماً: إذا أُجْرَيْتُهَا عليهم من فوقِهم، فكأنَّ[1] معناه في هذا الموضع: ومزاجهُ من ماءٍ ينزلُ عليهم من فوقِهم فينحدرُ عليهم.

فتأويل الكلام: ومزاجُ الرحيقِ من عينٍ تُسَنَّم عليهم من فوقِهم، فتنصبُّ عليهم «يَشْرَبُ بِها المُقَرَّبُونَ» من الله صرفاً، وتمزج لأهل الجنة.

وقوله: «إنَّ الَّذِينَ أجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُون»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين اكتسبوا المآثم، فكفروا بالله في الدنيا، كانوا فيها من الذين أَقَرُّوا بوحدانيةِ الله، وصَدَّقُوا به يضحكونَ، استهزاءً منهم بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكان هؤلاء الذين أجرموا إذا مرَّ الذين آمنوا بهم يتغامزونَ؛ يقول: كان بعضُهم يغمزُ بعضاً بالمؤمنِ، استهزاءً به وسخريةً.

وقوله: «وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِم انْقَلَبُوا فَكِهِينَ»، يقول: وكان هؤلاء المجرمونَ إذا انصرفوا إلى أهلِهم من مجالسِهم انصرفوا ناعمينَ مُعْجَبينَ.

وقوله: «وَإِذَا رأَوْهُمْ قالُوا إنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا رأى المجرمونَ المؤمنينَ قالوا لهم: إنَّ هؤلاء لضالونَ عن محجةِ الحقِّ، وسبيلِ القصد «ومَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ»، يقول جلّ ثناؤه: وما بُعِثَ هؤلاء الكفارُ القائلون للمؤمنينَ «إنَّ هؤلاء لضالون» حافظينَ عليهم أعمالَهم. يقول: إنما

---

(١) انظر تعليقنا السابق.

كُلِّفُوا الإيمانَ بالله، والعملَ بطاعتِهِ، ولم يُجْعَلُوا رُقباءَ على غيرِهم يحفظونَ عليهم أعمالهم ويتفقدونها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فالْيَوْمَ» وذلك يوم القيامة «الَّذِينَ آمَنُوا» باللهِ في الدنيا «مِنَ الكُفَّارِ» فيها «يَضْحَكُونَ. على الأرائِكِ يَنْظُرُونَ»، يقول: على سُرُرِهم التي في الحِجالِ ينظرونَ إليهم وهم في الجنةِ، والكفار في النار يُعَذَّبُونَ.

وقوله: «هَلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ»، يقول تعالى ذكره: هل أُثيبَ الكفارُ وجُزُوا ثوابَ ما كانوا في الدنيا يفعلون بالمؤمنينَ من سُخْريتهم منهم، وضَحِكِهِمْ بهم بضحكِ المؤمنينَ منهم في الآخرة، والمؤمنونَ على الأرائكِ ينظرون، وهم في النار يعذَّبُونَ.

و«ثُوِّبَ» فعلٌ من الثوابِ والجزاءِ، يقال منه: ثَوَّبَ فلانٌ فلاناً على صنيعهِ، وأثابه منه.

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾

يقول تعالى ذكره: إذا السماء تَصَدَّعَتْ وتقطَّعتْ فكانت أبواباً.

وقوله: «وأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ» يقول: وسَمِعَت السموات في تَصدُّعِهَا وتَشَقُّقِهَا لربِّها وأطاعتْ له في أمره إياها، والعرب تقول: أذِنَ لك في هذا الأمر أذناً بمعنى: استمعَ لك، ومنه الخبر الذي رُوي عن النبيِّ ﷺ «ما أذِنَ الله لِشَيْءٍ كأَذَنِهِ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بالقُرآنِ»[1]، يعني بذلك: ما استمع الله لشيءٍ كاستماعهِ لنبيٍّ يتغنى بالقرآن.

وقوله: «وحُقَّتْ»، يقول: وحققَ الله عليها الاستماعَ بالانشقاقِ والانتهاءِ إلى طاعتهِ في ذلك.

وقوله: «وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا الأرض بُسِطتْ، فَزِيدَتْ في سعتها.

---

(١) ذكره المؤلف معلقاً، وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة: البخاري (٥٠٢٣) و(٥٠٢٤) و(٧٤٨٢) و(٧٥٤٤)، ومسلم (٧٩٢).

وقوله: «وألْقَتْ ما فِيها وتَخلَّتْ»، يقول جلّ ثناؤه: وألقت الأرضُ ما في بطنها من الموتى إلى ظهرها وتخلّت منهم إلى الله.

وقوله: «وأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ»، يقول: وسمعت الأرضُ في إلقائها ما في بطنها من الموتى إلى ظهرها أحياء، أمرَ ربِّها وأطاعت «وحُقَّتْ»، يقول: وحقَّقها الله للاستماعِ لأمرهِ في ذلك، والانتهاء إلى طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الإنسانُ إنك عاملٌ إلى ربك عملاً فَمُلاقيهِ به خيراً، كان عملك ذلك أو شرّاً؛ يقول: فليكن عملك مما يُنجيك من سُخْطِه، ويوجبُ لك رِضاهُ، ولا يكُنْ مما يُسخطه عليكَ فتهلكَ.

وقوله: «فأمَّا مَن أُوتِيَ كِتابَهُ بيَمِينِهِ»، يقول تعالى ذكره: فأما مَنْ أُعطيَ كتابَ أعمالِه بيمِينه «فَسوفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً» بأنْ ينظر في أعماله، فيغفر له سَيِّئها، ويُجازى على حسنها.

وقوله: «وَيَنْقَلِبُ إلى أهْلِهِ مَسْرُوراً»، يقول: وينصرف هذا المحاسَبُ حساباً يسيراً إلى أهله في الجنة مسروراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ﴿١٥﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: وأما مَنْ أُعطيَ كتابه منكم أيها الناسُ يومئذٍ وراء ظهـره، وذلك أنْ جعلَ يده اليمنى إلى عنقه، وجعل الشمال من يديه وراء ظهره، فيتناول كتابَهُ بشماله من وراءِ ظهره، ولذلك وصفهم جلّ ثناؤه أحياناً، أنهم يُؤْتَوْنَ كتبهم بشمائلهم، وأحياناً أنهم يُؤْتَوْنَها من وراءِ ظهورِهم.

وقـولـه: «فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً»، يقول: فسوف ينادي بالهلاك، وهو أن يقول: وَاثُبُوراهُ، واوَيْلاهُ، وهو من قولهم: دعا فلان لهفه: إذا قال: والهفاه.

وقوله: «وَيَصْلَى سَعِيراً»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ ذلك، فقرأته عامة قَرَأَة مكـة والمدينة والشام: «وَيُصَلَّى» بضم الياء وتشديد اللام، بمعنى: أنَّ الله يصليهم تصليةً بعـد تصليةٍ، وإنضاجةً بعد إنضاجةٍ، كما قال تعالى: «كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُم جُلُوداً غَيرَها» [النساء: ٥٦]، واستشهدوا لتصحيحِ قراءتِهم ذلك كذلك بقوله: «ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ» [الحاقة: ٣١] وقرأ ذلك بعضِ المـدنيين وعـامة قَرَأَة الكوفة والبصرة: «وَيَصْلَى» بفتح الياء وتخفيف اللام، بمعنى: أنهم يَصْلونها ويَرِدُونَها، فيحترقونَ فيها، واستشهدوا لتصحيحِ قراءتهم ذلـك كذلك بقول الله: «يَصْلَوْنها» [إبراهيم: ٢٩ وص: ٥٦ والانفطار: ١٥] و«إلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الجَحِيم» [الصافات: ١٦٣].

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيبٌ.

وقوله: «إنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنه كان في أهلهِ في الدنيا مسروراً لما فيه من خلافهِ أمرَ الله، وركوبه معاصيَهُ.

وقوله: «إنَّهُ ظَنَّ أنْ لَنْ يَحُورَ بَلى»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذا الذي أُوتيَ كتابَهُ وراءَ ظهرِهِ يومَ القيامة، ظنَّ في الدنيا أنْ لن يرجعَ إلينا، ولن يُبعثَ بعد مماتِهِ، فلم يكن يبالي ما رَكِبَ من المآثم، لأنه لم يكن يرجو ثواباً، ولم يكن

يخشى عقاباً، يقال منه: حَار فلانٌ عن هذا الأمر: إذا رجعَ عنه، ومنه الخبر الذي رُوي عن رسولِ الله ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنَ الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ»(١)، يعني بذلك: من الرجُوعِ إلى الكفرِ بعد الإيمانِ.

وقوله: «بَلى»، يقول تعالى ذِكْرُه: بلى لَيَحُورَنَّ ولَيَرْجِعَنَّ إلى رَبِّه حياً كما كان قبل مماتهِ.

وقوله: «إنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً»، يقول جلّ ثناؤه: إنَّ ربَّ هذا الذي ظَنَّ أنْ لن يحور، كان به بصيراً، إذ هو في الدنيا، بما كان يعملُ فيها من المعاصي، وما إليه يصيرُ أمرُه في الآخرة، عالمٌ بذلك كلِّه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ٢١﴾

وهذا قَسم أقسمَ رَبُّنا بالشفقِ: والشفق: الحمرةُ في الأفقِ من ناحيةِ المغربِ من الشمسِ في قول بعضِهم.

وقوله: «وَاللَّيْلِ ومَا وَسَقَ»، يقول: والليلِ وما جمعَ مما سكن وهدأ فيه من ذي روحٍ كان يطيرُ، أو يَدِبُّ نهاراً، يقال منه: وسَقْتُه أسِقُهُ وَسْقاً، ومنه طعامٌ موسُوقٌ، وهو المجموعُ في غرائرَ أو وعاءٍ، ومنه الوَسْقُ، وهو الطعامُ المجتمعُ الكثيرُ مما يُكالُ أو يُوزَنُ.

وقوله: «والقَمَر إذَا اتَّسَقَ»، يقول: وبالقمر إذا تَمَّ واستوى.

وقوله: «لَتركَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ»، اختلفت القَرَأةُ في قراءته، فقرأه عمرُ بن

(١) أخرجه مسلم (١٣٤٣) وغيره من حديث عبدالله بن سرجس المزني. ورواه المؤلف هنا معلقاً، ويروى أيضاً «بعد الكون» ـ بالنون ـ بدلاً من الراء.

الخطاب وابن مسعود وأصحابه وابن عباس وعامة قَرَأَة مكة والكوفة «لَتَركَبَنَّ» بفتح التاء والباء، واختلف قارئُو ذلك كذلك في معناه، فقال بعضهم: لتركَبنَّ يا محمدُ أنتَ حالاً بعد حالٍ، وأمراً بعد أمرٍ من الشدائدِ.

وقال آخرون ممن قرأ هذه القراءة عُنِي بذلك: لتركبنَّ أنتَ يا محمدُ سماءً بعد سماءٍ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لتركَبَنَّ الآخرةَ بعدَ الأولى.

وقال آخرون ممن قرأ هذه القراءة: إنما عُنِي بذلك أنها تتغير ضروباً من التغييرِ، وتشَقَّقُ بالغَمامِ مرَّةً وتحمَرُّ أُخرى، فتصيرُ وردةً كالدِّهانِ، وتكون أخرى كالمُهْلِ.

وقرأ ذلك عامة قَرَأَة المدينةِ وبعض الكوفيين: «لَترْكَبُنَّ» بالتاءِ وبضم الباء على وجهِ الخطابِ للناسِ كافة أنهم يركبونَ أحوالَ الشدّةِ حالاً بعد حالٍ، وقد ذكر بعضهم أنه قرأ ذلك بالياء وبضم الباء على وجه الخبر عن الناس كافة أنهم يفعلون ذلك.

وأولى القراءات في ذلك عندي بالصوابِ: قراءةُ مَنْ قرأ بالتاء وبفتح الباء، لأنَّ تأويلَ أهلِ التأويلِ من جميعِهم بذلك وَرَدَ، وإنْ كان للقراءاتِ الأُخَرِ وجوهٌ مفهومة. وإذ كان الصوابُ من القراءة في ذلك ما ذكرنا فالصوابُ من التأويلِ قولُ مَنْ قال: «لَتَرْكَبَنَّ» أنتَ يا محمدُ حالاً بعد حالٍ، وأمراً بعد أمر من الشدائد. والمرادُ بذلك، وإنْ كان الخطابُ إلى رسولِ الله ﷺ موجهاً جميعَ الناسِ أنهم يلقون من شدائدِ يومِ القيامة وأهوالِهِ أحوالاً.

وإنما قلنا: عُنِي بذلك ما ذكرنا أنَّ الكلام قبلَ قولِه: «لَترْكَبنَّ طَبَقا عَنْ طَبَقٍ» جرى بخطابِ الجميعِ، وكذلك بعده، فكان أشبه أنْ يكونَ ذلك نظير ما قَبْلَهُ وما بعده.

وقوله: «طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ» من قولِ العربِ: وقع فلان في بناتِ طبق: إذا وقعَ في أمرٍ شديد.

وقوله: «فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فما لهؤلاءِ المشركينَ لا يصدِّقُونَ بتوحيدِ الله، ولا يُقِرُّونَ بالبعثِ بعد الموتِ، وقد أقسم لهم رَبُّهم بأنهم راكبونَ طبقاً عن طبقٍ مع ما قد عَايَنُوا من حججهِ بحقيقةِ توحيدِه.

وقوله: «وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ القُرآنُ لا يَسْجُدُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا قُرِئَ عليهم كتابُ رَبِّهم لا يخضعونَ ولا يستكينونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾

قوله: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بل الذين كفروا يكذِّبُونَ بآياتِ الله وتنزيله.

وقوله: «وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله أعلمُ بما تُوعيهِ صدورُ هؤلاءِ المشركينَ من التكذيبِ بكتابِ الله ورسوله.

وقوله: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»، يقول جلّ ثناؤه: فَبَشِّرْ يا محمدُ هؤلاء المكذِّبينَ بآياتِ الله بعذابٍ أليمٍ لهم عندَ اللهِ موجع «إلا الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ»، يقول: إلا الذين تابوا منهم وصَدَّقُوا، وأقَرُّوا بتوحيدِه، ونبوّةِ نبيه محمدٍ ﷺ، وبالبعثِ بعد المماتِ. «وعملوا الصالحات»، يقول: وأدُّوا فرائضَ الله، واجتنبوا ركوبَ ما حَرَّمَ اللهُ عليهم ركوبه.

وقوله: «لَهُمْ أَجْرٌ غَيرُ مَمْنُونٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ، ثوابٌ غير محسوبٍ ولا منقوص.

سُورَةُ البُرُوج

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥﴾

قوله: «والسَّماءِ ذَاتِ البُرُوجِ» أقسمَ اللهُ جلّ ثناؤه بالسماءِ ذاتِ البروجِ، ومعنى ذلك: والسماءِ ذاتِ منازلِ الشمسِ والقمرِ، وذلك أنَّ البروجَ: جمع برجٍ، وهي منازلُ تُتَّخذُ عاليةً عن الأرضِ مرتفعة، ومن ذلك قول الله: «وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ» [النساء: ٧٨] وهي منازل مرتفعة عالية في السماء، وهي اثنا عشر برجاً، فمسيرُ القمر في كلِّ برجٍ منها يومان وثلث، فذلك ثمانيةٌ وعشرون منزلاً، ثم يَسْتَتِرُ ليلتين، ومسيرُ الشمسِ في كلِّ برجٍ منها شهر.

وقوله: «وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأقسم باليومِ الذي وعدته عبادي لفصلِ القضاء بينهم، وذلك يوم القيامة.

وقوله: «وشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ»، اختلف أهلُ التأويلِ في معنى ذلك، فقال بعضُهم: معنى ذلك: وأقسم بشاهد، قالوا: وهو يومُ الجمعة، ومشهودٍ قالوا: وهو يومُ عرفة.

وقال آخرون: الشاهدُ: محمد، والمشهودُ: يوم القيامة.

وقال آخرون: الشاهد: الإنسانُ، والمشهود: يوم القيامة.

وقال آخرون: الشاهد: محمدٌ. والمشهود: يومُ الجمعة.

وقال آخرون: الشاهد: الله، والمشهود: يوم القيامة.

وقال آخرون: الشاهد: يوم الأضحى، والمشهود: يوم الجمعة.

وقال آخرون: الشاهد: يوم الأضحى، والمشهود: يوم عَرَفة.

وقال آخرون: المشهود: يوم الجمعة[1].

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أنْ يقال: إنَّ الله أقسم بشاهدٍ شهدَ، ومشهودٍ شهدَ، ولم يخبرنا مع إقسامهِ بذلك أيَّ شاهدٍ وأيَّ مشهودٍ أرادَ، وكلُّ الذي ذكرنا أنَّ العلماء قالوا: هو المعنيُّ مما يستحقُّ أنْ يُقال له: شاهِدٍ وَمَشْهُودٍ.

وقوله: «قُتِلَ أَصحَابُ الأُخْدُودِ»، يقول: لعِنَ أصحابُ الأخدودِ. وكان بعضُهم يقول: معنى قوله: «قُتِلَ أصحَابُ الأُخْدُودِ» خبرٌ من اللهِ عن النارِ أنها قتلتهم.

وقد اختلف أهلُ العلم في أصحابِ الأُخدودِ مَنْ هم؟ فقال بعضُهم: قومٌ كانوا أهلَ كتابٍ من بقايا المجوسِ.

وقال آخرون: بل الذين أحرقتهم النارُ هم الكفارُ الذين فَتنوا المؤمنين.

وأَوْلى التأويلين بقوله: «قُتِلَ أصحَابُ الأُخْدُودِ» لُعِنَ أصحابُ الأخدودِ الذين ألقوا المؤمنينَ والمؤمنات في الأخدود.

وإنما قلت: ذلك أَوْلى التأويلين بالصوابِ لأنَّ الله أخبرَ أنَّ لهم عذابَ الحريق مع عذابِ جهنم، ولو لم يكونوا أُحْرِقُوا في الدنيا لم يكن لقوله: «ولَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ» معنىً مفهوم، مع إخبارِهِ أنَّ لهم عذاب جهنم، لأنَّ عذابَ

---

(١) ذكر ابن الجوزي في «زاد المسير» أربعة وعشرين قولاً في ذلك: ٩/٧٠-٧٣.

جهنم هو عذابُ الحريقِ مع سائرِ أنواعِ عذابها في الآخرة، والأخدود: الحفرةُ تُحْفَرُ في الأرض.

وقـولـه: «النَّـارِ ذَاتِ الوَقُودِ»، فقوله النار: رَدٌّ على الأخدودِ، ولذلك خفضت، وإنما جازَ رَدُّهَا عليه وهي غيره، لأنها كانت فيه، فكأنها إذ كانت فيه هو، فجـرى الكـلامُ عليه لمعـرفةِ المُخاطَبِينَ به بمعناه وكأنه قيل: قُتِلَ أصحابُ النارِ ذَاتِ الوَقُودِ، ويعني بقوله: «ذَاتِ الوَقُودِ» ذات الحطبِ الجزلِ، وذلك إذا فتحت الواو، فأما الوُقود بضم الواو، فهو الاتِّقادُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: النار ذات الوقود، «إِذْ» هؤلاء الكفار من أصحابِ الأخدودِ «عليها»، يعني: على النار، فقالَ: عليها، والمعنى أنهم قعودٌ على حافةِ الأخدودِ، فقيلَ: على النارِ، والمعنى: لشفيرِ الأخدودِ لمعرفةِ السامعينَ معناه.

وقوله: «وَهُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بالمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ»، يعني: حُضُورٌ.

وقوله: «وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا باللهِ العَزِيزِ الْحَمِيدِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما وَجَدَ هؤلاء الكفارُ الذين فَتَنُوا المؤمنينَ على المؤمنينَ والمؤمناتِ بالنارِ في شيءٍ، ولا فعلوا بهم ما فعلوا بسببٍ، إلا مِنْ أجلِ أنهم آمنوا بالله، وقال: «إلا أن يؤمنوا بالله»، لأنَّ المعنى: إلا إيمانَهم بالله، فلذلك حَسُنَ في موضعـه «يؤمنـوا»، إذْ كان الإيمانُ لهم صفةً. «الْعَزِيزِ»، يقول: الشديد في انتقامهِ ممن انتقمَ منه. «الْحَمِيدِ»، يقول: المحمود بإحسانهِ إلى خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذي له سلطانُ السمواتِ السبع والأرضين وما فيهنَّ، «وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله على فِعْلِ هؤلاء الكفارِ من أصحابِ الأخدودِ بالمؤمنينَ الذين فتنوهم شاهدٌ، وعلى غيرِ ذلك من أفعالهم وأفعالِ جميعِ خَلْقِه، وهو مجازِيهم جزاءهم.

وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ»، يقول: إنَّ الذين ابتَلُوا المؤمنينَ والمؤمناتِ بالله بتعذيبِهم وإحراقِهم بالنار.

وقوله: «ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا»، يقول: ثم لم يتوبوا من كُفْرِهم وفعلِهم، الذي فعلوا بالمؤمنينَ والمؤمناتِ من أجلِ إيمانِهم بالله «فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ» في الآخرة، «ولَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ» في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾

يقول تعالى ذكره: إنَّ الذين أقَرُّوا بتوحيدِ الله، وهم هؤلاء القوم الذين حَرَّقَهُم أصحابُ الأخدودِ وغيرهم من سائرِ أهلِ التوحيد «وعَمِلوا الصَّالِحاتِ»، يقول: وعملوا بطاعةِ اللهِ، وأْتَمَرُوا لأمرِه، وانتهَوا عما نَهاهم عنه «لَهُمْ جَنَّات تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ»، يقول: لهم في الآخرةِ عندَ اللهِ بساتينُ تجري من تحتها الأنهارُ والخمرُ واللبنُ والعسل «ذلكَ الْفَوْزُ الكَبيرُ»، يقول: هذا الذي هُوَ لهؤلاءِ المؤمنينَ في الآخرة هو الظفرُ الكبيرُ بما طلبوا والتمسوا بإيمانِهم بالله في

الدنيا، وعملهم بما أمرهم الله به فيها ورضيه منهم.

وقوله: «إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّ بطشَ رَبِّكَ يا محمـدُ لمنْ بطشَ به من خَلْقِـه، وهو انتقامُه ممن انتقمَ منه لشديدٌ، وهو تحذيرٌ من الله لقومِ رسولِه محمدٍ ﷺ، أن يُحِلَّ بهم من عذابِهِ ونقمته. نظيرَ الذي حَلَّ بأصحابِ الأخدودِ على كفرهم به، وتكذيبهم رسولَهُ، وفتنتهم المؤمنينَ والمؤمناتِ منهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨﴾

اختلف أهـلُ التـأويلِ في معنى قولـه: «إِنَّـهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: إن الله أبدى خلقه، فهو يبتدئ، بمعنى: يُحْدِثُ خَلْقَهُ ابتداءً، ثم يُميتهم، ثم يُعيدهُمْ أحياءً بعد مماتِهم، كهيئتِهم قبل مماتهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنه هو يُبْدِئُ العذابَ ويُعيدُه.

وأَوْلى التأويلين في ذلك عندي بالصوابِ وأشبههما بظاهرِ ما دَلَّ عليه التنزيلُ هو أنه يُبدِئ العذابَ لأهلِ الكفرِ به ويُعيدُ، كما قال جلَّ ثناؤه: «فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ» في الدنيا، فأبدأَ ذلك لهم في الدنيا، وهو يعيدُه لهم في الآخرة.

وإنما قلت: هذا أولى التأويلين بالصوابِ لأنَّ اللهَ أتبعَ ذلك قوله: «إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ» فكان للبيانِ عن معنى شدّةِ بطشِهِ الذي قد ذكره قَبْلَهُ، أشبه به بالبيانِ عما لم يَجْرِ له ذِكْرٌ، ومما يؤيدُ ما قلنا من ذلك وضوحاً وصحةً، قوله: «وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ» فَبَيَّنَ ذلك عن أن الذي قبله من ذكرِ خبرِه عن عذابِه وشدَّةِ عقابه.

وقوله: «وَهُوَ الْغَفُورُ الوَدُودُ»، يقول تعالى ذكره: وهو ذُو المغفرةِ لمن تابَ إليه من ذنوبهِ، وذُو المحبةِ له.

وقوله: «ذُو الْعَرْشِ المَجِيدُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ذُو العرشِ الكريم.

وقوله: «فعَّالٌ لِما يُرِيدُ»، يقول: هو غفارٌ لذنوبِ مَنْ شاء من عبادِه إذا تابَ وأنابَ منها، معاقِبٌ مَنْ أصرَّ عليها وأقامَ، لا يمنعه مانعٌ، من فِعْلٍ أرادَ أنْ يفعله، ولا يحولُ بينه وبين ذلك حائلٌ، لأنَّ له مُلك السمواتِ والأرض، وهو العزيزُ الحكيم.

وقوله: «هَلْ أتاكَ حَدِيثُ الجُنُودِ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: هل جاءَكَ يا محمدُ حديثُ الجنودِ الذين تَجَنَّدُوا على اللهِ ورسولِه بأذاهم ومكروههم؛ يقول: قد أتاكَ ذلكَ وعلمته، فاصبرْ لأذى قومكَ إياكَ لما نالوكَ به من مكروهٍ كما صبرَ الذين تجند هؤلاء الجنودُ عليهم من رُسُلي، ولا يَثْنِيكَ عن تبليغهم رسالتي، كما لم يَثْنِ الذين أُرسلوا إلى هؤلاء، فإنَّ عاقبةَ مَنْ لم يُصَدِّقك ويؤمن بكَ منهم إلى عطبٍ وهلاك، كالذي كان من هؤلاء الجنود، ثم بَيَّنَ جلّ ثناؤه عن الجنود مَنْ هم فقال: «فِرْعَوْنَ وثَمُودَ»، يقول: فرعون، فاجتزئَ بذِكْرِه، إذْ كانَ رئيسُ جُنْدِهِ من ذِكْرِ جُنْدِهِ وتُبَّاعه، وإنما معنى الكلام: هل أتاكَ حديثُ الجنودِ، فرعون وقومه وثمود، وخفض فرعون ردّاً على الجنودِ على الترجمةِ عنهم، وإنما فَتَحَ لأنه لا يجري وثمود.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما بهؤلاءِ القومِ الذين يكذِّبونَ بوعيدِ الله أنهم لم

يأتِهم أنبـاءُ من قبلهم من الأممِ المكـذِّبـةِ رُسُلَ اللهِ كفرعونَ وقومِه، وثمود وأشكالِهم، وما أَحَلَّ اللهُ بهم من النِّقَمِ بتكذِيبِهم الرسلَ، ولكنهم في تكذيب بوحي اللهِ وتنـزيلِه إيثاراً منهم لأهوائهم، واتِّباعاً منهم لسننِ آبائهم «وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ» بأعمالِهم مُحْصٍ لها، لا يَخْفَى عليه منها شيءٌ، وهو مُجازِيهم على جميعها.

وقوله: «بَلْ هُوَ قُرآنٌ مَجِيدٌ»، يقول: تكذيباً منه جلَّ ثناؤه للقائلينَ للقرآنِ هو شعرٌ وسَجْعٌ: ما ذلكَ كذلكَ، بَلْ هو قرآنٌ كريم.

وقوله: «فِي لَوْحٍ مَحفُوظٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هو قرآنٌ كريمٌ مثبتٌ في لوحٍ محفوظ.

واختلفتِ القَرَأَةُ في قراءة قوله: «مَحْفُوظٍ» فقرأ ذلك مَنْ قرأه من أهلِ الحجاز أبو جعفر القارىء وابن كثير، ومن قرأه من قَرَأَةِ الكوفةِ عاصم والأعمش وحمزة والكسائي، ومن البصريين أبو عمرو: «محفوظٍ» خفضاً على معنى أنَّ اللوحَ هو المنعـوتُ بالحِفْظِ، وإذا كان ذلـك كذلك كان التأويل: في لوحٍ محفوظٍ من الزيادةِ فيه والنقصانِ منه عما أثبته اللهُ فيه. وقرأ ذلك من المكِّيين ابنُ مُحَيْصِن، ومن المدنيين نافع: «مَحْفُوظٌ» رفعاً ردّاً على القرآنِ، على أنه من نعتهِ وصِفَتهِ. وكأنَّ معنى ذلك على قراءتهما: بل هو قرآنٌ مجيدٌ، محفوظٌ من التغييرِ والتبديلِ في لوحٍ.

والصـوابُ من القـولِ في ذلك عندنا أنهما قراءتان معروفتان في قَرَأَةِ الأمصار صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيبٌ، وإذ كان ذلك كذلك، فبأيِّ القراءتين قرأ القارىء فتأويلُ القراءة التي يقرؤها على ما بيَّنا.

سُورَةُ الطَّارِق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾

أقسمَ رَبُّنـا بالسمـاءِ وبالطارقِ الذي يطرقُ ليلاً من النجومِ المضيئة، ويَخْفَى نهاراً، وكلُّ ما جاء ليلاً فقد طَرَقَ.

«ومَا أدْرَاكَ ما الطَّارِقُ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وما أشْعَرَكَ يا محمدُ ما الطارقُ الذي أقسمتُ به، ثم بَيَّنَ ذلك جلَّ ثناؤه، فقال: هو «النجمُ الثاقبُ»، يعني: يَتوقَّدُ ضِياؤهُ ويتوهَّج.

وقوله: «إنْ كُلُّ نفسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ»، اختلفتِ القَرَأةُ في قراءةِ ذلك، فقرأه من قَرَأة المدينة أبو جعفر، ومن قَرَأةِ الكوفةِ حمزة: «لَمَّا عَلَيْها» بتشديد الميم. وذُكِر عن الحسن أنه قرأ ذلك كذلك.

وقـرأ ذلـك من أهـل المـدينة نافع، ومن أهل البصرة أبو عمرو «لَمَا» بالتخفيف، بمعنى: إنْ كلُّ نفسٍ لَعَلَيها حافظٌ، وعلى أنَّ اللامَ جوابُ «إنْ»

و«ما» التي بعدها صِلَة. وإذا كان ذلك كذلك لم يكن فيه تشديد.

والقـراءةُ التي لا أختارُ غيرَها في ذلك التخفيف، لأنَّ ذلك هو الكلام المعروف من كلامِ العرب، وقد أنكرَ التشديدَ جماعةٌ من أهل المعرفة بكلامِ العرب أنْ يكونَ معروفاً من كلام العربِ، غير أنَّ الفرّاء[1] كان يقول: لا نعرفُ جهةَ التثقيلِ في ذلك، ونرى أنها لغةٌ في هذيل يجعلونَ إلا مع إن المخففة لما، ولا يجاوزونَ ذلك، كأنه قال: ما كُلُّ نفس إلاَّ عليها حافظٌ، فإنْ كان صحيحاً ما ذكرَ الفرّاءُ من أنها لغةُ هُذَيل فالقراءةُ بها جائزةٌ صحيحة، وإنْ كان الاختيار أيضاً إذا صَحَّ ذلك عندنا القراءة الأخرى وهي التخفيف، لأنَّ ذلك هو المعروف من كلامِ العربِ، ولا ينبغي أن يُتْرَكَ الأعرفُ إلى الأنكرِ.

فتأويل الكلام إذن: إنْ كُلُّ نفسٍ لَعَلَيْهَا حافظٌ من رَبِّها، يحفظُ عملها، ويُحصي عليها ما تكسبُ من خيرٍ أو شرّ.

وقوله: «فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلينظر الإنسانُ المكذِّبُ بالبعثِ بعد المماتِ، المُنكر قُدرةَ الله على إحيائهِ بعد مماته، «مِمَّ خُلِقَ؟»، يقول: من أيِّ شيءٍ خَلَقَهُ رَبُّهُ، ثم أخبر جلَّ ثناؤه عَمَّا خَلَقَهُ منه، فقال: «خُلِقَ مِنْ ماءٍ دَافِقٍ»، يعني: من ماءٍ مَدْفُوقٍ، وهو مما أُخرجَتْهُ العربُ بلفظِ فاعل، وهو بمعنى المفعول، ويقال: إنَّ أكثرَ مَنْ يستعملُ ذلك من أحياءِ العربِ سكانُ الحجاز إذا كان في مذهب النعتِ، كقولهم: هذا سِرٌّ كاتمٌ، وهَمٌّ ناصبٌ، ونحو ذلك.

وقوله: «يَخْرُجُ مِنْ بَينِ الصُّلْبِ والتَّرائِبِ»، يقول: يخرجُ من بينِ ذلكَ، ومعنى الكلام: منهما، كما يقال: سيخرجُ من بين هذينِ الشيئينَ خيرٌ كثيرٌ، بمعنى: يخرجُ منهما.

---

(١) معاني القرآن: ٣/٢٥٤.

واختلف أهلُ التأويل في معنى الترائبِ ومَوْضِعِهَا، فقال بعضهم: الترائبُ: موضعُ القِلادةِ من صَدْرِ المرأة.

وقال آخرون: الترائب: ما بين المَنْكِبَين والصدر.

وقال آخرون: هو اليدانِ والرجلانِ والعينانِ.

وقال آخرون: معنى ذلك، أنه يخرجُ من بين صُلْبِ الرجل ونَحْرِهِ.

وقال آخرون: هي الأضلاع التي أسفل الصُّلب.

وقال آخرون: هي عصارةُ القلب.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا قولُ مَنْ قال: هو موضعُ القِلادةِ من المرأةِ، حيث تقع عليه من صدرها، لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب، وبه جاءت أشعارهم.

وقوله: «إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذا الذي خلقكم أيها الناسُ من هذا الماءِ الدافق، فجعلكم بشراً سوياً، بعد أنْ كنتم ماء مدفوقاً، على رَجْعِهِ لقادر.

وقوله: «على رَجْعِهِ لقادر»، معناه: إنَّ الله على ردِّ الإنسانِ المخلوقِ من ماء دافقٍ من بعدِ مماتِهِ حياً، كهيئتِهِ قبلَ مماتِهِ، لقادرٌ.

وإنما قلتُ هذا لقولِهِ: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ» فكان في إتْبَاعِهِ قوله: «إِنَّهُ على رجعِهِ لَقَادِرٌ» نبأ من أنباءِ القيامةِ، دلالة على أنَّ السابقَ قبلها أيضاً منه، ومنه: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنه على إحيائِهِ بعد مماتِهِ لقادرٌ يوم تُبلى السرائر؛ فاليوم من صفة الرَّجْعِ، لأن المعنى: إنه على رجعه يومَ تُبْلى السرائرُ لقادرٌ.

وعُنِي بقوله: «يَوْمَ تُبْلى السَّرائِرُ»، يوم تُخْتَبرُ سرائرُ العبادِ، فيظهرُ منها يومئذٍ ما كانَ في الدنيا مُسْتَخْفِياً عن أعينِ العبادِ من الفرائضِ التي كان اللهُ ألزمَهُ إياها، وكلَّفَهُ العملَ بها.

وقوله: «فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ ولا ناصِرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فما للإنسانِ الكافرِ يومئذٍ من قوّةٍ يمتنعُ بها من عذابِ الله، وأليمِ نكالِه، ولا ناصرٍ ينصرُه فيستنقذُهُ مِمَّنْ نالَهُ بمكروهٍ، وقد كان في الدنيا يرجعُ إلى قوّةٍ من عشيرتِه، يمتنعُ بهم ممن أرادَهُ بسوءٍ، وناصرٍ من حليفٍ ينصرُه على مَنْ ظَلَمَهُ واضطهده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «والسَّماءِ ذَاتِ الرَّجْعِ» تَرْجِعُ بالغيومِ وأرزاقِ العبادِ كلَّ عام.

وقوله: «والأرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والأرضِ ذاتِ الصدعِ بالنباتِ.

وقوله: «إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذا القولَ وهذا الخبرَ «لقولٌ فصلٌ»: يقول: لقولٌ يفصلُ بين الحقِّ والباطلِ ببيانِه.

وقوله: «ومَا هُوَ بالهَزْلِ»، يقول: وما هو باللعبِ ولا الباطلِ.

وقوله: «إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هؤلاء المكذّبينَ باللهِ ورسولِه والوعدِ والوعيدِ يمكرونَ مكراً.

وقوله: «وأكِيدُ كَيْداً»، يقول: وأمكرُ مَكْراً؛ ومكرهُ جلَّ ثناؤه بهم: إملاؤه إياهم على معصيتهِم وكُفْرِهم به.

وقـوله: «فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فَمَهِّلْ يا محمدُ الكافرينَ ولا تَعْجَلْ عليهم «أمْهِلْهُمْ رُوَيْداً»، يقول: أمهلهم آناً قليلاً، وأنْظِرْهُمْ للوعدِ الذي هو وقتُ حلولِ النقمةِ بهم.

سُورَةُ الأَعْلَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢
وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ
فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾

اختلف اهلُ التأويلِ في تأويلِ قوله: «سَبِّحِ اسْمِ رَبِّكَ الأَعْلَى»، فقال بعضهم: معناه: عَظِّمْ رَبَّكَ الأعلى، لا ربَّ أعلى منه وأعظم. وكان بعضُهم إذا قرأ ذلك قال: سبحانَ ربيَ الأعلى

وقال آخرون: بل معنى ذلك: نَزِّهْ يا محمدُ اسمَ رَبِّكَ الأعلى، أنْ تسمي به شيئاً سواه، ينهاهُ بذلك ان يفعلَ ما فعلَ من ذلك المشركونَ مِنْ تَسميتهم آلهتَهُمْ بعضَها اللات، وبعضها العُزَّى.

وقال غيرهم: بل معنى ذلك: نَزِّهِ اللهَ عَمَّا يقولُ فيه المشركونَ كما قال: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيرِ عِلْمٍ» [الأنعام: ١٠٨]، وقالوا: معنى ذلك: سَبِّحْ رَبَّكَ الأعلى؛ قالوا: وليس الاسمُ معنياً.

وقال آخرون: نَزِّهْ تسميتكَ يا محمدُ رَبَّكَ الأعلى وذِكْرِكَ إياهُ أنْ تَذْكُرَهُ

إلا وأنتَ له خاشعٌ مُتَذَلِّلٌ، قالوا: وإنما عُنِي بالاسم: التسمية، ولكن وُضعَ الاسمُ مكانَ المصدر.

وقال آخرون: معنى قوله: «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلى»: صَلِّ بذكرِ رَبِّك يا محمد، يعني بذلك: صلِّ وأنتَ له ذاكرٌ، ومنه وَجِلٌ خائف.

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معناه: نَزِّهْ اسمَ رَبِّكَ أنْ تدعو به الآلهةَ والأوثانَ، لما ذُكِرَ من الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ، وعن الصحابةِ أنهم كانوا إذا قرؤوا ذلك قالوا: سبحان ربي الأعلى[١]، فبيَّنَ بذلك أنَّ معناه كان عندهم معلوم: عَظِّمْ اسمَ ربك ونَزِّهْهُ.

وقوله: «الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى»، يقول: الذي خلقَ الأشياءَ فسوَّى خَلْقَها، وعَدَّلَها، والتسويةُ: التعديلُ.

وقوله: «وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذي قَدَّرَ خَلْقَهُ فهدى.

واختلف أهلُ التأويلِ في المعنى الذي عُني بقوله: «فَهَدَى»، فقال بعضهم: هدى الإنسانَ لسبيلِ الخيرِ والشرِّ، والبهائمَ للمراتعِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: هدى الذكورَ لمأْتى الإناثِ.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أنَّ الله عَمَّ بقوله: «فَهَدَى» الخبر عن هدايتِهِ خَلْقَهُ، ولم يخصصْ من ذلك معنى دون معنى، وقد هداهم لسبيلِ الخيرِ والشرِّ، وهدى الذكورَ لمأتى الإناثِ، فالخبرُ على عمومِهِ حتى يأتي خبرٌ تقومُ به الحجةُ، دالّ على خُصُوصِه.

وقوله: «وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى»، يقول: والذي أخرجَ من الأرضِ مرعى الأنعامِ من صنوفِ النباتِ وأنواعِ الحشيش.

---

(١) لم يثبت فيه حديث عن النبي ﷺ، ولكن ثبت عن بعضِ الصحابة منهم: علي وابن عباس رضي الله عنهم.

وقوله: «فَجَعَلَهُ غُثاءً أحْوَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: فجعلَ ذلك المرعى غُثاءً، وهو ماجَفَّ من النباتِ ويَبِسَ، فطارتْ به الريحُ، وإنما عُني به هاهنا أنه جعله هشيماً يابساً متغيراً إلى الحُوَّةِ، وهي السواد من بعدِ البياضِ أو الخُضْرةِ، من شدّةِ اليبس.

وقوله: «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى إلا ما شاءَ اللهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: سنقرئك يا محمدُ هذا القرآنَ فلا تنساهُ إلا ما شاء الله.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في معنى قوله: «فَلا تَنْسَى إلَّا ما شاءَ اللهُ» فقال بعضهم: هذا إخبارٌ من الله نبيه عليه الصلاة والسلام أنه يُعَلِّمُه هذا القرآنَ، ويحفظه عليه، ونهيٌ منه أنْ يعجلَ بقراءته، كما قال جلّ ثناؤه: «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وقُرآنَهُ». [القيامة: ١٦ - ١٧]، فقال قائلو هذه المقالة: معنى الاستثناء في هذا الموضع على النسيانِ، ومعنى الكلام: فلا تَنْسى، إلا ما شاءَ اللهُ أنْ تنساه، ولا تذكُرَهُ، قالوا: ذلك هو ما نَسَخَهُ اللهُ من القرآنِ، فرفع حُكْمَهُ وتلاوته.

وقال آخرون: معنى النسيان في هذا الموضع: الترك؛ وقالوا: معنى الكلام: سنقرئك يا محمدُ فلا تترك العمل بشيءٍ منه، إلا ما شاء الله أنْ تتركَ العملَ به مما ننسخه.

والقولُ الذي هو أولى بالصوابِ عندي قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: فلا تنسى إلا أنْ نشاء نحنُ أنْ نُنْسِيكَهُ بنسخهِ ورفعه. وإنما قلنا ذلك أوْلى بالصواب، لأنَّ ذلك أظهر معانيه.

وقوله: «إنَّهُ يَعْلَمُ الجهْرَ وَمَا يَخْفَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله يعلمُ الجهرَ يا محمدُ من عملكَ ما أظْهَرْتَهُ وأعْلَنْتَهُ «وَمَا يَخْفَى»، يقول: وما يخفى منه فلم تُظْهِرْهُ مما كتمتَهُ، يقول: هو يعلمُ جميعَ أعمالكَ سِرَّها وعلانيتها؛

يقول: فاحْذَرْهُ أنْ يَطَّلِعَ عليكَ وأنتَ عاملٌ في حالٍ من أحوالكَ بغيرِ الذي أذِنَ لكَ به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾

يقـول تعـالى ذكـره: ونُسَهِّلُكَ يا محمـدُ لعمـلِ الخيرِ وهـو اليُسرَى، واليُسرَى: هو الفُعْلى من اليسر.

وقـوله: «فَذَكِّرْ إنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: فذكِّرْ عبادَ اللهِ يا محمدُ عَظَمَتَهُ، وعِظْهُمْ، وحَذِّرْهُمْ عقوبتَهُ «إنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى»، يقول: إنْ نفعتِ الـذكرى الذينَ قد آيستُكَ من إيمانِهم، فلا تنفعهم الذكرى. وقوله: «فَذَكِّرْ» أمرٌ من اللهِ لنبيهِ ﷺ بتذكيرِ جميعِ الناسِ، ثم قال: إنْ نفعتِ الذِّكرى هؤلاءِ الذينَ قد آيستكَ من إيمانهم.

وقوله: «سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى»، يقول جلّ ثناؤه: سيذَّكَّرُ يا محمدُ إذا ذَكَّرْتَ الـذينَ أمـرتُكَ بتذكيرهم مَنْ يخشى اللهَ، ويخاف عقابه «ويَتَجَنَّبُهَا»، يقول: ويتجنَّبِ الـذِّكـرى «الأشْقَى» يعني: أشقى الفـريقين «الَّـذِي يَصْلَى النَّـارَ الكُبْرَى»، وهم الذين لم تنفعهم الذكرى.

وقوله: «الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى»، يقول: الذي يَرِدُ نارَ جهنم، وهي النارُ الكبرى، ويعني بالكبرى لشدّةِ الحرِّ والألم.

وقوله: «ثمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيا»، يقول: ثم لا يموتُ في النارِ الكبرى ولا يحيا، وذلـك أن نَفْسَ أحـدِهم تصيرُ فيها في حَلْقِه، فلا تخرج فَتُفَارِقه

فيموت، ولا ترجع إلى مَوْضِعِهَا من الجسمِ فيحيَا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾

يقولُ تعالى ذِكْرُه: قد نجحَ وأدركَ طَلِبتَهُ مَنْ تَطَهَّرَ من الكفرِ ومعاصي اللهِ، وعملَ بما أمرَهُ اللهُ به، فأدَّى فرائضه.

وقوله: «وذكرَ اسمَ ربِّهِ»، معناه: وذَكَرَ اللهَ فَوَحَّدَهُ، ودعاهُ إليه، ورغَّبَ، لأنَّ كُلَّ ذلك من ذِكْرِ الله، ولم يخصُصِ الله تعالى من ذكرِهِ نوعاً دونَ نوعٍ.

وعنى بقوله: «فصَلَّى»: الصلوات، وذكرَ اللهَ فيها بالتحميدِ والتمجيدِ والدعاء.

وقوله: «بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا»، يقول للناسِ: بل تُؤثِرونَ أيها الناسُ زينةَ الحياةِ الدنيا على الآخرةِ. «والآخرة خيْرٌ» لكم «وأبْقَى»، يقول: وزينةُ الآخرةِ خيرٌ لكم أيها الناسُ وأبقى، لأنَّ الحياةَ الدنيا فانيةٌ، والآخرةَ باقيةٌ، لا تنفَدُ ولا تفنى.

وقوله: «إنَّ هذا لَفِي الصُّحف الأولى»، معناه: إن قوله: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى. بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا، والآخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقَى» لفي الصُّحُفِ الأولى. صُحُفِ إبراهيمَ خليلِ الرحمنِ، وصحفِ موسى بن عمران.

وإنما قلتُ ذلك لأنَّ هذا إشارةٌ إلى حاضر، فَلأَنْ يكونَ إشارةً إلى ما قَرُبَ منها، أوْلى من أن يكون إشارةً إلى غيرِهِ. وأما الصحفُ: فإنها جمعُ صحيفةٍ، وإنما عُني بها: كتب إبراهيم وموسى.

سُورَةُ الغَاشِيَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «هَلْ أتاكَ» يا محمدُ «حَدِيثُ الْغاشِيَةِ»، يعنيّ: قصتها وخبرها.

واختلف أهلُ التأويل في معنى الغاشية، فقال بعضهم: هي القيامةُ تَغْشَى الناسَ بالأهوال.

وقال آخرون: بل الغاشية: النارُ تَغْشَى وجوهَ الكَفَرةِ.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنَّ الله قال لنبيه ﷺ: «هَلْ أتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ» لم يخبرنا أنه عَنَى غاشيةَ القيامةِ، ولا أنه عَنَى غاشيةَ النار، وكِلْتاهُمَا غاشية، هذه تَغْشَى الناسَ بالبلاءِ والأهوالِ والكروبِ، وهذه تغشى الكفارَ باللَّفْحِ في الوجوهِ، والشُّواظِ والنحاسِ، فلا قولَ في ذلك أصحّ من أنْ يقالَ كما قالَ جلّ ثناؤه: ويعمَّ الخبر بذلك كما عَمَّهُ.

وقوله: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: «وجوهٌ يومئذٍ»، وهي وجوهُ أهلِ الكفر، «خاشعة»، يقول: ذليلةٌ.

وقوله: «عامِلَةٌ»، يعني: عاملةٌ في النار.

وقوله: «ناصِبَةٌ»، يقول: ناصبةٌ فيها.

وقوله: «تَصْلَى ناراً حامِيَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: تَرِدُ هذه الوجوهُ ناراً حاميةً قد حَمِيَتْ واشتدَّ حَرُّهَا.

وقوله: «تُسْقَى مِن عَينٍ آنِيَةٍ»، يقول: تُسْقَى أصحابُ هذه الوجوهِ من شَرابِ عينٍ قد أَنَى حَرُّهَا، فبلغَ غايتَهُ في شدةِ الحرِّ.

وقوله: «لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلَّا مِنْ ضَرِيعٍ»، يقول: ليس لهؤلاء الذين هم أصحابُ الخاشعةِ العاملةِ الناصبةِ يومَ القيامةِ طعامٌ، إلا ما يَطْعَمُونَهُ من ضَريعٍ. والضريعُ عند العرب: نبتٌ يُقال له الشِّبْرِق، وتسميه أهلُ الحجازِ الضَّرِيع إذا يَبِسَ، ويسميه غيرهم: الشِّبْرِق، وهو سُمٌّ.

وقوله: «لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ»، يقول: لا يُسمنُ هذا الضريعُ يومَ القيامةِ أَكَلَتَهُ من أهلِ النارِ، ولا يُغني من جُوعٍ: يقول: ولا يُشبِعُهم من جُوعٍ يصيبهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ»، يعني: يومَ القيامة «ناعِمَةٌ»، يقول: هي ناعمةٌ بتنعيمِ الله أهلها في جناته، وهم أهلُ الإيمان بالله.

وقوله: «لِسَعْيِها راضِيَةٌ»، يقول: لِعَمَلِهَا الذي عَمِلَتْ في الدنيا من طاعةِ رَبِّها راضيةٌ، وقيل: «لِسَعْيِها راضِيَةٌ»، والمعنى: لثوابِ سَعْيِها في الآخرةِ

راضية.

وقوله: «فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ»، وهي بستان، «عالية»، يعني: رفيعة.

وقوله: «لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً»، يقول: لا تسمعُ هذه الوجوهُ، المعني لأهلها فيها في الجنة العاليةِ «لاغية»، يعني باللاغية: كلمة لغو. واللَّغو: الباطلُ، فقيل للكلمةِ التي هي لغوٌ لاغيةٌ، كما قيلَ لصاحبِ الدرع: دَارِعٌ، ولصاحبِ الفرس: فارسٌ، ولقائل الشعر شاعر.

وقوله: «فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ»، يقول: في الجنةِ العاليةِ عينٌ جاريةٌ في غيرِ أُخدود.

وقوله: «فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ»، والسُّرُرُ: جمع سريرٍ، مرفوعةٌ ليرى المؤمنُ إذا جلسَ عليها جميعَ ما خَوَّلَهُ رَبُّه من النعيمِ والملكِ فيها، ويلحق جميع ذلك بصره.

وقوله: «وأكوابٌ مَوْضُوعَةٌ»، وهي جمع كُوبٍ، وهي الأباريقُ التيَ لا آذانَ لها.

وعُنِي بقوله: «مَوْضُوعَةٌ»: أنها موضوعةٌ على حافَّةِ العينِ الجاريةِ، كلما أرادوا الشربَ وجدوها ملأى من الشرابِ.

وقوله: «ونَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ»، يعني بالنمارق: الوسائد والمرافق، والنمارق: واحدها نُمْرُقَةٌ بضم النون.

وقوله: «وَزَرابِي مَبْثُوثَةٌ»، يقول تعالى ذكره: وفيها طنافسُ وبُسُطٌ كثيرةٌ مبثوثةٌ مفروشةٌ، والواحدةُ: زِرْبية. وهي الطِّنفسةُ التي لها خَمَلٌ رقيق.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠﴾ ١٧

يقول تعالى ذِكرُه لمُنكري قُدْرَتِه على ما وصفَ في هذه السورة من العقابِ والنكالِ الذي أعَدَّهُ لأهلِ عداوته، والنعيمِ والكرامةِ التي أعدّها لأهلِ ولايتهِ، أفلا يَنْظُرْ هؤلاء المنكرونَ قُدرةَ الله على هذه الأمورِ، إلى الإبلِ كيف خلقَها وسَخَّرها لهم وذَلَّلها وجَعَلَها تحملُ حملها باركةً، ثم تنهض به، والذي خلقَ ذلك غير عزيزٍ عليه أنْ يخلقَ ما وصفَ من هذه الأمورِ في الجنةِ والنار، يقول جلّ ثناؤه: أفلا ينظرونَ إلى الإبلِ فيعتبرونَ بها، ويعلمونَ أنَّ القُدرةَ التي قدر بها على خَلْقِهَا، لن يُعجزه خَلْقُ ما شابهها.

وقوله: «وَإِلى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ»، يقول جلّ ثناؤه: أفلا ينظرونَ أيضاً إلى السماءِ كيفَ رَفَعَها الذي أخبركم أنه معِدٌّ لأوليائهِ ما وصَفَ، ولأعدائهِ ماذكر، فيعلموا أنَّ قُدْرَتَهُ القدرةُ التي لا يُعجِزُهُ فعلُ شيءٍ أرادَ فِعْله.

وقوله: «وَإِلى الجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ»، يقول: وإلى الجبالِ كيف أُقيمتْ منتصبةً لا تسقطُ، فتنبسطُ في الأرضِ، ولكنها جعلها بقدرته منتصبةً جامدة، لا تبرحُ مكانها، ولا تزولُ عن موضعها.

وقوله: «وَإِلى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ»، يقول: وإلى الأرضِ كيف بُسطت، يقال: جبل مُسَطَّحٌ إذا كان في أعلاه استواء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «فَذَكِّرْ» يا محمدُ عبادي بآياتي، وعِظْهُمْ بحججي وبلِّغْهُمْ رسالتي «إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ»، يقول: إنما أرسلتُك إليهم مُذَكِّراً لتذكِّرَهُمْ نعمتي عندهم، وتُعرِّفَهُمْ اللازمَ لهم، وتَعِظَهُمْ.

وقوله: «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ»، يقول: لستَ عليهم بمسلِّطٍ، ولا أنتَ بجبارٍ تَحْمِلُهم على ما تريدُ يقول: كِلْهُمْ إليَّ، ودَعْهُمْ لي وحكمي فيهم؛ يقال: قد تَسَيْطَرَ فلانٌ على قومِهِ: إذا تسلَّطَ عليهم.

وقوله: «إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ» يتوجَّه لوجهين: أحدهما: فَذَكِّرْ قومكَ يا محمدُ، إلا مَنْ تولَّى منهم عنكَ، وأَعْرَضَ عن آياتِ اللهِ فكفرَ، فيكون قوله: «إلا» استثناء من الذين كان التذكيرُ عليهم، وإنْ لم يُذَكَّرُوا، كما يقال: مضى فلان، فدعا إلا مَنْ لا تُرْجَى إجابتهُ، بمعنى: فدعا الناس إلا مَنْ لا تُرجى إجابته. والوجه الثاني: أن يجعل قوله: «إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ» منقطعاً عَمَّا قَبْلَهُ، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: لستَ عليهم بمسيطرٍ، إلا مَنْ تولى وكفرَ، يُعَذِّبه اللهُ، وكذلك الاستثناء المنقطع يمتحن بأن يحسن معه إنَّ، فإذا حسنت معه كان منقطعاً، وإذا لم تحسن كان استثناء متصلاً صحيحاً، كقولِ القائل: سار القومُ إلا زيداً، ولا يصلحُ دخول إن هاهنا لأنه استثناء صحيح.

وقوله: «فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ»: هو عذابُ جهنم، يقول: فيعذِّبُهُ اللهُ العذابَ الأكبر على كفرِه في الدنيا، وعذابَ جهنمَ في الآخرة.

وقوله: «إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ»، يقول: إنَّ إلينا رجوعَ مَنْ كفرَ ومَعَادهم. «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ»، يقول: ثم إنَّ على اللهِ حسابه، وهو يُجازيهِ بما سَلَفَ منه من معصيةِ رَبِّه، يُعْلِمُ بذلك نبيه محمداً ﷺ أنه المتولِّي عقوبته دونه، وهو المجازي والمعاقبُ، وأنه الذي إليه التذكيرُ وتبليغُ الرسالة.

سُورَةُ الفَجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾

هذا قَسَمٌ، أقسمَ رَبُّنا جلَّ ثناؤه بالفجرِ، وهو فجرُ الصبح.

وقوله: «وَلَيَالٍ عَشْرٍ»، هي ليالي عَشْرِ ذي الحجة، لإجماع الحُجَّةِ من أهلِ التأويلِ عليه.

وقوله: «والشَّفْعِ والْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إذَا يَسْرِ، هَلْ فِي ذلكَ قَسَمٌ»، اختلف أهلُ التأويلِ في الذي عُني به من الوترِ بقوله: «والْوَتْرِ»، فقال بعضهم: الشفع: يومُ النحرِ، والوترُ: يومُ عرفة.

وقال آخرون: الشفع: اليومانِ بعدَ يومِ النحرِ، والوَتر: اليومُ الثالث.

وقال آخرون: الشفع: الخَلْقُ كله، والوتر: الله.

وقال آخرون: بل ذلك: الصلاةُ المكتوبةُ، منها الشفعُ كصلاةِ الفجرِ والظهرِ، ومنها الوترُ كصلاةِ المغرب.

والصوابُ من القولِ في ذلك أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أقسم بالشفعِ والوترِ، ولم يخصصْ نوعاً من الشفعِ ولا من الوتر دونَ نوعٍ بخبرٍ ولا عقلٍ،

وكلُّ شفعٍ ووترٍ فهو مما أقسمَ به مما قالَ أهلُ التأويلِ أنه داخلٌ في قسمهِ هذا لعمومِ قَسَمِه بذلك.

وقوله: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ»، يقول: والليلِ إذا سارَ فذهبَ، يقال منه: سرى فلان ليلاً يَسْرِي: إذا سارَ.

وقوله: «هَلْ فِي ذلكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هل فيما أقسمتُ به من هذه الأمورِ مَقْنعٌ لذي حِجْرٍ. وإنما عُنِي بذلك: أن في هذا القسم مُكْتَفًى لمن عَقَلَ عن رَبِّه مما هو أغلظ منه في الإقسام، فأما معنى قوله: «لِذي حِجْرٍ»: فإنه لِذي حِجًى وذِي عقلٍ؛ يقالُ للرجلِ إذا كان مالكاً نفسَهُ قاهراً لها ضابطاً: إنه لذو حِجْرٍ، ومنه قولهم: حَجَر الحاكمُ على فلان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١﴾

وقوله: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ. إرَمَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تنظرْ يا محمدُ بعينِ قلبكَ، فترى كيف فعلَ ربُّكَ بعادٍ؟

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «إرَمَ» فقال بعضُهم: هي اسم بلدة.

وقال آخرون: عُنِي بقوله: «إرَمَ»: أمة.

وقال آخرون: معنى ذلك: القديمة.

وقال آخرون: تلك قبيلة من عاد.

وقال آخرون: «إرم»: الهالك.

وأشبهُ الأقوالِ فيه بالصوابِ عندي أنها اسمُ قبيلةٍ من عاد، ولذلك جاءت القراءةُ بتركِ إضافةِ عادٍ إليها، وتركِ إجرائها، كما يقال: ألم ترَ ما فعلَ ربُّكَ بتميمِ نهشلٍ؟ فيتركُ إجراء نهشل، وهي قبيلة، فتركُ إجراؤها لذلك، وهي في موضعِ خفضٍ بالردِّ على تميم، ولو كانت إرم اسم بلدة أو اسم جدٍّ لعادٍ لجاءتِ القراءةُ بإضافةِ عادٍ إليها، كما يقال: هذا عمرُو زبيدٍ، وحاتمُ طيىء، وأعشى هَمْدانَ، ولكنها اسم قبيلة منها فيما أرى، والله أعلم. فلذلك أجمعت القَرَأةُ فيها على تركِ الإضافةِ وتركِ الأجراء.

وقوله: «ذَاتِ الْعِمادِ» اختلف أهلُ التأويلِ في معنى قوله: «ذَاتِ الْعِمادِ» في هذا الموضع، فقال بعضُهم: معناه: ذاتُ الطُّوْلِ، وذهبوا في ذلك إلى قولِ العربِ للرجلِ الطويلِ: رجلٌ مُعَمَّدٌ وقالوا: كانوا طُوالَ الأجسامِ.

وقال بعضهم: بل قيل لهم: «ذَاتِ الْعِمادِ» لأنهم كانوا أهل عَمَدٍ، ينتجعونَ الغيوثَ، وينتقلونَ إلى الكلإِ حيثُ كانَ، ثم يرجعونَ إلى منازلهم.

وقال آخرون: بل قيل ذلك لهم لبناءٍ بَنَاهُ بعضُهم، فشيَّدَ عَمَده، ورفعَ بناءه.

وقال آخرون: قيل ذلك لهم لشدّةِ أبدانِهم وقُواهم.

وأشبه الأقوالِ في ذلك بما دلَّ عليه ظاهرُ التنزيلِ قولُ مَنْ قال: عُنِي بذلك أنهم كانوا أهلَ عمودٍ، سيارة لأنَّ المعروفَ في كلامِ العرب من العِمادِ، ما عُمِلَ به الخيامُ من الخشبِ السواري التي يُحْمَلُ عليها البناء، ولا يُعْلَمُ بناءٌ كان لهم بالعمادِ بخبرٍ صحيح، بل وَجَّهَ أهلُ التأويل قوله: «ذَاتِ الْعِمادِ» إلى أنه عُني به طولُ أجسامهم، وبعضُهم إلى أنه عُني به عمادُ خِيامهم، فأما عمادُ البنيان، فلا يعلمُ كثيرُ أحدٍ من أهلِ التأويل وجَّهَهُ إليه، وتأويلُ القرآن إنما يُوجَّهُ

إلى الأغلبِ الأشهرِ من معانيهِ ما وُجِدَ إلى ذلك سبيلٌ دونَ الأنكرِ.

وقوله: «الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ»، يقول جلّ ثناؤه: ألم تَرَ كيف فعلَ رَبُّكَ بعادٍ، إرمِ التي لم يُخْلَقْ مثلها في البلاد، يعني: مثلَ عادٍ، والهاء عائدةٌ على عاد. وجائزٌ أنْ تكونَ عائدةً على إرم لما قد بَيَّنَّا قَبْلُ أنها قبيلةٌ. وإنما عُنِي بقوله: لم يُخْلَقْ مِثْلُهَا في العِظَمِ والبطشِ والأيد.

وقوله: «وثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بالوادِ»، يقول: وبثمودَ الذين خَرَقُوا الصخرَ ودخلوهُ فاتَّخَذُوه بيوتاً، كما قال جلّ ثناؤه: «وكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ» [الحجر: ٨٢] والعربُ تقول: جابَ فلانٌ الفلاةَ يجوبُهَا جوباً: إذا دَخَلها وقطعها.

وقوله: «وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتادِ»، يقول جلّ ثناؤه: ألم تَرَ كيفَ فعلَ رَبُّكَ أيضاً بفرعونَ صاحبِ الأوتاد.

ومعنى قوله: «ذي الأوتاد»: الأوتاد التي تُوتَدُ من خشبٍ كانتْ أو حديدٍ، لأنَّ ذلك هو المعروفُ من معاني الأوتاد، ووُصِفَ بذلك لأنه إما أنْ يكون كان يُعذِّبُ الناسَ بها، وإما أنْ يكونَ كان يُلْعَبُ له بها.

وقـوله: «الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ»، يعني بقوله جلّ ثناؤه: «الذين» عاداً وثمـود وفرعون وجُنْدِه، ويعني بقوله: «طَغَوا»: تجاوزوا ما أباحَهُ لهم رَبُّهم، وعَتَوْا على رَبِّهم إلى ما حَظَرَهُ عليهم من الكفرِ به. وقوله: «فِي الْبِلادِ»: التي كانوا فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأكثروا في البلادِ المعاصيَ، وركوبَ ما حَرَّمَ اللهُ عليهم «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأنزلَ بهم يا محمدُ رَبُّكَ عذابَهُ، وأحَلَّ بهم نقمته، بما أفسدوا في البلادِ، وطَغَوْا على الله فيها. وقيل: «فصبَّ عليهم ربك سَوط عذاب» وإنما كانت نِقَماً تنزلُ بهم؛ إما ريحاً تُدَمِّرُهُمْ، وإما رَجفاً يُدَمْدِمُ عليهم، وإما غَرَقاً يُهلكهم من غير ضربٍ بسوطٍ ولا عصا، لأنه كان من أليمِ عذابِ القومِ الذين خُوطِبُوا بهذا القرآنِ، الجلدُ بالسياطِ، فكثر استعمالُ القومِ الخبرَ عن شدّةِ العذابِ الذي يُعَذَّبُ به الرجلُ منهم أن يقولوا: ضُرِبَ فلانٌ حتى بالسياطِ، إلى أنْ صار ذلك مثلاً، فاستعملوه في كلّ مُعَذَّبٍ بنوعٍ من العذابِ شديد، وقالوا: صَبَّ عليه سَوطَ عذاب.

وقوله: «إنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّ رَبَّكَ يا محمدُ لهؤلاء الذين قَصَصْتُ عليكَ قَصَصَهم، ولِضُرَبائهم من أهلِ الكفرِ، لَبِالْمِرْصَادِ يَرْصُدُهم بأعمالِهم في الدنيا وفي الآخرة، على قناطر جهنم، ليكردِسَهُمْ فيها إذا وَرَدُوهَا يومَ القيامة.

وقوله: «فأمَّا الإنْسانُ إذَا ما ابْتَلاهُ رَبُّهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأما الإنسان إذا ما امتحنه رَبُّهُ بالنعمِ والغنى، «فأكْرَمَهُ» بالمالِ، وأفضلَ عليه، «وَنَعَّمَهُ» بما أوسعَ عليه من فَضْلِه «فَيَقُولُ: رَبِّي أكْرَمَنِ»، فيفرحُ بذلك ويُسَرُّ به ويقول: ربي أكرمني بهذه الكرامةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾

قوله: «وأما إذَا ما ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ»، يقول: وأما إذا ما امْتَحَنَهُ رَبُّهُ بالفقرِ «فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزقَهُ»، يقول: فضيَّقَ عليه رِزْقَهُ وقَتَّره، فلم يكثر ماله، ولم يُوسِّعْ عليه «فَيَقُولُ رَبِّي أهانَنِ»، يقول: فيقولُ ذلك الإنسانُ: ربي أهانني، يقول: أذَلَّني بالفقرِ، ولم يشكر الله على ماوَهَبَ له من سلامةِ جوارحِهِ، ورَزَقَهُ من العافيةِ في جسمه.

وقوله: «كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيم»، اختلف أهلُ التأويلِ في المعنيِّ بقوله: «كَلَّا» في هذا الموضع، وما الذي أنكر بذلك، فقال بعضُهم: أنكر جلّ ثناؤه أنْ يكون سببَ كرامتهِ مَنْ أكرمَ كثرةُ مالهِ، وسببَ إهانتهِ مَنْ أهان قِلَّةُ مالهِ.

وقال آخرون: بل أنكر جَلَّ ثناؤه حَمْدَ الإنسانِ رَبَّهُ على نِعمهِ دون فَقْرِهِ، وشكواه الفاقة، وقالوا: معنى الكلام: كلا، أي لم يَكُنْ ينبغي أنْ يكون هكذا، ولكن كان ينبغي أن يحمده على الأمرين جميعاً: على الغنى والفقر.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصواب القولُ الأولُ لدلالةِ قوله: «بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ» والآيات التي بعدها، على أنه إنما أهانَ مَنْ أهانَ بأنه لا يكرمُ اليتيمَ، ولا يَحُضُّ على طعامِ المسكينِ، وسائر المعاني التي عَدَّدَ، وفي إبانته عن السببِ الذي من أجله أهانَ مَنْ أهان، الدلالةُ الواضحةُ على سببِ تكريمهِ مَنْ أكرمَ، وفي تَبْيينهِ ذلك عقيبَ قولهِ: «فأمَّا الإنْسانُ إذَا ما ابْتَلاهُ رَبُّهُ فأكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أكْرَمَنِي، وأمَّا إذَا ما ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أهانَنِي» بيانٌ واضحٌ عن الذي أنكرَ من قوله ما وصفنا.

وقوله: «بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بل إنما أَهَنْتُ من أهَنتُ من أجلِ أنه لا يكرمُ اليتيمَ، فأخرجَ الكلامَ على الخطابِ، فقال: بل لستم تُكْرمونَ اليتيمَ، فلذلك أهنتُكم «وَلا تَحاضُّونَ عَلى طَعامِ المِسْكِينِ»، يقول: ولا يحضُّ بعضُكم بعضاً على طعامِ المسكين.

وقوله: «وتَأكُلُونَ التُّرَاثَ أكْلًا لمًّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وتأكلونَ أيها الناسُ الميراثَ أكلًا لمًّا، يعني: إكلًا شديداً لا تتركونَ منه شيئاً، وهو من قولهم: لَممتُ ما على الخِوانِ أجمع، فأنا ألمهُ لمًّا: إذا أكلتُ ما عليه فأتيتُ على جميعِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبًّا جَمًّا» وتحبون جمعَ المالِ أيها الناسُ واقتناءَهُ حباً كثيراً شديداً، من قولهم: قد جَمَّ الماءُ في الحوضِ: إذا اجتمعَ.

ويعني جلّ ثناؤه بقوله: «كَلَّا»: ما هكذا ينبغي أنْ يكونَ الأمرُ، ثم أخبر جلّ ثناؤه عن نَدَمِهم على أفعالِهم السيئة في الدنيا، وتلهُّفِهم على ما سَلَفَ منهم حين لا ينفعُهُم النـدمُ، فقال جلّ ثناؤه: «إذا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا»، يعني: إذا رُجَّتْ وزُلزلت زلزلةً، وحُرِّكَتْ تحريكاً بعدَ تحريك.

وقوله: «وَجاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفا صَفًّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا جاء رَبُّكَ يا محمدُ وأملاكُه صفوفاً، صَفًّا بعدَ صفٍّ.

وقوله: «وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَمَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجاء اللهُ يومئذٍ بجهنمَ.

وقوله: «يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنْسانُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يومئذٍ يتذكرُ الإنسانُ تفريطَهُ في الدنيا في طاعةِ اللهِ، وفيما يُقرِّبُ إليه من صالحِ الأعمالِ، «وأنَّى لَهُ الذِّكْرَى»، يقول: من أيِّ وجهٍ له التذكيرُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ

لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ
إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

وقوله: «ياليْتني قَدَّمْتُ لحِيَاتِي»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن تلهُّفِ ابنِ آدمَ يومَ القيامةِ، وتَنَدُّمَهُ على تفريطِه في الصَّالِحات من الأعمالِ في الدنيا التي تُورثُه بقاءَ الأبدِ في نعيمٍ لا انقطاعَ له، يا ليتني قدمتُ لحياتي في الدنيا من صالحِ الأعمالِ لحياتي هذهِ، التي لا موتَ بعدها، ما يُنجيني من غضبِ اللهِ، ويوجبُ لي رضوانَهُ.

وقوله: «فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أحَدٌ، وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أحَدٌ»، يعني: فيومئذٍ لا يعذِّب بعذابِ اللهِ أحدٌ في الدنيا، ولا يوثِق كوثاقهِ يومئذٍ أحدٌ في الدنيا.

وقوله: «يا أيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إلى رَبِّك رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ الملائكةِ لأوليائهِ يومَ القيامة: يا أيتها النفسُ المطمئنة، يعني بالمطمئنة: التي اطمأنتْ إلى وَعْدِ الله الذي وعدَ أهلَ الإيمانِ به في الدنيا من الكرامةِ في الآخرة، فَصَدَّقَتْ بذلك.

وقوله: «ارْجِعي إلى رَبِّك»، اختلف أهلُ التأويلِ في تأويله، فقال بعضُهم: هذا خبرٌ من الله جلَّ ثناؤه عن قِيلِ الملائكةِ لنفسِ المؤمنِ عند البعثِ، تأمُرهَا أنْ ترجعَ في جسد صاحبها؛ قالوا: وعُنِي بالردِّ هاهنا صاحبها.

وقال آخرون: بل يُقالُ ذلكَ لها عند الموتِ.

وأولى القولين في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: إنَّ ذلك إنما يقالُ لهم عند رَدِّ الأرواحِ في الأجسادِ يومَ البعثِ لدلالةِ قوله: فادْخُلِي فِي عِبادِي وادْخُلِي جَنَّتِي»، ومعنى ذلك: فادخلي في عبادي الصالحينَ، وادخل جنتي.

سُورَةُ البَلَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله جلَّ ثناؤُهُ وتقدست أسماؤه: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره: أُقسِمُ يا محمدُ بهذا البلدِ الحرام، وهو مكة. وقوله: «وأَنْتَ حِلٌّ بهَذَا البَلَدَ»، يعني: بمكة، يقول جلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: وأنتَ يا مُحمدُ حِلٌّ بهذا البلدِ، يعني بمكةَ، يقول: أنتَ به حلالٌ تصنعُ فيه مِنْ قَتْلِ مَنْ أردتَ قتلَهُ، وأسْرِ مَنْ أردتَ أَسْرَهُ، مُطْلَقٌ ذلكَ لَكَ، يقال منه: هو حِلٌّ، وهو حلالٌ، وهو حِرْمٌ، وهو حرامٌ. وهو مُحِلٌّ، وهو مُحَرِّمٌ، وأحْلَلْنا، وأحْرَمْنا.

وقوله: «وَوَالِدٍ وَما وَلَدَ»، يقول تعالى ذكره: فأقسمُ بوالدٍ وبولدهِ الذي وَلَدَ.

وقوله: «لَقَدْ خَلَقْنا الإِنْسانَ فِي كَبَدٍ» وهذا هو جوابُ القسم: ومعناه: لقد خلقنا ابنَ آدمَ يُكابدُ الأمورَ ويُعالجها، فقوله: «فِي كَبَدٍ»، معناه: في شدّةٍ.

وإنما قلنا ذلك، لأنَّ ذلك هو المعروف في كلامِ العربِ من معاني الكَبَد.

وقوله: «أيَحْسَبُ أنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ» ذُكر أنَّ ذلك نزلَ في رجلٍ بعينهِ

من بني جُمَح، كان يُدْعى أبا الأَشـدَّيْنِ، وكـان شديداً، فقال جلّ ثناؤه: أيحسبُ هذا القويُّ بجَلَدِهِ وقُوَّتِهِ، أنْ لن يقهرَهُ أحدٌ ويغلبه، فاللهُ غَالِبُه وقاهرُه.

وقوله: «يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً»، يقول هذا الجليدُ الشديدُ: أهلكتُ مالاً كثيرا في عداوةِ محمدٍ ﷺ، فأنفقت ذلك فيه، وهو كاذبٌ في قولِهِ ذلك، وهو فعل من التلبُّدِ، وهو الكثيرُ بعضُه، على بعضٍ، يقال منه: لَبد بالأرض يَلْبُدُ: إذا لصقَ بها.

وقوله: «أَيَحْسَبُ أنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أيظنُّ هذا القائلُ: «أَهْلَكْتُ مالاً لُبداً» أنْ لَمْ يَرَهُ أحدٌ في حالِ إنفاقه، يزعم أنه أنفقه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ألم نجعلْ لهذا القائل: «أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً» عَينين يبصرُ بهما حججَ اللهِ عليه، ولساناً يعبرُ به عن نفسِه ما أرادَ، وشفتين نعمةً منا بذلك عليه.

وقـولـه: «وَهَـدَيْنـاه النَّجْدَيْنِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وهديناهُ الطريقينِ، ونجد: طريق في ارتفاع.

واختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: عُنِي بذلك: نَجْدُ الخيرِ، ونَجْـدُ الشـرِّ، كمـا قال: «إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمَّا شاكِراً، وإمَّا كَفُوراً» [الإنسان: ٣].

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وهديناه الثَّديين: سَبِيلَي اللبنِ يتغذَّى به، وَيَنْبُتُ عليه لحمهُ وجسمهُ.

وأولى القولين بالصواب في ذلك عندنا قولُ من قال: عُنِي بذلك طريقُ الخيرِ والشرّ، وذلك أنه لا قولَ في ذلك نعلمه غير القولين اللذين ذكرنا، والثديان، وإنْ كانا سبيلي اللبن، فإنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ إذْ عَدَّدَ على العبد نِعَمهُ بقوله: «إِنَّا خَلَقْنا الإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ، فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ» [الإنسان: ٢ و٣] إنما عَدَّدَ عليه هدايته إياهُ إلى سبيهل الخيرِ من نِعمه، فكذلك قوله: «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ».

وقوله: «فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلم يركبِ العقبةَ فيقطعها ويجوزها. وذُكر أنَّ العقبةَ: جبلٌ في جهنم. وقوله: «وَما أَدْرَاكَ ما الْعَقَبَةُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأيّ شيءٍ أشعركَ يا محمدُ ما العقبة.

ثمَّ بَيَّنَ جَلَّ ثناؤه له، ما العقبةُ، وما النجاةُ منها، وما وجهُ اقتحامها، فقال: اقتحامُهَا وقَطْعُهَا، فَكُّ رقبةٍ من الرقِّ وأسرِ العُبودةِ.

وقوله: «أو إطعام»، اختلفت القَرَأة في قراءة ذلك، فقرأه بعض قَرَأة مكة وعامة قَرَأة البصرة، عن ابن أبي إسحاق، ومن الكوفيين الكسائي: «فَكَّ رَقَبَةً أَوْ أَطْعَمَ»، وكان أبو عمرو بن العلاء يحتجُّ فيما بلغني فيه بقوله: «ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِين آمَنُوا» كأنَّ معناه كان عنده، فلا فَكَّ رقبةً ولا أطعَمَ، ثم كان من الذين آمنوا، وقرأ ذلك عامة قَرَأة المدينة والكوفة والشأم «فَكُّ رَقَبَةٍ» على الإضافةِ «أَوْ إِطْعامٌ» على وجه المصدر. والصوابُ من القولِ في ذلك أنهما قراءتان معروفتان، قد قرأ بكلِّ واحدةٍ منهما علماءُ من القَرَأة، وتأويل مفهوم، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ؛ فقراءته إذا قرىء على وجهِ الفعلِ تأويله: فلا اقتحمَ العقبةَ، لا فَكَّ رقبةً، ولا أطعَمَ، ثم كان من الذين آمنوا: «وَمَا أَدْرَاكَ مَّا الْعَقَبَةُ» على التَّعَجُّبِ والتعظيم، وهذه القراءة أحسنُ مخرجاً في العربية، لأنَّ الإطعامَ اسم، وقوله: «ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا» فعلٌ، والعربُ تُؤْثِر رَدَّ الأسماءِ على الأسماءِ مِثْلها، والأفعالَ على الأفعالِ، ولو كان مجيء التَّنزيل: ثم أنْ كان من الذين آمَنوا،

كان أحسن، وأشبه بالإطعام، والفَكُّ مِنْ: ثُمَّ كانَ، ولذلك قلت: «فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ أَطْعَمَ» أوجَهُ في العربيةِ من الآخر، وإنْ كان للآخر وجهٌ معروف.

وقوله: «أَوْ أَطْعَمَ[1] فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ»، يقول: أو أطعمَ في يومٍ ذي مجاعةٍ، والساغبُ: الجائع. وقوله: «يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ»، يقول: أو أطعمَ في يومِ مجاعةٍ صغيراً لا أبَ له من قرابتِهِ، وهو اليتيمُ ذو المقربَةِ. وعنى بذي المقربة: ذَا القَرابة.

وقوله: «أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ»، يقول: أو مسكيناً قد لصق بالترابِ من الفقر والحاجة.

القـول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم كانَ هذا الذي قال: «أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً» من الذين آمَنـوا باللهِ ورسولِهِ، فيؤمن معهم كما آمنوا «وَتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ»، يقول: وممن أوصى بعضُهم بعضاً بالصبرِ على ما نابهم في ذاتِ الله «وَتَوَاصَوْا بِالمَرْحَمَةِ»، يقولُ: وأوصى بعضُهم بعضاً بالمرحمة.

وقوله: «أُولَئِكَ أَصحَابُ المَيْمَنَةِ»، يقول: الذينَ فعلوا هذه الأفعالَ التي ذكرتها من فكِّ الرقابِ، وإطعامِ اليتيمِ، وغير ذلك أصحابِ اليمين الذين يؤخذ بهم يوم القيامة ذاتَ اليمينِ إلى الجنة.

وقـولـه: «وَالَّـذِينَ كَفَـرُوا بِآيَاتِنَا»، يقول: والذين كفروا بأدلتنا وأعلامنا وحججنا من الكتبِ والرُّسلِ وغير ذلك «هُمْ أَصحَابُ المَشأَمَةِ»، يقول: هم

(١) إنما كتبها كذلك لأن هذه هي القراءة المفضَّلة عنده.

البلد: ٢٠

أصحابُ الشمالِ يومَ القيامةِ الذين يُؤْخَذُ بهم ذاتَ الشمال.

وقوله: «عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: عليهم نارُ جهنمَ يومَ القيامة مُطْبَقَةٌ، يقال منه: أوصدت وآصدت.

سُورَةُ الشَّمْسِ

ترتيبها ٩١ — آياتها ١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى جلَّ ثناؤه وتقدست أسماؤه: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾

قوله: «وَالشَّمْسِ وَضُحاها» قَسَمٌ، أقسم رَبُّنا تعالى ذِكْرُه بالشمسِ وضُحاها، ومعنى الكلام: أُقسِمُ بالشمسِ وبِضُحَى الشمسِ، أي نهارِها.

وقوله: «وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاها»، يقول تعالى ذِكْرُه: والقمرِ إذا تَبِعَ الشمسَ، وذلك في النصفِ الأَوَّلِ من الشهرِ، إذا غربت الشمس تلاها القمرُ طالعاً.

وقوله: «والنَّهارِ إذَا جَلَّاها»، يقول: والنهارِ إذا جَلَّاها، قال: إذا أضاءَ.

وقوله: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشاها»، يقول تعالى ذِكْرُه: والليلِ إذا يغشى الشمسَ حتى تغيبَ فَتُظْلِمُ الآفاقُ.

وقوله: «وَالسَّماءِ وَما بَناهَا»، يقول جلَّ ثناؤه: والسَّماءِ ومَنْ بناها، يعني: ومَنْ خلَقها. وبناؤه إياها: تصييرُه إياها للأرضِ سقفاً.

وقيل: «وَما بَناها» هو جلَّ ثناؤه بانيها، فوضع «ما» موضع «مَنْ»، كما قال: «وَوَالِدٍ وَما وَلَدَ» فوضع «ما» في موضع «مَنْ»، ومعناه: ومَنْ وَلَدَ، لأنه

قَسَمٌ أقسمَ بآدمَ وولـده، وكذلك: «وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ». وقوله: «فانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ» وإنما هو: فانكحوا مَنْ طابَ لكم وجائزٌ توجيهُ ذلك إلى معنى المصدر، كأنه قال: والسماءِ وبنائِها، ووالدٍ وولادتِه.

وقـولـه: «والأرْضِ وَمـا طَحـاها» وهذه أيضاً نظير التي قبلها، ومعنى الكلام: والأرض ومَنْ طحاها. ومعنى قوله: «طَحاها»: بَسَطَها يميناً وشمالاً، ومِنْ كلِّ جانب.

وقوله: «وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها»، يعني جلَّ ثناؤُه بقوله: «وَمَا سَوَّاها» نفسه، لأنه هو الذي سَوَّى النفس وخلقها، فَعَدَّلَ خَلْقَها. فوضع «ما» موضع «مَنْ». وقـد يُحتمـل أن يكـون معنى ذلـك أيضـاً المصدر. فيكون تأويله: ونفسٍ وتَسويَتِها. فيكون القَسَمُ بالنفسِ وبتسويتها.

وقوله: «فألْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَبَيَّنَ لها ما ينبغي لها أنْ تأتيَ أو تذرَ من خيرٍ، أو شرٍّ، أو طاعةٍ، أو معصية.

القـول في تأويل قولـه تعـالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾

قوله: «قَدْ أفْلَحَ مَنْ زَكَّاها»، يقول: قد أفلحَ مَنْ زكَّى اللهُ نفسَهُ، فكثَّرَ تطهيرها من الكفرِ والمعاصي، وأصلحها بالصالحاتِ من الأعمالِ.

وقوله: «وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاهَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وقد خابَ في طِلبتِهِ فلم يُدْرِكْ ما طلبَ والتمسَ لنفسه من الصلاحِ مَنْ دَسَّاها، يعني: مَنْ دَسَّسَ

اللهُ نفسَهُ فأخْمَلهـا، ووضـع منهـا، بخُـذْلانِـهِ إياها عن الهدى حتى ركب المعاصيَ، وتركَ طاعةَ الله.

وقـولـه: «كَـذَّبَت ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا»، يقول: كذّبت ثمودُ بطغيانها، يعني بعذابها الذي وَعَدَهُمُوهُ صالح عليه السلام. فكان ذلك العذابُ طاغياً طغى عليهم، كما قال جلَّ ثناؤه: «فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بالطَّاغِيةِ» [الحاقة: ٥].

وقوله: «إذِ انْبَعَثَ أشْقاها»، يقول: إذْ ثارَ أشقى ثمودَ، وهو قُدار بن سالف.

وقوله: «فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ»، يعني بذلك جلَّ ثناؤه: صالحاً رسولَ الله ﷺ، فقال لثمودَ صالحٌ: «ناقَةَ الله وَسُقْياها» احذروا ناقةَ اللهِ وسُقياها، وإنما حَذَّرَهُمْ سُقيا الناقةِ، لأنه كان تَقَدَّمَ إليهم عن أمرِ الله أنَّ للناقةِ شِرْبَ يومٍ، ولهم شِرْبُ يومٍ آخر، غيرِ يومِ الناقةِ على ما قد بيَّنتُ فيما مضى قَبْلُ.

وقوله: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها»، يقول: فكذَّبُوا صالحاً في خبره الذي أخبرهم به من أنَّ الله الـذي جعـلَ شِرْبَ الناقةِ يوماً، ولهم شِرْبُ يومٍ معلوم، وأنَّ الله يُحِلُّ بهم نِقْمَتَهُ إنْ هم عَقَرُوهَا، كما وصفهم جلَّ ثناؤه فقال: «كَذَّبَتْ ثَمُودُ وعادٌ بالقارِعَةِ» [الحاقة: ٤]، وقد يُحتمل أنْ يكونَ التكذيبُ بالعقْر، وإذا كان ذلك كذلك. جاز تقديمُ التكذيبِ قبل العقر، والعقر قبل التكذيب، وذلك أنَّ كلَّ فعـلٍ وقع عن سببٍ حَسُنَ ابتداؤه قبلَ السببِ وبعده كقول القائل: أعطيت فأحسنت، وأحسنت فأعـطيت، لأنَّ الإعـطاءَ: هو الإحسان، ومن الإحسانِ الإعطاءُ، وكذلك لو كان العقر هو سبب التكذيب جاز تقديم أيّ ذلك شاء المتكلم.

وقوله: «فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها»، يقول تعالى ذِكْرُه: فدمَّرَ عليهم رَبُّهُم بذنبهم ذلك، وكفرهم به، وتكذيبهم رسوله صالحاً، وعقرهم ناقته. «فَسَوَّاها»، يقول: فَسَوَّى الدمدمةَ عليهم جميعهم، فلم يَفْلت منهم أحد.

الشمس: ١٥

وقوله: «وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا» اختلف أهلُ التأويلِ في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: لا يخافُ تبعةَ دَمْدَمَتِهِ عليهم. وقال آخرون: بل معنى ذلك ولم يَخَفِ الذي عَقَرَها عقباها، أي: عقبى فعلته التي فعل.

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مقسماً بالليلِ إذا غشَّى النهارَ بظلمتهِ، فأذهبَ ضوءه، وجاءتْ ظُلْمَتُه «واللَّيْلِ إذَا يغْشَى» النهارَ «والنَّهارِ إذَا تَجلَّى» وهذا أيضاً قَسَمٌ، أقسمَ بالنهارِ إذا هو أضاءَ فأنارَ وظهرَ للأبصار، ما كانتْ ظلمة الليل قد حالت بينها وبين رؤيته وإتيانه إياها عِياناً، وكان قتادة يذهب فيما أقسمَ اللهُ به من الأشياءِ أنه إنما أقسمَ به لعِظَمِ شأنهِ عنده.

وقولـه: «ومَا خَلقَ الذَّكَرَ والأنْثَى» يحتملُ الوجهين اللذين وصفتُ في قوله: «والسَّماءِ ومَا بنَاها، والأرْضِ ومَا طَحاها»[1] وهو أن يجعل «ما» بمعنى «مَنْ» فيكـون ذلـك قسماً من الله جلّ ثناؤه بخالق الذَّكَرِ والأنثى، وهو ذلك الخالق، وأن تجعل «ما» مع ما بعدها بمعنى المصدر، ويكون قسماً بخلقهِ الذكر والأنثى.

---

(١) انظر ما تقدم في سورة الشمس ٥ ـ ٦.

وقوله: «﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾»، يقول: إنَّ عَمَلَكُمْ لمختلفٌ أيها الناسُ، لأنَّ منكم الكافر بربه والعاصي له في أمرِه ونهيِه، والمؤمن به والمطيع له في أمرِه ونهيه.

وقوله: «إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى» جوابُ القسم. والكلام: والليلِ إذا يغشى إنَّ سعيكم لشتَّى، وكذا قالَ أهلُ العلم.

وقوله: «فأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأما مَنْ أعطى واتقى منكم أيها الناسُ في سبيل الله، ومن أَمَرَهُ اللهُ بإعطائهِ من مالهِ، وما وَهَبَ له من فضلهِ، واتقى اللهَ واجتنبَ محارمه.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله تعالى: وَصَدَّقَ بالْحُسْنَى»، فقال بعضهم: معنى ذلك: وصَدَّقَ بالخلَف من الله على إعطائهِ ما أعطى من مالهِ فيما أعْطَى فيه مما أمَرَهُ اللهُ بإعطائهِ فيه.

وقال آخرونَ: بل معنى ذلك: وصدَّقَ بأنَّ اللهَ واحدٌ لا شريكَ له.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وصَدَّقَ بالجنة.

وقال آخرون: بل معناه: وصَدَّقَ بموعودِ الله.

وأشبهُ هذه الأقوالِ بما دلَّ عليه ظاهرُ التنزيلِ، وأولاها بالصوابِ عندي قولُ مَنْ قال: عُنِي به التصديقُ بالخلفِ من اللهِ على نفقتهِ.

وإنما قلت: ذلك أوْلى الأقوالِ بالصوابِ في ذلك، لأنَّ الله ذكر قبله مُنفقاً أنفقَ طالباً بنفقتهِ الخلفَ منها فكان أوْلى المعاني به أنْ يكون الذي عَقيبه الخبر عن تصديقهِ بوعدِ اللهِ إياهُ بالخلفِ، إذْ كانت نفقتهُ على الوجه الذي يرضاه.

وقوله: «فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى»، يقول: فَسَنُهَيِّئُه للخلَّة اليُسرى، وهي العمل بما يرضاهُ اللهُ منه في الدنيا، ليوجب له به في الآخرةِ الجنة.

وقوله: «وأمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأما مَنْ بخلَ بالنفقةِ في سبيلِ الله، ومنع ما وهبَ اللهُ له من فضلِه من صرفِه في الوجوهِ التي أمر الله بصرفِه فيها، واستغنى عن رَبِّه، فلم يرغبْ إليه بالعملِ له بطاعته بالزيادةِ فيما خَوَّلَهُ من ذلك.

وقوله: «فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى»، يقول تعالى ذكره: فسنهيئُهُ في الدنيا للخلَّة العُسرى.

وقيل: «فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى» ولا تيسر في العُسرى للذي تَقَدَّمَ في أوَّلِ الكلام من قوله: «فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى» وإذا جمع بين كلامين أحدهما ذكر الخير والآخر ذكر الشرّ، جاز ذلك بالتيسيرِ فيهما جميعاً، والعُسرى التي أخبرَ اللهُ جلّ ثناؤه أنه يُيَسِّرُه لها: العمل بما يكرههُ ولا يرضاه.

عن عليٍّ، قال: «كنا في جنازةٍ في البقيع، فأتانا رسولُ الله ﷺ فجلس وجلسنا معه، ومعه عودٌ ينكتُ في الأرضِ، فرفع رأسَهُ إلى السماء فقال: ما مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إلَّا قَدْ كُتِبَ مَدْخَلُها، فقال القومُ: يا رسولَ الله ألا نَتَّكِلُ على كتابنا، فمن كان من أهلِ السعادةِ فإنَّهُ يعملُ للسعادة، ومَنْ كان من أهلِ الشقاء فإنه يعمل للشقاء، فقال: بَلِ اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ؛ فأمَّا مَنْ كانَ مِنْ أهْلِ السَّعادَةِ فإنَّهُ يُيَسَّرُ لِعَمَلِ السَعادَةِ وأمَّا مَنْ كانَ مِنْ أهْلِ الشَّقاءِ فإنَّهُ يُيَسَّرُ للشَّقاءِ، ثم قرأ: «فأمَّا مَنْ أعْطَى واتَّقَى وَصَدَّقَ بالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى؛ وأمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وكَذَّبَ بالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى»[1].

---

(١) أخرجه المؤلف من طرق متعددة عن علي، وهو في البخاري (٤٩٤٥) و(٤٩٤٦) و(٤٩٤٧) و(٤٩٤٨) و(٤٩٤٩). وقال ابن كثير: والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله عز وجل يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان، وكل ذلك بقدرٍ مقدور، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة، وساق منها حديث علي في البخاري.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ
﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى
كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ
﴿١٨﴾﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ»: أي شيء يدفعُ عن هذا الـذي بَخِـلَ بماله، واستغنى عن رَبِّه مالُه يومَ القيامةِ «إذَا» هو «تردَّى» في جهنمَ، أي: سقطَ فيها فهوى.

وقوله: «إنَّ عَلَيْنا لَلْهدَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ علينا لبيانَ الحقِّ من الباطلِ، والطاعة من المعصيةِ.

وقـوله: «وَإنَّ لَنا لَلآخِرَةَ والأُولى»، يقول: وإنَّ لنا مُلْكَ ما في الدنيا والآخرةِ، نُعطي منهما مَنْ أردنا من خَلْقِنا، ونحرمُه مَنْ شئنا.

وإنما عَنَى بذلك جلَّ ثناؤه أنه يُوَفِّق لطاعتهِ مَنْ أحبَّ من خَلْقهِ، فيكرمهُ بها في الدنيا، ويهيىء له الكرامةَ والثوابَ في الآخرة، ويخذُل مَنْ يشاء خِذلانه من خلقهِ عن طاعتهِ، فَيُهينهُ بمعصيتهِ في الدنيا، ويخزيه بعقوبته عليها في الآخرة.

ثم قال جلَّ ثناؤه: «فَأنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأنذرتكم أيهـا الناسُ ناراً تتوهَّجُ وهي نارُ جهنمَ، يقول: احذروا أنْ تَعْصُوا رَبَّكم في الدنيا، وتكفروا به فتَصْلَونها في الآخرة. وقيل: تَلَظَّى، وإنما هي تَتَلَظَّى، وهي في موضع رفعٍ لأنه فعل مستقبل، ولو كان فعلاً ماضياً لقيل: فأنذرتكم نارا تلظتْ.

وقوله: «لا يَصْلاها إلاّ الأشْقَى»، يقول جل ثناؤه: لا يدخلها فَيَصْلَى بسعيرِهـا إلا الأشقى «الَّذي كَذَّبَ وَتَوَلَّى»، يقول: الذي كذَّبَ بآياتِ رَبِّه،

وأعرضَ عنها، ولم يصدِّقْ بها.

وقوله: «وَسَيُجَنَّبُها الأتْقى»، يقول: وسيوقَّى صِلِيَّ النارِ التي تلظَّى التقيُّ.

وقوله: «الَّذي يُؤْتِي مالَهُ يَتزكَّى»، يقول: الذي يعطي مالَهُ في الدنيا في حقوقِ اللهِ التي ألزمَهُ إياها «يتزكى»، يعني: يتطهر بإعطائهِ ذلكَ من ذنوبهِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾

كان بعض أهل العربية[1] يوجِّهُ تأويلَ ذلك إلى: وما لأحدٍ من خَلْقِ اللهِ عندَ هذا الذي يُؤتي مالَهُ في سبيلِ الله يتزكى «مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى»، يعني: من يدٍ يكافئهُ عليها، يقول: ليس ينفق ما ينفق من ذلك، ويُعْطِي ما يعطي مجازاةَ إنسانٍ يجازيهِ على يدٍ له عنده، ولا مكافأةً له على نعمةٍ سَلَفَتْ منه إليه أنعمَها عليه، ولكن يؤتيه في حقوقِ الله ابتغاءَ وجهِ الله وإلا في هذا الموضع بمعنى لكن. وقال: يجوز أن يكون بفعل في المكافأة مستقبلاً، فيكون معناه: ولم يُرِدْ بما أنفقَ مكافأة من أحدٍ ويكون موقع اللام التي في أحد في الهاء التي خفضتها عنده، فكأنكَ قلت: وما له عند أحدٍ فيما أنفقَ من نعمةٍ يلتمسُ ثوابَها، قال: وقد تضعُ العربُ الحرفَ في غير موضعه إذا كان معروفاً، وهذا الذي قاله الذي حكينا قولَهُ من أهلِ العربية، وزَعم أنه مما يجوز هو الصحيحُ الذي جاءتْ به الآثارُ عن أهلِ التأويلِ، وقالوا: نزلت في أبي بكرٍ بعِتْقه مَنْ أعتقَ.

---

(١) هو أبو عبيدة في «مجاز القرآن»: ٢/٣٠٦.

وقوله: «وَلَسَوْفَ يَرْضَى» يقول: ولسوفَ يرضى هذا المؤتِي مالَهُ في حقوقِ الله عزّ وجلّ، يتزكّى بما يُثِيبهُ اللهُ في الآخرةِ عوضاً مما آتى في الدنيا في سبيله إذا لقي رَبَّهُ تبارك وتعالى.

سُورَةُ الضُّحَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾

أقسم رَبُّنا جلَّ ثناؤه بالضحى، وهو النهارُ كله، وأحسبُ أنه من قولهم: ضَحى فلانٌ للشمسِ: إذا ظهرَ، ومنه قوله: «وأنَّكَ لا تَظْمأُ فِيها وَلا تَضْحَى» [طه: ١١٩]: أي لا يصيبُكَ فيها الشمسُ.

وقوله: «والليل إذا سَجَى»، معناه: والليلِ إذا سكنَ بأهلِهِ، وثبتَ بظلامهِ، كما يقال: بحرٌ سَاجٍ: إذا كان ساكناً.

وقوله: «ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلى» وهذا جوابُ القسم، ومعناه: ما تركَكَ يا محمدُ رَبُّكَ وما أبغضَكَ، وقيل: «وَمَا قَلى» ومعناه: وما قلاكَ، اكتفاءً بفهمِ السامعِ لمعناه، إذ كان قد تَقَدَّمَ ذلك قوله: «ما وَدَّعَكَ» فعُرفَ بذلك أنَّ المخاطَبَ به نبيُّ الله ﷺ.

وذُكر أنَّ هذه السورةَ نزلتْ علىٰ رسولِ الله ﷺ تكذيباً من اللهِ قريشاً في

قِيلِهم لرسولِ الله لما أبطأ عليه الوحيُ، قد ودَّعَ محمداً رَبُّه وقَلاَهُ[1].

وقوله: «وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: وللدارُ الآخرةُ، وما أعدَّ اللهُ لكَ فيها خيرٌ لكَ من الدار الدنيا وما فيها، يقول: فلا تحزنْ على ما فاتكَ منها، فإنَّ الذي لك عندَ اللهِ خيرٌ لكَ منها.

وقوله: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولسوفَ يُعطيكَ يا محمدُ رَبُّكَ في الآخرةِ من فواضلِ نِعَمه حتى ترضى.

وقوله: «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى»، يقول تعالى ذِكْرُه مُعَدِّداً على نبيهِ محمدٍ ﷺ نِعَمَهُ عنده، ومُذَكِّرَهُ آلاءَهُ قِبَلَهُ: ألم يجدك يا محمدُ رَبُّكَ يتيماً فآوى، يقول: فجعلَ لكَ مأوى تأوي إليه، ومنزلاً تنزلُه «وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى» ووجدكَ على غيرِ الذي أنتَ عليه اليوم.

وقوله: «وَوَجَدَكَ عائِلاً فأغْنَى»، يقول: ووجدكَ فقيراً فأغناكَ، يقال منه: عالَ فلانٌ يَعيلُ عَيْلَةً، وذلك إذا افتقر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «فأمَّا اليَتِيمَ» يا محمدُ «فَلا تَقْهَرْ»، يقول: فلا تَظْلِمْهُ، فتذهبَ بحقِّه استضعافاً منكَ له.

وقوله: «وأمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ»، يقول: وأما مَنْ سألكَ من ذي حاجةٍ فلا تنهره، ولكنْ أطعمه واقضِ له حاجتَهُ «وأمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ»، يقول: فاذْكُرْهُ.

(١) حديث جندب بن عبدالله البجلي الذي ساقه المؤلف، وهو في البخاري (٤٩٥٠) و(٤٩٥١).

سُورَةُ الشَّرْح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، مذكِّرَهُ آلاءه عنده، وإحسانَه إليه، حاضاً له بذلك على شكرِهِ، على ما أنعمَ عليه ليستوجبَ بذلك المزيدَ منه: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ» يا محمدُ للهدى والإيمانِ بالله ومعرفةِ الحقِّ «صَدْرَكَ» فَنُلَيِّن لكَ قلبكَ، ونجعلهُ وعاءً للحكمةِ «وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ»، يقول: وغفرنا لك ما سلفَ من ذنوبكَ، وحَطَطْنَا عنكَ ثقلَ أيامِ الجاهليةِ التي كنتَ فيها، «الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْـرَكَ»، يقول: الذي أثقلَ ظهركَ فأوهنه، «وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ»، قال: ذَنْبَكَ الذي أنقضَ ظهركَ: أثقلَ ظهرَكَ، ووضعناهُ عنكَ، وخفَّفنا عنك ما أثقلَ ظهركَ.

وقـولـه: «وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ»، يقول: ورفعنا لكَ ذِكْرَكَ، فلا أُذْكَرُ إلا ذُكِرْتَ معي، وذلك قول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وقوله: «فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً. إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه

محمدٍ ﷺ، فإنَّ مع الشدّةِ التي أنتَ فيها من جهادِ هؤلاءِ المشركينَ، ومن أوَّلِهِ ما أنتَ بسبيلِهِ رجاءً وفرجاً بأنْ يُظْفِرَكَ بهم، حتى ينقادوا للحقِّ الذي جِئْتَهُمْ به طوعاً وكَرهاً.

وقـوله: «فَإِذَا فَرَغْتَ فانْصَبْ»، اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ ذلك، فقال بعضهم: معناه: فإذا فرَغْتَ من صلاتكَ فانصبْ إلى رَبِّكَ في الدعاء، وسَلْهُ حاجاتك.

وقال آخرون: بل معنى ذلك «فإذَا فَرَغْتَ» من جهادِ عَدُوِّك «فانْصَبْ» في عبادةِ ربك.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فإذا فرغتَ من أمرِ دُنياكَ، فانصبْ في عبادةِ رَبِّكَ.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أمرَ نبيه أنْ يجعلَ فراغَهُ من كلِّ ما كان به مشتغلاً من أمرِ دنياه وآخرته، مما أدَّى له الشغل به، وأمره بالشغلِ به إلى النَّصَبِ في عبادته، والاشتغالِ فيما قرَّبَهُ إليه، ومسألته حاجاتِهِ، ولم يخصصْ بذلك حالاً من أحوالِ فراغهِ دونَ حالٍ، فسواء كلِّ أحوالِ فراغهِ من صلاةٍ كان فراغُه، أو جهادٍ، أو أمرِ دنيا كان به مشتغلاً لعمومِ الشرطِ في ذلك من غيرِ خصوصِ حالِ فراغٍ دونَ حالٍ أخرى.

وقـوله: «وَإِلى رَبِّكَ فارْغَبْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإلى رَبِّكَ يا محمدُ فاجعلْ رغبتكَ دونَ مَنْ سواه من خَلْقهِ، إذْ كان هؤلاء المشركونَ من قومكَ قد جعلوا رغبتهم في حاجاتهم إلى الآلهةِ والأندادِ.

سُورَةُ التِّينِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾

قوله: «وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ» عَنَى بالتين: التين الذي يُؤكل، والزيتون: الزيتون الذي يُعْصَرُ منه الزَيتُ.

وقوله: «طور سينين»: جبلٌ معروفٌ، لأنَّ الطورَ هو الجبلُ ذُو النباتِ، فإضافته إلى سينين تعريفٌ له.

وقوله: «وَهَذَا الْبَلَدِ الأمِينِ»، يقول: وهذا البلدِ الآمنِ من أعدائهِ أنْ يحاربوا أهلَهُ، أو يَغْزُوهم. وقيل: الأمينُ، ومعناه: الأمنُ، وعَنَى به: مكة.

وقوله: «لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي أحْسَنِ تَقْوِيمٍ»، وهذا جوابُ القَسَمِ، يقول تعالى ذِكْرُه: والتينِ والزيتونِ لقد خلقنا الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ. ومعنى ذلك: لقد خلقنا الإنسانَ في أحسنِ صورةٍ وأعْدَلِهاَ؛ لأن قوله: «أحْسَنِ تَقْوِيمٍ» إنما هو نعتٌ لمحذوفٍ، وهو في تقويمٍ أحسنِ تقويم، فكأنه قيل: لقد خلقناهُ في تقويمٍ أحسنِ تقويم.

وقـولـه: «ثُمَّ رَدَدْنـاهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ»، اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ ذلك، فقال بعضُهم: معنى ذلك: ثم رَدَدْناهُ إلى أرذلِ العمر.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصحةِ وأشبهها بتأويلِ الآيةِ قولُ مَنْ قال: معنـاه: ثم رَدَدْنـاهُ إلى أرذلِ العمرِ، إلى عمرِ الخَرْفَى، الذين ذهبتْ عقولُهم من الهرَمِ والكِبَرِ، فهو في أسفلِ مَنْ سَفَلَ في إدبارِ العمر، وذهابِ العقل.

وإنما قلنا: هذا القولُ أوْلى بالصوابِ في ذلك، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ عن خَلْقهِ ابن آدم، وتصريفه في الأحوالِ احتجاجاً بذلك على مُنكري قُدْرتهِ على البعثِ بعد الموتِ. ألا ترى أنه يقول: «فَمَا يُكَذِّبُك بَعْدُ بالدِّين»، يعني: بعد هذه الحُجَجِ. ومحالٌ أن يحتجَّ على قومٍ كانوا مُنكرينَ معنىً من المعاني بما كانوا له مُنكرينَ، وإنما الحجةُ على كلِّ قومٍ بما لا يقدرونَ على دفعه، مما يعاينونَهُ ويحسُّونَهُ، أو يُقِرُّونَ به، وإنْ لم يكونوا له مُحسِّين.

وإذْ كان ذلك كذلك، وكان القوم للنار التي كان الله يَتَوَعَّدُهم بها في الآخـرةِ مُنكـرينَ، وكـانـوا لأهـلِ الهـرَمِ والخَرَفِ من بعدِ الشبابِ والجَلَدِ شاهدينَ، علم أنه إنما احتجَّ عليهم بما كانوا له مُعاينينَ من تصريفهِ خَلْقَهُ، ونقله إياهم من حال التقويمِ الحسنِ والشبابِ والجَلَدِ، إلى الهرَمِ والضعفِ وفناءِ العمر، وحدوثِ الخَرَفِ.

وقوله: «إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ»، معناه: ثم رَدَدْناهُ إلى أرذلِ العمرِ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ في حالِ صِحَّتِهم وشبابهم، فلهم أجرٌ غيرُ ممنونٍ بعد هرمهم، كهيئةِ ما كان لهم من ذلك على أعمالِهم في حالِ ما كانوا يعملونَ، وهم أقوياء على العمل.

وإنما قلنا ذلك لما وصفنا من الدلالة على صحةِ القولِ بأنَّ تأويلَ قوله: «ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ» إلى أرذلِ العمر.

وقوله: «فلهم أجرٌ غير ممنون»، معناه: فلهم أجرٌ غيرُ منقوصٍ، كما كان له أيامَ صحتهِ وشبابهِ، وهو عندي من قولهم: حبل مَنِين: إذا كان ضعيفاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾

قوله: «فما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ»، معنى «ما» هنا بمعنى «مَنْ»؛ فتأويلُ الكلام: فَمَنْ يُكَذِّبُكَ يا محمدُ بعد الذي جاءك من هذا البيانِ من الله بالدين، يعني: بطاعةِ الله، ومجازاته العبادَ على أعمالهم، وقد تأوَّلَ ذلك بعضُ أهلِ العربية بمعنى: فما الذي يكذِّبُكَ بأنَّ الناسَ يُدانونَ بأعمالهم، وكأنه قال: فمن يقدر على تكذيبكَ بالثوابِ والعقابِ بعد ما تَبَيَّنَ له خلقنا الإنسانَ على ما وصفنا.

واختلفوا في معنى قوله: «بالدينِ»، فقال بعضهم: بالحساب.

وقال آخرون: معناه: بحكمِ الله.

وأولى القولين في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: الدين في هذا الموضع: الجزاءُ والحسابُ، وذلك أن أحد معاني الدين في كلام العرب: الجزاء والحساب؛ ومنه قولهم: كما تدين تُدان، ولا أعرفُ من معاني الدين الحكم في كلامهم، إلا أنْ يكون مراداً بذلك: فما يكذِّبُكَ بعدُ بأمرِ الله الذي حكمَ به عليكَ أنْ تُطِيعَهُ فيه، فيكون ذلك.

وقوله: «أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أليسَ الله يا محمدُ بأحكمِ مَنْ حكمَ في أحكامه، وفصل في قضائه بين عباده[1]؟

---

(١) وقال ابن كثير: «أمَا وهو أحكمُ الحاكمين الذي لا يجورُ ولا يظلم أحداً، ومن عدله أن يقيم القيامة، فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه؟».

سُورَةُ العَلَق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾

يعني جلَّ ثناؤه بقوله: «اقْرأْ باسْمِ رَبِّكَ»، محمداً ﷺ، يقول: اقرأ يا محمدُ بذكرِ ربِّكَ «الَّذِي خلَقَ»، ثم بَيَّنَ الذي خلقَ فقال: «خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ»، يعني: من الدم، وقال: من علقٍ؛ والمراد به من علقةٍ، لأنه ذهبَ إلى الجمعِ كما يقال: شجرةٌ وشجر، وقَصَبةٌ وقَصَبٌ، وكذلك علقةٌ وعَلَقٌ. وإنما قال: من علق والإنسان في لفظ واحد، لأنه في معنى جمع، وإن كان في لفظٍ واحد، فلذلك قيل: من عَلَق.

وقوله: «اقْرأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ»، يقول: اقرأْ يا محمدُ وربُّكَ الأكرمُ «الَّذِي عَلَّمَ بالقَلَمِ» خَلْقَهُ للكتابةِ والخط.

وقيل: إنَّ هذه أوَّلُ سورةٍ نزلتْ في القرآنِ على رسولِ الله ﷺ.

عن عائشة أنها قالت: «كان أوَّل ما ابتُدِئَ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقةُ، كانت تجيءُ مثل فَلَقِ الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاءُ، فكان بغارِ حراء يتحنَّث فيه الليالي ذوات العدد، قبل أنْ يرجعَ إلى أهلِهِ، فيتزوَّد لمثلها،

حتى فَجَأَهُ الحقُّ، فأتاه، فقال: يا محمدُ أنتَ رسولُ الله، قالَ رسولُ الله: «فَجثَوْتُ لِرُكْبَتيَّ وأنا قائمٌ، ثُمَّ رَجَعْتُ تَرْجُفُ بَوادِري، ثُمَّ دَخَلْتُ على خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: زَمِّلُوني زَمِّلُوني، حتى ذَهَبَ عنِّي الرَّوْعُ، ثُمَّ أتانِي فقالَ يا مُحَمَّدُ أنا جِبْرِيلُ وأنْتَ رَسُولُ اللهِ، قالَ: فَلَقَدْ هَمَمْتُ أنْ أطْرَحَ نَفْسِي مِنْ حالِقٍ [مِنْ جَبَلٍ» فَتَمَثَّلَ إليَّ حِينَ هَمَمْتُ بذلكَ، فَقالَ يا مُحَمَّدُ أنا جِبْرِيلُ وأنْتَ رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قالَ: اقْرأْ، قلْتُ: ما أقْرأُ؟ قال: فأخَذَنِي فَغَطَّنِي ثَلاثَ مَرَّاتٍ حتى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ قالَ: «اقْرأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» فَقَرأْتُ، فأتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: لَقَدْ أشْفَقْتُ عَلى نَفْسِي فأخْبَرْتُها خَبَري، فَقالَتْ: أبْشِرْ، فَوَاللهِ لا يُخْزِيكَ اللهُ أبَداً، وَوَاللهِ إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتُؤَدِّي الأمانَةَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ عَلى نَوائِبِ الْحَقِّ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِي إلى وَرَقَةَ بن نَوْفَلِ بنِ أسَدٍ، قالَتْ: اسمَعْ مِنِ ابْنِ أخِيكَ، فَسألَنِي فأخْبَرْتُهُ خَبَري، فَقالَ: هَذا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلى مُوسَى ﷺ، لَيْتَنِي فِيها جَذَعٌ[1]، لَيْتَنِي أكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قُلْتُ: أوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قال: نَعَمْ إنَّهُ لَمْ يَجِئْ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ، إلاَّ عُودِيَ، وَلَئِنْ أدْرَكَنِي يَوْمُكَ أنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً[2]».

وقوله: «عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: علَّمَ الإنسانَ الخطَّ بالقلمِ، ولم يكن يَعْلَمُهُ، مع أشياءَ غيرِ ذلك مما علمه ولم يكن يعلمه.

وقوله: «كَلَّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما هكذا ينبغي أنْ يكونَ الإنسانُ أن يُنْعِم عليه ربُّه بتسويتِهِ خَلْقَهُ وتعليمه ما لم يكن يعلم، وإنعامه بما لا كُفْءَ له، ثم يكفر بربه الذي فعل به ذلك، ويطغى عليه أنْ رآه استغنى.

---

(١) الجذع: الصغير من البهائم، كأنه تمنى أن يكون عند ظهور الدعاء إلى الإسلام شاباً ليكون أمكنَ لنصرهِ.

(٢) انظر صحيح البخاري (٣) و(٣٣٩٢) و(٤٩٥٣) و(٤٩٥٥) و(٤٩٥٦) و(٤٩٥٧) و(٦٩٨٢) وهو عنده بألفاظ مقاربة.

وقوله: «إنَّ الإنْسانَ لَيَطْغى. أنْ رآهُ اسْتَغْنَى»، يقول: إنَّ الإنسانَ ليتجاوزُ حَدَّهُ، ويستكبر على رَبِّه فيكفر به، لأنْ رأى نفسَهُ استغنت.

وقوله: «إنَّ إلى رَبِّكَ الرُّجْعَى»، يقول: إلى رَبِّكَ يا محمدُ مَرْجِعه، فذائقٌ من أليمِ عقابهِ مالا قِبَلَ له به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾

ذُكر أنَّ هذه الآية وما بعدها نزلتْ في أبي جهل بن هشام، وذلك أنه قالَ فيما بلغنا: لئن رأيتُ محمداً يصلي لأطأَنَّ رَقَبَتَهُ، وكان فيما ذُكر قد نهى رسولَ الله ﷺ أنْ يصلي، فقال الله لنبيه محمدٍ ﷺ: أرأيتَ يا محمدُ أبا جهلٍ الذي يَنْهاكَ أنْ تُصلي عند المقامِ، وهو مُعْرِضٌ عن الحقِّ، مكذِّبٌ به. يُعجِّبُ جلَّ ثناؤه نبيَّهُ والمؤمنينَ من جهلِ أبي جهلٍ، وجراءته على رَبِّه في نهيه محمداً عن الصلاةِ لربه، وهو مع أياديه عنده مُكَذِّبٌ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾

يقول تعالى ذكره: «أرأَيْتَ إنْ كانَ» محمدٌ «عَلى الهُدَى»، يعني: على استقامةٍ وسَدَادٍ في صلاتهِ لربه «أوْ أمَرَ بالتقْوَى» أو أمرَ محمدٌ هذا الذي يَنْهى عن الصلاةِ باتقاءِ الله، وخوف عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «أرأَيْتَ إنْ كَذَّبَ» أبو جهل بالحقِّ الذي بعثَ به محمداً «وَتَوَلَّى»، يقول: وأدبرَ عنه، فلم يصدِّقْ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألم يعلم أبو جهل إذ يَنْهى محمداً عن عبادةِ ربه، والصلاةِ له، بأنَّ اللهَ يراهُ فيخاف سطوته وعقابه. وقيل: أرأيتَ الذي ينهى عبداً إذا صلى أرأيتَ إنْ كان على الهدى، فكررت أرأيتَ مرات ثلاثاً على البدل. والمعنى: أرأيتَ الذي ينهى عبداً إذا صلى، وهو مكذبٌ مُتولٍّ عن رَبِّه، ألم يعلم بأن الله يراه.

وقوله: «كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ»، يقول: ليسَ كما قالَ: إنه يطأُ عنقَ محمدٍ، يقول: لا يقدرُ على ذلك، ولا يصلُ إليه.

وقوله: «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ»، يقول: لئنْ لم ينته أبو جهل عن محمدٍ «لَنَسْفَعاً بالنَّاصِيَةِ»، يقول: لنأخذنَّ بمقدَّمِ رأسِهِ، فَلَنَضُمَّنَّهُ ولنُذِلَّنَّهُ؛ يقال منه: سفعت بيده: إذا أخذت بيده. وقيل: إنما قيل: «لَنَسْفَعاً بالنَّاصِيَةِ»، والمعنى: لَنُسَوِّدَنَّ وَجْهَهُ، فاكتفى بذكرِ الناصيةِ من الوجهِ كله، إذْ كانت الناصيةُ في مقدم الوجه. وقيل: معنى ذلك: لنأخذنَّ بناصيتِهِ إلى النارِ، كما قال: «فَيُؤْخَذُ بالنَّواصِي والأقْدَامِ».

وقـولـه: «ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ» فخفض ناصية ردّاً على الناصيةِ الأولى بالتكريرِ، ووصفَ الناصيةَ بالكذبِ والخطيئةِ، والمعنى لصاحبها.

وقوله: «فَلْيَدْعُ نادِيَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَلْيَدْعُ أبو جهل أهلَ مجلسهِ وأنصارِه، من عشيرتهِ وقومهِ، والنادي: هو المجلس.

وإنما قيل ذلك فيما بلغنا، لأنَّ أبا جهل لما نهى النبيَّ ﷺ عن الصلاةِ

عند المقامِ انتهره رسولُ الله ﷺ، وأغلظَ له، فقال أبو جهل: عَلامَ يتوعَّدُني محمدٌ وأنا أكثرُ أهلِ الوادي نادياً، فقال الله جلّ ثناؤه: «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بالنَّاصِيَةِ» فَلْيَدْعُ حينئذٍ نادِيَهُ، فإنه إنْ دعا ناديه دَعَوْنَا الزبانيةَ، وهم الملائكة[1].

وقوله: «كَلَّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ليس الأمرُ كما يقول أبو جهل، إذ ينهى محمداً عن عبادةِ رَبِّه، والصلاة له «لاتُطِعْهُ»، يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: لا تُطِعْ أبا جهلٍ فيما أمركَ به من تركِ الصلاةِ لربِّكَ «وَاسْجُدْ» لِرَبِّكَ «وَاقْتَرِبْ» منه بالتَّحَبُّبِ إليه بطاعته، فإنَّ أبا جهلٍ لن يقدرَ على ضرِّكَ، ونحنُ نمنعكَ منه.

---

(١) «وهم الملائكة» مستخلصة من الآثار التي ذكرها، وكأن في الكتاب نقصاً أو سقطاً، وفي «زاد المسير»: قال عطاء: هم الملائكة الغِلاظ الشِداد. وقال مقاتل: هم خزنة جهنم (١٧٩/٩).

سُورَةُ القَدْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّا أنزلنا هذا القرآنَ جملةً واحدةً إلى السماءِ الدنيا في ليلة القَدْر، وهي ليلةُ الحُكْم التي يقضي اللهُ فيها قضاءَ السنةِ، وهو مصدرٌ من قولهم: قَدَرَ اللهُ عليَّ هذا الأمرَ، فهو يَقْدُر قَدْراً.

وقوله: «وَمَا أَدْرَاكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ»، يقول: وما أشعركَ يا محمدُ أيّ شيءٍ ليلة القدر. «ليلة القدر خير من ألفِ شهرٍ»، يعني: عملٌ في ليلةِ القدرِ خيرٌ من عملِ ألفِ شهرٍ ليس فيها ليلة القدر.

وقوله: «تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ»، معناه: تَنَزَّلُ الملائكةُ وجبريلُ معهم، وهو الروح، في ليلةِ القدر «بإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ»، يعني: بإذنِ رَبِّهم من كلِّ أمرٍ قضاهُ اللهُ في تلك السنة، من رزقٍ وأجلٍ وغيرِ ذلك.

وقوله: «سَلامٌ هِيَ حتى مَطْلَعِ الْفَجْرِ»: سلام ليلة القدر من الشرِّ كُلِّه من أوَّلها إلى طلوعِ الفجر من ليلها.

سُورَةُ البَيِّنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ① رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ② فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ③ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ④﴾

قوله: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حتى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ» معنى ذلك: لم يكنِ الذينَ كفروا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ مفترقينَ في أمرِ محمدٍ، حتى تأتيهم البيِّنَةُ، وهي إرسالُ اللهِ إياهُ رسولاً إلى خَلْقِه، «رسولٌ من الله».

وقوله: «مُنْفَكينَ» في هذا الموضع عندي من انفكاكِ الشيئين أحدهما من الآخر، ولذلك صَلُح بغيرِ خبرٍ، ولو كان بمعنى: ما زالَ، احتاج إلى خبرٍ يكونُ تماماً له، واستؤنف قوله: «رَسُولٌ مِنَ اللهِ» هي نكرةٌ على البيِّنةِ، وهي مُعَرَّفة، كما قيل: «ذُو الْعَرْشِ المَجيدُ، فَعَّالٌ»، فقال: حتى يأتيهم بيانُ أمرِ محمدٍ أنه رسولُ الله ببعثةِ اللهِ إياهُ إليهم، ثم ترجمَ عن البيِّنةِ فقال: تلك البينةُ «رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً»، يقول: يقرأُ صحفاً مطهرةً من الباطلِ «فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ»، يقول: في الصحفِ المطهرةِ كتبٌ من اللهِ قيمةٌ عادلةٌ مستقيمةٌ، ليس

فيها خطأً، لأنها من عندِ الله.

وقوله: «وما تَفرقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ»، يقول: وما تفرَّق اليهودُ والنصارى في أمرِ محمدٍ ﷺ، فكذَّبُوا به، إلا من بعدِ ما جاءتهم البينـةُ، يعني: من بعـدِ ما جاءتْ هؤلاء اليهود والنصارى البينةُ، يعني: أنَّ بيانَ أمرِ محمدٍ أنه رسولٌ بإرسالِ الله إياهُ إلى خَلْقِه، يقول: فلما بَعَثَهُ الله تَفرَّقُوا فيه، فكذَّبَ به بعضُهم، وآمنَ بعضُهم، وقد كانوا قبل أن يُبعث غير مفترقين فيه أنه نبيٌّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ٥﴾

يقول تعالى ذكره: وما أمرَ الله هؤلاء اليهود والنصارى الذين هم أهلُ الكتابِ إلا أنْ يعبدُوا اللهَ مُخلصينَ له الدينَ، يقول: مُفْردينَ له الطاعةَ، لا يخلطونَ طاعتَهم رَبَّهم بشِرْكٍ، فأشركتِ اليهودُ بربِّها بقولهم إنَّ عُزَيراً ابنُ الله، والنصارى بقولهم في المسيح مثل ذلك، وجحودِهم نبوَّةَ محمدٍ ﷺ.

وقوله: «حُنَفاءَ» قد مضى بياننا في معنى الحنيفية مما أغنى عن إعادته[1].

وقوله: «وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ»، يقول: وليقيموا الصلاةَ، وليؤتوا الزكاةَ.

وقوله: «وَذٰلكَ دِينُ القَيمَةِ»، يعني: أنَّ هذا الذي ذكر أنه أمرَ به هؤلاءِ الذينَ كَفرُوا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ هو الدينُ القيمة، ويعني بالقيِّمة: المستقيمة العادلة، وأُضيفَ الدينُ إلى القيِّمةِ، والدينُ هو القَيِّم، وهو من نَعْتِه لاختلافِ لفظيهما.

(١) انظر البقرة: ١٣٥.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين كفروا باللهِ ورسولِه محمدٍ ﷺ، فجحدوا نُبوَّتَهُ من اليهودِ والنصارى والمشركينَ جميعهم «فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها»، يقول: ماكثينَ لابثينَ فيها «أبداً» لا يُخْرَجُونَ منها، ولا يموتونَ فيها «أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ»، يقول جلّ ثناؤه: هؤلاء الذين كفروا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ، هُمْ شَرُّ مَنْ بَرَأَهُ اللهُ وخَلَقَهُ.

وقوله: «إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين آمنوا باللهِ ورسولِه محمدٍ، وعبدوا اللهَ مُخلصينَ له الدِّينَ حنفاءَ، وأقاموا الصلاةَ، وآتوا الزكاةَ، وأطاعوا اللهَ فيما أمرَ ونَهَى «أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ»، يقول: مَنْ فعل ذلك من الناسِ فهم خيرُ البرية[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثوابُ هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ عند رَبِّهم يومَ القيامة «جَنَّاتُ عَدْنٍ»، يعني: بساتينَ إقامَةٍ لا ظعنَ فيها، تجري من تحتِ أشجارها الأنهارُ «خالِدِينَ فِيها أبداً»، يقول: ماكثينَ فيها أبداً، لا يخرجونَ عنها، ولا يموتونَ فيها «رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ» بما أطاعوه في الدنيا، وعملوا لخلاصِهم من عقابِهِ في ذلك «وَرَضُوا عَنْهُ» بما أعطاهم من الثوابِ يومئذٍ على

(١) وانظر حديث أبي هريرة في صحيح مسلم (١٥٣) وحديث أبي موسى الأشعري عنده أيضاً (١٥٤).

طاعتهم رَبّهم في الدنيا، وجزاهم عليها من الكرامة.

وقولـه: «ذَلكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الخيرُ الذي وَصَفْتُه، ووَعَدْتُه الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ يومَ القيامة، لمنْ خَشِيَ رَبَّهُ: يقـول: لمنْ خافَ الله في الـدنيا في سِرِّه وعـلانيتـه، فاتقاه بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه.

سُورَةُ الزَّلزَلَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ جلالُهُ وتقدَّستْ أسْماؤُهُ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ» لقيامِ الساعةِ «زِلْزَالَهَا» فرُجَّتْ رَجًّا.

وقوله: «وأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقالَهَا»، يقول: وأخرجتِ الأرضُ مافي بطنها من الموتى أحياء، والميتُ في بطنِ الأرض ثقلٌ لها، وهو فوقَ ظهرها حياً ثقلٌ عليها.

وقوله: «وَقَالَ الإِنْسانُ مالَهَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وقال الناسُ: إذا زُلزلتِ الأرضُ لقيامِ الساعة، ما للأرضِ وما قصتها.

«يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها»، يعني: يومئذٍ تبين الأرضُ أخبارها بالزلزلةِ والرجَّةِ، وإخراجِ الموتى من بطونها إلى ظهورها، بوحيِ اللهِ إليها وإذنهِ لها بذلك، وذلك معنى قوله: «بأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا».

وقوله: «يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً»، قيل: إنَّ معنى هذه الكلمة التأخير بعد «لِيُرَوْا أعمالَهُمْ» قالوا: ووجهُ الكلام: يومئذٍ تحدثُ أخبارها بأنَّ رَبَّكَ أوحى لها، لِيُرَوْا أعمالَهم يومئذٍ يصدرُ الناس أشتاتاً. قالوا: ولكنه اعترضَ بين ذلك بهذه الكلمة. ومعنى قوله: «يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً» عن موقفِ الحسابِ فِرَقاً متفرقينَ، فآخذ ذاتَ اليمينِ إلى الجنة، وآخذ ذاتَ الشمالِ إلى النار.

وقوله: «لِيُرَوْا أعمالَهُمْ»، يقول: يومئذٍ يصدرُ الناسُ أشتاتاً متفرقينَ عن اليمينِ وعن الشمالِ، ليروا أعمالهم، فيرى المحسنُ في الدنيا المطيعُ لله عَمَلَهُ وما أعدَّ الله له يومئذٍ من الكرامةِ على طاعتهِ إياه كانت في الدنيا، ويرى المسيُّ العاصي لله عَمَلَهُ وجزاءَ عملهِ وما أعدَّ الله له من الهوانِ والخزي في جهنمَ على معصيته إياه كانت في الدنيا، وكفرهِ به.

وقوله: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ»، يقول: فَمَنْ عملَ في الدنيا وزنَ ذرةٍ من خيرٍ، يرى ثوابَهُ هنالك، «وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»، يقول: ومَنْ كان عَمِلَ في الدنيا وزن ذرَةٍ من شرٍّ يرى جزاءه هنالك، وقيل: ومَنْ يعملْ والخبر عنها في الآخرة، لفهمِ السامعِ معنى ذلك لما قد تَقَدَّمَ من الدليلِ قَبْلُ على أن معناه: فَمَنْ عمل ذلك دلالة قوله: «يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتا لِيُرَوْا أعمالَهُمْ» على ذلك، ولكنْ لما كان مفهوماً معنى الكلام عند السامعينَ، وكان في قولـه: «يَعْمَلْ» حَثٌّ لأهـلِ الدنيا على العملِ بطاعةِ الله، والزجر عن معاصيه، مع الذي ذكرتُ من دلالةِ الكلامِ قبل ذلك، على أنَّ ذلك مرادٌ به الخبر عن ماضي فعله، وما لهم على ذلك. أخرج الخبر على وجهِ الخبرِ عن مستقبلِ الفعل.

سُورَةُ العَادِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا
١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا
٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ
ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ
١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ١١﴾

عَنَى بالعادياتِ ضَبْحاً: الخيل التي تَعْدُو، وهي تُحَمْحِمُ.

وقوله: «فالمُورِيات قَدْحاً»، اختلف أهلُ التأويل، في ذلك، فقال بعضُهم: هي الخيل تُورِي النارَ بحوافرها.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنَّ الخيلَ هِجْنَ الحربَ بين أصحابهنَّ ورُكْبانهن.

وقال آخرون: بل عُنِي بذلك: الذين يُورون النارَ بعد انصرافِهم من الحرب.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: مَكْرُ الرجال.

وقال آخرون: هي الألسنة.

وقال آخرون: هي الإبلُ حين تسيرُ تَنْسِفُ بمناسمها الحصى.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُه أقسم بالمورياتِ التي تُوري النيرانَ قدحاً، فالخيلُ تُوري بحوافرها، والناسُ يُورُونَها بالـزَّنْدِ، واللسان مثلاً يوري بالمنطق، والرجالُ يورون بالمكرِ مثلاً، وكذلك الخيلُ تُهَيِّجُ الحربَ بين أهلها: إذا التقت في الحرب، ولم يضع الله دلالةً على أنَّ المرادَ من ذلك بعضٌ دونَ بعض، فكلُّ ما أَوْرتِ النارَ قدْحاً، فداخلةٌ فيما أقسمَ به، لعمومِ ذلك بالظاهرِ.

وقوله: «فالمُغِيرَاتِ صُبْحاً»، اختلف أهلُ التأويل في تأويلِ ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: فالمغيراتِ صبحاً على عَدُوِّهَا علانيةً.

وقال آخرون: عُنِي بذلك الإبل حين تدفعُ بركبانها من جمعِ يومِ النحرِ إلى «مِنَى».

وأَوْلى الأقـوالِ في ذلـك بالصـوابِ أن يقال: إنَّ الله جلّ ثناؤه أقسَمَ بالمُغيراتِ صبحاً، ولم يخصُصْ من ذلك مغيرةً دونَ مغيرةٍ، فكلُّ مغيرةٍ صُبحاً، فداخلةٌ فيما أقسمَ به.

وقوله: «فأَثرنَ بِهِ نَقْعاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: فرفعنَ بالوادي غباراً، والنقع: الغبار.

وقوله: «فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: فوسَطْنَ بركبانهنَّ جمعَ القومِ، يقال: وسطت القوم بالتخفيف، ووسَّطته بالتشديد، وتوسَّطته بمعنى واحد.

وقوله: «إنَّ الإنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ»، يقول: إنَّ الإنسانَ لكفورٌ لنِعمَ رَبِّه. والأرضُ الكَنُودُ: التي لا تُنبتُ شيئاً.

وقوله: «وَإِنَّهُ عَلى ذلكَ لَشَهِيدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله على كُنُودِه رَبَّه لشهيدٌ: يعني: لشاهدٌ.

وقوله: «وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ الإنسانَ لحبِّ المالِ لشديدٌ.

وقوله: «أفَلا يَعْلَمُ إذَا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ»، يقول: أفلا يعلمُ هذا الإنسانُ الذي هذه صِفَتُه، إذا أُثيرَ ما في القبورِ، وأُخْرِجَ ما فيها من الموتى وبُحث.

وقوله: «وَحُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ»، يقول: ومُيِّزَ وبُيِّنَ، فأبرزَ ما في صدورِ الناسِ من خيرٍ وشرٍّ.

وقـوله: «إنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ»، يقول: إنَّ رَبَّهم بأعمالهِم، وما أسَرُّوا في صدورهم وأضمروهُ فيها، وما أعلنوه بجوارحهم منها، عليمٌ لا يَخْفَى عليه منها شيءٌ، وهو مُجَازِيهم على جميعِ ذلك يومئذٍ.

سُورَةُ القَارِعَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «الْقَارِعَةُ»: الساعةُ التي يقرعُ قلوبَ الناسِ هَوْلُها، وعظيمُ ما ينزلُ بهم من البلاءِ عندها، وذلك صبيحةً لا ليلَ بعدها.

وقوله: «ما الْقارِعَةُ»، يقول تعالى ذِكْرُه معظِّماً شأنَ القيامةِ والساعةِ التي يقرعُ العبادَ هَوْلُها، أيّ شيءٍ القارعة، يعني بذلك: أيّ شيءٍ الساعة التي يقرعُ الخَلْقَ هولُها: أي ما أعظمَها وأفظعَها وأهولَها.

وقوله: «وَمَا أَدْرَاكَ ما الْقارِعَةُ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وما أشعرَكَ يا محمدُ أيّ شيءٍ القارعة.

وقوله: «يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كالْفَراشِ المَبْثُوثِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: القارعةُ يومَ يكونُ الناسُ كالفراشِ، وهو الذي يتساقطُ في النارِ والسِّراجِ، ليس

ببعوضٍ ولا ذبابٍ، ويعني بالمبثوثِ: المُفرَّقِ.

وقولـه: «وَتَكُونُ الجِبالُ كالْعِهْنِ المَنْفُوشِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويومَ تكونُ الجبالُ كالصوفِ المنفوشِ؛ والعِهْنُ: هو الألوانُ من الصوفِ.

وقوله: «فأمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ»، يقول: فأما من ثقُلَتْ موازينُ حسناتهِ، يعني بالموازين: الوزن، والعربُ تقول: لكَ عندي درهمٌ بميزانِ درهمكَ، ووزنِ درهمكَ، ويقولون: داري بميزانِ داركَ ووزنِ داركَ، يُراد: حذاء داركَ. «فهو في عِيشَة رَاضِيَةٍ»، يقول: في عيشةٍ قد رَضِيَها في الجنة.

وقوله: «وأمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأُمُّهُ هاوِيَةٌ»، يقول: وأما مَنْ خَفَّ وزنُ حسناتهِ، فَمَأْوَاهُ ومسكنه الهاويةُ التي يهوي فيها على رأسهِ في جهنم.

وقوله: «ومَا أدْرَاكَ ما هِيَهْ»، يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: وما أشعركَ يا محمدُ ما الهاويةُ، ثم بَيَّنَ ما هيَ، فقال: هي نارٌ حاميةٌ، يعني بالحامية: التي قد حميت من الوقودِ عليها.

سُورَةُ التَّكَاثُر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ جَلَّ ثَنـاؤُهُ وتَقَـدَّسَتْ أسْمَـاؤُهُ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألهاكم أيها الناسُ المباهاةُ بكثرةِ المالِ والعددِ عن طاعةِ ربِّكم، وعمَّا يُنجيكم من سخطهِ عليكم.

وقـولـه: «حتى زُرْتُمُ المَقابِرَ»، يعني: حتى صرتم إلى المقابر فدفنتم فيها، وفي هذا دليلٌ على صحةِ القولِ بعذابِ القبر، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه، أخبرَ عن هؤلاء القوم الذين ألهاهم التكاثرُ، أنهم سيعلمونَ ما يَلْقَوْنَ إذا هُمْ زاروا القبورَ وعيداً منه لهم وتَهَدُّداً.

وقوله: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ»، يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: كَلَّا: ما هكذا ينبغي أنْ تفعلوا، أن يُلْهِيكم التكاثرُ.

وقوله: «سَوْفَ تَعْلَمُونَ»، يقول جلّ ثناؤه: سوف تعلمونَ إذا زرتم المقابرَ أيها الذين ألهاهمُ التكاثرُ غبَّ فِعْلِكُم، واشتغالكم بالتكاثرِ في الدنيا عن طاعةِ الله ربكم.

وقوله: «ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ»، يقول: ثم ما هكذا ينبغي أنْ تفعلوا أنْ يُلهيكم التكاثرُ بالأموالِ وكثرة العدد، سوف تعلمونَ إذا زرتم المقابرَ ما تلقونَ إذا أنتم زُرْتُموها من مكروهِ اشتغالِكم عن طاعةِ رَبِّكم بالتكاثر، وكرَّرَ قوله: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» مرّتين، لأنَّ العربَ إذا أرادتِ التغليظَ في التخويفِ والتهديدِ كَرَّرُوا الكلمةَ مرّتين.

وقوله: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما هكذا ينبغي أن تفعلوا أنْ يلهيكم التكاثر أيها الناسُ، لو تعلمونَ أيها الناسُ علماً يقيناً، أنَّ الله باعِثُكم يومَ القيامةِ من بعدِ مماتِكم من قبورِكم ما ألهاكم التكاثرُ عن طاعةِ الله ربكم، ولسارعتم إلى عبادتهِ، والانتهاء إلى أمرِه ونهيه، ورفض الدنيا إشفاقاً على أنفسكم من عقوبته.

وقولـه: «لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ»، معنـاه: لَتَـرَوُنَّ أيها المشركونَ جهنمَ يومَ القيامةِ، ثم لَتَرَوُنَّها عياناً لا تغيبونَ عنها.

وقوله: «ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ»، يقول: ثم لَيَسْأَلَنَّكُم الله عزَّ وجلَّ عن النعيمِ الذي كنتم فيه في الدنيا ماذا عملتم فيه، من أينَ وصلتم إليه، وفيم أَصَبْتُموه، وماذا عملتم به.

سُورَةُ العَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾

أقسمَ رَبُّنا بالعصرِ، وَالْعَصْر: اسمٌ للدهرِ، وهو العَشِيُّ والليل والنهار، ولم يخصص مما شمله هذا الاسم معنىً دونَ معنى، فكلُّ ما لَزِمَهُ هذا الاسمُ فداخلٌ فيما أقسمَ به جلَّ ثناؤه.

وقوله: «إنَّ الإنْسانَ لَفِي خُسْرٍ»، يقول: إنَّ ابنَ آدمَ لفي هلَكةٍ ونقصانٍ، «إلَّا الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ»، يقول: إلا الذين صَدَّقُوا اللهَ ووحَّدُوهُ، وأقَرُّوا له بالوحدانيةِ والطاعةِ، وعملوا الصالحاتِ، وأدّوا ما لَزِمَهُمْ من فرائضِه، واجتنبوا ما نهاهم عنه من معاصيهِ. واستثنى الذين آمنوا من الإنسانِ، لأنَّ الإنسانَ بمعنى الجمعِ، لا بمعنى الواحد.

وقوله: «وَتَوَاصَوْا بالحَقِّ»، يقول: وأوصى بعضهم بعضاً بلزومِ العملِ بما أنزلَ اللهُ في كتابهِ من أمرِه واجتنابِ ما نَهى عنه فيه.

وقوله: «وَتَوَاصَوْا بالصبْرِ»، يقول: وأوصى بعضهم بعضاً بالصبرِ على العملِ بطاعةِ الله[1].

---

(١) قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «لو تدبر الناس هذه السورة لكَفَتْهُمْ، وذلك لما فيها من المراتب التي باستكمالها يحصلُ للشخص غاية كمالهِ: إحداها: معرفة الحق، والثانية: عمله به، والثالثة: تعليمه من لا يحسنه، والرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

سُورَةُ الهُمَزَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ» الوادي يسيلُ من صديدِ أهلِ النارِ وقَيْحِهم، «لكلِّ همزة»، يقول: لكلِّ مغتابٍ للناسِ يغتابُهم ويُغْضِبُهم.

وقوله: «الَّذِي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَه»، يقول: الذي جمعَ مالاً وأحصى عَدَدَهُ، ولم يُنْفِقْهُ في سبيلِ الله، ولم يُؤَدِّ حقَّ اللهِ فيه، ولكنه جَمَعَهُ فأوعاهُ وحفظه.

وقوله: «يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ»، يقول: يحسبُ أنَّ ماله الذي جمعه وأحصاهُ، وبخلَ بإنفاقهِ، مُخَلِّدُهُ في الدنيا، فمزيلٌ عنه الموتَ. وقيل: أخلده، والمعنى: يخلده، كما يقالُ للرجلِ الذي يأتي الأمرَ الذي يكونُ سبباً لهلاكه: عطبَ واللهِ فلانٌ، وهلكَ واللهِ فلانٌ، بمعنى: أنه يعطبُ من فِعلهِ ذلك، ولما يهلك بعدُ، ولم يعطبْ؛ وكالرجلِ يأتي المُوبِقَةَ من الذنوبِ: دخلَ واللهِ فلانٌ النارَ.

وقوله: «كَلَّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما ذلكَ كما ظنَّ ليسَ مالُه مُخَلِّدَهُ. ثم أخبرَ جلّ ثناؤه أنه هالكٌ ومعذَّبٌ على أفعالهِ ومعاصيهِ التي كان يأتيها في الدنيا، فقال جلّ ثناؤه: «لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ» يقول: ليُقْذَفَنَّ يومَ القيامةِ في الحُطَمةِ، والحُطَمةُ: اسمٌ من أسماءِ النارِ، كما قيل لها: جهنم وسقر ولَظَى، وأحسبها سُمِّيَتْ بذلك لحطمها كُلَّ ما أُلقيَ فيها، كما يقالُ للرجلِ الأكُول: الحطمة.

وقوله: «وَمَا أَدْرَاكَ ما الْحُطَمَةُ»، يقول: وأيّ شيءٍ أشعركَ يا محمدُ ما الحطمةُ، ثم أخبره عنها ما هيَ، فقال جلّ ثناؤه: هي «نارُ اللهِ المُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلى الأَفْئِدَةِ»، يقول: التي يطلعُ ألمها ووهجُهَا القلوبَ.

وقوله: «إنها عَلَيهِمْ مُؤْصَدَة»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الحُطَمةَ التي وصفتُ صِفَتَها عليهم، يعني: على هؤلاءِ الهَمَّازِينَ اللمَّازين «مُؤْصَدةٌ»، يعني: مُطْبقةٌ، وهي تهمزُ ولا تهمزُ، وقد قُرئتا جميعاً.

وقوله: «فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ»، اختلفت القَرَأةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامةُ قَرَأةِ المدينةِ والبصرةِ «فِي عَمَدٍ» بفتحِ العينِ والميمِ، وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفة: «فِي عُمُدٍ» بضم العينِ والميم. والقولُ في ذلك عندنا أنهما قراءتان معروفتان، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما علماءُ من القَرَأة، ولغتان صحيحتان. والعربُ تجمعُ العمودَ: عُمُداً وعَمَداً، بضم الحرفين وفتحهما، وكذلك تفعلُ في جمعِ إهابٍ، ، تجمعه: أُهُباً بضم الألف والهاء، وأَهَباً بفتحهما، وكذلك القضم، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

واختلف أهلُ التأويلِ في معنى ذلك، فقال بعضهم: «إنها عليهم مُؤصدة بعمدٍ ممدّدة» أي مُغْلَقَةٌ مُطْبِقَةٌ عليهم.

وقال آخرون: هي عمد يُعَذَّبُونَ بها.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنما دخلوا في عمد، ثم مُدَّتْ عليهم تلك العمد بعماد.

وأولى الأقـوالِ بالصوابِ في ذلك قولُ مَنْ قال: معناه: أنهم يُعَذَّبُونَ بعمدٍ في النارِ، واللهُ أعلمُ كيف تعذيبهُ إياهم بها، ولم يأتنا خبرٌ تقومُ به الحجةُ بصفةِ تَعْذِيبهم بها، ولا وُضِعَ لنا عليها دليلٌ، فندرك به صفةَ ذلك، فلا قولَ فيه، غيرَ الذي قلنا يصحُّ عندنا، والله أعلم.

سُورَةُ الفِيلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تَنْظُرْ يا محمدُ بعينِ قلبكَ، فترى بها «كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بأصحابِ الْفِيلِ» الذينَ قَدِمُوا من اليمن يُريدونَ تخريبَ الكعبةِ من الحَبَشة، ورئيسهم أبرهة الحبشيّ الأشرم «أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ»، يقول: ألم يجعلْ سعيَ الحبشةِ أصحاب الفيلِ في تخريبِ الكعبة «فِي تَضْلِيلٍ»، يعني: في تَضْلِيلِهم عمَّا أرادوا وحاولوا من تخريبها.

وقوله: «وأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أبابيلَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأرسلَ عليهم رَبُّكَ طيراً متفرِّقةً يتبعُ بعضُها بعضاً من نواحٍ شتى، وهي جماعٌ لا واحدَ لها، مثل الشماطيط والعباديد ونحو ذلك.

وقوله: «تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيل»، يقول تعالى ذِكْرُه: ترمي هذه الطيرُ الأبابيلُ التي أرسلها الله على أصحابِ الفيلِ، بحجارةٍ من سجيل، وقد بيَّنا معنى سِجِّيل في موضعٍ غير هذا[1].

(١) هود: ٨٢.

وقولـه: «فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مأكـولٍ»، يعني تعـالى ذِكْـرُه: فجعلَ الله أصحابَ الفيلِ كزرعٍ أكلتهُ الدوابُّ فَرَاثَتْهُ، فيبسَ وتَفَرَّقَتْ أجزاؤُه، شبَّه تقطُّعَ أوصالهم بالعقوبةِ التي نَزَلَتْ بهم، وتفرُّق آرابِ[1] أبدانِهم بها، بتفرُّقِ أجزاءِ الرَّوْثِ الذي حدثَ عن أكلِ الزرع.

(١) الآراب: الأعضاء، والإرْب: العضو، وجمعه: آراب.

سُورَةُ قُرَيْشٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

قوله: «لإيلاف»، هذه اللام بمعنى التَّعَجُّب. ومعنى الكلام: اعْجَبُوا لإيلافِ قريشٍ رحلةَ الشتاءِ والصيفِ، وتركهم عبادةَ ربِّ هذا البيتِ، الذي أطعمهم من جوعٍ، وآمنهم من خوفٍ، فليعبدوا ربَّ هذا البيت، الذي أطعمهم من جوعٍ، وآمنهم من خوف. والعربُ إذا جاءت بهذه اللام، فأدخلوها في الكلام للتعجب اكتفوا بها دليلاً على التعجبِ من إظهارِ الفِعْلِ الذي يجلبها.

وقوله: «إيلافِهِمْ» مخفوضةٌ على الإبدالِ، كأنه قال: لإيلافِ قريشٍ لإيلافِهم، رحلةَ الشتاءِ والصيفِ وأما الرحلةُ فنُصِبَت بقوله: «إيلافِهِمْ» ووقوعه عليها.

وقوله: «رِحْلَةَ الشِّتاءِ والصيْفِ»، يقول: رحلة قريش الرحلتين، إحداهما إلى الشامِ في الصيفِ، والأخرى إلى اليمن في الشتاء.

وقوله: «فَلْيَعْبُدُوا ربَّ هَذَا الْبَيْتِ»، يقول: فليقيموا بموضِعهم ووطنهم من

مكةَ، وليعبدوا رَبَّ هذا البيتِ، يعني بالبيت: الكعبة.

وقوله: «الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ»، يقول: الذي أطعمَ قريشاً من جوعٍ.

«وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ» فقال بعضهم: معنى ذلك أنه آمنهم مما يَخَافُ منه مَنْ لم يَكُنْ من أهلِ الحرمِ من الغاراتِ والحروبِ والقتالِ والأمورِ التي كانت العربُ يخافُ بعضُها من بعضٍ.

وقال آخرون: عُنِي بذلك: وآمنهم من الجُذَامِ.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبر أنه «آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ» والعَدُوُّ مَخُوفٌ منه، والجُذَامُ مَخُوفٌ منه، ولم يخصص الله الخبرَ عن أنه آمنهم من العدوِّ دونَ الجُذَامِ، ولا مِنَ الجذام. دونَ العدوِّ، بل عَمَّ الخبرَ بذلك؛ فالصوابُ أنْ يعمَّ كما عمّ جلّ ثناؤه، فيقال: آمنهم من المَعْنَيَيْنِ كِلَيْهِمَا.

سُورَةُ المَاعُونِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أَرأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بالدِّينِ» أرأيتَ يا محمدُ الذي يكذِّبُ بثوابِ الله وعقابِه، فلا يُطيعه في أمرِه ونهيه.

وقوله: «فَذلكَ الذي يَدُعُّ اليَتِيمَ»، يقول: فهذا الذي يكذِّبُ بالدين، هو الذي يدفعُ اليتيمَ عن حَقِّه، ويظلمه، يقال منه: دَعَعْتُ فلاناً عن حَقِّه، فأنا أَدُعُّه دَعًّا.

وقوله: «وَلا يَحُضُّ على طَعامِ المِسْكِينِ»، يقول تعالى ذكره: ولا يحثُّ غيرَهُ على إطعامِ المحتاجِ من الطعام.

وقوله: «فَوَيْلٌ للْمُصَلِّينَ. الَّذينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فالوادي الذي يسيلُ من صديدِ أهلِ جهنمَ للمنافقينَ الذين يُصَلُّونَ، لا يُريدونَ الله عزّ وجلّ بصلاتِهم، وهم في صلاتهم ساهونَ إذا صلوها.

واختلف أهلُ التأويلِ في معنى قوله: «عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ»، فقال بعضهم: عُنِيَ بذلك: أنهم يؤخِّرُونَها عن وقتها، فلا يصلونها إلا بعد خروجِ وقتها.

وقال آخرون: بل عُني بذلك أنهم يتركونها فلا يُصَلُّونَها.

وقال آخرون: بل عُنِي بذلك أنهم يتهاونونَ بها، ويتغافلونَ عنها ويلهون.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصوابِ بقوله: «ساهُونَ»: لاهونَ يتغافلونَ عنها، وفي اللهوِ عنها والتشاغلِ بغيرها، تضييعها أحياناً، وتضييعُ وقتها أخرى، وإذا كان ذلك كذلك صَحَّ بذلك قولُ مَنْ قال: عُنِي بذلك تركُ وقتها، وقولُ مَنْ قال: عُنِي به تركُها لما ذكرتُ من أنَّ في السهوِ عنها المعاني التي ذكرتُ.

وقوله: «الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ»، يقول: الذين هم يراؤونَ الناسَ بصلاتِهم إذا صَلُّوا، لأنهم لا يصلون رَغبةً في ثوابٍ، ولا رهبةً من عقابٍ، وإنما يصلونها ليراهم المؤمنونَ فيظنونهم منهم، فيكفُّونَ عن سفكِ دمائِهم، وسبي ذراريهم، وهم المنافقونَ الذين كانوا على عهدِ رسولِ الله ﷺ، يستبطنونَ الكفرَ، ويُظهرونَ الإسلام.

وقوله: «ويَمْنَعونَ المَاعُونَ»، يقول: ويمنعونَ الناسَ منافعَ ما عِنْدَهُمْ، وأصلُ الماعونِ من كلِّ شيءٍ منفعتُه، يقال للماء الذي ينزلُ من السحابِ ماعون.

واختلف أهلُ التأويل في الذي عُنِي به من معاني الماعونِ في هذا الموضع، فقال بعضهم: عُنِيَ به الزكاةُ المفروضة.

وقال آخرون: هو ما يتعاوره الناسُ(١) بينهم من مِثْلِ الدَّلْوِ والقِدْرِ، ونحو ذلك.

وقال آخرون: الماعون: المعروف.

وقال آخرون: الماعون: هو المال.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك عندنا بالصواب، إذْ كان الماعونُ هو ما وصفنا قَبْلُ، وكانَ اللهُ قد أخبرَ عن هؤلاءِ القوم، وأنهم يمنعونَهُ الناسَ خبراً عاماً من غيرِ أنْ يخصَّ من ذلك شيئاً أنْ يقال: إنَّ الله وصفهم بأنهم يمنعونَ الناسَ ما يتعاورونه بينهم، ويمنعونَ أهلَ الحاجةِ والمَسْكَنةِ ما أوجبَ اللهُ لهم في أموالهم من الحقوقِ لأنَّ كُلَّ ذلك من المنافعِ التي ينتفع بها الناسُ بعضُهم من بعضٍ.

(١) يتعاوره الناس: أي: يتبادلونه أو يتناوبونه أو يستعيرونه من بعضهم البعض، ومنه: تعاورُ حروفِ الجَرِّ: أي تناوبها عن بعضها بعضاً.

سُورَةُ الكَوْثَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ جَلَّ ثَنـاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أسْمَاؤُهُ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إِنَّا أعْطَيْناكَ» يا محمدُ «الْكَوْثَرَ».

واختلف أهلُ التأويل في معنى الكوثر، فقال بعضهم: هو نهرٌ في الجنةِ أعطاهُ اللهُ نبيَّهُ محمداً ﷺ.

وقال آخرون: عُنِي بالكوثر: الخيرُ الكثيرُ.

وقال آخرون: هو حوضٌ أُعْطِيَهُ رسولُ الله ﷺ في الجنة.

وأوْلى هذه الأقوالِ بالصوابِ عندي، قولُ مَنْ قال: هو اسمُ النهرِ الذي أُعطِيَهُ رسولُ الله ﷺ في الجنة، وصفه الله بالكثرةِ لعِظَمِ قَدْرِه.

وإنما قلنا ذلك أوْلى الأقوالِ في ذلك، لتتابعِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ بأنَّ ذلك كذلك[1].

وقوله: «فَصَلِّ لرَبِّك وانْحَرْ»، معناه: فاجعلْ صلاتَكَ كلها لربِّكَ خالصاً دونَ ما سِواهُ من الأندادِ والآلهةِ، وكذلك نَحْرَكَ اجْعَلْهُ له دونَ الأوثانِ، شكراً

(١) انظر البخاري (٤٩٦٤) و(٤٩٦٥)، ومسلم (٤٠٠).

له على ما أعطاكَ من الكرامةِ والخيرِ الذي لا كفء له، وخَصَّكَ به من إعطائهِ إياكَ الكوثرَ.

وإنما قلتُ ذلك، لأنَّ الله جلّ ثناؤه أخبرَ نبيَّهُ ﷺ بما أكرمَهُ به من عَطِيَّتِهِ وكرامتهِ، وإنعامهِ عليه بالكوثر، ثم أتبعَ ذلك قوله: «فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ» فكان معلوماً بذلك أنه خَصَّهُ بالصلاةِ له، والنحرِ على الشُّكْرِ له، على ما أعْلَمَهُ من النعمةِ التي أنعمَهَا عليه باعطائهِ إياهُ الكوثرَ، فلم يكنْ لخصوصِ بعضِ الصلاةِ بذلك دونَ بعضٍ، وبعضِ النحرِ دونَ بعضٍ وجهٌ، إذْ كان حَثّاً على الشكرِ على النِّعم.

فتأويُل الكلام إذن: إنا أعطيناكَ يا محمدُ الكوثرَ، إنعاماً منا عليكَ به، وتكرمةً منا لكَ، فأخْلِصْ لربكَ العبادةَ، وأفْرِدْ له صلاتَكَ ونُسكَكَ، خلافاً لما يفعلُه مَنْ كفرَ به، وعَبَدَ غيرَهُ، ونحرَ للأوثانِ.

وقوله: «إنَّ شانِئَكَ هُوَ الأبْتَرُ»، يعني بقوله جلّ ثناؤه: «إنَّ شانِئَكَ»: إنَّ مُبْغِضَكَ يا محمدُ وعدوَّكَ «هُوَ الأبْتَرُ»، يعني بالأبترِ: الأقلُّ الأذلُّ المنقطعُ دابرهُ، الذي لا عقبَ له.

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَناؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، وكان المشركونَ من قومِهِ فيما ذُكِرَ عَرَضُوا عليه أنْ يعبدوا اللهَ سنةً، على أنْ يعبدَ نبيُّ الله ﷺ آلهتَهُمْ سنةً، فأنزلَ اللهُ مُعَرِّفَهُ جوابَهم في ذلك، «قُلْ» يا محمدُ لهؤلاء المشركينَ الذين سألوكَ عبادةَ آلهتِهم سنةً، على أنْ يعبدوا إلهكَ سنةً «يا أيُّها الكافِرُونَ» باللهِ «لا أعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ» من الآلهةِ والأوثانِ الآنَ «وَلا أنْتُمْ عابِدُونَ ما أعْبُدُ» الآن «وَلا أنا عابِدٌ» فيما أستقبلُ «ما عَبَدْتُمْ» فيما مضى «وَلا أنْتُمْ عابِدُونَ» فيما تستقبلونَ أبداً «ما أعْبُدُ» أنا الآن، وفيما أستقبل.

وإنما قيل ذلك كذلك، لأنَّ الخطابَ من اللهِ كان لرسولِ الله ﷺ في أشخاصٍ بأعيانِهم من المشركينَ، قد علم أنهم لا يؤمنون أبداً، وسَبَقَ لهم ذلك في السابقِ من عِلْمِه، فأمرَ نبيَّهُ ﷺ أنْ يُؤْيِسَهُمْ من الذي طَمِعُوا فيه، وحَدَّثُوا به أنفسَهُمْ، وأنَّ ذلك غيرُ كائنٍ منه ولا منهم في وقتٍ من الأوقات،

وآيسَ نبيَّ الله ﷺ من الطمع في إيمانِهم، ومن أنْ يُفْلِحُوا أبداً، فكانوا كذلكَ لم يُفْلِحُوا ولم ينجحوا إلى أنْ قُتِلَ بعضهم يوم بدر بالسيفِ، وهلك بعضٌ قبلَ ذلك كافراً.

وقوله: «لَكُمْ دِينُكُمْ ولِيَ دِين»، يقول تعالى ذِكْرُه: لكم دِينكم فلا تتركونَهُ أبداً، لأنه قد خَتَمَ عليكم، وقَضَى أنْ لا تنفكُّوا عنه، وأنكم تموتونَ عليه، ولي دين الذي أنا عليه، لا أتركُه أبداً، لأنه قد مَضَى في سابقِ علمِ الله أني لا أنتقلُ عنه إلى غيرِه.

سُورَةُ النَّصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إذا جاءكَ نصرُ اللهِ يا محمدُ على قومكَ من قريشٍ، «والفتحُ»، فتح مكة «ورأيْتَ النَّاسَ» من صنوفِ العربِ وقبائِلها أهل اليمن منهم، وقبائل نزار «يَدْخُلُون فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً»، يقول: في دينِ الله الذي ابتعثَكَ به، وطاعتكَ التي دَعاهُمْ إليها أفواجاً، يعني: زُمَراً، فوجاً فوجاً.

وقوله: «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ»، يقول: فَسَبِّحْ رَبَّكَ وعَظِّمْهُ بحمدِه وشُكْرِه على ما أنجزَ لكَ من وَعْدِه فإنك حينئذٍ لاحقٌ به، وذائقٌ ما ذاقَ مَنْ قَبْلَكَ من رُسُلِه من الموتِ.

وقوله: «وَاسْتَغْفِرْهُ»، يقول: وسَلْهُ أنْ يغفرَ ذنوبكَ(١).

«إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً» يقول: إنه كان ذَا رجوعٍ لعبدِه المطيع إلى ما يحبُّ. والهاء من قوله: «إنه» من ذِكْرِ اللهِ عزّ وجلّ.

---

(١) ساق المؤلف حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: «ما صلَّى النبي ﷺ صلاةً بعد أن نزلت عليه «إذا جاء نصر الله والفتح» إلا يقول فيها: سبحانكَ رَبَّنا وبحمدكَ، اللهم اغفرْ لي»، وهو في البخاري (٤٩٦٧).

سُورَةُ المَسَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: خَسِرَتْ يد أبي لهبٍ وخَسِرَ هُوَ، وإنما عُنِي بقوله: «تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَب»: تَبَّ عَمَلُهُ. وكان بعضُ أهلِ العربية يقول: قوله: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ»: دعاءٌ عليه من الله.

وأما قوله: «وَتَبَّ» فإنه خَبَرٌ.

وقيل: إنَّ هذه السورةَ نزلتْ في أبي لهب، لأنَّ النبيَّ ﷺ لما خصَّ بالدعوةِ عشيرتَهُ، إذْ نزلَ عليه: «وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ» [الشعراء: ٢١٤] وجمعهم للدعاءِ، قال له أبو لهبٍ: تبًّا لكَ سائرَ اليومِ، ألهذا دَعَوْتَنا؟[1]

وقوله: «ما أَغْنَى عَنْهُ مالُهُ ومَا كَسَبَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أيّ شيءٍ أغنى

---

(١) وذلك ثابت في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري (٤٩٧١)، ومسلم (٢٠٨).

عنه مالُه، ودفعَ من سخطِ اللهِ عليه «وَمَا كَسَبَ» وهم ولده.

وقوله: «سَيَصْلَى ناراً ذَاتَ لَهَبٍ»، يقول: سيصلى أبو لهبٍ ناراً ذاتَ لهبٍ.

وقوله: «وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ»، يقول: سيصلى أبو لهبٍ وامرأتُه حمالةَ الحطبِ، ناراً ذاتَ لهبٍ.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة «حَمَّالَةَ الْحَطَبِ»، فقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ المدينة والكوفة والبصرة «حَمَّالَةُ الْحَطَبِ» بالرفعِ، غير عبدالله بن أبي إسحاق، فإنه قرأ ذلك نصباً فيما ذُكِرَ لنا عنه.

واختلف فيه عن عاصم، فحكيَ عنه الرفعُ فيها والنصبُ، وكأن مَنْ رفع ذلك جعله من نعتِ المرأةِ، وجعل الرفعَ للمرأةِ ما تقدّم من الخبرِ، وهو «سيصلى»، وقد يجوز أن يكون رافعها الصفة، وذلك قوله: «فِي جِيدِهَا» وتكون «حمالة» نعتاً للمرأة، وأما النصبُ فيه فعلى الذمِّ، وقد يُحتمل أنْ يكون نصبها على القطعِ من المرأةِ، لأن المرأةَ معرفة، وحمالة الحطب نكرة.

والصوابُ من القراءةِ في ذلك عندنا الرفعُ، لأنه أفصحُ الكلامين فيه، ولإجماعِ الحجةِ من القَرَأَةِ عليه.

واختلف أهلُ التأويل، في معنى قوله: «حَمَّالَةَ الْحَطَبِ»، فقال بعضُهم: كانت تجيءُ بالشوكِ فتطرحُهُ في طريقِ رسولِ الله ﷺ ليدخلَ في قَدمِه إذا خرجَ إلى الصلاة.

وقال آخرون: قيل لها ذلك: حمالة الحطب، لأنها كانت تحطبُ الكلامَ، وتمشي بالنميمةِ، وتُعَيِّرُ رسولَ الله ﷺ بالفقرِ.

وأولى القولين في ذلك بالصوابِ عندي قولُ مَنْ قال: كانت تحملُ الشوكَ، فتطرحُه في طريقِ رسولِ الله ﷺ، لأنَّ ذلك هو أظهر معنى ذلك.

وقوله: «فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ»، يقول: في عُنُقِهَا، والعربُ تُسمي العنقَ جِيداً.

وقوله: «حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ»، اختلف أهلُ التأويل في ذلك، فقال بعضُهم: هي حبالٌ تكون بمكة.

وقال آخرون: المَسَدُ: اللِّيفُ.

وقال آخرون: المَسَد: الحديدُ الذي يكونُ في البَكْرةِ.

وقال آخرون: هو قلادةٌ من وَدَعٍ في عنقها.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصوابِ قولُ مَنْ قال: هو حبلٌ جُمع من أنواعٍ مختلفة من ليفٍ وحديدٍ ولحاءٍ، وجُعِلَ في عنقها كالقلادةِ من ودع، ولذلك اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلهِ على النحوِ الذي ذكرنا.

سُورَةُ الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أسْمَاؤُهُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

ذُكر أنَّ المشركينَ سألوا رسولَ الله ﷺ عن نَسَبِ ربِّ العزَّةِ، فأنزلَ اللهُ هذه السورةَ جواباً لهم. وقال بعضُهم: بل نزلتْ من أجلِ أنَّ اليهودَ سألوه، فقالوا له: هذا اللهُ خَلَقَ الخَلْقَ، فَمَنْ خلَقَ اللهَ؟ فأُنزلتْ جواباً لهم.

فتأويلُ الكلام إذا كان الأمرُ على ما وصفنا: قُلْ يا محمدُ لهؤلاءِ السَّائِليك عن نسبِ رَبِّك وصِفَتِه، ومَنْ خلَقَهُ: الربُّ الذي سألتموني عنه، هو الله الذي له عبادةُ كُلِّ شيءٍ لا تنبغي العبادةُ إلا له، ولا تصلحُ لشيءٍ سواه.

وقوله: «اللهُ الصَّمَدُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: المعبودُ الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له الصمد.

واختلف أهلُ التأويل في معنى الصمد، فقال بعضُهم: هو الذي ليس بأجوفَ، ولا يأكلُ ولا يشربُ.

وقال آخرون: هو الذي لا يخرجُ منه شيء.

وقال آخرون: هو الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ.

وقال آخرون: هو السيدُ الذي قد انتهى سُؤْدَدهُ.

وقال آخرون: بل هو الباقي الذي لا يفَنى. الصمدُ: عند العرب: هو السيدُ الذي يُصْمَدُ إليه، الذي لا أحدَ فوقَهُ، وكذلك تُسمي أشرافَها. فإذا كان ذلك كذلك، فالذي هو أوْلى بتأويلِ الكلمةِ، المعنى المعروفُ من كلامِ مَنْ نزلَ القرآنُ بلسانهِ.

وقوله: «لَمْ يَلِدْ»، يقول: ليس بفانٍ، لأنه لا شيَّ يَلِدُ إلا وهو فانٍ بائدٌ «ولَمْ يُولَدْ»، يقول: وليس بِمُحْدَثٍ لم يَكُنْ فكانَ، لأنَّ كُلَّ مولودٍ فإنما وُجد بعد أنْ لم يكن وحَدَثَ بعد أنْ كان غير موجودٍ، ولكنه تعالى ذِكْرُه قديمٌ لم يَزَلْ، ودائمٌ لم يَبِدْ، ولا يزولُ ولا يفنى.

وقوله: «ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أحَدٌ»، اختلف أهلُ التأويلِ في معنى ذلك، فقال بعضُهم: معنى ذلك: ولم يكن له شبيهٌ ولا مِثْلٌ.

وقال آخرون: معنى ذلك، أنه لم يكن له صاحبةٌ.

والكُفُوُ والكفيءُ والكِفَاءُ في كلامِ العربِ واحدٌ، وهو المِثْلُ والشِّبْه.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «كفواً» فقرأ ذلك عامة قَرَأةِ البصرة «كُفُواً» بضم الكافِ والفاء. وقرأه بعض قَرَأةِ الكوفة بتسكين الفاء وهمزها «كُفْئاً».

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان، ولغتان مشهورتان، فبأيِّتِهِما قرأ القارىء فمصيبٌ.

سُورَةُ الفَلَق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ أستجيرُ بربِّ الفلقِ من شرِّ ما خلقَ من الخَلْقِ.

واختلف أهلُ التأويلِ في معنى الفلق، فقال بعضُهم: هو سجنٌ في جهنمَ يُسمَّى هذا الاسم.

وقال آخرون: هو اسمٌ من أسماء جهنم.

وقال آخرون: الفَلَقُ: الصبحُ.

وقال آخرون: الفَلَقُ: الخَلْقُ، ومعنى الكلام: قل أعوذُ بربِّ الخَلْقِ.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنَّ الله جلَّ ثناؤه أمرَ نبيه محمداً ﷺ أن يقول: «أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» والفلق في كلامِ العرب: فَلَقُ الصبح، تقولُ العـربُ: هو أبينُ منْ فَلَقِ الصبحِ، ومن فَرَقِ الصبحِ. وجائزٌ أن يكون في جهنم سجنٌ اسمه فَلَق، وإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن جلّ ثناؤه وضعَ دلالة على أنه عُنِي بقوله: «بِرَبِّ الْفَلَقِ» بعض ما يُدْعَى الفلق دونَ بعضٍ، وكان

الله تعالى ذِكْرُه ربَّ كُلِّ ما خَلَقَ من شيءٍ، وَجَبَ أَنْ يكون معنياً به كُلُّ ما اسمهُ الفَلَق، إذ كان ربَّ جميع ذلك.

وقال جلّ ثناؤه: «مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ» لأنه أمرَ نبيه أَنْ يستعيذَ من شرِّ كُلِّ شيءٍ، إذْ كان كلّ ما سِواهُ، فهو ما خَلق.

وقوله: «وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذَا وَقَبَ»، يقول: ومِنْ شَرِّ مظلمٍ إذا دخلَ، وهجمَ علينا بظلامِه.

ثم اختلف أهـلُ التأويل في المظلمِ الذي عُنِي في هذه الآية، وأمرَ رسولَ الله ﷺ بالاستعاذةِ منه، فقال بعضُهم: هو الليلُ إذا أظلم.

وقال آخرون: هو كوكبٌ، وكان بعضهم يقول: ذلك الكوكبُ هو الثُّريا.

وقال آخرون: بل الغاسق إذا وقب: القمر.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصوابِ أن يقالَ: إنَّ الله أمرَ نبيهُ ﷺ أَنْ يستعيذَ «مِنْ شَرِّ غاسِقٍ» وهـو الذي يُظْلم، يقال: قد غَسَق الليلُ يَغْسُق غُسوقاً: إذا أظلمَ «إذَا وَقبَ»، يعني: إذا دخلَ في ظلامِهِ، والليلُ إذا دخلَ في ظلامِهِ غاسقٌ، والنجمُ إذا أفلَ غاسقٌ، والقمرُ غاسقٌ إذا وقبَ، ولم يخصصْ بعضَ ذلك بل عَمَّ الأمرَ بذلك، فكلُّ غاسقٍ، فإنه ﷺ كان يُؤمَرُ بالاستعاذةِ من شَرِّهِ إذا وقبَ.

وقوله: «وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ»، يقول: ومن شَرِّ السواحرِ اللاتي يَنْفُثْنَ في عُقَدِ الخيطِ حين يَرْقِينَ عليها.

وقوله: «وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذَا حَسَدَ»، اختلف أهلُ التأويلِ في الحاسدِ الذي أُمِرَ النبيُّ ﷺ أن يستعيذَ من شرِّ حَسَدِه به، فقال بعضهم: ذلك كلُّ حاسدٍ أُمِرَ النبيُّ ﷺ أَنْ يستعيذَ من شرِّ عينِهِ ونَفسه.

وقال آخرون: بل أُمِرَ النبيُّ ﷺ بهذه الآية أنْ يستعيذَ من شرِّ اليهودِ الذين حَسَدُوه.

وأولى القولين بالصواب في ذلك قولُ مَنْ قال: أُمِرَ النبيُّ ﷺ أنْ يستعيذَ من شرِّ كلِّ حاسدٍ إذا حَسَدَ، فعابَهُ، أو سَحَرَهُ، أو بَغَاهُ سوءً.

وإنما قلنا: ذلك أوْلى بالصواب، لأنَّ الله عزّ وجلّ لم يخصص من قوله: «وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» حاسداً دونَ حاسدٍ، بل عَمَّ أمرهُ إياهُ بالاستعاذةِ من شرِّ كلِّ حاسدٍ، فذلك على عمومه.

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ أستجيرُ «بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ» وهو ملكُ جميعِ الخَلْقِ إنْسِهم وجِنِّهم، وغير ذلك، إعلاماً منه بذلك مَنْ كان يعظم الناس تعظيم المؤمنين ربهم أنه ملك من يعظمه، وأنَّ ذلك في مُلْكِه وسلطانه، تجري عليه قُدْرَتُه، وأنه أَوْلى بالتعظيمِ، وأحقّ بالتَّعَبُّدِ له مِمَّنْ يُعَظِّمُه، ويُتَعَبَّدُ له من غيرِه من الناس.

وقوله: «إِلَهِ الناس»، يقول: معبود الناسِ الذي له العبادةُ دونَ كلِّ شيءٍ سواه.

وقوله: «مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ»، يعني: من شَرِّ الشيطانِ «الخَنَّاسِ» الذي يخنِسُ مَرَّةً، ويوسوسُ أخرى، وإنما يخنِسُ فيما ذُكِرَ عند ذِكْرِ العبدِ رَبَّهُ.

وقولـه: «الَّـذِي يُوَسْـوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ»، يعني بذلك: الشيطان الوسواس الذي يوسوسُ في صدورِ الناسِ جِنِّهم وإنسهم.

فإنْ قال قائل: فالجِنُّ ناسٌ، فيقال: الذي يوسوسُ في صدورِ الناس من الجِنَّةِ والناس. قيل: قد سَمَّاهم اللهُ في هذا الموضع ناساً كما سَمَّاهم في موضعٍ آخرَ رجالاً، فقال: «وَأَنَّهُ كَانَ رِجالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الجِنِّ»، فجعل الجنَّ رجالاً، وكذلك جعل منهم ناساً.

وقد ذُكر عن بعضِ العربِ أنه قال وهو يحدّثُ، إذْ جاء قومٌ من الجنِّ فوقفوا، فقيل: مَنْ أنتم؟ فقالوا: ناسٌ من الجِنِّ، فجعلَ منهم ناساً، فكذلك ما في التنزيل من ذلك.

المجلد السابع

فهرس المحتويات

تفسير سورة الأحقاف ٥
تفسير سورة محمد ﷺ ٣٠
تفسير سورة الفتح ٥١
تفسير سورة الحجرات ٧٦
تفسير سورة قٓ ٩١
تفسير سورة الذاريات ١٠٩
تفسير سورة الطور ١٢٧
تفسير سورة النجم ١٤٢
تفسير سورة القمر (الساعة) ١٥٩
تفسير سورة الرحمن ١٧٦
تفسير سورة الواقعة ١٩٧
تفسير سورة الحديد ٢١٧
تفسير سورة المجادلة ٢٣٧
تفسير سورة الحشر ٢٥٣
تفسير سورة الممتحنة ٢٧٠
تفسير سورة الصف ٢٨٤
تفسير سورة الجمعة ٢٩١
تفسير سورة المنافقون ٢٩٨
تفسير سورة التغابن ٣٠٤
تفسير سورة الطلاق ٣١٣
تفسير سورة التحريم ٣٢٥

تفسير سورة الملك ٣٣٥
تفسير سورة القلم ٣٤٤
تفسير سورة الحاقة ٣٥٧
تفسير سورة المعارج ٣٦٧
تفسير سورة نوح ٣٧٦
تفسير سورة الجن ٣٨٤
تفسير سورة المزمل ٣٩٣
تفسير سورة المدثر ٤٠٠
تفسير سورة القيامة ٤٠٩
تفسير سورة الإنسان (هل أتى) ٤١٨
تفسير سورة المرسلات ٤٢٩
تفسير سورة النبأ ٤٣٩
تفسير سورة النازعات ٤٤٩
تفسير سورة عبس ٤٦٠
تفسير سورة التكوير ٤٦٧
تفسير سورة الانفطار ٤٧٣
تفسير سورة المطففين ٤٧٨
تفسير سورة الانشقاق ٤٨٦
تفسير سورة البروج ٤٩٢
تفسير سورة الطارق ٤٩٩
تفسير سورة الأعلى ٥٠٤
تفسير سورة الغاشية ٥٠٩
تفسير سورة الفجر ٥١٤
تفسير سورة البلد ٥٢٢
تفسير سورة الشمس ٥٢٧
تفسير سورة الليل ٥٣١

تفسير سورة الضحى ٥٣٧
تفسير سورة الشرح ٥٣٩
تفسير سورة التين ٥٤١
تفسير سورة العلق ٥٤٤
تفسير سورة القدر ٥٤٩
تفسير سورة البيِّنة ٥٥٠
تفسير سورة الزلزلة ٥٥٤
تفسير سورة العاديات ٥٥٦
تفسير سورة القارعة ٥٥٩
تفسير سورة التكاثر ٥٦١
تفسير سورة العصر ٥٦٣
تفسير سورة الهمزة ٥٦٤
تفسير سورة الفيل ٥٦٧
تفسير سورة قريش ٥٦٩
تفسير سورة الماعون ٥٧١
تفسير سورة الكوثر ٥٧٤
تفسير سورة الكافرون ٥٧٦
تفسير سورة النصر ٥٧٨
تفسير سورة المسد ٥٧٩
تفسير سورة الإخلاص ٥٨٢
تفسير سورة الفلق ٥٨٤
تفسير سورة الناس ٥٨٧
فهرس المحتويات ٥٨٩